

**THE BOOK WAS
DRENCHED**

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190204

UNIVERSAL
LIBRARY

UUP-751-284-81-10,000.

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. *NA 114 C*

Author

Title

This book should be **returned** on

لِجَمْعِ خَطِّ الْعَرَبِيَّةِ

فِي عَصُورِ الْعَرَبِيَّةِ الزَّاهِرَةِ

الجزء الثالث

العصر العباسي الأول

ويليه ذيل الجمهرة

تأليف

أحمد زكي مصحح

أستاذ اللغة العربية بدار العلوم

الطبعة الأولى

حقوق الطبع والنقل محفوظة

شركة مكتبة و مطبعة في الباب الخليلي وإدارة مصر

١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م / رقم ٤٩٤

تصدير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمدك اللهم وفقنتني إلى إتمام ما بدأت ، فلك الشكر والمنة في البدء
والنهاية ، وأصلي وأسلم على خاتم رسلك ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .
وبعد : فهذا ثالث الأجزاء من « جمهرة خطب العرب » في خطب
العصر العباسي الأول ، وهو على نسق سابقه ضبطا وتحريرا ، وشرحا وتعليقا ،
ويليه ذيل الجمهرة ، في خمسة أبواب من الخطب :

الباب الأول : في خطب الأندلسيين والمغاربية .

« الثاني : في خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها .

« الثالث : في نثر الأعراب .

« الرابع : في خطب النكاح .

« الخامس : في خطب من أرتج عليهم ، ونوادير طريفة لبعض الخطباء .

وبذا تم ما قضت إلى جمعه في هذا المؤلف ، وإني أبتهل إلى المولى القدير

أن يحقق ما رجوته من استفادة قارئيه به ، وأن يسدد خطانا جميعا إلى سبيل

أحمد زكي صفوت

الإرشاد ، إنه الكبير المتعال

ذى القعدة سنة ١٣٥٢

مارس سنة ١٩٣٤

حرر بالغااهرة في

فهرس . مآخذ الخطب في هذا الجزء

-
- الأمالى : لأبى علىّ القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى : « التاسع
صبح الأمشى : لأبى العباس القلقشندى : « الأول - التاسع
نهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى : « السادس
عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
الكامل : لأبى العباس المبرد : الجزء الأول
العقد الفريد : لابن عبد ربه : « الأول - الثانى - الثالث
زهر الآداب : لأبى إسحق الحضرى : « الأول - الثانى - الثالث
البيان والتبيين : للجاحظ : « الأول - الثانى - الثالث
شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد : المجلد الأول - الثانى
أمالى السيد المرتضى : « الأول - الرابع
مجمع الأمثال : لأبى الفضل الميدانى : « الأول
تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى : « التاسع - العاشر
تاريخ الكامل : لابن الأثير : « السادس
مروج الذهب : للمسعودى : « الثانى
وفيات الأعيان : لابن خلكان : « الأول - الثانى

مواسم الأدب: للسيد جعفر البيهقي العلوي : الجزء الثاني
الصناعتين : لأبي هلال العسكري
مقدمة ابن خلدون
المنية والأمل : لأحمد بن يحيى المرتضى



الباب الرابع

الخطبة والوصايا

في

العصر العباسي الأول

١ - خطبة أبي العباس السفاح وقد بويع بالخلافة

(توفي سنة ١٣٦ هـ)

صعد أبو العباس^(١) السفاح المنبر حين بويع له بالخلافة، فقام في أعلاه، وصعد عمه داود بن علي فقام دونه، وتكلم أبو العباس، فقال :

« الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تَكْرِمَةً ، وَشَرَفَهُ وَمَعْظَمَهُ ، واختاره لنا وأيده بنا ، وجعلنا أهله وَكَهْفَهُ^(٢) وَحِصْنَهُ ، والقُوَامَ به ، والذائِبِينَ عنه ، والناصرين له ، وألزمنا كَلِمَةَ التَّقْوَى ، وجعلنا أَحَقَّ بها وَأَهْلَهَا ، وخصنا

[١] هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أول الخلفاء العباسيين ، بويع بالخلافة سنة ١٣٢ هـ . [٢] الكهف : الوزر واللجأ .

بِرَحِمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَرَابَتِهِ ، وَأَنْشَأْنَا مِنْ آبَائِهِ ، وَأَنْبَتْنَا مِنْ شَجَرَتِهِ ، وَاشْتَقْنَا مِنْ نَبْعَتِهِ (١) ، جَعَلَهُ مِنْ أَنْفُسِنَا عَزِيزاً عَلَيْهِ مَا عَنِتْنَا (٢) ، حَرِيصاً عَلَيْنَا ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَوْفًا رَحِيمًا ، وَوَضَعْنَا مِنَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلَهُ بِالْمَوْضِعِ الرَّفِيعِ ، وَأَنْزَلَ بِذَلِكَ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ كِتَابًا يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ مُحْكَمِ الْقُرْآنِ : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ (٣) أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » ، وَقَالَ : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » ، وَقَالَ : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » ، وَقَالَ : « مَا أَفَاءَ (٤) اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى » ، وَقَالَ : « وَأَعْمَلُوا إِنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى » فَأَعْلَمَهُمْ جَلِ ثَنَاؤَهُ فَضْلَنَا ، وَأَوْجِبَ عَلَيْهِمْ حَقَّنَا وَمَوَدَّتَنَا ، وَأَجْزَلَ مِنَ النَّيِّ (٥) .

وَزَعَمَتِ السَّبْيِيَّةُ الضَّلَالُ أَنْ غَيْرَنَا (٦) أَحَقُّ بِالرِّيَاسَةِ وَالْخِلَافَةِ مِنَّا ، فَشَاهَتِ (٧)

وَجُوهَهُمْ ! بِمِمْ وَلِمَ أَيُّهَا النَّاسُ ؟ وَبَنَّا هَدَى اللَّهُ النَّاسَ بَعْدَ ضَلَالَتِهِمْ ، وَبَصَّرَهُمْ بَعْدَ جَهَالَتِهِمْ ، وَأَتَقَدَّمَهُمْ بَعْدَ هَلَاكَتِهِمْ ، وَأَظْهَرَ بِنَا الْحَقَّ ، وَأَدْحَضَ بِنَا الْبَاطِلَ ، وَأَصْلَحَ بِنَا مِنْهُمْ مَا كَانَ فَاسِدًا ، وَرَفَعَ بِنَا الْخَسِيسَةَ ، وَأَتَمَّ بِنَا النَّقِيبَةَ ، وَجَمَعَ الْفُرْقَةَ ، حَتَّى عَادَ النَّاسُ بَعْدَ الْعَدَاوَةِ أَهْلَ تَعَاطُفٍ وَبِرٍّ ، وَمَوَاسَاةٍ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، وَإِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ فِي آخِرَتِهِمْ ، فَتَحَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنَّةً وَمِنْحَةً لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمَّا قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ قَامَ بِذَلِكَ الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ أَصْحَابُهُ ، وَأَمْرُهُمْ شُورَى

[١] الذبغ في الأصل : شجر للقسي والسهام . [٢] العنت بالتحريك : دخول المشقة على الإنسان .
[٣] القدر ، وكل ما استغفر من العمل . [٤] ما أعاده عليه أي صيره له .
[٥] الغنيمة . [٦] يريد العلويين . [٧] شاء وجهه شوها بالفتح : قبح .

بينهم ، فخوروا موارِيثَ الْأُمَمِ ، فعدلوا فيها ، وَوَضَعُوهَا مَوَاضِعَهَا ، وَأَعْطَوْهَا أَهْلَهَا ،
 وخرجوا خِطَاباً^(١) منها ، ثم وثب بنو حرب ومزوان فابتزوها وتداولوها بينهم ،
 فجاروا فيها ، واستأثروا بها ، وظلموا أهلها ، فأملى^(٢) الله لهم حينئذ آسَفُوه^(٣) ،
 فلما آسَفُوه انتقم منهم بأيدينا ، وَرَدَّ عَلَيْنَا حَقَّنَا ، وتدارك بنا أمتنا ، وَوَلَّىٰ نصرنا
 وَالْقِيَامَ بِأمرنا ، لِيَمُنَّ بنا على الذين اسْتُضْعِفُوا في الأرض ، وختم بنا كما افتتح بنا ،
 وإني لأرجو ألا يأتِيكم الجور من حيث أتاكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم
 الصلاح ، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله .

. يا أهل الكوفة ، أنتم محلّ محبّتنا ، ومنزل مودّتنا . أنتم الذين لم تتغيروا عن
 ذلك ، ولم يندبكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ، وأتاكم
 الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرههم علينا ، وقد زدّتكم في أعطياتكم
 مائة درهم ، فاستعدوا ، فأنا السّفّاح المبيح ، والثائر المبير^(٤) .

وكان موعوكاً فاشتد به الوعك^(٥) ، فجلس على المنبر ، وصعد داود بن علي ،
 فقام دونه على مرّاق^(٦) المنبر ، فقال :

(تاريخ الطبري ٩ : ١٢٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ٢ : ص ٢١٣)

٢ - خطبة داود بن علي

« الحمد لله ، سُكْرًا سُكْرًا سُكْرًا ، الذي أهلك عدونا ، وأصار إلينا ميراثنا
 من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، أيها الناس : الآن أقشعت^(٧) حنّادس الدنيا ،

[١] جياعا جمع خميس من خمس البطن مثلثة الميم أي خلا ، والخمصة : الجماعة ، وهو حمدان بالضم ،
 وخميس المشا ضمير البطن . [٢] أمهلهم . [٣] أغضبوه . [٤] أباره : أهلكه .
 [٥] الوعك : أذى الحمى ووجعها ، وألم من شدة التعب . [٦] جمع مرفاة بفتح الميم وكسر ها .
 [٧] قشعت الريح السحاب : كسفته كما قشعته فأشبع وانقشع وانقشع ، والحنّادس جمع حنّاس بكسر الحاء
 والبال ، وهو الظلمة

وانكشف غطاؤها ، وأشرفت أرضها وسماؤها ، وطلعت الشمس من مطلعها ،
 وبزغ القمر من مبرزه ، وأخذ القوس باريها ، وعاد السهم إلى النزعة ^(١) . ورجع
 الحق إلى نصابه ^(٢) ، في أهل بيت نبيكم ، أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم .
 أيها الناس : إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لُنَكْرِهِ لُجَيْنًا ، ولا
 عِقْيَانًا ^(٣) ، ولا نحفر نهرًا ، ولا نبني قصرًا ، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم
 جفنا ، والغضب لبني عمنا ، وما كرتنا ^(٤) من أموركم ، وبهظنا من شئونكم ،
 ولقد كانت أموركم تُرْمِضُنَا ^(٥) ونحن على فُرْشِنَا ، ويشد علينا سوء سيرة بني أمية
 فيكم ، وخرقوهم بكم ، واستذلّهم لكم ، واستشارهم بفيئكم وصدقاتكم ومعانيكم
 عليكم ، لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة العباس
 رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير في العامة منكم
 والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تبتًا تبتًا لبني حرب بن أمية وبني
 مروان ، آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة ، والدار الفانية على الدار
 الباقية ، فركبوا الآثام ، وظاهوا الأنام ، وانتهكوا المحارم ، وغشوا الجرائم ،
 وجاروا في سيرتهم في العباد ، وسنتهم في البلاد ، التي بها استلدوا تسرُّبُ الأوزار ،
 وتجلَّبُ الآصار ^(٦) ، ومرحوا في أعنة المعاصي ، ورَكضوا في ميادين النغي ،
 جهلا باستدراج الله ، وأمنًا لمكر الله ، فأثم بأسُ الله بيئاتًا وهم ناعمون ، فأصبحوا
 أحاديثًا ، ومزقوا كل ممزق ، فبعُدًا للقوم الظالمين ، وأدالنا ^(٧) الله من مروان ،

[١] جمع نازع وهو الرامي يشدّ الوتر إليه ليضع فيه السهم ، وصار الأمر إلى النزعة أي قام بإصلاحه
 أهل الأناة ، وعاد السهم إلى النزعة : رجع الحق إلى أهله . [٢] أصله . [٣] ذهبًا .
 [٤] كرهه الغم كضرب ونصر : اشتدّ عليه كأكرهه . [٥] أرمضه : أوجسه وأحرقه ،
 أرومض الحر القوم : اشتد عليهم فأدام . [٦] جمع لصر كحمل وهو الذنب . [٧] نصرنا عليه .

وقد غرّه بالله الغرور ، أرسل لعدو الله في عِنايته ، حتى عَثَرَ في فَضْلِ خِطامه ،
 فظن عدو الله أن لن تَقْدِرَ عَلَيْهِ ، فنادى حِزبه ، وجمع مكايده ، ورحى بكتائبه ،
 فوجد أمامه ووراءه ، وعن يمينه وشماله ، من مكر الله وبأسه ونقمة ، ما أمت
 باطله ، ومَحَقَّ ضلاله ، وجعل دائرة السوء به ، وأحيا شرفنا وعزنا ، وردَّ إلينا
 حقنا وإرثنا .

أيها الناس ، إن أمير المؤمنين - نصره الله نصراً عزيزاً - إنما عاد إلى المنبر
 بعد الصلاة ، أنه كره^(١) أن يَخْلِطَ بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعته عن استتمام
 الكلام ، بعد أن أُسْحِنَفَرَ^(٢) فيه شدة الوعك ، وادعوا الله لأmir المؤمنين بالعافية ،
 فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن ، وخليفة الشيطان : المتبع للسفلة الذين
 أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، بإبدال الدين ، وانتهاك حريم المساهين ،
 الشاب^(٣) المتكهل المتمهل ، المقتدى بسلفه الأبرار الأخيار ، الذين أصلحوا
 الأرض بعد فسادها بعالم الهدى ، ومناهج التقوى « - فعبج^(٤) الاس له بالدعاء -
 ثم قال :

« يا أهل الكوفة : إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح
 الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلاج^(٥) بهم حجتنا ، وأظهر
 بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون ، وإليه تتشوفون ، فأظهر فيكم
 الخليفة من هاشم ويبيض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ، ونقل إليكم
 السلطان وعز الإسلام ، ومن^(٦) عليكم بإمام منحة العدالة ، وأعطاه حسن الإيالة^(٥) ،

[١] أى لأنه كره . [٢] اسحنفر الخائب : اتسع في كلامه . [٣] كانت سنة ٤٠ هـ حين ولى
 الخلافة ٢٨ سنة إذ ولد سنة ١٠٤ هـ . [٤] نصر . [٥] آل الملك رعيته إيالا : سامهم ،
 وآل على القوم إيالا وإيالة : ولى .

فخذوا ما آتاكم الله بشكر، والزمنوا طاعتنا، ولا تأخذوا عن أنفسكم، فإن الأمر أمركم، فإن لكل أهل بيت مصراً، وإنكم مصرنا، ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد - وأشار بيده إلى أبي العباس - فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا، حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٢٦ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٣)

٣ - خطبة داود بن عليّ وقد ارتج على السفاح

وروى أنه لما قام أبو العباس في أول خلافته على المنبر، قام بوجه كورقة المصحف، فاستجيا فلم يتكلم، فنهض داود بن عليّ حتى صعد المنبر، فقال المنصور: فقامت في نفسي : شَيْخُنَا وَكَبِيرُنَا وَيَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ ، فَلَا يَخْتَلِفُ عَلَيْهِ إِثْنَانُ ، فَانْتَضَيْتُ سَيْفِي ، وَغَطَيْتُهُ بِثَوْبِي ^(١) ، وَقُلْتُ : إِنْ فَعَلَ نَاجَزْتُهُ ، فَلَمَّا رَقِيَ عَتَبًا اسْتَقْبَلَ النَّاسَ بِوَجْهِهِ دُونَ أَبِي الْعَبَّاسِ ، ثُمَّ قَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَكْرَهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ فَوَأْهَ فَعَلَهُ ، وَوَلَا تَرُ الْفِعَالُ أَجْدَى عَلَيْكُمْ مِنْ تَشْقِيقِ ^(٢) الْمَقَالِ ، وَحَسْبُكُمْ بَكْتَابُ اللَّهِ مُمْتَثِلًا ^(٣) فِيكُمْ ، وَابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَلِيفَةً عَلَيْكُمْ ، وَاللَّهِ - قَسَمًا بَرًّا لَا أُرِيدُ بِهِ إِلَّا اللَّهَ - مَا قَامَ هَذَا الْمَقَامَ أَحَدٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَقُّ بِهِ مِنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا ، فَلْيُظَنَّ ظَانَكُمْ ، وَلْيَهْمَسْ هَامِسُكُمْ » قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : ثُمَّ نَزَلَ ، وَرَشِمْتُ ^(٤) سَيْفِي .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٣ ، ورواسم الأدب ٢ : ١١٤)

[١] في عيون الأخبار : « وغطيت ثوبي » وهو تحريف . [٢] شقق الكلام : أخرجه أحسن مخرج .

[٣] امثله طريقته : تبعها فلم يعدها . [٤] شام سيفه يشبهه : غمده (واستله أيضاً : ضد) .

٤ — خطبة أخرى له

وروى السيد المرتضى في أماليه قال :

أراد أبو العباس السفاح يوماً أن يتكلم بأمر من الأمور بعد ما أفضت الخلافة إليه - وكان فيه حياة مُفْرِط - فأرْتَجَّ عليه ، فقال داود بن عليّ بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أيها الناس ، إن أمير المؤمنين الذي قلّده الله سياسة رعيته ، عُقِلَ من لسانه ، عند ما يُعْهَدُ من بيّانه ، ولكل مرتقٍ بهر^(١) ، حتى تنفّسه العاداتُ ، فأبشِرُوا بنعمة الله في صلاح دينكم ، ورغد عيشكم » . (أمالي السيد المرتضى : ١٦)

— خطبة أخرى للسفاح بالكوفة

وخطب السفاح في الجمعة الثانية بالكوفة ، فقال :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْمَقُودِ » والله لا أعدكم شيئاً إلا وفيت بالوعد والوعيد ، ولأعمَلِنَ الذين حتى لا تنفع إلا الشدة ، ولأُغْمِدَنَّ السيف إلا في إقامة حد ، أو بلوغ حق ، ولأعطينكم حتى أرى العظيمة ضياعاً ، إن أهل بيت اللعنة والشجرة^(٢) الملعونة في القرآن ، كانوا لكم أعداء ، لا يرجعون معكم من حالة إلا إلى ما هو أشدُّ منها ، ولا يبلي عليكم منهم وإلا تمنيتم من كان قبله ، وإن كان لا خير في جميعهم ، منعوكم الصلاة في أوقاتها ، وطالبوكم بأدائها في غير وقتها ، وأخذوا المقيّل بالمُدْبِر^(٣) ، والجار بالجار ، وسلطوا شراركم على خياركم ، فقد محق الله جورهم ، وأزهق باطلهم ، بأهل بيت نبيكم ، فما تؤخّر لكم عطاءً ، ولا

[١] البهر : انقطاع النفس من الإعياء . [٢] هي شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم ، جعلها الله فتنة المشركين إذ قالوا : إن النار تحرق الشجر فكيف تنبت .

[٣] انظر قول زياد بن أبيه في خطبته البقاء الجزء الثاني ص ٢٥٧ .

نضيع لأحد منكم حقاً ، ولإنجمركم في بعت ، ولأنخاطر بكم في قتال ، ولا نبذلكم دون أنفسنا ، والله على ما نقول وكيل بالوفاء والاجتهاد ، وعليكم بالسمع والطاعة» ثم نزل . (شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٣)

٦ - خطبة السفاح بالشام حين قتل مروان

ولما قُتل مروان بن محمد - آخر خلفاء بني أمية - خطب السفاح ، فقال :
« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ، وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ، جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ » نكصَ بكم يأهل الشام آلُ حرب وآل مروان ، يتسكعون^(١) بكم الظلم ، ويتهورون بكم مداحض^(٢) الزلَّاق ، يَطَّوْنُ بكم حَرَمَ اللَّهِ^(٣) وَحَرَمَ رَسُولِهِ^(٤) ، ماذا يقول زعماءكم غداً ؟ يقولون : « رَبَّنَا هُوَ أَضَلُّونَا فَأَتَيْهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ » إذن يقول الله عز وجل : « لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ » أما أمير المؤمنين فقد اتنف^(٥) بكم التوبة ، واغتفر لكم الزلَّة ، وبسط لكم الإقالة^(٦) ، وعاد بفضله على نقصكم ، وبجمله على جهلكم ، فليفرخ روعكم^(٧) ، ولتطمئن به داركم ، وليقطع مصارع أوائلكم ، « فَتِلْكَ يَبُوءُكُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا » . (العقد الفريد ٢ : ١٤٥)

٧ - خطبة عيسى بن علي حين قتل مروان

وخطب عيسى بن علي - عم السفاح - لما قتل مروان ، فقال :

[١] تسكع : مشى مشياً متعسفا . [٢] جمع مدحضة : وهي الزلَّة . [٣] يشير إلى ما كان من مقاتلة الحجاج عبد الله بن الزبير بمكة ، ورميه الكعبة بالمنجنيق في عهد عبد الملك بن مروان .
[٤] يشير إلى وقعة الحرة وما أحدثه جيش مسلم بن عقبة المري بالمدينة على عهد يزيد بن معاوية .
[٥] استأنف وأبدأ . [٦] أقال عثرته : رفعه من سقرطه . [٧] الروع بالضم القلب ، أو موضع الفرع منه ، والروع بالفتح : الفرع ، وأفرخت البيضة : خرج الفرخ منها ، أى ليخرج الروع عن روعكم ولتهدوا وتطهثنوا .

« الحمد لله الذي لا يفوته من طلب ، ولا يُعجزه من هرب ، خَدَعَتْ وَاللَّهِ
 الْأَشْقَرُ نَفْسَهُ ، إِذْ ظَنَّ أَنَّ اللَّهَ مُمَهِّلُهُ ، وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ
 الْكَافِرُونَ ، فَحَتَّى مَتَى ، وَإِلَى مَتَى ؟ أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كَرِهْتُمْ الْعِيدَانَ ^(١) الَّتِي
 اقْتَرَعُوهَا ، وَأَمْسَكَتِ السَّمَاءُ دَرَّهَا ^(٢) ، وَالْأَرْضُ رِيْعَهَا ^(٣) ، وَقَجَلِ الضَّرْعَ ^(٤) ،
 وَجَفَزَ الْفَنِيْقَ ^(٥) ، وَأَسْمَلَ ^(٦) جَلْبَابُ الدِّينِ ، وَأَبْطَلَتِ الْحُدُودَ ، وَأَهْدَرَتِ الدَّمَاءَ ،
 وَكَانَ رَبُّكَ بِالْمُرْصَادِ ، قَدَمَدَمَ ^(٧) عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ، وَلَا يَخَافُ
 عُقْبَاهَا ، وَمَلَكْنَا اللَّهَ أَمْرَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ ، لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، فَالشُّكْرَ الشُّكْرَ ،
 فَإِنَّهُ مِنْ دَوَاعِي الْمَزِيدِ ، أَعَاذَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ مُضِلَّاتِ الْأَهْوَاءِ ، وَبَغَاتِ الْفِتَنِ ،
 فَإِنَّمَا نَحْنُ بِهِ وَلَهُ » . (شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٣ ، ومواسم الأدب ٢ : ١١٥)

٨ - خطبة داود بن علي بمكة ^(٨)

وخطب داود بن عليّ الناس بمكة في أول موسم ملكه بنو العباس ، فقال :
 « شكراً شكرياً ، إنا والله ما خرجنا لنحفركم فيكم نهراً ، ولا لنبنئ فيكم قصرأً ،
 أظنّ عدوؤ الله أن لن نقدر عليه ، أن رُوخِي ^(٩) له من خطامه ، حتى عثرفي
 فضل زمامه ؟ فالآن حيث أخذ القوس باريها ، وعادت التّبيل إلى التّزعة ، ورجع
 الملك في نصابه من أهل بيت النبوة والرحمة - والله لقد كنا نتوجّع لكم ونحن

[١] أي أعواد المنابر ، واقترعوها : أي علوها . [٢] مطرها . [٣] الرّيح : الغمام والزيادة .
 [٤] قجل : يبس جلده على عظمه . [٥] الفنيق : العجل المسكرم لا يؤذى لكرامته على أهله ولا
 يركب ، والجفز : كشمس السرعة في المشي ، ولم تذكر كتب الامة ضبط فعله ، وجاء في اللسان : « الجفز :
 سرعة المشي يمانية ، حكاه ابن دريد ، قال : ولا أدري ما صحتها » ، وفي رواية مواسم الأدب : « وحفل
 فنيق الشرك » . [٦] أسمل الثوب وسمل ، كدخل وكرم : أخلق .

[٧] دمدم القوم ، ودمدم عليهم : طحنهم فأهلكهم ، فسوّاها : أي الدومة ، أي عمهم بها فلم يفلت
 منهم أحد . [٨] ولاء أبو العباس السكونة وسوادها ، ثم ولاء المدينة ومكة واليمن واليمامة سنة ١٣٢
 وولاء إمارة الحاج في هذه السنة ، ومات بالمدينة في ربيع الأول سنة ١٣٣ هـ (الطبري ج ٩ ص ١٤٧) .
 [٩] أي لأن رُوخِي له ، ظن أن لن نقدر عليه .

في فُرُشْنَا - أَمِنْ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ^(١)، لَكُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ ، لَكُمْ ذِمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَكُمْ ذِمَّةُ الْعَبَّاسِ ، لَا وَرَبَّ هَذِهِ الْبَنِيَّةِ - وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الْكَعْبَةِ - لَا تَهَيِّجُ مِنْكُمْ أَحَدًا . (تهذيب الكامل ١ : ١٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٦ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٠ ، وابن أبي الحديد ٢ : ٢١٣ ، ومواسم الأدب ٢ : ١١٤)

٩ - خطبته بالمدينة

قال : « أيها الناس : حَتَّامٌ يَهْتَفُ بِكُمْ صَرِيحُكُمْ^(٢) ؟ أَمَا أَنْ لِرِاقِدِكُمْ أَنْ يَهُبَّ مِنْ نَوْمِهِ ؟ كَلَّا بَلْ رَانَ^(٣) عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، أَغْرَكَمُ الْإِهْمَالُ حَتَّى حَسِبْتُمُوهُ الْإِهْمَالَ ؟ هِيَاهُتَ مِنْكُمْ وَكَيْفَ بِكُمْ ، وَالسُّوْطُ كُنْفِي ، وَالسَّيْفُ مُشَمَّرٌ^(٤) ! حَتَّى يَدِيدَ قَبِيلَةَ فَقْبِيلَةَ وَيَعْضَّ كُلُّ مُثَقَّفٍ بِالْهَامِ^(٥) وَيُقَمِّنَ رَبَّاتِ الْخُدُورِ حَرَاسِرًا^(٦) يَمَسْحَنَ عُرْضَ ذَوَائِبِ الْإَيْتَامِ^(٧) (العقد الفريد ٢ : ١٤٦)

١٠ - خطبة أخرى له^(٧)

وخطب فقال : « أحرز لسان رأسه ، اتعظ امرؤ وبغيره ، اعتبر عاقل قبل أن يُعْتَبَرَ بِهِ ، فَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ ، وَقَدَّمَ الْفَضْلَ مِنْ عَمَلِهِ » ثم أخذ بقائمه

[١] الخراء : العجم لأن الغالب على ألوانهم البياض والخررة .
[٢] الصريح : المستغيث (والمغيث أيضا) . [٣] غلب . [٤] شهر سيفه كبح ، وشهره بالتشديد : انتضاء فرقه على الناس . [٥] تثقيف الرماح : تسويتها . [٦] قوله ويقمن : أى الرماح ، والضمير يعود على (كل مثقف) . [٧] هذه الخطبة أوردها ابن قتيبة ، وعزاها إلى داود بن علي ، ونسبها صاحب العقد إلى المنصور ، وأنه قالها لما قتل الأمويين (راجع القديج ٢ : ص ١٤٥) .
ونصها كما أوردها : « أحرز لسان رأسه ، انتبه امرؤ لحظه ، نظرا امرؤ في يومه لغده ، فمشى القصد ، وقال الفضل ، وجانب الهجر » ، ثم أخذ بقائم سيفه ، فقال :
« أيها الناس : إن بكم داء هذا دواؤه ، وأنا زعيم لكم بشفائه ، فليعتبر عبد قبل أن يُعْتَبَرَ بِهِ ، فَإِنَّمَا بَعْدَ الْوَعِيدِ الْإِنْقِطَاعُ ، وَإِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ »
ولهجر : الفيح من الكلام .

سيفه ، فقال : « إن بكم داء هذا دواؤه ، وأنا زعيم لكم بشفاؤه ، وما بعد الوعيد إلا الإيقاع » . (عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٢ ، ومواسم الأدب ٢ : ١١٤)

١١ - خطبته وقد بلغه أن قوماً أظهروا شكاةً بنى العباس

وبلغه أن قوماً أظهروا شكاةً بنى العباس ، فافترع المنبر ، وحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

«أغدرًا يأهل الخثر^(١) والتبديل؟ ألم يرَدَّعكم الفتحُ المبين^(٢) ، عن الخوض في ذمِّ أمير المؤمنين؟ كلا والله حتى تحمّلوا أوزاركم وأوزار الذين كانوا من قبلكم ، كيف قامت شفاهكم بالشكوى لأمير المؤمنين؟ بعد أن حانت آجالكم فأرجأها ، وانبعثت دماؤكم فحقننها ، الآن يا منابت الدّمَنِ ، مشيتم الضراء^(٣) ، ودَيَبتم الخمرَ^(٤) ، أما ومحمدٍ والعباسِ إن عدتُم لثمل ما بدأتُم ، لأحصدنكم بظبّات السيوف ، ثم يُعني ربنا عنكم ، ونستبدل غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم .

مهلا ياروايا^(٥) الإرجاف ، وأبناء النفاق ، عن الخوض فيما كفيتم ، والتخطى إلى ما حذرتُم ، قبل أن تتلف نفوس ، ويقلَّ عدد ، ويدلَّ عز ، وما أنتم وتلك؟ ألم تجدوا ما وعد ربكم حقًا من إیراث المستضعفين مشارق الأرض ومغاربها؟ بلى والحجر والحجر^(٦) ، ولكنه حسدٌ مُضمَر ، وحسك^(٧) في الصدور ، فرغماً للمعاطس^(٨) ، وبعُدًا للقوم الظالمين^(٩) » . (مواسم الأدب ٢ : ١١٤)

[١] الخثر : الغدر ، أر أقبجه . [٢] في الأصل « ألم ير علم الفتح المدين عن الخوض في دم أمير المؤمنين » وهو تحريف . [٣] الضراء : الشجر الملتف في الوادي ، يقال : توارى الصيد منه في صراء ، وفلان يمشي الضراء : إذا مشى مستخفياً فيها يوارى من الشجر . [٤] في الأصل « ودَيَبتم الجراء » وهو تحريف ، وصوابه ما ذكرنا ، والجربا جريك : كل ما وارك من شجر أو بناء أو غيره ، وجر كفرح : توارى ، ومن أمثالهم : « يدب له الضراء ، ويمشي له الجر » وهو مثل يضرب للرجل يجتال صاحبه . [٥] الروايا جمع راوية : وهي الزادة فيها الماء . [٦] الحجر : حجر الكعبة ، وهو ما حواه الحطيم اللدار بالكعبة من جانب الشمال . [٧] الحسك : الحقد والعداوة . [٨] المعاطس جمع معطس كجلاس ومقعد وهو الأنف ، والرغم : الذل . [٩] وروى صاحب العقد

١٢ - خطبته وقد أرتج عليه

وخطب داود بن علي ، فحمد الله جل وعز ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى

الله عليه وسلم ، فلما قال : أما بعدُ ، امتنع عليه الكلام ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد يجِدُ المُعْسِر ، وَيُعْسِرُ المُوسِر ، وَيُقْلُ الحَدِيد ، وَيَقْطَع

الكَلِيل ، وَإِنَّمَا الكَلَامُ بَعْدَ الإِخَام ، كَالإِشْرَاقِ بَعْدَ الإِظْلَام ، وَقَدْ يَعْزُبُ

البَيَان ، وَيُعَقِّمُ الصَّوَاب ، وَإِنَّمَا اللِّسَانُ ، مُضْغَةٌ مِنَ الإِنْسَانِ ، يَفْتُرُ بِفُتُورِهِ

إِذَا نَكَل ، وَيَثُوبُ بِأَنْبَسَاتِهِ إِذَا رَتَجَلَ ، أَلَّا وَإِنَّا لَا نَنْطِقُ بَطَرًا ، وَلَا

نَسَكْتُ حَصْرًا ، بَلْ نَسَكْتُ مُعْتَبِرِينَ ، وَنَنْطِقُ مُرْشِدِينَ ، وَنَحْنُ بَعْدُ أَمْرَاءُ

الْقَوْلِ ، فِينَا وَشَجَّتْ ^(١) أَعْرَاقُهُ ، وَعَلَيْنَا عَطَفَتْ أَعْصَانُهُ ، وَلِنَا تَهْدَلَتْ ثَمَرَتُهُ ،

فَتَخَيَّرَ مِنْهُ مَا أَحْلَوْلَى وَعَذَّبَ ، وَنَطَّرِحَ مِنْهُ مَا أَمْلَوْلَحَ وَخَبَّتْ ، وَمَنْ بَعْدَ

مَقَامِنَا هَذَا مَقَامٌ ، وَبَعْدَ أَيَامِنَا أَيَامٌ ، يُعْرَفُ فِيهَا فَضْلُ البَيَانِ ، وَقَصْلُ الخُطَابِ ،

وَاللَّهُ أَفْضَلُ مُسْتَعَانَ » ثم نزل ^(٢) .

(كتاب الصناعتين ص ٢١ ، وأمالى السيد المرتضى ٤ : ١٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٨٥)

بعض هذه الخطبة وعزاها إلى أبي جعفر المنصور ، فقال : « خطب المنصور حين خروجه إلى الشام فقال :

سِنَّسِنَةٌ أَعْرِفُهَا مِنْ أَحْزَمٍ مَنْ يَلْقَى أَبْطَالَ الرَّجَالِ يُكَلِّمُ

مهلا مهلا روايا الإرجاف ، وكهوف النفاق . . . إلى آخر الخطبة » ، راجع العقد الفريد ٢ : ١٤٥ -
والشذوثة : الطبيعة والمادة ، وهو مثل لأبي أخزم الطائي ، وكان له ابن يقال له أخزم ، وكان طافا ، فمات
وترك بنين ، فوثبوا يوما على جدهم أبي أخزم فأدموه فقال :

إن بني ضرجوني بالدم سنسنة أعرفها من أخزم

أى إن هؤلاء أشبهوا أباهم في العقوق : يضرب في قرب الشبه ، ويكلم : يجرح .

[١] وشجت العروق والأغصان كوعد وشجا وشيجا : اشتبكت ، والواشجة : الرحم المشتبكة .

[٢] وروى المصرى في زهر الآداب بعض هذا النول وعزاها إلى عبد الملك بن صالح ، وروى السيد

المرتضى في أماليه قال :

« صعد أبو العباس السفاح المنبر ، فأرتج عليه فقال : « أيها الناس ، إن اللسان ، بضعه

١٣ - خطبة صالح بن علي

وخطب صالح بن علي ^(١) عم السفاح ، فقال :

يا أعضاء النفاق ، وعُبد الضلالة ، أغرَّكم لين أساسي ، وطولُ إيناسي ؟
حتى ظن جاهلُكم أن ذلك لفلولِ حدِّ ، وفثورِ جدِّ ، وخورِ قنائة ^(٢) ، كذَّبتِ
الظنونُ ، إنها العترة بَعْضُها من بعض ، فإذ قد استوليتم العافية ، فعندى فِطام
وفيكاك ، وسيف يقْدُ الهامَ ، وإني أقول :

أغرَّكم أني بأكرمِ شيمةٍ رفيقٍ ، وأني بالفواحشِ أخرقٍ ؟
ومثلي إذا لم يُجْزَ أحسنَ سعيهِ تكلمُ نِعْماءُ فيها فتنتِطِقُ
لعمري لقد فاحشتني فغلبتني هنيئاً مريئاً أنت بالفحشِ أرفقُ

(العقد المرید ٢ : ١٤٦)

١٤ - خطبة سديف بن ميمون

وروي صاحب العقد قال :

لما قَدِمَ العَمْرُ بن يزيد بن عبد الملك على أبي العباس السَّفَّاحِ في ثمانين

من الإنسان ، يكِلُّ إذا كَلَّ ، وينفِيسِح بانفساحه إذا فَسَّحَ ، ونحن أمراء الكلام ، منا
تفرعت فروعه ، وعلينا تهدلت غصونه ، ألا وإنا لا نتكلم هذرا ، ولا نسكت إلا
معتبرين » ثم نزل ، فبلغ ذلك أبا جعفر ، فقال : « لله هو ! لو خطب بمثل ما اعتذر ،
لكان من أخطب الناس » ، وهذا الكلام يروي لداود بن علي « اه .

والبضعة بفتح الباء وقد تكسر : القطعة من اللحم ، والهذر بالتحريك : سقط الكلام ، وسكون الذال
مصدر هذر في منطقه كضرب ونصر .

[١] هو صالح بن علي بن عبد الله بن عباس عم السفاح ، وقد ولاه السفاح مصر سنة ١٣٢ ثم فلسطين ،
ثم ولاه مصر ثانية سنة ١٣٦ ، حتى قدم الخبر بموت السفاح في ذي الحجة سنة ١٣٦ ، فأقره المنصور على
عمل مصر ثم خرج إلى فلسطين ، ومات وهو حامل حمص بقنسرين . [٢] ضعف .

رجلا من بنى أمية ، وُضعت لهم الكراسي ، ووضعتم لهم نمارق^(١) ، وأجلسوا عليها ، وأجلس الغمر مع نفسه في المصلى ، ثم أذن لشييعته فدخلوا ودخل فيهم سُديف بن ميمون^(٢) ، وكان متوشحاً حاسيفاً ، متنكباً قوساً ، وكان طويلاً آدم^(٣) ، فقام خطيباً .

فخمد الله وأمنى عليه ، ثم قال : « أيزعم الضلالُ بما حبَّطت^(٤) أعمالهم أنَّ غير آل محمد أولى بالخلافة ؟ فلمَ وبِم أيها الناس ؟ لكم الفضلُ بالصَّحابة ، دون حقِّ ذوى القرابة ، الشركاء في النسب ، الأَكفَاء في الحَسَب ، الحاصَّة في الحياة ، الوُفاهِ^(٥) عند الوفاة ، مع ضربهم على الدين جاهلَكُم ، وإطعامهم في الأولى جائعَكُم ، فكُم قصَم الله بهم من جبَّارٍ باغ ، وفاسق ظالم ، لم يُسمَع بمثل العباس ، لم تخضع له أمة بواجب حق ، أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدأبيه ، وجلدة ما بين عينيه^(٦) ، أمينُه ليلة العقبة^(٧) ، ورسولُه إلى أهل مكة ، وحاميه يوم حُنين^(٨) ، لا يرُدُّه له رأياً ، ولا يخالف له قسماً ، إنكُم والله معاشر قريش ما اخترتم لأنفسكم من حيث ما اختاره الله لكم ، تيممِي^(٩) مرَّةً ، وعدوى^(١٠) مرَّةً ، وكنتم بين ظهراني قوم قد آثروا العاجل على الآجل ، والفاني على الباقي ،

[١] نمارق جمع نمرقة كقنفذة : وهي الوسادة الصغيرة . [٢] مولى أبي العباس السفاح .

[٣] وصف من الأدمة ، وهي كالسمره وزنا ومعى . [٤] فسدت . [٥] الوفاة جمع واف .

[٦] خطب الوليد بن عبد الملك فقال : « إن أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول : « إن الحجاج جلدة ما بين عيني » ألا وإنه جلدة وجهي كله » - البيان والتبيين ١ : ١٦٠ و ٣ : ٢١ - .

[٧] يوم مبايعة الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً معهم امرأتان

وليس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عمه العباس - وهو على دين قومه - ولكنه رأى أن يحضر

أمر ابن أخيه ليتوثق له . [٨] كان العباس من ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة

حنين ، حين انزعم المسلمون أول الموقعة ، وكان آخذاً بلجام بقلته . [٩] يريد أبا بكر الصديق رضى

الله عنه ، وهو من تيم بن مرة بن كعب بن لؤى . [١٠] يريد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو من

عدى بن كعب بن لؤى .

وَجَعَلُوا الصَّدَقَاتِ، فِي الشَّهَوَاتِ، وَالنِّفَى، فِي اللَّذَاتِ وَالْغَنَاءِ، وَالْمَغَانِمِ، فِي الْحَارِمِ، إِذَا ذُكِرُوا بِاللَّهِ لَمْ يَذْكُرُوا، وَإِذَا قُدِّمُوا بِالْحَقِّ أَذْبَرُوا، فَذَلِكَ زَمَانُهُمْ، وَبِذَلِكَ

كَانَ يَعْمَلُ شَيْطَانُهُمْ^(١) . (العقد المرید ٢ : ٣٠١)

١٥ - خطبة أبي مسلم الخراساني

وروى ابن أبي الحديد قال :

وخطب أبو مسلم بالمدينة في السنة التي حج فيها في خلافة السفاح^(٢)، فقال :
« الحمد لله الذي حمد نفسه ، واختار الإسلام ديناً لعباده ، ثم أوحى إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك ما أوحى . واختاره من خلقه ، نفسه من أنفسهم ، وبيته من بيوتهم ، ثم أنزل عليه في كتابه الناطق الذي حفظه بعلمه ، وأشهد ملائكته على حقه ، قوله : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » ، ثم جعل الحق بعد محمد صلى الله عليه وآله في أهل بيته ، فصبر من صبر منهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله على اللاأواء^(٣) والشدة ، وأغضى على الاستبداد والآثرة ، ثم إن قوماً من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله ، جاهدوا على ملة نبيه وسنته بعد عصر من الزمان ، من عمل بطاعة الشيطان ، وعداوة الرحمن ، بين ظهرائي قوم آثروا العاجل على الآجل ، والفاني على الباقي ، إن رتق جور فتقوه ، أوفتق حق رتقوه ، أهل مخور وماخور ، وطنابير^(٤) ومزامير ، إن ذكروا لم يذكروا ، أو قُدِّموا إلى الحق أذبروا ، وجعلوا الصدقات ، في الشبهات ، والمغانم ، في المحارم ، والنبي ، في

[١] نقر هذه الخطبة مروية في خطبة أبي مسلم الخراساني الآتية بعدها ، ولكي آثرت إيراد الروايتين جميعاً كما وردتا . [٢] وذلك في سنة ١٣٦ هـ . [٣] الشدة . [٤] البناير : جمع طنبور كعصفور ، وهو الذي يلعب به .

الغنى ، هكذا كان زمانهم ، ربه كان يعمل سلطانهم ، وزعموا أن غير آل محمد أولى بالأمر منهم ، فلمَ وجمَ أيها الناس ؟ ألكم الفضل بالصَّحابة ، دون ذوى القرابة ، الشركاء في النسب ، وَالْوَرثة في السَّلْب (١) ، مع ضربهم على الدين جاهلكم ، وإطعامهم في الجَدْب جائِعكم ، والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قطُّ ، وما زلتم بعد نبيه تخنثارون تَيْمِيًّا مرة ، وَعَدَوِيًّا مرة ، وَأَمْوِيًّا مرة ، وَأَسَدِيًّا (٢) مرة ، وَسُفْيَانِيًّا مرة ، وَمَرْوانِيًّا مرة ، حتى جاءكم من لا تعرفون اسمه ولا بيته (٣) ، يضربكم بسيفه ، فأعطيتموها عَنوةً ، وأنتم صاغِرون ، ألا إن

[١] مايلسب ، والمراد ورثته في الخلافة . [٢] هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد . [٣] قال ابن أبي الحديد : « يبنى نفسه لأنه لم يكن معلوم النسب ، وقد اختلف فيه أهو مولى أم عربي » وقال ابن خلكن في (وفيات الأعيان ١ : ٢٨٠) في ترجمته : « أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم وقيل عثمان الخراساني القائم بالدعوة العباسية ، وقيل هو إبراهيم بن عثمان بن يسار بن سدوس بن جودرن من ولد بزرجهر بن البحتكان الفارسي ، وقد اختلف الناس في نسبه ، فقيل إنه من العرب ، وقيل إنه من العجم ، وقيل من الأكراد ، وفي ذلك يقول أبو دلالة :

أيا مجرم ما غير الله نعمة على عدوه حتى يغيرها العبد
أى دولة المنصور حاوات غدرة ألا إن أهل الغدر أبواك الكرد

وقال ابن طباطبا في الفخرى ص ١٢٣ : « أما نسبه ففيه اختلاف كثير ، فقيل : هو حر من ولد بزرجهر ، وأنه ولد بأدقهان ، ونشأ بالكوفة ، فارتحل بإبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فغير اسمه وكناه بأبي مسلم ، وثقفه وفقهه ، حتى كان منه ما كان . وقيل هو عبد تنقل في الرق ، حتى وصل إلى إبراهيم الإمام ، فلما رآه أعجبه سمته ونقله ، فابتاعه من مولاه وثقفه وفقهه ، وصار يرسله إلى شيعته وأصحاب دعوته بخراسان ، وما زال على ذلك حتى كان من الأوسر ما كان .

وأما هو فإنه لما قويت شوكته ادعى أنه ابن سليط بن عبد الله بن عباس ، وكان أهد الله بن عباس جارية فوق عليها مرة ، ثم اعتزلها مدة ، فاستنكحها عبدا فوطئها ، فولدت منه غلاما سمته سليطا ، ثم ألصقته بعبد الله بن عباس ، وأنكره عبد الله ولم يعترف به ، ونشأ سليط ، وهو أكره الخلق إلى عبد الله بن عباس ، فلما مات عبد الله نازع سليط ورثته في ميراثه ، وأعجب ذلك بني أمية ليغضوا من علي بن عبد الله ابن عباس ، فأعانوه وأوصوا قاضي دمشق في الباطن ، فقال إليه في الحكم وحكم له بالميراث ، فادعى أبو مسلم حين قويت شوكته أنه من ولد سليط هذا .

وذكر ابن خلكن أن المنصور قال له قبل قتله ، وقد عدّ دله مساوي وقعت منه : « تزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن العباس ! لقد ارتقت لا أم لك مرتقى صبيا ! » .

آل محمد أئمة الهدى ، ومَنَارُ سبيلِ التقي ، القادة الدَّادَةُ السَّادَةُ ، بنوعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومُنزَلُ جبريلِ بالتنزيل ، كم قصَمَ الله بهم من جبارِ طايغ ، وفاسقِ بايغ ، شَيَّدَ الله بهم الهدى ، وَجَلَّى بهم العَمَى ، لم يُسمع بمثل العباس ، وكيف لا تخضع له الأمم لِواجبِ حقِّ الحُرمةِ ؟ أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أبيه ، وإحدى يديه ، وَجِلْدَةٌ بين عينيهِ ، أَمِينُهُ يومِ العَقَبَةِ ، وَنَاصِرُهُ بِمَكَّةَ (١) ، ورسوله إلى أهلها ، وَحَامِيهِ يومِ حُنَيْنٍ ، عند ملتقى الفَتَيْنِ ، لا يخالف له رسماً ، ولا يعصِي له حكماً ، الشافع يوم نَيْقِ العُقَابِ (٢) ، إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في الأحزاب ، ها إن في هذا أيها الناس لَعِبْرَةٌ لآوِلِي الأبصارِ .

(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٥)

١٦ - خالد بن صفوان وأحوال السفاح

روى الجاحظ قال :

كَانَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ الْأَهْتَمِيُّ مِنْ سُمَّارِ أَبِي الْعَبَّاسِ السَّفَّاحِ ، وَأَهْلُ الْمَنْزِلَةِ عِنْدَهُ ، فَفَخَّرَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ بَلْحَارِثِ (٣) ، وَأَكْثَرُوا فِي الْقَوْلِ ، فَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ : لَمْ لَا تَتَكَلَّمُ يَا خَالِدُ ؟ فَقَالَ : « أَخْوَالِ (٤) أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَصَبَتَهُ » قَالَ : « فَأَنْتُمْ أَعْمَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَصَبَتَهُ » قَالَ خَالِدٌ : « وَمَا عَسَى أَنْ أَقُولَ لِقَوْمٍ ، كَانُوا بَيْنَ نَاسِجِ بُرْدٍ ، وَدَابِغِ جِلْدٍ ، وَسَائِسِ قِرْدٍ ، وَرَاكِبِ عِرْدٍ (٥) ، دَلٌّ عَلَيْهِمْ

[١] يشير إلى ما كان من جيش العباس في غزوة أحد، وذلك أن جيش المشركين خرج من مكة لمحاربة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا قبال المدينة ، وبلغ الخبر الرسول من كتاب بعث به إليه عمه العباس الذي لم يخرج معهم في هذه الحرب محتجاً بما أصابه يوم بدر ، وكان بمكة يكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار المشركين (وقيل إنه كان قد أسلم قبل الهجرة ، وكان يكتم إسلامه) .

[٢] موضع بين مكة والمدينة . وذلك أن العباس شفع فيه يوم فتح مكة في أبي سفيان ، وى أهل مكة فدنا النبي صلى الله عليه وسلم عنهم .

[٣] انظر الجزء الثاني ص ٣١٩ . [٤] كانت أم السفاح من بني الحارث ، وهي ريطة بنت عبيد الله ابن عبد الله بن عبد المدان بن الديات الحارثي ، ولذا كان يقال له ابن الحارثية . [٥] العرد : الحمار .

هُدُودٌ^(١)، وَغَرَقْتَهُمْ فَأَرَاةٌ^(٢)، وَمَلَكَتَهُمْ امْرَأَةٌ^(٣)؟» . (البيان والتبيين ١ : ١٨٤)

*
*

وروى الحصريّ في زهر الآداب قال :

« دخل خالد بن صفوان على أبي المباس السفاح ، وعنده أخواله من بني الحارث

ابن كعب ، فقال : ما تقول في أخوالي ؟ فقال : « هم هامة^(٤) الشرف ، وعرين^(٥) الكرم ، وغرس الجود ، إن فيهم خصالا ما اجتمعت في غيرهم من قومهم ، لأنهم أطولهم لِمَا^(٦) ، وأكرم شيئا ، وأطيبهم طعما^(٧) ، وأوفاهم ذمما ، وأبعدهم همما ، الجمرة في الحرب ، والرّفد^(٨) في الجدب ، والرأس في كل خطب ، وغيرهم بمنزلة العجب^(٩) » .

فقال : وصفت أبا صفوان فأحسننت ، فزاد أخواله في الفخر ، فغضيب

[١] يشير إلى حديث الهمد مع سليمان عليه السلام في قوله تعالى : « وَتَقَدَّ الطَّيْرُ فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ، لِأَعْدَبْتَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لِأَذْبَحْتَهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ، فَكَتَّ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ، إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ، وَجَدْتُهُمْ وَقَوْمَهُمَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . . . الآيات » .

[٢] يشير إلى ما يزعمه المؤرخون من أن سيل العرم الذي خرب اليمن كان سببه قرض الجرذ لسد مأرب - انظر الجزء الأول ص ٣٤٣ . [٣] هي بلقيس (بالكسر) ملكة سبأ .

[٤] الهامة : رأس كل شيء . [٥] العرين : الأنف ، أو ما صلب من عظمه ، ومن كل شيء أوله .

[٦] في الأصل « أمما » وأراه محرفا ، وصوابه « لِمَا » والهم جمع لمة بالكسر ، وهي الشعر الجاوز شحمة الأذن . [٧] الطعم : الطعام . [٨] الرّفد : العطاء والصلة . [٩] العجب : أصل

الذنب ، ومؤخر كل شيء .

أبو العباس لأعمامه ، فقال : افخر يا خالد على أخوال أمير المؤمنين ، قال : وأنت من أعمامه ، قال :

« كيف أفاخر قوماً بين ناسج بُرد ، وسائس قرد ، ودابغ جلد ، وراكب عرد ، دلّ عليهم هُدهد ، وغرقهم جُرذ ، وملكتهم امرأة ؟ » ، فأشرق وجه أبي العباس . (زهر الآداب ٣ : ١٣٠ ، ٣٤٦)

١٧ - خالد بن صفوان ورجل من بني عبد الدار

وفاخر خالد بن صفوان رجلاً من بني عبد الدار الذين يسكنون اليمامة ، فقال له العبدريّ : من أنت ؟ قال : أنا خالد بن صفوان بن الأهتم ، فقال له العبدريّ : أنت خالد « كمن هو خالد في الدار ^(١) » وأنت ابن صفوان ، وقال الله تعالى : « كمثل صفوان عليه تراب ^(٢) » ، وأنت ابن الأهتم ، والصحيح خير من الأهتم ^(٣) ، فقال له خالد بن صفوان : يا أبا بني عبد الدار ، أتتكلم ؟ وقد هشمتمك هاشم ، وأمّتك ^(٤) بنو أمية ، وخزمتك بنو مخزوم ، وجمحتك بنو جمح ^(٥) ؟ فأنت عبّدارهم ^(٦) ، فتفتح إذا دخلوا ، وتغلق إذا خرجوا ، فقام العبدريّ محموراً . (أمالي السيد المرتضى ١ : ٢١٥ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٢)

[١] وتمام الآية الكريمة : « وسقوا ماء حميّاً فقطع أمعاءهم » .
[٢] صفوان جمع صفوانة : وهي الحجر الصلد الضخم كالصفواء والصفاء ، والآية الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمدله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وإبله ، فتركه صلداً ، لا يقدرُونَ على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين » .
[٣] هم كفرح : انكسرت ثناياه من أصولها فهو أهتم . [٤] فادك . [٥] انظر الجزء الثاني ص ٩٠ . [٦] وكانت المجابة في بني عبد الدار ، انظر الجزء الثاني ص ٩٠ أيضا .

١٨ - خالد بن صفوان يرثى صديقاله

وقال الجاحظ : قيل لرجل - أراه خالد بن صفوان ^(١) - مات صديق لك، فقال :
« رحمة الله عليه ، لقد كان يملأ العينَ جمالا ، والأذنَ بيانًا ، ولقد كان يُرَجَى
فلا يُخَشَى ، ويُغشَى فلا يُغشَى ، ويُعطى فلا يُعطى ، قليلاً لَدَى الشرِّ حضورُهُ ،
سليماً للصديق ضميرُهُ » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، والأمالى ٢ : ١٧٤)

١٩ - خالد بن صفوان يمدح رجلا

وذكر خالد رجلا ، فقال :

« كان والله بديع المنطق ، ذَلِقَ ^(٢) الجُرَّةَ ، جَزَلَ الألفاظ ، عربى اللسان ،
ثابت العقدة ، رقيق الحواشي ، خفيف الشفتين ، بليل الريق ، رَحَبَ الشرف ،
قليل الحركات ، خفي الإشارات ، حُلُوَ الشمائل ، حَسَنَ الطلاوة ^(٣) ، حَيِّياً جَرِيئاً ،
قَتُولاً صَمُوتاً ، يَفُلُّ الحَزَّ ^(٤) وَيُصِيبُ المفاصِلَ ، لم يكن بالمعذر ^(٥) في منطِقِهِ ،
ولا بالزَمين ^(٦) في مُرُوءَتِهِ ، ولا بالخرق ^(٧) في خَلِيقَتِهِ ، متبوعاً غير تابع ،
: كأنه عَلمٌ في رأسه نار : » . (زهر الآداب ٣ : ١٦٧)

٢٠ - كلمات بليغة لخالد بن صفوان

وقال خالد بن صفوان لبعض الوُلاة : « قَدِمْتَ فَأَعطيتَ كُلاًّ بِقِسْطِهِ

[١] ورواية القالى : عن الأصمى قال خالد بن صفوان لفتى بين يديه : رحم الله أباك . . الخ .
[٢] مأخوذ من : « سيف ذلق » أى سهل الخروج من غمده ، ويقال : اندلق السيل أى اندفع ،
واندلق السيف : أى شق جفنه فخرج منه . [٣] الطلاوة مثناة : القبول . [٤] الحز : القطع .
[٥] عذر فى الأمر تعذيراً ، إذا قصر ولم يجتهد . [٦] أى المعبى ، والزمانة كسحابة : الماهة ،
زمن كفرح فهو زمن وزمين . [٧] الخرق الذى لا يحسن العمل والتصرف فى الأمور .

من وجهك وكرامتك^(١) ، حتى كأنك من كلِّ أجد ، وحتى كأنك لست من أحد . (الأمل ١ : ٢١٦ ، ، زهر الآداب ٣ : ٣٤٧ ، ١٦٧)

وقال شبیب بن شیبة لخالد بن صفوان : « مَنْ أَحَبَّ إِخْوَانِكَ إِلَيْكَ ؟ »
قال : « مَنْ سَدَّ خَلْمِي ، وَغَفَرَ زَلْمِي ، وَقَبِلَ عَلَيَّ » . (الأمل ١ : ١٩٨)
وذكر شبیب عنده مرة ، فقال : « لَيْسَ لَهُ صَدِيقٌ فِي السَّرِّ ، وَلَا عَدُوٌّ فِي الْعَلَانِيَةِ » . قال الجاحظ : « وهذا كلام ليس يعرف قدره إلا الراسخون في هذه الصناعة » . (البيان والتبيين ١ : ١٨٤ ، زهر الآداب ٣ : ٢٠٩)

وقال خالد : « ما الإنسان ، لولا اللسان ، إلا صورةٌ ممثلةٌ ، أو بهيمةٌ مهملةٌ » ،
وفال : « أَتَقْوُوا مَجَانِيقَ^(٢) الضعفاء » يريد الدعاء (البيان والتبيين ١ : ١٩٠)
وذكر المزاح بحضرة خالد بن صفوان ، فقال : « يُنْشِقُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ مِثْلَ الْخَرْدَلِ ، وَيُفْرِغُ عَلَيْهِ مِثْلَ الْمَرْجُلِ ، وَيَرْمِيهِ بِمِثْلِ الْجَنْدَلِ ، ثُمَّ يَقُولُ : إِنَّمَا كُنْتَ أَمْزَحَ ! » . (زهر الآداب ٢ : ٨٥)

٢١ — عمارة بن حمزة والسفاح

وقال عمارة بن حمزة لأبي العباس السفاح - وقد أتر له بجوائز نفيسة وكسوة وصيلة ، وأذنى مجلسه :

« وَصَلَّكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَرَكَ ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ أَرَدْنَا شُكْرَكَ عَلَى كُنْهِ^(٣) صِلَتِكَ ، إِنْ الشُّكْرَ لَيَقْصُرُ عَنْ نِعْمَتِكَ ، كَمَا قَصُرْنَا عَنْ مَنَازِلِكَ ، ثُمَّ إِنْ اللَّهُ تَعَالَى جَعَلَ لَكَ فَضْلاً عَلَيْنَا ، بِالتَّقْصِيرِ مِنَّا ، وَلَمْ تَحْرِمْنَا الزِّيَادَةَ مِنْكَ لِتَقْصِ^(٤) شُكْرَنَا »
(زهر الآداب ٣ : ٣٤٦)

[١] وفي رواية زهر الآداب : « من نظرتك ومجلسك في صوتك وعدلك » .

[٢] جمع منجنيق بفتح الميم وكسرهما : آلة ترمى بها الحجارة . [٣] كنه الشيء : حقيقته .

[٤] في الأصل : « لبعض » وأراه محرفاً .

خطب أبي جعفر المنصور (توفي سنة ١٥٨ هـ)

٢٢ - خطبته بمكة

خطب أبو جعفر المنصور بمكة ، فقال :

« أيها الناس : إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه ، وتسديده وتأييده ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وإرادته ، وأعطيه بإذنه ، فقد جعلني الله عليه قُفلاً ، إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم ، وقسم أرزاقكم ، فإن شاء أن يُقفلنى عليها أقفلنى ، فارغبوا إلى الله وسلوه في هذا اليوم الشريف الذى وهب لكم من فضله ما أعامكم به إذ يقول : «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» أن يوفقنى للرشد والصواب ، وأن يُلهمنى الرأفة بكم والإحسان إليكم ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٥ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥١ ، تاريخ الطبرى ٩ : ٣١٠)

٢٣ - خطبته بمكة بعد بناء بغداد

وحج بعد بناء بغداد ، فقام خطيباً بمكة ، فكان مما حفظ من كلامه ^(١) :

« وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ ^(٢) مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ، أمرهم بمرم ، وقول عدل ، وقضاه فضل ، والحمد لله الذى أفانج ^(٣) حُجَّته ، وَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، الذين اتخذوا الكعبة غرضاً ، والفقء إرثاً ، وجعلوا

[١] عزا صاحب العقد هذه الخطبة إلى سليمان بن على (انظر ج ٢ ص ١٤٥) ، وكذا صاحب
موسم الأدب (انظر ج ٢ : ص ١١٥) . [٢] قيل المراد بالزبور جنس الكتب المنزلة ، وبالذكر
اللوح المحفوظ . [٣] نصر .

الْقُرْآنَ عِضِينَ^(١) ، لَقَدْ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ، فَكَمْ تَرَى مِنْ بَشَرٍ مَعْطَلَةٍ^(٢) ، وَقَصْرِ مَشِيدٍ ، أَمَلَهُمُ اللَّهُ حَتَّى بَدَلُوا السَّنَةَ ، وَاضْطَهَدُوا الْعِتْرَةَ^(٣) ، وَعَنْدُوا^(٤) وَاعْتَدُوا وَاسْتَكْبَرُوا ، وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ، ثُمَّ أَخَذَهُمْ فَهْلُ تُحْسُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا؟^(٥) .

(تاريخ الطبري ٩ : ٣١١ ، والكامل لابن الأثير ٦ : ١٢)

٢٤ - خطبته بمدينة السلام

وخطب بمدينة السلام « بغداد » ، فقال :

« يا عباد الله ، لا تظالموا ، فإنها مظلمة يوم القيامة ، والله لولا يدُ خاطئة ، وظلم ظالم ، لمسيئتُ بين أظهركم في أسواقكم ، ولوعلمتُ مكانَ من هو أحقُّ بهذا الأمر مني لأتيته حتى أدفعهُ إليه » . (تاريخ الطبري ٩ : ٢١٠)

٢٥ - خطبته وقد أخذ عبد الله بن حسن وأهل بيته

ولما أخذ عبد الله بن حسن^(٦) وإخوته ، والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته ، صعد المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

[١] العضة : الفرقة والقطعة والجمع عضون ، وحمل المشركون القرآن عِضِينَ أي فرقا : فرقوا فيه القول ، فجعلوه كذبا وسجرا وكهانة وشعرا ، وهم قد (عضوه) بالتشديد أعضاء ، أي جزءه أجزاء ، وهو يريد هنا الأمويين يشير إلى أنهم عطلوا بعض أوامر القرآن بما أتوه من الأعمال ، من رمي الكعبة ، واضطهاد أهل البيت الخ . [٢] متروكة لا يستقى منها هلاك أهلها ، ومشيد : مرفوع ، أو مطلى بالشيد (بالكسر) وهو ما طلى به الحائط من جص ونحوه ، أي معطل خال من ساكنيه أيضا .

[٣] العترة : نسل الرجل ورهطه وعشيرته الأذنون . [٤] عند (مثلث التون) عن الطريق : مال . [٥] الصوت الخفي . [٦] هو عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وقد حمله المنصور هو وأهل بيته ، من المدينة إلى العراق سنة ١٤٤ هـ ، وأقام في غيايات السجون حتى ماتوا بسجن الكوفة ، وكان يتخوف أن يباله على الخلافة محمد بن عبد الله هذا (وهو محمد الملقب بالنفس الزكية) وقد خرج عليه بالمدينة فوجه المنصور جيشا لقتاله فقتل سنة ١٤٥ هـ ، وخرج أخوه إبراهيم على المنصور بالبصرة فقتل أيضا في هذه السنة .

« يَـأَهِلْ خُرَّاسَانَ : أَتُمُّ شِيعَتَنَا وَأَنْصَارَنَا ، وَأَهْلَ دَوْلَتَنَا ، وَلَوْ بَايَعْتُمْ غَيْرَنَا لَمْ تَبَايَعُوا مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنَّا ، وَإِنْ أَهْلَ بَيْتِي هُوَ لَاءَ مِنْ وَلَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، تَرَكْنَاهُمْ وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْخِلَافَةَ ، فَلَمْ نَعْرِضْ لَهُمْ فِيهَا بِقَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ ، فَقَامَ فِيهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَتَلَطَّخَ ، وَحَكَّمَ عَلَيْهِ الْحَكِيمِينَ ، فَافْتَرَقَتْ عَنْهُ الْأُمَّةُ ، وَاخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ الْكَلِمَةُ ، ثُمَّ وَثِبَتْ عَلَيْهِ شِيعَتُهُ وَأَنْصَارُهُ وَأَصْحَابُهُ ، وَبِطَانَتُهُ وَثِقَاتُهُ فَقَتَلُوهُ ، ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ ، فَوَاللَّهِ مَا كَانَ فِيهَا بَرَجُلٌ ، قَدْ عُرِضَتْ عَلَيْهِ الْأَمْوَالُ فَقَبِلَهَا ، فَدَسَّ إِلَيْهِ مَعَاوِيَةَ : إِنْ أَجْعَلَكَ وَلِيًّا عَهْدِي مِنْ بَعْدِي ، نَخْدَعُهُ فَانْسَلِخْ لَهُ مِمَّا كَانَ فِيهِ ، وَسَلِّمْهُ إِلَيْهِ ، فَأَقْبَلَ عَلَى النَّسَاءِ يَتَزَوَّجُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَاحِدَةً فَيَطْلُقُهَا غَدًا ، فَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ ، ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ ، نَخْدَعُهُ أَهْلَ الْعِرَاقِ وَأَهْلَ الْكُوفَةِ ، أَهْلَ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ ، وَالْإِغْرَاقِ فِي الْفِتَنِ ، أَهْلَ هَذِهِ الْمَدْرَةِ السُّودَاءِ - وَأَشَارَ إِلَى الْكُوفَةِ - فَوَاللَّهِ مَا هِيَ بِحَرْبٍ فَأَحَارَبَهَا وَلَا سَلَمَ فَأَسْلَمَهَا ، فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ، نَخْدَلُوهُ وَأَسَاءُواهُ حَتَّى قَتَلُوا ، ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ ، نَخْدَعُهُ أَهْلَ الْكُوفَةِ وَغَرَّوهُ ، فَلَمَّا أَخْرَجُوهُ ^(١) وَأَظْهَرُوهُ أَسَاءُواهُ ، وَقَدْ كَانَ أَتَى مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ ^(٢) ، فَنَاشَدَهُ فِي الْخُرُوجِ ، وَسَأَلَهُ أَلَّا يَقْبَلَ أَقَاوِيلَ أَهْلِ الْكُوفَةِ ، وَقَالَ لَهُ : إِنْ أَنْجَدْتَنِي فِي بَعْضِ أَعْمَالِنَا أَنْ بَعْضَ أَهْلِ بَيْتِنَا يُصَلِّبَ بِالْكَوْفَةِ ، وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَكُونَ ذَلِكَ الْمَصْلُوبَ ، وَنَاشَدَهُ عَمِّي دَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ ، وَحَذَّرَهُ غَدْرَ أَهْلِ الْكُوفَةِ ، فَلَمْ يَقْبَلْ وَتَمَّ ^(٣) عَلَى خُرُوجِهِ ، فَقَتِلَ وَصَلِبَ بِالْكَنَّاسَةِ ^(٤) ، ثُمَّ وَثِبَ عَلَيْنَا بَنُو أُمِيَّةٍ ، فَأَمَاتُوا شَرَفَنَا ،

[١] وقد خرج في خلافة هشام بن عبد الملك ، فقاتله يوسف بن عمر الثقفي والى العراق ، وقتل وصلب

سنة ١٢١ هـ . [٢] يريد أباه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .

[٣] تم على الأمر : استمر عليه . [٤] موضع بقرب الكوفة .

وأذهبوا عزنا، والله ما كانت لهم عندنا تِرةٌ^(١) يطلبونها، وما كان ذلك كله إلا فيهم، وبسبب خروجهم عليهم، فنفقونا من البلاد، فصرنا مرة بالطائف . ومرة بالشَّام، ومرة بالشرأة^(٢)، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا، فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان، ودمغ بحكم أهل الباطل، وأظهر حقنا، وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه، فقر الحق مقررّه، وأظهر مناره، وأعز أنصاره، وقُطِعَ دابرُ القومِ الذين ظلموا والحمدُ لله ربِّ العالمين، فاما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها، وحكمه العادل لنا، وثبوا علينا ظالما وحسدا منهم لنا، وبغيا لما فضلنا الله به عليهم، وأكرمنا به من خلافته، وميراثِ نبيه صلى الله عليه وسلم :

جَهْلًا عَلَى وَجْبِنَا عَنْ عُدُوهُمْ لَبِئْسَتِ الْخَلِئْتَانِ الْجَهْلُ وَالْجُبْنُ

فإني والله يأهل خراسان ما أتيتُ من هذا الأمر ما أتيتُ بجهالة، بلغني عنهم بعض السَّقمِ والتعرُّم^(٣)، وقد دسَّستُ لهم رجالا، فقلت: قم يا فلان، قم يا فلان، نخذ معك من المال كذا، وخذوتُ لهم مثالا يعملون عليه، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة، فدسَّسوا إليهم تلك الأموال، فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب، ولا صغير ولا كبير، إلا بايعهم بيعةً استحلَّتْ بها دماءهم وأموالهم، وحلَّتْ لي عند ذلك بنقضهم بيعتي، وطلبهم الفتنة، والتماسهم الخروجَ على، فلا يرون أني أتيت ذلك على غير يقين» ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية

[١] نأر . [٢] موضع بين دمشق والمدينة (الكرك الآن) .

[٣] الأصل فيه: تعرّبه: تعرّقه ونزع ما عليه من اللحم .

« وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ » . (تاريخ الطبري ٩ : ٣١٢ ، و مروج الذهب ٢ : ٢٤١)

٢٦ - خطبته حين خروج محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن

ولما خرج محمد وإبراهيم ابنا عبد الله ، شنَّ^(١) المنصور عليه درعه ، وتقلَّد سيفه ، وصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ثم قال :

مَالِي أَكْفَكِ عَنْ سَعْدٍ وَتَشْتُمْنِي ؟ لَوْ شِئْتُمْ بَنِي سَعْدٍ لَقَدْ سَكَنُوا
جَهْلًا عَلَيْنَا وَجُبْنَا عَنْ عَدُوهُمْ لَبِئْسَتْ أَخْلَتَانِ الْجَهْلُ وَالْجُبْنُ
أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ عَجَزُوا عَمَّا قَنَانَا بِهِ ، فَا عَضَدُوا السَّكْفِيَّ ، وَمَا شَكَرُوا الْمُنْعِمَ ، فَإِذَا
حَاولُوا أَشْرَبَ رَنْقًا عَلَى غَصَصٍ ، وَأَيَّدَتْ مِنْهُمْ عَلَى مَضَضٍ ، كَلَّا وَاللَّهِ لَا أَصِلُ ذَا
رَحِمٍ حَاولَ قَطِيعَتِهَا ، وَلَئِنْ لَمْ يَرْضَ بِالْعَفْوِ لِيَطْلُبَنَّ مَا لَمْ يَوْجِدْ عِنْدِي ، فَلْيُبْقِ ذُو
نَفْسٍ عَلَى نَفْسِهِ ، قَبْلَ أَنْ تَمُضِيَ ، فَلَا يُبْكِي عَلَيْهِ » . (مواسم الأدب ٢ : ١١٩)

٢٧ --- خطبته وقد قتل أبا مسلم الخراساني

وخطب بالمدائن عند قتل أبي مسلم الخراساني^(٢) ، فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ . لَا تَخْرُجُوا مِنْ أُنْسِ الطَّاعَةِ إِلَى وَخْشَةِ الْمَعْصِيَةِ ، وَلَا تُسْرِثُوا
غَشَّ الْأُمَّةِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يُسْرِثْ أَحَدٌ قَطُّ مُنْكَرَةً إِلَّا ظَهَرَتْ فِي آثَارِهِ ، وَفَلَّتَاتِ
لِسَانِهِ ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ ، وَأَبْدَاهَا اللَّهُ لِأَمَامِهِ ، بِإِعْزَازِ دِينِهِ ، وَإِعْلَاءِ حَقِّهِ ، إِنْ

[١] شنَّ عليه درعه : صبَّها . [٢] قتل أبو مسلم سنة ١٣٧ ، وذلك أن المنصور كان قد أرسله لحرب عمه عبد الله بن عليّ - وكان قد خرج عليه بالشأم كما سيأتي - فلما ظفر أبو مسلم ، وغنم جميع ما كان في عسكر عبد الله ، وانزعم عبد الله إلى البصرة ، أرسل المنصور بعض خدمه للحفاظ على ما في العسكر من الأموال ، فغضب أبو مسلم ، وقال : أمين على الدماء ، خائن في الأموال ! وشتم المنصور ، وعزم على الخلاف ، وأن يتوجه إلى خراسان ، فجعل المنصور يتلطف به حتى استفدمه إليه وقتله .

لَنْ نَبْخَسَكُمْ حَقُوقَكُمْ ، وَلَنْ نَبْخَسَ الدِّينَ حَقَّهُ عَلَيْكُمْ ، إِنَّهُ مِنْ نَارِ عَنَا عُرُوقَ
هَذَا الْقَمِيصِ أَجْزَرَنَا حَيٌّ هَذَا النِّعْمِدُ ، وَإِنْ أَبَا مَسْلَمَ بَايَعَنَا وَبَايَعَ النَّاسَ لَنَا ، عَلَى
أَنَّهُ مِنْ نَكْتِ بِنَا فَقَدْ أَبَاحَ دَمَهُ ، ثُمَّ نَكْتِ بِنَا ، فَحَكَمْنَا عَلَيْهِ لِأَنفُسِنَا حُكْمَهُ
عَلَى غَيْرِهِ لَنَا ، وَلَمْ تَمْنَعْنَا رِعَايَةَ الْحَقِّ لَهْ ، مِنْ إِقَامَةِ الْحَقِّ عَلَيْهِ .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٣١٣ ، وجمع الأمثال ١ : ٣١٨ ، ومواسم الأدب ٢ : ١٢٠)

٢٨ - خطبة أخرى

وخطب فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، لَا تَنْفَرُوا أَطْرَافَ النِّعْمَةِ بِقَلَّةِ الشُّكْرِ ، فَتَحُلَّ بِكُمْ النِّقْمَةُ ،
وَلَا تَسْتُرُوا غِشَّ الْأُمَّةِ ، فَإِنْ أَحَدًا لَا يَسْتَرُ مُنْكَرًا إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ ،
وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ ، وَطَوَالِعِ نَظَرِهِ ، وَإِنَّا لَإِنْجَهَلُ حَقُوقِكُمْ مَا عَرَفْتُمْ حَقًّا ، وَلَا نَنْسَى
الإِحْسَانَ إِلَيْكُمْ مَا ذَكَرْتُمْ فَضْلَنَا ، وَمَنْ نَارَعَ عَنَا هَذَا الْقَمِيصَ أَوْ طَأْنَا أُمَّ رَأْسِهِ
خَبْءٌ ^(١) هَذَا النِّعْمِدُ ، وَالسَّلَامُ . » (موسم الأدب ٢ : ١٢٠)

٢٩ - قوله وقد قوطع في خطبته

وخطب يوم الجمعة ، فقال :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ أَحْمَدُهُ ، وَأَسْتَعِينُهُ ، وَأُوهِنُ بِهِ ، وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ
إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ : أَيُّهَا النَّاسُ ، اتَّقُوا اللَّهَ ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ ، فَقَالَ :
أَذْكَرُّكَ مِنْ ذَكَرْتَنَا بِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَطَعَ الْخُطْبَةَ ، ثُمَّ قَالَ : « سَمِعًا سَمِعًا
لِمَنْ فَهَمَ عَنِ اللَّهِ ، وَذَكَرَّ بِهِ ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ جَبَّارًا عَنِيدًا ، وَأَنْ تَأْخُذَنِي
الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ، لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذْنًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ، وَأَنْتَ أَيُّهَا الْقَائِلُ ، فَوَاللَّهِ

[١] الحبء : ما خبي .

ما أردت بها وجه الله ، ولكنك حاولت أن يقال : قام فقال ، فعوقب فصبر ، وأهون بها ! ويلك لو هممت^(١) ! فاهتبلها^(٢) إذ غفرت ، وإياك وإياكم معشر الناس أختها ، فإن الحكمة علينا نزلت ، ومن عندنا فصلت ، فرُدوا الأمر إلى أهله ، تُوردوه موارده ، وتُصدروه مصادره » ثم عاد في خطبته ، فكان أنه يقرؤها من كفه ، فقال ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

(تاريخ الطبري ٩ : ٣١١ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٥ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٦ ،
والكامل لابن الأثير ٦ : ١٢ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٦٢)

٣٠ المنصور يصف خلفاء بني أمية

واجتمع عند المنصور أيام خلافته جماعة من ولد أبيه ، منهم عيسى بن موسى والعباس بن محمد وغيرهما ، فتذاكروا خلفاء بني أمية ، والسبب الذي به سلبوا عزهم ، فقال المنصور :

« كان عبد الملك جبّاراً لا يُبالي ما صنع ، وكان الوليد لحاناً مجنوناً ، وكان سليمان همته بطنه وفرجه ، وكان عمر أعرور بين عُميان ، وكان هشام رجل القوم ، ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مُهد لهم من السلطان ، يحوطونه ويصونونه ويحفظونه ، ويحرسون ما وهب الله لهم منه ، مع تسئهم معالي الأمور ، ورفضهم أدانيها ، حتى أفضى أمرهم إلى أحداثٍ مُترفين من أبناءهم ، فغمطوا^(٣) النعمة ، ولم يشكروا العافية ، وأساءوا الرعاية ، فابتدأت النعمة منهم ، باستدراج الله إياهم ، آمين مكره ، مُطرحين صيانة الخلافة ، مستخفين بحق الرياسة ، ضعيفين عن رسوم السياسة ، فسلبهم الله العزة ، وألبسهم الذلّة ، وأزال عنهم النعمة .»

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٢١٥)

[١] أي لو هممت بمقابلك . [٢] اغتمها . [٣] غمط النعمة : بطرها وحقرها .

٣١ - المنصور يصف عبد الرحمن الداخل

وقال المنصور يوماً لأصحابه : أخبروني عن صقر قريش ، من هو ؟ قالوا :
أمير المؤمنين ، الذي راض^(١) الملك ، وسكن الزلازل ، وحسم الأدواء ، وأباد
الأعداء ، قال : ما صنعتُم شيئاً ، قالوا : معاوية ، قال : ولا هذا ، قالوا : فعبد الملك
ابن مروان ، قال : ولا هذا ، قالوا : فمن يا أمير المؤمنين ؟ قال : عبد الرحمن بن
معاوية^(٢) ، الذي عبّر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلدًا أعجميًا مُفردًا ، فصّر
الأمصار ، وجنّد الأجناد ، ودوّن الدواوين ، وأقام مُلكًا بعد انقطاعه ، بحسن
تدبيره ، وشدة شكيمته ، إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان ،
وذللًا له صعبه ، وعبد الملك بيعة تقدم له عقدها ، وأمير المؤمنين بطلب غيره
واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه .
(العقد الفريد ٢ : ٣٠٢)

وصايا المنصور لابنه المهدي

٣٢ - وصية له

قال المنصور لابنه المهدي : « يا بُنَيَّ لا تُبْرِمَ أمرًا حتى تفكر فيه ، فإن
فكرة العاقل مرآته ، تربه حسناته وسيئاته ، واعلم أن الخليفة لا يصلحه إلا
التقوى ، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة ، والرعية لا يصلحها إلا العدل ، وأولى
الناس بالعمو أقدروهم على العقوبة ، وأتقص الناس عقلًا من ظلم من هو دونه .
(نهاية الأرب ٦ : ٤١ ، والعقد الفريد ١ : ١٤)

[١] ذال . [٢] هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل
مؤسس دولة بني أمية بالأندلس وسياتي .

٣٣ - وصية أخرى له

ووصاه فقال له : «إني لم أدع شيئاً إلا قد تقدمت إليك فيه ، وسأوصيك
بخصال والله ما أظنك تفعل واحدة منها - وكان له سَفَط فيه دَفَاتر عامه ، وعليه
قُفْل لا يأمن على فتحه ومفتاحه أحداً ، يَصُرُّ مفتاحه في كُمِّ قيصه - فقال
للمهدى : انظر هذا السفط فاحتفظ به ، فإن فيه علم آباءك ما كان وما هو كائن
إلى يوم القيامة ، فإن أحزنتك أمره فانظر في الدِّقتر الأكبر ، فإن أصبت فيه ما تريد ،
وإلا فالثاني والثالث حتى بلغ سبعةً ، فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة ، فإنك
واجدٌ فيها ما تريد ، وما أظنك تفعل ، وانظر هذه المدينة فإباك أن تستبدل بها ،
فإنها بيتك وعزك ، قد جمعتُ لك فيها من الأموال ، ما إن كسر عليك الخراج
عشر سنين ، كان عندك كفايةً للأرزاق الجند والنفقات ، وعطاء الذرية ، ومصاحبة
الشعور ، فاحتفظ بها فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً ، وما أظنك
تفعل ، وأوصيك بأهل بيتك ، أن تُظهر كرامتهم وتُقدمهم ، وتُكثر الإحسان
إليهم ، وتعظم أمرهم ، وتُوطي الناس أعقابهم ، وتوليهم المنابر ، فإن عزك عزهم ،
وذكرهم لك ، وما أظنك تفعل ، وانظر مواليك فأحسن إليهم ، وقربهم ،
واستكثر منهم ، فإنهم مادّتك لشدة إن نزلت بك ، وما أظنك تفعل ،
وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بدّلوا أموالهم في
دوانك ، ودماهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تُحسن إليهم ،
وتتجاوز عن مُسيئهم ، وتُكافئهم على ما كان منهم ، وتُخلف من مات منهم في
أهله وولده ، وما أظنك تفعل ، وإياك أن تبني مدينة الشرقية ، فإنك لا تُتم
بناءها ، وما أظنك تفعل ، وإياك أن تستعين برجل من بني سليم ، وأظنك

ستفعل ، وإياك أن تُدخِل النساء في مَشورتك في أمرِك ، وأظنك ستفعل »
(تاريخ الطبرى ٩ : ٣١٩)

٣٤ - وصية أخرى له

ووصى المهدي^١ أيضاً ، فقال : « اتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدى ، يجعل لك فيما كَرَبك وَحَزَنك مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقك السلامةَ وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب ، احفظ يا بنى محمدأ صلى الله عليه وسلم في أمته ، يحفظ الله عليك أمورَك ، وإياك والدمَ الحرام ، فإنه حُوب^(١) عند الله عظيم ، وعار في الدنيا لازم مقيم ، والزم الحلال ، فإن فيه ثوابك في الآجل ، وصلاحك في العاجل ، وأقم الحدود ، ولا تَعْتَدِ فيها فتبور^(٢) ، فإن الله لو علم أن شيئاً أصلح لدينه ، وأزجرَ عَن معاصيه من الحدود ، لأمرَ به في كتابه ، واعلم أنه من شدة غضب الله لسلطانه أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى في الأرض فساداً ، مع ما ذخر له عنده من العذاب العظيم ، فقال : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » ، فالسلطان يابنى^٣ حبلُ الله المتين ، وعُرْوته الوثقى ، ودين الله القيم ، فاحفظه وحطه ، وحصنه وذُبْ عنه ، وأوقع بالمُجددين فيه ، واقمع المارقين منه ، واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم ، والمثلات^(٣) بهم ، ولا تجاوز ما أمر الله به في مُحكم القرآن ، واحكم بالعدل ولا تُشَطِطْ ، فإن ذلك أقطع للشغب ، وأحسم للعدو ، وأنجع في

الدواء ، وَعَفَّ عن النَّيءِ ، فليس بكِ إليه حاجة مع ما أخلفه لك ، وافتتح عملك
 بصلة الرَّحِمِ وِبرِّ القِرابَةِ ، وإياك وَالْأَثَرَةَ ، والتبذير لأموال الرعية ، وَاشْحَنَ (١)
 الثغور ، وَاضْبَطَ الأطراف ، وَأَمَّنَ السُّبُلَ ، وَخَصَّ الواسِطَةَ (٢) ، وَوَسَّعَ المعاش ،
 وَسَكَّنَ العامة ، وَأَدْخَلَ المرافقِ عليهم ، وَأَصْرَفَ المكاره عنهم ، وَأَعَدَّ الأموال
 واخزنها ، وإياك والتبذيرَ ، فَإِنَّ النوائِبَ غير مأمونة ، والحوادث غير مضمونة ،
 وهى من شيمِ الزمان ، وَأَعَدَّ الرجالِ وَالكَرَاعَ (٣) والجند ما استطعت ، وَإِياكِ
 وتأخيرِ عمل اليوم إلى غد ، فتتدارك عليك الأمورُ وَتَضِيعُ ، جِدُّ فى إحكامِ الأمورِ
 النازلات لأوقاتها أَوْ لا فأولا ، وَاجتهدِ وَشَمِّرْ فيها ، وَأَعْدِدِ رجالا بالليل لمعرفة
 ما يكون بالنهار ، ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، وبأشرِ الأمورِ بنفسك
 وَلَا تَضَجِرْ ، وَلَا تَكْسَلْ ، وَلَا تَفْشَلْ ، وَاسْتَعْمَلْ حَسْنَ الظنِّ بِرَبِّكَ ، وَأَسْبِئْ
 الظنِّ بعمالِكَ وَكُتَّابِكَ ، وَخِذْ نَفْسَكَ بِالتَّيَقُّظِ ، وَتَفَقَّدْ مَنْ يَبِيْتُ عَلَى بابِكَ ،
 وَسَهِّلْ إِذْنَكَ لِلنَّاسِ ، وَانظُرْ فى أَمْرِ النَّزَّاعِ إِليكِ ، وَوَكِّلْ بِهِمْ عَيْنًا غير نائمة ،
 وَنَفْسًا غير لاهية ، وَلَا تَنَمَّ فَإِنَّ أَبَاكَ لَمْ يَنَمْ مِنْذُ وَلِيَّ الخِلافةِ ، وَلَا دَخَلَ عَيْنَهُ
 غَمُضٌ إِلَّا وَقَلْبُهُ مُسْتَيْقِظٌ ، هَذِهِ وَصِيَّتِي إِليكِ ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَيْكَ .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٣٢٠)

٣٥ — خطبة النفس الزكية حين خرج على المنصور

لما خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الملقب
 بالنفس الزكية (٤) على المنصور ، قام على منبر المدينة ، فحمد الله ، وأثنى عليه ،
 ثم قال :

[١] أى املاها بالمدافعة . [٢] التوسطة . [٣] الكراع : اسم يجمع الخيل .
 [٤] كان بنو هاشم — الطالبيون والعباسيون — قد اجتمعوا أخريات العصر الأموى ، وتذاكروا حالهم

« أيها الناس : إنه قد كان من أمر هذا الطاغية أبي جعفر من بنائه القبة الخضراء ، التي بناها معاندةً لله في ملكه ، وتصغيره الكعبة الحرام ، وإنما أخذ الله فرعونَ حين قال : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » . وإن أحقَّ الناس بالقيام في هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين ، والأنصار المُواسين ، اللهم إنهم قد أحلُّوا حرامك ، وحرَّموا حلالك ، وَعَمِلُوا بغير كتابك ، وَغَيَّرُوا عهدَ نبيك صلى الله عليه وسلم ، وآمَنُوا من أَخَفَّتْ ، وَأَخَافُوا من آمَنْتَ ، فَأَحْصِهِم عَدَدًا ، وَأَقْتُلْهُمْ بَدَدًا ^(١) ولا تُبْقِ على الأرض منهم أحدًا » . (ذيل الأملئ ص ١٢١)

٣٦ - وصية عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي لابنه محمد (أو إبراهيم)

ووصى عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ابنه محمدًا النفس الزكية (أو إبراهيم) ، فقال :

« أَيُّ بُنْيٍّ ، إِنِّي مُؤَدِّحٌ حَقَّ اللهُ فِي تَأْدِيْبِكَ ، فَأَدِّإِ إِلَى حَقِّ اللهُ فِي الْاسْتِمَاعِ مِنِّي ،

وما هم عليه من الاضطهاد ، وما قد آل إليه أمر بني أمية من الاضطراب ، وانفقوا على أن يدعوا الناس إليهم سرا ، ثم قالوا لا بد لنا من رئيس نبايعه ، فانفقوا على مبايعة النفس الزكية ، وكان من سادات بني هاشم ورجالهم فضلا وشرفا وعلما ، وشاء القدر أن يظفر العباسيون بالخلافة ، فولها السامح ثم المنصور ، ولم يكن للمنصور هم مسد تبوأ عرشها سوى طلب النفس الزكية ليقته ، وأعرأه بذلك أن الناس كانوا شديدى الميل إليه ، وكانوا يعتمدون فيه الفضل والشرف والرياسة ، فطلبه المنصور هو وأخاه إبراهيم من أبيهما عبد الله بن الحسن ، فقال : لا علم لى بهما - وكانا قد نغيبا خوفا منه - فلما أطل عليه ، قال : كم نطول ؟ والله لو كانت تحت قدمى ، لما رفعتهما عنهما ، سبحان الله ! آتيك بولدى لتقتلها ! فقبض عليه ، وعلى أهله من بني الحسن وحبيهم فى سجن الكوفة حتى ماتوا فيه كما تقدم ، ولم يزل النفس الزكية متغربا منذ أفضت الدولة إلى بني العباس خوفا منهم على نفسه ، فلما علم بما جرى لوالده واقومه ظهر بالمدينة وأظهر أمره ، وتبته أعيان المدينة ، ثم غلب عليها ، وعزل عنها أميرها ، ورتب عليها طاملا وفاضيا ، فوجه المنصور لقتاله جيشا بقيادة ابن أخيه عيسى بن موسى ، فكانت الغلبة لعسكر المنصور ، وقتل النفس الزكية ، وحمل رأسه إلى المنصور سنة ١٤٥ هـ . [١] متبدين : متفرقين .

أى بنى كُفَّ الأذى ، وارفض البذا^(١) ، واستعن على الكلام بطول الفكر ، فى المواطن التى تدعوك فيها نفسك إلى الكلام ، فإن للقول ساعاتٍ يضر فيها الخطأ ، ولا ينفع فيها الصواب ، واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً ، كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشياً ، لأنه يُرديك بمشورته ، واعلم يا بنى أن رأيك إذا احتجت إليه وجدته ناعماً ، ووجدت هواك يقظاناً ، فإياك أن تستبدَّ برأيك ، فإنه حينئذ هواك ، ولا تفعل فعلاً إلا وأنت على يقين أن عاقبته لا تُرديك ، وأن نتيجته لا تجني عليك » . (زمر الآداب ١ : ٩٢ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٠ ، ٢ : ٨٨)

٣٧ - قول عبد الله بن الحسن وقد قتل ابنه محمد

ولما قتل المنصور ابنه محمداً - وكان عبد الله فى السجن - بعثَ برأسه إليه مع الربيع حاجبه ، فوضع بين يديه ، فقال :
رَحِمَكَ اللهُ أبا القاسم ، فقد كنت من « الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَتَّقُونَ الْمِيثَاقَ ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ » ، ثم تمثل :

فَتَى كَانَ يَحْمِيهِ عَنِ الذِّلِّ سَيْفُهُ وَيَكْفِيهِ سَوَاءَ الْأُمُورِ اجْتِنَابُهَا

ثم التفت إلى الربيع ، فقال له : « قل لصاحبك قد مضى من بؤسنا مدة ، ومن نعيمك مثلها ، والموعِدُ اللهُ تعالى » قال الربيع : فما رأيتُ المنصور قطُّ أكثرَ انكساراً منه حين أبلغته الرسالة . (زمر الآداب ١ : ٩٥)

٣٨ - امرأة محمد بن عبد الله والمنصور

ولما قتل المنصور محمد بن عبد الله ، اعترضته امرأة معها صبيان ، فقالت :

[١] البناء : السفه والإفخاش فى المنطق .

« يا أمير المؤمنين ، أنا امرأة محمد بن عبد الله ، وهذان ابناه ، أَيْتَمَهُمَا سَيْفُكَ ، وَأَضْرَعَهُمَا ^(١) خَوْفُكَ ، فَنَاشَدْتُكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَصْعَرَ لَهُمَا خَدَّكَ ، فَيُنْأَى عَنْهُمَا رِفْدُكَ ، أَوْ لَتَعَطِفِكَ عَلَيْهِمَا شَوْابِكُ النَّسَبِ ، وَأَوَاصِرُ ^(٢) الرَّحِمِ » .

فالتفت إلى الربيع ، فقال : أَرُدُّ عَلَيْهِمَا ضِيَاعَ أَبِيهِمَا ، ثُمَّ قَالَ : كَذَا وَاللَّهِ أَحِبُّ أَنْ تَكُونَ نِسَاءً بَنِي هَاشِمٍ . (زهر الآداب ١ : ٩٦)

٣٩ - جعفر الصادق والمنصور

وكان أهل المدينة لما ظهر محمد بن عبد الله ، أجمعوا على حرب المنصور ونصر محمد ، فلما ظفر المنصور أحضر جعفرًا الصادق ^(٣) بن محمد الباقر ، فقال له : قد رأيت إطباق أهل المدينة على حربى ، وقد رأيت أن أبعث إليهم من يعور ^(٤) عيونهم ، ويحمر ^(٥) نخلهم ، فقال له جعفر : « يا أمير المؤمنين ، إن سليمان أعطى فشكر ، وإن أيوب ابتلى فصبر ، وإن يوسف قدر فغفر ، فاقتد بأيتهم شئت ، وقد جعلك الله من نسل الذين يعفون ويصفحون » ، فقال أبو جعفر : « إن أحداً لا يعلمنا الحلم ، ولا يعرفنا العلم ، وإنما قلت هممت ، ولم ترنى فعلت ، وإنك لتعلم أن قدرتى عليهم تمنعنى من الإساءة إليهم » . (زهر الآداب ١ : ٩٦)

* * *

وروى صاحب العقد قال :

[١] أذلها . [٢] أواصر جمع آصرة ، والآصرة : جبل صمير يشد به أسفل الحباء (وهى أيضاً الرحم والقرابة) . [٣] هو أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين عليه السلام وتوفى سنة ١٤٨ . [٤] فى الأصل « ينور » وأراه محرفاً ، وقد أصلحته « يمور » يقال : عور البئر أى طمها ، وسد عيونها التى ينبع منها الماء . [٥] جمر النحل : قطع جماره .

لما حج المنصور مبراً بالمدينة ، فقال للربيع الحاجب : عليّ بجعفر بن محمد ، قتلني الله إن لم أقتله ، ففطّل به ، ثم ألح عليه ، فخر ، فلما كشف الستر بينه وبينه ، ومثّل بين يديه ، همّس جعفر بشفتيه ، ثم تقرب وسلّم ، فقال : « لاسلم الله عليك يا عدوّ الله ، تعمل على الغوائل في ملكي ؟ قتلني الله إن لم أقتلك » . قال : « يا أمير المؤمنين ، إن سليمان صلى الله على محمد وعليه أعطى فشكر ، وإن أيوب ابْتُلِيَ فصبّر ، وإن يوسف ظُلم فغفر ، وأنت على إرثٍ منهم ، وأحقّ من تأسّى بهم » ، فنكس أبو جعفر رأسه مائلاً ، وجعفر واقف ، ثم رفع رأسه ، وقال : « إلىّ أبا عبد الله فانت القريب القرابة ، وذو الرحم الواشجة ^(١) ، السليم الناحية ، القليل الغائلة » ، ثم صاحفه يمينه ، وعانقه بشماله ، وأجلسه معه على فراشه ، وانحرف له عن بعضه ، وأقبل عليه بوجهه يحادثه ويسأله ، ثم قال : يا ربيع ، عجّل لأبي عبد الله كسوته وجأزته وإذنه . (العقد الفريد ١ : ١٤٥)

٤ . - صفح المنصور عن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ولما داهن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب في شأن إبراهيم بن عبد الله ^(٢) ، وصار إلى المنصور ، أمر الربيع بخلع سواده ، والوقوف به على رؤس اليمانية في المقصورة يوم الجمعة ، ثم قال : قل لهم :

« يقول لكم أمير المؤمنين قد عرفتم ما كان من إحساني إليه ، وحسن بلائي ، وقديم نعمتي عليه ، والذي حاول من الفتنة ، ورام من البغي ، وأراد من شق العصا ، ومعاونة الأعداء ، وإراقة الدماء ، وإنه قد استحق بهذا من

[١] القرية : المشبكة . [٢] هو إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، أخو النفس الزكية ، وقد خرج على المنصور بالبصرة ، فوجه إليه المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى بعد رجوعه من قتال النفس الزكية فقاتله وقتل إبراهيم في المعركة سنة ١٤٥ هـ .

فعله ، أليم العقاب ، وعظيم العذاب ، وقد رأى أمير المؤمنين إتمام بلائه الجميل لديه ، وَرَبِّ (١) نَعْمَانَهُ السَّابِقَةَ عنده ، لما يتعرفه أمير المؤمنين من حسن عائدة الله عليه ، وما يومئله من الخير العاجل والآجل ، عند العفو عمن ظلم ، والصفح عمن أساء ، وقد وهب أمير المؤمنين مُسِيئَتَهُمْ لِحُسْنِهِمْ ، وغادرهم لَوَفِيَّتِهِمْ .

(البيان والتبيين ٣ : ١٨٥)

٤١ — استعطاف أهل الشام أبا جعفر المنصور

ولما انهزم عبد الله بن عليّ (٢) من الشام ، قَدِمَ على المنصور وَوَفِدَ منهم ، فقام عِدَّةٌ منهم ، فتكلموا ، ثم قام الحارث بن عبد الرحمن الغفاريّ ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنا لسنا وقد مباهاة ، وإنما نحن وقد تَوَبَّه ، وإنا ابتلينا بفتنة استخفّت كريمنا ، واستفزّت حليمنا ، ونحن بما قدّمنا مُعْتَرِفُونَ ، ومما سَلَفَ منامُعتدرون ، فإن تُعَاقِبْنَا فما أَجْرَمْنَا ، وإن تعفُ عَنَّا فبفضلِكَ علينا ، فاصفحَ عَنَّا إذ ملكتَ ، وامننْ إذ قَدَرْتِ ، وَأَحْسِنِ إذ ظَفَرْتِ ، فطالما أحسنتَ إلى من أساء مِنَّا » ، فقال المنصور : قد فعلت ، ثم قال للحرسيّ : هذا خطيبهم ، وأمر برد ضياعه عليه بِالْعُوطَةِ (٣) .

(العقد المرید ١ : ١٤٤ ، وتاريخ الطبري ٩ : ٣٠٧ ، وزهر الآداب ٣ : ١٨)

[١] رب الشيء : جمعه وزاده ، ورب الصبي : ربه حتى أدرك .

[٢] هو عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن عباس عم المنصور ، وكان قد خرج عليه بالشأم ، وقال : إرد السفاح قال لي إن ظهرت على مروان الجعدى — وكان السفاح أرسله لقتال مروان بالشأم — فأنت ولى المهدي بعدى ، وشهد له جماعة بذلك . فأرسل المنصور أبا مسلم الخراساني لمحاربه فهزبه ، وهرب عبد الله إلى البصرة ، ونزل على أخيه سليمان بن علي ، فشفع فيه سليمان إلى المنصور فأمنه ، فاجاء إليه حبسه ومات وحبسه ، وقيل لأنه بنى له بيتا ، وجعل في أساسه ملحاً ، ثم أُجْرِى الماء فيه ، فسقط البيت عليه فمات .

[٣] كورة دمشق .

٤٢ - استعطف أهل الشام أبا جعفر المنصور أيضا

وقال عثمان بن حُزَيم للمنصور ، حين عفا عن أهل الشام في إجلابهم ^(١) مع عبد الله بن عليّ عمه : « يا أمير المؤمنين ، لقد أعطيت فشكرت ، وابتليت فصبرت ، وقدّرت فعفوت » .

وقال آخر : « يا أمير المؤمنين ، الانتقام عدلٌ ، والتجاوز فضل ، والمنفضّل قد جاوز حدّ المنصّف ، فنحن نعيذ أمير المؤمنين بالله أن يرَضَى لنفسه بأوكس ^(٢) النصيّين ، دون أن يبلغ أرفع الدرّجتين » .

وقال آخر : « من انتقم فقد شفى غيظ نفسه ، وأخذ أقصى حقّه ، وإذا انتقم فقد انتقصت ^(٣) ، وإذا عفوت تطوّلت ^(٤) ، ومن أخذ حقه ، وشفى غيظه ، لم يجب شكره ، ولم يذكر في العالمين فضله ، وكظّم الغيظ حلم ، والحلم صبر ، والشقى طرّف من المعجز ^(٥) ، ومن رضى ألا يكون بين حاله وبين حال الظالم إلا ستر رقيق ، وحجاب ضعيف ، لم يجزم في تفضيل الحلم ، وفي الاستيثاق من ترك دواعي الظلم ، ولم ترأهل النهى ، والمنسويين إلى الحِجَابِ والثَّقَى ، مدحوا الحكماء بشدة العقاب ، وقد ذكروهم بحسن الصّفح ، وبكثرة الاعتذار ، وشدة النغافل ، وبعدُ فالمعاقب مستعدّ ^(٦) لعداوة أولياء المذنب ، والعاقي مستدعٍ لشكرهم ، آمن من مكافأتهم ^(٧) أيام قدرتهم ، ولأنّ يُثَنَّى عليك باتساع الصدر ، خير من أن يُثَنَّى عليك بضيق الصدر ^(٨) ، على أن إقالتك عثرة عباد الله ،

[١] في الأصل « إجلابهم » وهو تحريف ، والصواب « إجلابهم » أي في فتنهم وهياجهم من الجلبة بالتحريك وهي الصياح . [٢] من الوكس كوعد : وهو النقصان .

[٣] أي انتقس حَقُّك بخروجها عليك ، حَقُّك لك الانتقام منا لأخذ حَقِّك .

[٤] تطوّلت عليه : امتنّ وتفضل . [٥] وفي زهر الآداب : « من الجزع » .

[٦] وفي زهر الآداب : « مستودع » . [٧] مجازاتهم .

[٨] وفي زهر الآداب : « خير من أن توصف بضيقه » .

مُوجِبٌ لِإِقَاتِنِكَ عَثْرَتِكَ مِنْ رَبِّ عِبَادِ اللَّهِ ، وَعَفْوِكَ عَنْهُمْ مَوْصُولٌ بِعَفْوِ اللَّهِ عَنْكَ ، وَعِقَابِكَ لَهُمْ مَوْصُولٌ بِعِقَابِ اللَّهِ لَكَ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٥ ، وزهر الآداب ٣ : ٨٨)

٤٣ - أبو جعفر المنصور والربيع

وقال سعيد بن مسلم بن قُتَيْبَةَ : دعا المنصور بالربيع ^(١) ، فقال : سَلَّمَنِي مَا تَرِيدُ ، فَقَدْ سَكَتٌ حَتَّى نَطَقْتَ ، وَخَفَّفْتَ حَتَّى ثَقَلْتَ ، وَقَلَّتَ حَتَّى أَكْثَرْتَ ، فَقَالَ : « وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا أَرْهَبُ بِمُخْلِكَ ، وَلَا أَسْتَقْصِرُ عُمْرَكَ ، وَلَا أَسْتَصْغِرُ فَضْلَكَ ، وَلَا أَعْتَمُّ مَالِكَ ، وَإِنْ يَوْمِي بِفَضْلِكَ عَلَيَّ أَحْسَنُ مِنْ أَمْسِي ، وَغَدُوكَ فِي تَأْمِيلِي أَحْسَنُ مِنْ يَوْمِي ، وَلَوْ جَازَأَن يَشْكُرُكَ مِثْلِي بغيرِ ائْتِدَمَةِ وَالْمَنَاصِحَةِ لَمَا سَبَقَنِي لِذَلِكَ أَحَدٌ » قَالَ : صَدَقْتَ ، عَلِمِي بِهَذَا مِنْكَ أَحَلَّكَ هَذَا الْمَحَلَّ ، فَسَلَّمَنِي مَا شِئْتِ ، قَالَ : أَسْأَلُكَ أَنْ تَقَرَّبَ عَبْدُكَ « الْفَضْلُ » ^(٢) وَتُوَثِّرَهُ وَتَجِبَّهُ ، قَالَ : يَارَبِيعُ ، إِنْ الْحُبُّ لَيْسَ بِمَالٍ يُوهَبُ ، وَلَا رِيبَةٌ تُبَدَّلُ ، وَإِنَّمَا تَوَكَّدُهُ الْأَسْبَابُ ، قَالَ : فَاجْعَلِي لِي طَرِيقًا إِلَيْهِ ، بِالْتَفَضُّلِ عَلَيْهِ ، قَالَ : صَدَقْتَ ، وَقَدْ وَصَلْتُهُ بِأَلْفِ دَرَاهِمٍ ، وَلَمْ أَصِلْ بِهَا أَحَدًا غَيْرَ مُعْمُومَتِي ، لَتَعْلَمَ مَالَهُ عِنْدِي ، فَيَكُونُ مِنْهُ مَا يَسْتَدْعِي بِهِ مَحَبَّتِي ، قَالَ : فَكَيْفَ سَأَلْتَ لَهُ الْمَحَبَّةَ يَارَبِيعُ ؟ قَالَ : لِأَنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ ، وَمِغْلَاقُ كُلِّ شَرٍّ ، تُسْتَرِّبُهَا عِنْدَكَ عِيُوبُهُ ، وَتُصَيِّرُ حَسَنَاتِي ذُنُوبُهُ ، قَالَ : صَدَقْتَ .

(زهر الآداب ٢ : ١٦٣)

[١] هو أبو الفضل الربيع بن يونس ، وزر المنصور ، وكان مهيباً فصيحاً كافياً حازماً فظناً ، ولم يزل وزيراً للمنصور إلى أن مات للمنصور . وقام الربيع بأخذ البيعة المهدي ، ثم سعى بأعدائه إلى الهادي ، فقتله سنة ١٧٠ هـ . [٢] هو ابنه الفضل بن الربيع ، وقد وزر للرشيد بعد البرامكة ، ولابنه الأمين كما سيأتي .

٤٤ — مقام عمرو بن عبید بین یدی المنصور

دخل عمرو^(١) بن عبید علی المنصور بعد ما بايع للمهدى ، فقال له : يا أبا عثمان ، هذا ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد الساميين ، فقال له عمرو : يا أمير المؤمنين ، أراك قد وطّدت له الأمور ، وهى تصير إليه ، وأنت عنه مستؤل ، فاستعبر المنصور ، وقال له : عِظْنِي يا عمرو ، قال : «يا أمير المؤمنين : إن الله أعطاك الدنيا بأمرها ، فاشترِ نفسك منها ببعضها ، وإن هذا الذى فى يديك ، لو بقى فى يد غيرك ، لم يصل إليك ، فأحذر ليلةً تَمَخَّضُ عن يوم لا ليلة بعده ، فوجم أبو جعفر من قوله ، فقال له الربيع : يا عمرو ونممت أمير المؤمنين ، فقال عمرو : إن هذا صَحِبَكَ عشرين سنةً ، لم يرَ لك عليه أن يَنْصَحَكَ يوماً واحداً ، وما عمَلَ وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه ، قال أبو جعفر : فما أصنع ؟ قد قلت لك ، خاتمى فى يدك ، فتعال وأصحابك فاكفنى ، قال عمرو : « أدعنا بعدلك ، تسخُ أنفسنا بعونك ، يبابك ألف مظلمة ، أرؤد منها شيئاً نعلم أنك صادق » . (مروج الذهب ٢: ٢٤٣ ، وعيون الأخبار م ٢: ص ٣٣٧ ، ووفيات الأعيان ١: ٣٨٤ ، والعقد الفريد ١: ٣٠٦ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١: ص ١٤٨)

٤٥ — مقام رجل من الزهاد بين یدی المنصور

بينما المنصور يطوف ليلاً إذ سمع قائلاً يقول : اللهم إني أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع ، فخرج المنصور ، فجلس ناحية من المسجد ، وأرسل إلى الرجل يدعوه ، فصلى الرجل ركعتين ، واستلم الركن ، وأقبل مع الرسول ، فسلم عليه بالخلافة ، فقال المنصور : ما الذى سمعتك تذكر من ظهور البغى والفساد فى الأرض ؟ وما الذى يحول بين الحق

[١] من كبار أئمة المعتزلة توفى سنة ١٤٤ هـ .

وأهله من الطمع ؟ فوالله لقد حَشَوْتُ مَسَامِعِي مَا أَرْمَضَنِي ^(١) ، قال : يا أمير المؤمنين إن أَمَّنْتَنِي عَلَى نَفْسِي ، أَنْبَأْتُكَ بِالْأُمُورِ مِنْ أَصُولِهَا ، وَإِلَّا احْتَجَزْتُ مِنْكَ ، وَاقْتَصَرْتُ عَلَى نَفْسِي ، فَفِيهَا لِي شَاغِلٌ ، فقال : أَنْتِ آمِنٌ عَلَى نَفْسِكَ فَقُلْ ، فقال : يا أمير المؤمنين إن الذي دخله الطمع ، حتى حال بينه وبين ما ظهر من البغى والفساد لَأَنْتِ ، قال : ويحك ، وكيف يدخاني الطمع ، والصِّفْرَاءُ وَالْبَيْضَاءُ ^(٢) فِي قَبْضَتِي ، وَالْحَلْوُ وَالْحَامِضُ عِنْدِي ؟ قال : وهل دخل أحدًا من الطمع ما دَخَلَكَ ؟ إن الله تبارك وتعالى استرعاك المسامين وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حِجَابًا مِنَ الْجِصِّ وَالْأَجْرِّ ، وَأَبْوَابًا مِنَ الْحَدِيدِ ، وَحِجَابَةً مَعَهُمُ السَّلَاحُ ، ثُمَّ سَجَّنتِ نَفْسَكَ فِيهَا عَنْهُمْ ، وَبَعَثْتَ عُمَّالَكَ فِي جَبَايَةِ الْأَمْوَالِ وَجَمَعَهَا ، وَقَوَّيْتَهُم بِالرِّجَالِ وَالسَّلَاحِ وَالكَرَاعِ ، وَأَمَرْتَ بِالْأَنْدِخَالِ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْكَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فُلَانٌ وَفُلَانٌ ، نَفَرٌ سَمَّيْتَهُمْ ، وَلَمْ تَأْمُرْ بِإِيصَالِ الْمَظْلُومِ وَلَا الْمَلْهُوفِ ، وَلَا الْجَائِعِ الْعَارِي ، وَلَا الضَّعِيفِ الْفَقِيرِ ، وَلَا أَحَدًا إِلَّا وَهُوَ فِي هَذَا الْمَالِ حَقٌّ ، فَلَمَّا رَأَىكَ هُوًّا لَا النَّفَرَ الَّذِينَ اسْتَخْلَصْتَهُمْ لِنَفْسِكَ ، وَأَثَرْتَهُمْ عَلَى رِعْيَتِكَ ، وَأَمَرْتَ أَلَّا يُحْجَبُوا عَنْكَ ، تَجَبَّيْ الْأَمْوَالِ وَتَجْمَعِهَا وَلَا تَقْسِمِهَا ، قَالُوا : هَذَا قَدْ خَانَ اللَّهُ ، فَمَا بَالُنَا لَا نَخُونَهُ وَقَدْ سَجَّنتِ لَنَا نَفْسَهُ ؟ فَأْتَمَرُوا بِالْأَنْدِخَالِ يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْ عِلْمِ أَخْبَارِ النَّاسِ شَيْءٌ إِلَّا مَا أَرَادُوا ، وَلَا يُخْرِجُكَ لَكَ عَامِلٌ ، فَيُخَالِفُ أَمْرَهُمْ إِلَّا قَصَبُوهُ ^(٣) عِنْدَكَ وَنَفَوَهُ ، حَتَّى تَسْقُطَ مَنْزِلَتُهُ ، وَيَصْغُرُ قَدْرُهُ ، فَلَمَّا انْتَشَرَ ذَلِكَ عَنْكَ وَعَنْهُمْ ، أَعْظَمَهُمُ النَّاسَ وَهَابُوهُمْ ، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ صَانَهُمْ عُمَّالَكَ بِالْهُدَايَا وَالْأَمْوَالِ ، لِيَقْوُوا بِهَا عَلَى ظِلْمِ رِعْيَتِكَ ، ثُمَّ فَعَلَ ذَلِكَ ذُوو الْقُدْرَةِ وَالثَّرْوَةِ مِنْ

[١] أوجعتي وآلمني . [٢] الصفرَاءُ وَالْبَيْضَاءُ : الدنانير والدرهم .

[٣] طابره وشموه ، وفي العقد الفريد : « خوتوه » .

رعيّتك ، لينالوا به ظلم من دونهم ، فامتلات بلادُ الله بالطمع بغيًا وفسادًا ، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك ، وأنت غافل ، فإن جاء متظلم حيلَ بينه وبين دخول مدينتك ، فإن أراد رفعَ قصّته إليك عند ظهورك ، وجدّك قد نهيتَ عن ذلك ، وأوقفتَ للناس رجلا ينظر في مظالمهم ، فإن جاءك ذلك الرجل ، فبلغ بطانتك خبره ، سألوا صاحب المظالم ألا يرفع مظلمته إليك ، فإن المتظلم منه له بهم حرمة ، فأجابهم خوفًا منهم ، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ، ويلوذ به ، ويشكو ويستغيث ، وهو يدفعه ويعتلّ عليه ، فإذا أُجهد وأُخرج وظهرت ، صرّخَ بين يديك ، فضربَ ضربًا مُبرحًا ليكون نكالًا لغيره ، وأنت تنظر فلا تُنكر ، فما بقاء الإسلام على هذا ؟ وقد كنتُ يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين فقدمتها مرةً ، وقد أصيب ملكها بسَمْعِه ، فبكى يومًا بكاءً شديدًا ، فخطّه جلساؤه على الصبر ، فقال : أما إنى لست أبكى للبلية النازلة بي ، ولكنى أبكى لمظلوم بالباب يصرّخ ، ولا أسمع صوته ، ثم قال : أما إذ ذهب سمعى ، فإن بصرى لم يذهب ، نادوا في الناس ألا يلبس ثوبًا أحمرَ إلا متظلم ، ثم كان يركب الفيل طرفي نهاره ، وينظر هل يرى مظلومًا ؟ فهذا يا أمير المؤمنين مُشرك بالله ، غلبت رافقه بالمشركين شحّ نفسه ، وأنت مؤمن بالله ، ثم من أهل بيت نبيه ، لا تغلب رافتك بالمسامين على شحّ نفسك ؟ فإن كنت إنما تجمع المال لولدك ، فقد أراك الله عبرًا في الطفل ، يسقط من بطن أمه ، وماله على الأرض مالٌ ، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه ، فما يزال الله يَلطّف بذلك الطفل ، حتى تعظم رغبة الناس إليه ، ولست بالذى تعطى ، بل الله يعطى من يشاء ما شاء ، وإن قلتَ إنما أجمع المال لتشديد

السلطان ، فقد أراك الله عِبْرًا في بنى أمية ، ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة ، وأعدّوا من الرجال والسلاح والكرّاع ، حتى أراد الله بهم ما أراد ، وإن قلتَ إنما أجمع لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنا فيها ، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلةٌ ، لا تُدرِكُ إلا بخلاف ما أنت عليه يا أمير المؤمنين ، هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل ؟ قال المنصور : لا ، قال : فكيف تصنع بالملك الذي خولك مُلكَ الدنيا ، وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ؟ ولكن بالخلود في العذاب الأليم ، قد رأى ما قد عُقدَ عليه قلبك ، وعمَلتَه جوارحك ، ونظر إليه بصرك ، واجترحتَه (١) يداك ، ومشّت إليه رجلاك ، هل يُغنى عنك ما شححت عليه من مُلك الدنيا إذا انتزعه من يدك ، ودعاك إلى الحساب ؟ فبكى المنصور وقال : يا ليتني لم أُخلَق ، ويحك ! فكيف أحتال لنفسي ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن للناس أعلامًا يفرّعون إليهم في دينهم ، ويرضون بهم ، فاجعلهم بطانتك يرشدوك ، وشاورهم في أمرك يسدّدوك ، قال : قد بعثت إليهم فهربوا مني ، قال : خافوا أن تحملهم على طريقتك ، ولكن افتح بابك ، وسهل حجّابك ، وانصر المظلوم ، واقمع الظالم ، وخذ النىء والصدقات مما حل وطاب ، واقسمه بالحق والعدل على أهله ، وأنا الضامن عنهم أن يأتوك ويُسدّدوك على صلاح الأمة ، وجاء المؤذنون ، فسلموا عليه ، فصلى وعاد إلى مجلسه ، وطُلبَ الرجل فلم يوجد .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٢٣ ، والعقد الفريد ١ : ٣٠٤)

٤٦ - مقام الأوزاعي بين يدي المنصور

قال الأوزاعي (٢) : دخلت على المنصور ، فقال لي : ما الذي بطأ بك عنى ؟

[١] اكتسبته . [٢] هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ، إمام أهل الشام ، ولم يكن بها أعلم منه ولد ببيبلك سنة ٨٨ هـ ، وتوفى سنة ١٥٧ ببيروت ، والأوزاعي : نسبة إلى أوزاع ، وهي بطن من ذى

قلت : يا أمير المؤمنين ، وما الذى تريد منى ؟ فقال : الاقتباس منك ، قلت : أنظر ما تقول ، فإن « مكحولاً ^(١) » حدثني عن عطية بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من بلغه عن الله نصيحة في دينه ، فهي رحمة من الله سيقت إليه ، فإن قبلها من الله بشكر ، وإلا كانت حجة من الله عليه ، يزداد إثماً ، ويزداد الله عليه غضباً ، وإن بلغه شئ من الحق فرضى ، فله الرضا ، وإن سخط فله السخط ، ومن كرهه فقد كره الله ، لأن الله هو الحق المبين » فلا تجهلن ، قال : وكيف أجهل ؟ قال : تسمع ولا تعمل بما تسمع ، قال الأوزاعي : فسل على الربيع السيف ، وقال : تقول لأمر المؤمنين هذا ؟ فأنتهره المنصوو وقال : أمسك ، ثم كلمه الأوزاعي ، وكان في كلامه أن قال :

« إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذى أصبحت به ، والله سائلك عن صغيرها وكبيرها ، وفتيلها ونقيرها ^(٢) ، ولقد حدثني عروة بن رويم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مامن راجع يبيت غاشاً لرعيته إلا حرم الله عليه راحة الجنة » فحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظراً ، ولما استطاع من عوراتهم ساتراً ، وبالقسط فيما بينهم قائماً ، لا يتخوف محسنهم منه رهقاً ^(٣) ، ولا مسيئهم عدواناً ، فقد كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ، ويردع عنه المنافقين ، فاتاه جبريل فتال : « يا محمد ، ماهذه الجريدة بيدك !

الكلاع من البين ، وقيل : بطن من همدان ، وقيل الأوزاع : قرية بدمشق ، ولم يكن عبد الرحمن منهم ، وإنما نزل فيهم ، فذهب إليهم ، وهو من سبي اليمن .

[١] هو مكحول بن عبد الله الشامي ، معلم الأوزاعي ، وكان من سبي كابل ، وقع إلى سعيد بن العاص ، فوجهه لامرأة من هذيل فأعتقته ، قال الزهري : العلماء أربعة : سعيد بن المسيب بالمدينة ، والشعي بالكوفة ، والحسن البصرى بالبصرة ، ومكحول بالشأم ، ولم يكن في زمنه أبصر منه بالفتيا ، وسمع أنس ابن مالك وغيره ، وكان مقامه بدمشق ، وتوفى سنة ١١٨ هـ .

[٢] الفتيل : السحاة التي في شق النواة ، والنقير : القرة التي في ظهر النواة . [٣] ظلماً

أَقْدِفْهَا لَا تَمَلَأْ قُلُوبَهُمْ رُغْبًا» ، فكيف من سفك دماءهم ، وشقق أبقارهم ،
 وأنهب^(١) أموالهم؟ يا أمير المؤمنين: إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، دعا
 إلى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابيا لم يتعمده ، فهبط جبريل ، فقال :
 « يا محمد ، إن الله لم يبعثك جبّاراً تكسرُ قرون أمتك » واعلم أن كل ما في يدك
 لا يعدل شربة من شراب الجنة ، ولا ثمرة من ثمارها ، قال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم : « لَقَابُ^(٢) قوس أحدكم من الجنة ، أو قُدَّةُ^(٣) خير له من الدنيا
 بأسرها » إن الدنيا تنقطع ويوزل نعيمها ، ولو بقي الملك لمن قبلك لم يصل إليك
 يا أمير المؤمنين ، ولو أن ثوبا من ثياب أهل النار علّق بين السماء والأرض لآذاهم ،
 فكيف من يتقمّصه؟ ولو أن ذنوبا^(٤) من صديد أهل النار صب على ماء الأرض
 لآجنه^(٥) ، فكيف بمن يتجرّعه؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وُضعت على
 جبل لذاب ، فكيف من سلّك^(٦) فيها ، ويردّ فضلها على عاتقه؟ وقد قال عمر
 ابن الخطاب : « لا يقوم أمر الناس إلا حصيف^(٧) العقدة ، بعيد الغرّة^(٨)
 لا يطلع الناس منه على عورة ، ولا يُخنق في الحق على جرّة^(٩) ، ولا تأخذه
 في الله لومة لأثم » .

واعلم أن السلطان أربعة : أمير يظلف^(١٠) نفسه وعمّاله ، فذلك له أجرُ
 المجاهد في سبيل الله ، وصلاته سبعون ألف صلاة ، ويد الله بالرحمة على رأسه
 تُرفرف ، وأمير رتّع ورتع عمّاله ، فذلك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله ، وأمير

[١] جعلها نهباً يغار عليه . [٢] القاب : ما بين القبض والسية (وسية القوس كعدة : ما عطف
 من طرفيها) . [٣] ريش السهم . [٤] الذنوب : الدلو . [٥] جملة آجنا أى متغير
 الطعم واللون . [٦] قيد . [٧] حصف الرجل ككريم : اسحكّم عقله فهو حصيف ، وأحصف
 الحبل : أحكّم فتله . [٨] العقلة . [٩] أحنق : حقد حقدا لا ينحلّ ، وأحنق الصلب : لزق
 بالطن ، والجرّة ما يفيض به البعير فيأكله ثانية ، والمراد أنه لا يضرر المقدم والحنق . [١٠] يكف .

يُظْلِفُ نَفْسَهُ، وَيُرْتِعُ عَمَّالَهُ، فَذَلِكَ الَّذِي بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ، وَأَمِيرٌ يَرْتِعُ وَيُظْلِفُ
عَمَّالَهُ، فَذَلِكَ شَرُّ الْأَكْيَاسِ .

واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم ، عُرض على السموات
والأرض والجبال ، فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَنَّهُ ، وَأَشْفَقْنَ مِنْهُ ، وَقَدْ جَاءَ عَنْ جَدِّكَ فِي
تفسير قول الله عزَّ وجلَّ : « لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا » أَنْ
الصغيرة التبسم ، والكبيرة الضحك ، وقال : فما ظنكم بالكلام وما عملته الأيدي ؟
فأعيدك بالله أن يُخَيَّلَ إِلَيْكَ أَنْ قَرَأْتِكَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَنْفَعُ مَعَ
المخالفة لأمره ، فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ مُحَمَّدٍ ،
وَيَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ، اسْتَوْهَبَا أَنْفُسَكُمَا مِنَ اللَّهِ ، إِنْ لِي لَا أُغْنِي عَنْكُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ،
وَكَانَ جَدُّكَ الْأَكْبَرُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِمَارَةَ ، فَقَالَ : « أَيُّ
عَمٍّ ، نَفْسٌ تُحْيِيهَا ، خَيْرُ لَكَ مِنْ إِمَارَةٍ لَا تُحْصِيهَا » نَظْرًا لِعَمِّهِ ، وَشَفَقَةً
عَلَيْهِ أَنْ يَلِيَّ فَيَجُورُ عَنْ سُنَّتِهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ لَهُ نَفْعًا ، وَلَا عَنْهُ
دَفْعًا ، هَذِهِ نَصِيحَتِي إِنْ قَبِلْتَهَا فَلِنَفْسِكَ عَمَلْتِ ، وَإِنْ رَدَدْتَهَا فَنَفْسِكَ
بِمُخَسَّتِ ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلْخَيْرِ وَالْمَعِينُ عَلَيْهِ ، قَالَ : بَلِي ، تَقَبَّلَهَا وَنَشَكَرَ عَلَيْهَا ،
وَبِاللَّهِ نَسْتَعِينُ . (القصد الفريد ١ : ٣٠٥ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٨)

٤٧ - نصيحة يزيد بن عمر بن هبيرة للمنصور

ودخل يزيد بن عمر بن هبيرة^(١) على أمير المؤمنين المنصور ، فقال : يا أمير
المؤمنين : توسع توسعاً قُرْشِيًّا ، وَلَا تَضِيقْ ضَيْقًا حِجَازِيًّا .

[١] ولي قفسرين للوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وجمع له مروان بن محمد ولاية البصرة والكوفة ، وكان
آخر من جمع له العرافان من الولاة ، ولما استظهرت عليه جيوش خراسان ، وهزمت عسكره لحق بمدينة

ويروى أنه دخل يوماً ، فقال له المنصور حدثنا ، فقال : « يا أمير المؤمنين : إن سلطانكم حديث ، وإمارتكم جديدة ، فأذيقوا الناس حلاوة عدلها ، وجنبوهم مرارة جورها ، فوالله يا أمير المؤمنين ، لقد محضت^(١) لك النصيحة » ثم نهض فنهض معه سبعمائة من قيس ، فأتأره^(٢) المنصور بصره ، ثم قال : لا يعز مملكته يكون فيه مثل هذا ! . (تهذيب الكامل ١ : ٢٨)

٤٨ — معن بن زائدة والمنصور

ودخل معن^(٣) بن زائدة الشيباني على أبي جعفر المنصور وقد أسن ، فقارب في خطوه ، فقال له المنصور : لقد كبرت سنك يا معن ، قال : في طاعتك يا أمير المؤمنين ، قال : وإنك لجلد ، قال : على أعدائك يا أمير المؤمنين ، قال : وإن فيك لبقية ، قال : هي لك يا أمير المؤمنين ، قال : فأبي الدولتين أحب إليك ، هذه أم دولة بني أمية ؟ قال : ذلك إليك يا أمير المؤمنين ، إن زاد برك على برهم كانت دولتك أحب إلي .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٩ ، ووفيات الأعيان ٢ : ١٠٩ ، وزهر الآداب ٣ : ١٦١)

واسط ، فتحصن بها ، ولما بويغ السفاح بالخلافة وجه أبا جعفر المنصور لقتله ، حصره بواسط شهورا ، ثم أمنه وادنتح البلد صلحا ، ثم قتله .

[١] أخلصت . [٢] أتأره البصر : أتبعه إياه ، وحدد إليه النظر .

[٣] كان جوادا شجاعا جزيل العطاء كثير المعروف ، وكان في أيام بني أمية منتقلا في الولايات ، منقطعا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقيين ، فلما انتقلت الدولة إلى بني العباس ، وجاصر المنصور يزيد بمدينة واسط كما قدمنا ، أبلى يومئذ من مع يزيد بلاء حسنا ، فلما قتل يزيد خاف معن من أبي جعفر المنصور ، فاستتر عنه مدة ، ولم يزل مستترا حتى كان يوم الهاشمية ، وذلك أن جماعة من أهل خراسان ثاروا على المنصور ، وجرت مقاتلة عظيمة بينهم وبين أصحاب المنصور بالهاشمية — وهي مدينة باها السفاح بالقرب من الكوفة — وكان معن متواريا بالقرب منهم ، فخرج متنكرا معهما مثلما ، وتقدم إلى القوم ، وقاتل قدام المنصور قتالا أبان فيه عن نجدة وشهامة وفرقهم ، فلما أفرج عن المنصور ، قال له : من أنت ويحك ؟ فقال : أنا طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة ، فأمنه المنصور وأكرمه ، وصار من خواصه ، وولى سجستان في أواخر أمره ، فلما كانت سنة ١٥١ اندس قوم من الخوارج بين صناع كانوا يعملون في داره بمدينة بست ، فقتلوه وهو يحتجم ، وتبعهم ابن أخيه يزيد بن مزيد بن زائدة ، فقتلهم بأسرهم .

٤٩ - معن بن زائدة وأحد زواره

ودخل رجل على معن بن زائدة ، فقال : ما هذه الغيبة ؟ فقال : « أيها الأمير ، ما غابَ عن العين مَنْ يذكُرُه القلبُ ، وما زال شوقِي إلى الأمير شديدًا ، وهو دونَ ما يجبُ لهُ ، وذكُرِي لهُ كثيرًا وهو دونَ قدره ، ولكن جَفْوَةُ الحُجَّابِ ، وَقَلَّةُ بِشْرِ العِلمَانِ ، منعاني من الإِكثارِ » ، فأمر بتسهيل حجابِه ، وأجزل صلته . (زهر الآداب ٣ : ١٦١)

٥٠ - المنصور وأحد الأعراب

ودخل أعرابي على المنصور فتكلم ، فأعجب بكلامه ، فقال له : سل حاجتك ، فقال : يُبقيك الله ، ويَزِيدُ في سلطانك ، فقال : سل حاجتك ، فليس في كل وقت توئمَرُ بذاك ، قال : « ولمْ يا أمير المؤمنين ، فوالله ما أستقصِرُ عمرك ، ولا أخافُ بُخْلَكَ ، ولا أغتمُ مالك ، وإن سَوَّأَكَ لشرف ، وإن عطاءكَ لزيْنِ ، وما بامرئٍ بَدَلٌ وجهه إليك تقصُّمٌ ولا شَيْنٌ » . فأحسن جأزته وأكرمه . (الصنائع ص ٤٠ ، العقد الفريد ١ : ١٣٩)

٥١ - أعرابية تعزى المنصور وتهنئه

وروى القلقشندي قال : تعرَّضت أعرابية للمنصور في طريق مكة بعد وفاة أبي العباس السَّفاح ، فقالت :

« يا أمير المؤمنين ، اختسب الصبر ، وقدم الشكر ، فقد أجزل الله لك الثواب ، في الحالين ، وأعظم عليك المنَّة في الحادِثينِ ، سلَّبتك خليفة الله ، وأفادك خليفة الله ، فسلم فيما سلَّبتك ، واشكر فيما منَّحك ، وتجاوز الله عن أمير المؤمنين ، وخار لك فيما ملَّكك من أمر الدنيا والدين » .

وروى الجاحظ قال : عَزَّتْ امرأةُ المنصور عن أبي العباس مَقْدَمَهُ من مكة ، قالت : « أعظم الله أجرك ، فلا مصيبة أجلك من مصيبتك ، ولا عَوْضَ أعظم من خلافتك » . (صبح الأعمى ٩ : ٢٧٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٥٥)

٥٢ - خطبة محمد بن سليمان ^(١) يوم الجمعة

(وكان لا يغيرها)

الحمد لله ، أحمدَه وأستعينه وأستغفره ، وأؤمن به ، وأتوكَّل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ليُظهِرَهُ على الدين كله ولو كره المشركون ، من يعتصم بالله ورسوله ، فقد اعتصم بالعرْوة الوثقى ، وسعد في الأولى والآخرة ، ومن يعصِ الله ورسوله فقد ضلَّ ضللاً بعيداً ، وخسرَ خسراً مبيناً ، أسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يُطِيعُهُ وَيُطِيعَ رسوله ، ويتبع رضوانه ، ويتجنب سُخْطَهُ ، فإنما نحن له وبه ، أوصيكم عبادَ الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعة الله ، وأرضى لكم ما عند الله ، فإن تقوى الله أفضل ما تحاثَّ الناس عليه ، وتداعوا إليه ، وتواصلوا به ، فاتقوا الله ما استطعتم ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » . (البيان والتبيين ٢ : ٦٥) .

٥٣ - وصية مسلم بن قتيبة

وقال مُسْلِمُ بن قُتَيْبَةَ ^(٢) : « لا تطلبنَّ حاجتك إلى واحد من ثلاثة : لا تطلبها

[١] هو محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان عامل البصرة في خلافة أبي جعفر المنصور وتوفي سنة ١٧٣ في خلافة الرشيد .

[٢] استشاره المنصور في قتل أبي مسلم ، فقال : ما ترى في أمره ؟ قال : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » فقال : حسبك يا بن قتيبة ، لقد أودعتها أذنا واعية (وفيات الأعيان ١ : ٢٨٢) .

إلى الكَذَاب ، فإنه يُقَرَّبُها وهي بعيدة ، ويبعدها وهي قريبة ؛ ولا تطلبها إلى الأحمق ، فإنه يريد أن ينفَعَكَ ، وهو يَضُرُّكَ ؛ ولا تطلبها إلى رجل له عند قوم مأْكَلَةٌ ، فإنه يجعل حاجتك وقاءً لحاجته . (الأملأ : ٢ : ١٩٠)

٥٤ - خطبة المهدي (توفي سنة ١٦٩ هـ)

الحمد لله الذي ارتضى الحمد لنفسه ، ورضى به من خلقه ، أحمده على آلائه^(١) ، وأمجده لبلائه^(٢) ، وأستعينه ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه توكل راضٍ بقضائه ، وصابر لبلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده المصطفى ، ونبيه المُجْتَبَى^(٣) ، ورسوله إلى خلقه ، وأمينه على وحيه ، أرسله بعد انقطاع الرجاء ، وطُمُوس^(٤) العِلْمِ ، واقتراب من الساعة ، إلى أمة جاهلية ، مختلفة أُمِّيَّة ، أهل عداوة وتضامن ، وفرقة وتباين ؛ قد استهوتهم شياطينهم ، وغلب عليهم قُرْآنوهم^(٥) ، فاستشعروا الردى ، وسلكوا العمى ، يبشرون أطاعة بالجنة وكريم ثوابها ، وينذرون عصاه بالنار وأليم عقابها ، « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنِّي ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنِّي » ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن الاقتصار عليها سلامة ، والترك لها ندامة ، وأحسكم على إجلال عظمته ، وتوقير كبريائه وقدرته ، والانتهاى إلى ما يقرب من رحمته ، وينجى من سخطه ، ويُنَالُ به مآلديه ، من كريم الثواب ، وجزيل المآب ، فاجتنبوا ما خوفكم الله من شديد العقاب ، وأليم العذاب ، ووعيد الحساب ، يوم توقفون بين يدي الجبار ، وتعرضون فيه على النار « يَوْمَ لَا تَكَلِّمُ

[١] نعمه ، والمفرد إلى كحل وشمس ، وألوكشمس ، وألى كعصا وإلى كرضا .

[٢] البلاء : يكون منحة ، ويكون محنة . [٣] المختار . [٤] الدروس والالاء .

[٥] القرين : المصاحب ، والشيطان : القرون بالإنسان لا يفارقه .

نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ؛ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ
 وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ أُمَّرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ؛ يَوْمَ لَا يُجْزَى نَفْسٌ
 عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ، وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ؛
 يَوْمَ لَا يُجْزَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ
 حَقٌّ ، فَلَا تَغْرِبَنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغْرِبَنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ » ، فَإِنَّ الدُّنْيَا
 دَارُ غُرُورٍ ، وبلاء وشرور ، واضمحلال وزوال ، وتقلب وانتقال ، قد أَفْنَت
 مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وهى عائدة عليكم وعلى مَنْ بعدكم ، مَنْ رَكَنَ إِلَيْهَا صَرَعتَه ،
 وَمَنْ وَثِقَ بِهَا خَانَتْه ، وَمَنْ أَمَلَهَا ^(١) كَذَبَتْه ، وَمَنْ رَجَاهَا خَدَلَتْه ، عِزُّهَا ذُلٌّ ،
 وَغِنَاهَا فَقْرٌ ، وَالسَّعِيدُ مِنْ تَرْكِهَا ، وَالشَّقِيُّ فِيهَا مِنْ آثَرِهَا ، وَالْمَغْبُوتُ فِيهَا مِنْ بَاعِ
 حِظِّهِ مِنْ دَارِ آخِرَتِهِ بِهَا ، فَاللَّهُ اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ ، وَالتَّوْبَةُ تَقْبُولُهُ ، وَالرَّحْمَةُ مَبْسُوطَةٌ ،
 وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ الزَّكِيَّةِ ^(٢) ، فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ، قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ بِالْكَفْظِ ^(٣) ،
 وَتَنْدَمُوا فَلَا تَنْالُونَ النَّدَمَ ، فِي يَوْمٍ حَسْرَةٌ وَتَأْسُفٌ ، وَكَأَبَةٌ وَتَلَهْفٌ ، يَوْمَ لَيْسَ
 كَالْأَيَّامِ ، وَمَوْقِفُ ضَنْكِ الْمَقَامِ ، إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ وَأَبْلَغَ الْمَوْعِظَةِ كِتَابُ اللَّهِ ،
 يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ
 تُرْحَمُونَ » أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، أَلْهَاكُمْ
 التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ - إِلَى آخِرِ السُّورَةِ - أَوْصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِمَا أَوْصَاكُمْ اللَّهُ
 بِهِ ، وَأَنْهَاكُمْ عَمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ ، وَأَرْضِي لَكُمْ طَاعَةَ اللَّهِ . وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلِكُمْ .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٦)

[١] أملة أملا وأمله بالتخفيف والنشديد . [٢] زكا يزكو : بما وصلح .

[٣] الكفظم : الحلق أو الفم ، أو مخرج النفس ، أى قبل الموت .

مشافرة المهدي لأهل بيته في حرب خراسان

روى ابن عبد ربه قال :

« هذا ما تراجع فيه المهدي ووزرائه ، وما دار بينهم من تدبير الرأى فى حرب خراسان ، أيام تحاملت عليهم العمال وأغفنت ، فحملتهم الدالة وما تقدم لهم من المسكنة ، على أن نكثوا ببعثهم ، ونقضوا موثقتهم ، وطرردوا العمال ، والتووا بما عليهم من الخراج ، وحمل المهدي ما يجب من مصلحتهم ، ويكره من عمتهم ، على أن أقال عشرتهم ، واغتفر زلتهم ، واحتمل دالتهم ، تطوئلاً بالفضل ، واتساعاً بالعفو ، وأخذاً بالحجة ، ورفقاً بالسياسة ، ولذلك لم يزل مذحمله الله أعباء الخلافة ، وقلده أمور الرعية ، رفيقاً بمدار سلطانه ، بصيراً بأهل زمانه ، باسطاً له مدية فى رعيته ، تسكن إلى كنفه ، وتأنس بعفوه ، وتثق بجاهه ، فإذا وقعت الأفضية اللازمة ، والحقوق الواجبة ، فليس عنده هوادة ، ولا إغضاء ، ولا مداهنة ، أثره للحق ، وقياماً بالعدل ، وأخذاً بالحزم ، فدعا أهل خراسان الاغترار بجاهه ، والثقة بعفوه ، أن كسروا الخراج ، وطرردوا العمال ، وسألوا ما ليس لهم من الحق ، ثم جكطوا احتجاجاً باعتذار ، وخصومة بإقرار ، وتنصلاً باعتلال ، فلما انتهى ذلك إلى المهدي ، خرج إلى مجلس خلائه ، وبعث إلى نفر من لحمة^(١) ووزرائه ، فأعلمهم الحال ، واستنصحهم للرعية ، ثم أمر الموالى^(٢) بالابتداء ، وقال للعباس^(٣) بن محمد : أى عم تعقب قولنا ، وكن حكماً بيننا ، وأرسل إلى

[١] اللحة : الفرابة . [٢] جمع مولى ، وهو هنا القريب كابن العم ونحوه .

[٣] هو العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس أخو المنصور .

ولديه موسى وهرون ، فأحضرهما الأمر ، وشاركهما في الرأي ، وأمر محمد بن الليث بحفظ مراجعتهم ، وإثبات مقالاتهم في كتاب .

٥٥ - مقال سلام صاحب المظالم

فقال سلام صاحب المظالم :

« أيها المهدي : إن في كل أمر غايةً ، ولكل قوم صناعةً ، استفرغت رأيهم ، واستغرقت أشغالهم ، واستنفدت أعمارهم ، وذهبوا بها ، وذهبت بهم ، وعرفوا بها ، وعرفت بهم ، ولهذه الأمور التي جعلتنا فيها غايةً ، وطلبت معونتنا عليها أقوام من أبناء الحرب وساسة الأمور ، وقادة الجنود ، وفُرسان الهزاهن^(١) ، وإخوان التجارب ، وأبطال الوقائع ، الذين رشحتهم سجالها^(٢) ، وقيأتهم ظلالها ، وعصتتهم شدائدُها ، وقرمتهم^(٣) نواجذُها ، فلومجّمت ما قبلهم ، وكشفت ما عندهم ، لو جدت نظائرَ تؤيد أمرك ، وتجارِبَ توافق نظرك ، وأحاديثَ تقوى قلبك ، فأما نحن معاشرَ عمالك ، وأصحاب دواوينك ، فحسن بنا ، وكثير منا أن نقوم بثقل ما حَمَلْتَنَا من عمك ، واستودعْتَنَا من أمانتك ، وشغلتنا به من إمضاء عدلك ، وإنفاذ حُكْمك ، وإظهار حقك » .

فأجابه المهدي : « إن في كل قوم حكمةً ، ولكل زمان سياسةً ، وفي كل حال تدبير ، يُبطل الآخر الأول ، ونحن أعلم بزماننا ، وتدبير سلطاننا » .

قال نعم : أيها المهدي : أنت متسع الرأي ، وثيق العقدة ، قوي المنة^(٤) ، بليغ الفطنة ، معضوم النية ، محضور الروية ، مؤيد البديهة ، موفق العزيمة ،

[١] الهزيمة والهزاهن : تحريك البلايا والحروب الناس . [٢] جمع سجل كشمس ، وهو الدلو العظيمة مملوءة . [٣] قرم الطعام : أكله ، والنواجذ : أقصى الأضراس . [٤] القوة .

مُعَان بِالظَّفَرِ ، مَهْدِيٌّ إِلَى الْخَيْرِ ، إِنْ هَمَّتَ فِي عَزْمِكَ مَوَاقِعُ الظَّنِّ ، وَإِنْ اجْتَمَعَتْ صَدَعٌ فَعَلَّكَ مَلْتَبِسِ الشُّكِّ ، فَاعْزَمْ يَهْدِ اللَّهُ إِلَى الصَّوَابِ قَلْبَكَ ، وَقُلْ يُنْطِقُ اللَّهُ بِالْحَقِّ لِسَانَكَ ، فَإِنْ جَنُودُكَ جَمَّةٌ ، وَخِزَانَتُكَ عَامِرَةٌ ، وَنَفْسُكَ سَخِيَّةٌ ، وَأَمْرُكَ نَافِذٌ .

فَأَجَابَهُ الْمَهْدِيُّ : « الْمَشَاوِرَةُ وَالْمُنَازِرَةُ بِأَبَا رَحْمَةٍ ، وَمِفْتَاحُ بَرَكَاتٍ ، لَا يَمْلِكُ عَلَيْهِمَا رَأْيٌ ، وَلَا يَتَفَيَّلُ ^(١) مَعَهُمَا حَزْمٌ ، فَأَشِيرُوا بِرَأْيِكُمْ ، وَقُولُوا بِمَا يَحْضُرُكُمْ ، فَإِنِّي مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَتَوْفِيقُ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ » .

٥٦ — مقال الربيع بن يونس ^(٢)

وقال الربيع :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ : إِنْ تَصَارَيْتَ وَجُوهَ الرَّأْيِ كَثِيرَةٌ ، وَإِنْ الْإِشَارَةُ بِيَعِضِ مَعَارِيضِ الْقَوْلِ يَسِيرَةٌ ، وَلَكِنْ خِرَاسَانَ أَرْضٍ بَعِيدَةَ الْمَسَافَةِ ، مُتَرَاخِيَةَ الشُّقَّةِ ^(٣) ، مَتَفَارِقَةَ السَّبِيلِ . فَإِذَا ارْتَأَيْتَ مِنْ مُحْكَمِ التَّدْيِيرِ ، وَمُبْرَمِ التَّقْدِيرِ ، وَأَبَابِ الصَّوَابِ ، رَأْيًا قَدْ أَحْكَمَهُ نَظْرُكَ ، وَقَلْبَهُ تَدْيِيرُكَ ، فَلَيْسَ وَرَاءَهُ مَذْهَبٌ طَاعِنٌ ، وَلَا دُونَهُ مَعْلَقٌ لْخُصُومَةٍ عَائِبٌ ، ثُمَّ خَبِثَ الْبُرْدُ ^(٤) بِهِ ، وَانْطَوَتْ الرُّسُلُ عَلَيْهِ ، كَانَ بِالْحَرَمِيِّ أَنْ لَا يَبْصُلَ إِلَيْهِمْ مُحْكَمَهُ ، إِلَّا وَقَدْ حَدِثَ مِنْهُمْ مَا يَنْقُضُهُ ، فَمَا أَيْسَرُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْكَ الرُّسُلَ ، وَتَرِدَ عَلَيْكَ الْكُتُبُ ، بِحَقَائِقِ أَخْبَارِهِمْ ، وَشَوَارِدِ آثَارِهِمْ ، وَمَصَادِرِ أُمُورِهِمْ ، فَتُجَدِّثَ رَأْيًا غَيْرَهُ ، وَتَبْتَدِعَ تَدْيِيرًا سِوَاهُ ، وَقَدْ انْفَرَجَتْ الْحَلَقُ ، وَتَحَلَّلَتِ الْعُقَدُ . وَاسْتَرْخَى الْحِقَابُ ^(٥) ، وَامْتَدَّ الزَّمَانُ ، ثُمَّ أَلْعِمَ مَوْقِعَ الْآخِرَةِ

[١] قال رأيه وتبيل : أخطأ وضمف . [٢] وزر لأبي جعفر المنصور وقتله الهادي سنة ١٧٠ هـ

[٣] البعد والسفر البعيد . [٤] جمع بريد : وهو الرسول ، وخبث : أسرعت .

[٥] الحقاب : ما تمدده المرأة في وسطها .

كصدر الأولى ، ولكن الرأى أيها المهدي وفقك الله ، أن تصرف إجابة النظر ،
وتقلب الفكر فيما جمعنا له ، واستشرتنا فيه من التدبير لحرهم ، والحيل في
أمرهم ، إلى الطلب لرجل ذى دين فاضل ، وعقل كامل ، وورع واسع ، ليس
موصوفاً بهوى في سواك ، ولا متهماً في أثره عليك ، ولا ظنيماً^(١) على دُخلة^(٢)
مكروهة ، ولا منسوباً إلى بدعة محذورة ، فيقدح في ملكك ، ويريض^(٣)
الأموال لغيرك ، ثم تُسند إليه أمورهم ، وتفوض إليه حربهم ، وتأمره في عهدك
ووصيتك إياهم ، بلزوم أمرك ما لزمه الحزم ، وخلاف نهيك إذا خالفه الرأى ،
عند استحالة الأمور ، واشتداد الأحوال التي يُنقض أمرُ الغائب عنها ، ويثبت
رأىُ الشاهد لها ، فإنه إذا فعل ذلك ، فوائب أمرهم من قريب ، وسقط عنه
ما يأتى من بعيد ، تمت الحيلة ، وقويت المكيدة ، ونفذ العمل ، وأخذ النظر
إن شاء الله .

٥٧ — مقال الفضل بن العباس

قال الفضل بن العباس :

« أيها المهدي ، إن وليَّ الأمور ، وسائسَ الحروب ، ربما نحى جنوده ،
وفرق أمواله في غير ماضيقِ أمرٍ حزبه^(٤) ، ولا ضغطة حال اضطرته ، فيقعده
عند الحاجة إليها ، وبعد التفرقة لها ، عديماً منها ، فاقداً لها ، لا يثق بقوة ، ولا
يصول بعدة ، ولا يفرع إلى ثقة ، فالرأى لك أيها المهدي وفقك الله ، أن تُعنى
خرائتك من الإنفاق للأموال ، وجنودك من مكابدة الأسفار ، ومقارعة

[١] منها . [٢] دخلة الرجل مثانة ، ودخيلته : نيته ومذهبه .

[٣] في كتب اللغة : راضه وروضه : ذلّه ، وأراض الأرض - جعلها رياضاً . [٤] اشتدّ عليه .

الأخطار، وتغريير القتال ، ولا تُسرِعْ للقوم في الإجابة إلى ما يطلبون ، والعتاء لما يسألون ، فيفسد عليك أدبهم ، وتجري من رعتك غيرهم ، ولكن اغزهم بالحيلة ، وقاتلهم بالمكيدة ، وصارعهم باللين ، وخاتلمهم^(١) بالرفق ، وأبرق^(٢) لهم بالقول ، وأرعد نحوهم بالفعل ، وابتعث البعوث ، وجند الجنود ، وكتب الكتاب ، واعد الألوية ، وانصب الرايات ، وأظهر أنك موجّه إليهم الجيوش مع أحنق قوادك عليهم ، وأسوهم أثراً فيهم ، ثم ادسّ الرسل ، وابتث الكتب ، وضع بعضهم على طمع من وعدك ، وبعضاً على خوف من وعيدك ، وأوقد بذلك وأشباهه نيران التحاسد فيهم ، واغرس أشجار التنافس بينهم ، حتى تملأ القلوب من الوحشة ، وتنطوي الصدور على البغضة ، ويدخل كلا من كل الحذر والهيبة ، فإن مرّام الظفر بالغيلة ، والقتال بالحيلة ، والمناسبة^(٣) بالكتب ، والمكيدة بالرسل ، والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل في القلوب ، القوي الموقع من النفوس ، المعقود بالحجج ، الموصول بالحيل ، المبني على اللين الذي يستميل القلوب ، ويسترق العقول والآراء ، ويستميل الأهواء ، ويستدعي المواتاة^(٤) ، أنفذ من القتال بظبات السيوف ، وأسنة الرماح . كما أن الوالى الذى يستنزل طاعة رعيته بالحيل ، ويفرق كلمة عدوه بالمكيدة ، أحكم عملاً ، وأطف منظرًا ، وأحسن سياسة من الذى لا ينال ذلك إلا بالقتال ، والإتلاف للأموال ، والتغريير والخيطار^(٥) ، وليعلم المهدي أنه إن وجّه لقتالهم رجلا لم يسر لقتالهم إلا بجنود كشيعة ، تخرج عن حال شديدة ، وتقدم

[١] خادعهم . [٢] رعد وبرق ، وأرعد وأبرق : تهدد وتوعد .

[٣] ناصبه الحرب والعداوة : ألقاها . [٤] الموافقة . [٥] المخاطرة

على أسفارٍ ضيقة ، وأموال متفرقة ، وقواد غَشَشَة ، إن ائتمنهم استنفدوا ماله ،
وإن استنصحهم كانوا عليه لاله .

قال المهدي : « هذا رأى قد أسفر نُوره ، وأبرق ضوءه ، وتمثل صوابه
للعيون ، وتجسّد حقه في القلوب ، ولكن فوق كلّ ذى علم عليم » . ثم نظر إلى
ابنه علي ، فقال : ما تقول ؟

٥٨ — مقال علي بن المهدي

قال علي بن المهدي :

« أيها المهدي : إن أهل خراسان لم يَخْلَعُوا عن طاعتك ، ولم يَنْصِبُوا من
دونك أحداً ، يَقْدَح في تغيير ملكك ، وَيُريض الأمور لفساد دولتك ،
ولو فعلوا لكان الخطبَ أيسرَ ، والشأن أصغرَ ، والحال أدلّ ، لأن الله مع حقه
الذي لا يخذله ، وعند موّعه الذي لا يُخْلِفُه ، ولكنهم قوم من رعيتك ، وطائفة
من شيعتك ، الذين جعلك الله عليهم والياً ، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً ،
طلبوا حقاً ، وسألوا إنصافاً ، فإن أجبتَ إلى دعوتهم ، ونفّست عنهم قبل أن
يتلاحم منهم حال ، ويحدث من عندهم فتق ، أظعتَ أمر الرب ، وأطفأتَ
ثأرة الحرب ، ووفّرتَ خزائن المال ، وطرحتَ تغريرَ القتال ، وحملَ الناسُ
حَمَل ذلك على طبيعة جُودك ، وسجّية حامك ، وإسجاح^(١) خليقتك ، ومعذلة
نظرك ، فأمنت أن تُنسبَ إلى ضعف ، وأن يكون ذلك فيما بقي دُرْبَة ، وإن
منعتهم ما طلبوا ، ولم تُجِبهم إلى ما سألوا ، اعتدلتَ بك وبهم الحال ،
وساويتهم في ميّذان الخطاب ، فما أربُ المهدي أن يعمد إلي ، طائفة من رعيته ،

[١] الإسجاح : حسن العفو .

مقرّين بمملكته ، مُدعّين بطاعته ، لا يُخْرِجون أنفسهم عن قدرته ، ولا يُبرئونها من عبوديته ، فيملّكهم أنفسهم ، ويخلع نفسه عنهم ، ويقف على الحيل معهم ، ثم يجازيهم السوء في حدّ المقارعة ، ومِضمار المخاطرة ، أريد المهدي - وفقه الله - الأموال ؟ فلمرى لا ينالها ولا يظفر بها إلا بإنفاق أكثر منها مما يطلب منهم ، وأضعاف ما يدعى قبيلهم ، ولو نالها ، فَحَمِلَتْ إِلَيْهِ ، وَوُضِعَتْ بِجَرَائِطِهَا ^(١) بين يديه ، ثم تجافى لهم عنها ، وطال عليهم بها ، لكان مما إليه يُنْسَب ، وبه يُعرَف ، من الجود الذي طَبَعَهُ اللهُ عَلَيْهِ ، وجعل قُرَّةَ عَيْنِهِ ، وَنَهْمَةَ ^(٢) نَفْسِهِ فِيهِ ، فَإِنْ قَالَ المهدي : هذا رأىٌ مستقيمٌ شديد ، في أهل الخراج الذين شكّوا ظلم عمالنا ، وتحاملٌ وولاتنا ؛ فأما الجنود الذين نقضوا موافيق اليهود ، وأنطقوا لسان الإرجاف ، وفتحوا باب المعصية ، وكسروا قيّد الفتنة ، فقد ينبغي لهم أن أجعلهم نكالا لغيرهم ، وعِظَةً لسواهم ، فيعلم المهدي أنه لو أتی بهم مغلولين في الحديد ، مُقرّنين ^(٣) في الأصفاد ^(٤) ، ثم اتسع لِحَقْنِ دِمَائِهِمْ عَفْوُهُ ، ولإقالة عثرتهم صَفْحُهُ ، واستبقاهم لما هم فيه من حربته ، أو لمن يازأهم من عدوه ، لَمَا كَانَ بدعاً من رأيه ، ولا مستنكراً من نظره ، لقد علمت العربُ أنه أعظم الخلفاء والملوك عفواً ، وأشدّها وقعاً ، وأصدقها صولة ، وأنه لا يتعاضمه ^(٥) عفوٌ ، ولا يتكأء دُهُ ^(٦) صفحٌ ، وإن عظم الذنبُ ، وجَلَّ الخطبُ ، فالرأى للمهدي وفقه الله تعالى أن يَحُلَّ عُقْدَةَ الغيظ ، بالرجاء لحسن ثواب الله في العفو عنهم ، وأن يذكر أولى حالاتهم ، وَضِيْعَةَ عِيَالَتِهِمْ ، برّاً بهم ، وتوسّعاً لهم ، فإنهم إخوان دولته ،

[١] جمع خريطة وهي وعاء من آدم وغيره يشرح على مافيه . [٢] التهمة : الحاجة وبلوغ الشهوة في الشيء . [٣] مقيدين . [٤] الأصفاد : القيود : جمع صفة كسب . [٥] تناظمه الأمر : عظم عليه . [٦] تكأءه الأمر : شقّ عليه .

وأركان دعوته ، وأساس حقه الذين بعزتهم يصول ، وبُحجَّتهم يقول ، وإنما مثلهم فيما دخلوا فيه من مسَاخِطِه ، وتعرّضوا له من معاصيه ، وانطورا فيه عن إجابته ، ومثله في قلة ما غير ذلك من رأيه فيهم ، أو نُقِل من حاله لهم ، أو تغيّر من نعمته بهم ، كمثل رجلين أخوين متناصرين متوازيين ، أصاب أحدهما خبَلٌ عارض ، ولهُوَ حادث ، فنهض إلى أخيه بالأذى ، وتحامل عليه بالمكروه ، فلم يزد أخوه إلا رِقَّةً له ، ولطفاً به ، واحتياجاً لمداواة مرضه ، ومراجعة حاله ، عطفاً عليه ، وبراً به ، ومَرَحْمَةً له .

فقال المهدي : أما على فقد نوى سَمَت اللّيان (١) ، وَفَضَّ القلوب في أهل خراسان ، ولكلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٍّ ، فقال : ماترى يا أبا محمد يعني موسى ابنه (المهادي) .

٥٩ - مقال موسى بن المهدي

فقال موسى :

« أيها المهدي : لَا تَسْكُنْ إلى حلاوة ما يجري من القول على ألسنتهم ، وأنت ترى الدماء تسيل من خَلَلِ فمهم ، الحانُ من القوم ينادي بِمَضْمَرَةٍ شر ، وَخَفِيَّةٍ حِقْدٍ ، قد جعلوا المعاذيرَ عليها سِتْرًا ، واتخذوا العِلمَ من دونها حجابًا ، رجاء أن يدافعوا الأيامَ بالآخر ، والأُمُورَ بالتطويل ، فيكسبُوا حِيلَ المهدي فيهم ، ويُفَنِّوا جنوده عنهم ، حتى يتلاحم أمرهم ، وتتلاحق مادّتهم ، وتستفحل حربهم ، وتستمر الأُمُور بهم ، والمهدي من قولهم في حالِ غِرَّةٍ ، وَلِبَاسِ أَمْنَةٍ ، قد قَتَرَ لها ، وَأَنَسَ بها ، وسكن إليها ، ولولا ما اجتمعت به قلوبهم ، وَبَرَدَتْ عليه جلودهم من المناصبَةِ بالقتال ، والإضرار للقراع ، عن داعية ضلال ، أو شيطان

[١] الليان : الملاينة . مصدر لاین ، والسمت : الطريق .

فساد ، لَرَهَبُوا عواقب أخبار الوِلاية ، وَغِبَّ سكون الأمور ، فليشدُّ المهدي وفقه الله أزره^(١) لهم ، ويكتب كتابه نحوهم ، وليضع الأمر على أشد ما يحضره فيهم ، وليوقن أنه لا يعطيهم خُطَّة يريد بها صلاحهم ، إلا كانت دُرْبَة إلى فسادهم ، وقوة على معصيتهم ، وداعية إلى عودتهم ، وسبباً لفساد مَنْ بِحَضْرته من الجنود ، ومن يبابه من الوفود الذين إن أقرَّهم ، وتلك العادة ، وأجراهم على ذلك الأرب ، لم يبرح في فَتَقِ حادِث ، وخلافِ حاضر ، لا يصلح عليه دين ، ولا تستقيم به دنيا ، وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة ، واستمرار الدُرْبَة ، لم يصل إلى ذلك إلا بالعقوبة المُفْرِطَة ، والمثوثة الشديدة ، والرأى لهدي وفقه الله أن لا يُقِيل عثرتهم ، ولا يقبل معذرتهم ، حتى تطأهم الجيوشُ ، وتأخذهم السيوفُ ، ويستَحِرَّ^(٢) . ثم القتلُ ، ويُحْدِقُ بهم الموتُ ، ويحيط بهم البلاءُ ، وَيُطْبِقُ عليهم الذلَّ ، فإن فعل المهدي بهم ذلك ، كَانَ مَقْطَعَة لكل عادة سوء فيهم ، وهزيمة لكل بادرةٍ شرِّ منهم ، واحتمالُ المهديِّ في مَثْوَنَة غزوتهم هذه ، تضع عنه غزواتٍ كثيرة ، ونفقاتٍ عظيمة .

فقال المهدي : « قد قال القوم ، فاحكم يا أبا الفضل »

٦٠ - مقال العباس بن محمد

فقال العباس بن محمد :

« أيها المهدي : أما الموالى فأخذوا بفروع الرأى ، وسلكوا جنابات الصواب ، وتمعدوا أمورا قصر بنظرهم عنها ، أنه لم تأت تجار بهم عليها ، وأما الفضل فأشار بالاموال أن لا تُنْفَق ، والجنود ألا تُفَرَّق ، وبأن لا يُعْطَى القوم ما طلبوا ، ولا

يُبْذَلُ لَهُمْ مَا سَأَلُوا ، وَجَاءَ بِأَمْرِ يَبِينَ ذَلِكَ اسْتِصْفَارًا لِأَبْرَهُمْ ، وَاسْتِهَانَةً بِحَرْبِهِمْ ،
وَإِنَّمَا يَهَيِّجُ جَسِيَّاتِ الْأُمُورِ صَغَارُهَا .

وَأَمَّا عَلِيٌّ ، فَأَشَارَ بِاللَّيْنِ وَإِفْرَاطِ الرَّفْقِ ، وَإِذَا جَرَّدَ الْوَالِي لِمَنْ غَمَطَ أَمْرَهُ ،
وَسَفَهُ حَقَّهُ ، اللَّيْنُ بَحْتًا ، وَالْخَيْرُ مَحْضًا ، لَمْ يَخْلِطْهُمَا بِشِدَّةٍ تَعْطِفُ الْقُلُوبَ عَنْ لَيْنِهِ ،
وَلَا بَشَرٍ يَحْبِسُهُمْ إِلَى خَيْرِهِ ، فَقَدْ مَلَّكَهُمْ الْخَلْعَ لِعِذْرِهِمْ ، وَوَسَّعَ لَهُمُ الْفُرْجَةَ
لِئْتَنِي أَعْنَاقَهُمْ ، فَإِنْ أَجَابُوا دَعْوَتَهُ ، وَقَبِلُوا لَيْنَهُ مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ اضْطَرَّهُمْ وَلَا شِدَّةٍ ،
فَنَزَوَةٌ ^(١) فِي رِءْوسِهِمْ ، يَسْتَدْعُونَ بِهَا الْبَلَاءَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَيَسْتَصْرَخُونَ بِهَا
رَأْيَ الْمَهْدَى فِيهِمْ ، وَإِنْ لَمْ يَقْبَلُوا دَعْوَتَهُ ، وَيَسْرِعُوا لِإِجَابَتِهِ بِاللَّيْنِ الْمَحْضِ ،
وَالْخَيْرِ الصَّرَاحِ ، فَذَلِكَ مَا عَلَيْهِ الظَّنُّ بِهِمْ ، وَالرَّأْيُ فِيهِمْ ، وَمَا قَدْ يَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ
مِنْ مِثْلِهِمْ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْجَنَّةَ ، وَجَعَلَ فِيهَا مِنَ النِّعَمِ الْمَقِيمَ ، وَالْمَلِكَ
الْكَبِيرَ ، مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْفِكْرُ ، وَلَا تَعْلَمُهُ نَفْسٌ . ثُمَّ دَعَا
النَّاسَ إِلَيْهَا ، وَرَغَّبَهُمْ فِيهَا ، فَلَوْلَا أَنَّهُ خَلَقَ نَارًا جَعَلَهَا لَهُمْ رَحْمَةً يَسُوقُهُمْ بِهَا إِلَى
الْجَنَّةِ ، لَمَا أَجَابُوا وَلَا قَبِلُوا

وَأَمَّا مُوسَى ، فَأَشَارَ بِأَنْ يُعْضَبُوا بِشِدَّةٍ لِلَّيْنِ فِيهَا ، وَأَنْ يُرْمَوْا بِبَشَرٍ لِاخْتِيَارِ
مَعَهُ ، وَإِذَا أَضْمَرَ الْوَالِي لِمَنْ فَارَقَ طَاعَتَهُ ، وَخَالَفَ جَمَاعَتَهُ ، الْخَوْفَ مَفْرَدًا ، وَالشَّرَّ
مَجْرَدًا ، لَيْسَ مَعَهُمَا طَمَعٌ ، وَلَا لَيْنٌ يُثْنِيهِمْ ، اشْتَدَّتْ الْأُمُورُ بِهِمْ ، وَانْتَقَطَتْ
الْحَالُ مِنْهُمْ إِلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ ، إِمَّا أَنْ تَدْخُلَهُمُ الْحَمِيَّةُ مِنَ الشَّدَّةِ ، وَالْأَنْفَةُ مِنَ الذَّلَّةِ ،
وَالْامْتِعَاضُ مِنَ الْقَهْرِ ، فَيَدْعُوهُمْ ذَلِكَ إِلَى التَّمَادِي فِي الْخِلَافِ ، وَالِاسْتِبْسَالِ فِي
الْقِتَالِ ، وَالِاسْتِسْلَامِ لِلْمَوْتِ ، وَإِمَّا أَنْ يَنْقَادُوا بِالْكَرْهِ ، وَيُدْعَنُوا بِالْقَهْرِ عَلَى

بِغَضَّةٍ لازمة ، وعداوة باقية ، ثورث النفاق ، وتُعقِبُ الشقاق ، فإذا أمكنتهم فرصةٌ ، أو ثابتٌ^(١) لهم قدرة ، أو قويت لهم حال ، عاد أمرهم إلى أصعب وأغلظ وأشدّ مما كان .

وقال في قول أبي الفضل : أيها المهدي ، أكنفي دليل ، وأوضح برهان ، وأبين خبر بأن قد أجمع رأيه ، وحزّم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم ، وتوجيه البعوث نحوهم ، مع إعطائهم ماسألوا من الحق ، وإجابتهم إلى ماسألوه من العدل . قال المهدي : ذلك رأى .

٦١ - مقال هرون بن المهدي

قال هرون :

« خلطت الشدة أيها المهدي باللين ، فصارت الشدة أمرًا فِطامٍ لما تَكَرَّه ، وعاد اللين أهدي قائد إلى ماتحِبِّ . ولكن أرى غير ذلك » .
قال المهدي : « لقد قلت قولاً بديعاً . وخالفت فيه أهل بيتك جميعاً ، والمرء مؤتمن بما قال ، وظنين بما أدعى ، حتى يأتي بيئته عادلة ، وحجة ظاهرة ، فاخرج عما قلت » قال هرون : « أيها المهدي ، إن الحرب خدعة^(٢) ، والأعاجم قوم مكررة ، وربما اعتدلت الحال بهم . واتفقت الأهواء منهم ، فكان باطن مأيسرون على ظاهر ما يعلنون ، وربما اقرقت الحالان ، وخالف القلب اللسان ، فانطوى القلب على محجوبة تُبطن ، واستسرَّ بمدخولة لا تعلن ، والطبيب الرفيق بطبه ، البصير بأمره ، العالم بمقدّم يده ، وموضع ميسمه^(٣) لا يتعجل بالدواء ، حتى يقع على معرفة الداء ، فالرأي للمهدي «وقفه الله» أن يقرَّ^(٤) باطن أمرهم قرَّ

[١] رجعت . [٢] خدعة بسكون الدال وتثليث الحاء ، وبضم الحاء وفتح الدال ، أي تنقضي بخدعة .

[٣] اليمس : المكواة . [٤] فر الدابة : كشف عن أسنانها ليعرف سنّها .

المُسِنَّةُ ، وِيَعْمَضُ ظَاهِرَ حَالِهِمْ مَخْضَ السَّقَاءِ ، بِمُتَابَعَةِ الْكُتُبِ ، وَمُظَاهَرَةَ الرُّسُلِ ،
 وَمَوَالَاةَ الْعَيُونِ ، حَتَّى تُهْتَكَ حُجُبُ عَيُونِهِمْ ، وَتُكْشَفَ أَعْيُنُ أُمُورِهِمْ ، فَإِنَّ
 انْفِرَجَتِ الْحَالُ وَأَفْضَتِ الْأُمُورُ بِهِ إِلَى تَغْيِيرِ حَالِ ، أَوْ دَاعِيَةِ ضَلَالِ اشْتَمَلَتِ
 الْأَهْوَاءَ عَلَيْهِ ، وَانْقَادَ الرِّجَالَ إِلَيْهِ ، وَامْتَدَّتِ الْأَعْنَاقُ نَحْوَهُ بِدِينِ يَعْتَقِدُونَهُ ، وَإِثْمِ
 يَسْتَحِلُّونَهُ ، عَصَبَهُمْ بِشِدَّةٍ لَا لَيْنَ فِيهَا ، وَرِمَاهُمْ بِعَقُوبَةٍ لَا عَفْوََ مَعَهَا ، وَإِنْ
 انْفِرَجَتِ الْعَيُونُ ، وَاهْتَضِرَتِ السُّتُورُ ، وَرُفِعَتِ الْحُجُبُ ، وَالْحَالُ فِيهِمْ مَرَّيْعَةٌ ^(١) ،
 وَالْأُمُورُ بِهِمْ مَعْتَدَلَةٌ ، فِي أَرْزَاقٍ يَطْلُبُونَهَا ، وَأَعْمَالٍ يُنْكَرُونَهَا ، وَظُلَامَاتٍ
 يَدْعُونَهَا ، وَحَقُوقٍ يَسْأَلُونَهَا ، بِمَاتَّةٍ سَابَقَتْهُمْ ، وَدَالَّةٍ مَنَاصِحَتْهُمْ ، فَالرَّأْيُ لِلْمَهْدَى
 - وَفَقَهُ اللَّهُ - أَنْ يَتَسَعَ لَهُمْ بِمَا طَلَبُوا ، وَيَتَجَانَى لَهُمْ عَمَّا كَرِهُوا ، وَيَشْعَبَ ^(٢) مِنْ
 أَمْرِهِمْ مَا صَدَعُوا ، وَيَرْتَقَى مِنْ فَتَقِهِمْ مَا قَطَعُوا ، وَيُوَلِّيَ عَلَيْهِمْ مَنْ أَحْبَبُوا ،
 وَيُدَاوِي بِذَلِكَ مَرَضَ قُلُوبِهِمْ ، وَفَسَادَ أُمُورِهِمْ ، فَإِنَّمَا الْمَهْدَى وَأَمْتُهُ ، وَسَوَادُ
 أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ، بِمَنْزِلَةِ الطَّيِّبِ الرَّفِيقِ ، وَالْوَالِدِ الشَّفِيقِ ، وَالرَّاعِيِ الْمَجْرَبِ الَّذِي
 يَحْتَالُ لِمَرَابِضِ غَنَمِهِ ، وَضَوَالَ رَعِيَّتِهِ ، حَتَّى يُبْرِئَ الْمَرِيضَةَ مِنْ دَاءِ عِلَّتِهَا ، وَيُرَدِّ
 الصَّحِيحَةَ إِلَى أُنْسِ جَمَاعَتِهَا ، ثُمَّ إِنْ خَرَّاسَانَ بِخَاصَّةِ الَّذِينَ لَهُمْ دَالَّةٌ مُجْمُولَةٌ ، وَمَاتَّةٌ
 مَقْبُولَةٌ ، وَوَسِيلَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَحَقُوقٌ وَاجِبَةٌ ، لِأَنَّهُمْ أَيْدِي دَوْلَتِهِ ، وَسَيُوفُ دَعْوَتِهِ ،
 وَأَنْصَارُ حَقِّهِ ، وَأَعْوَانُ عَدْلِهِ ، فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْمَهْدَى الْإِضْطَاعَانِ عَلَيْهِمْ ، وَلَا
 الْمُوَاخَذَةَ لَهُمْ ، وَلَا التَّوَعُّرَ ^(٣) بِهِمْ ، وَلَا الْمَكَافَأَةَ بِإِسَاءَتِهِمْ ، لِأَنَّ مَبَادِرَةَ حَسْمِ
 الْأُمُورِ ضَعِيفَةٌ قَبْلَ أَنْ تَقْوَى ، وَمَحَاوَلَةٌ قَطَعَ الْأَصُولِ ضَنْئِيلَةً قَبْلَ أَنْ تَغْلُظَ ،

[١] مرع الوادى ككرم مراعاة : أخصب بكثرة السكلا فهو مرع .

[٢] تصلح . [٣] توعر الرجل : تشدد .

أحزمُ في الرأي ، وأصح في التدبير ، من التأخير لها ، والتهاون بها ، حتى يلتئم قليلها بكثيرها ، وتجتمع أطرافها إلى جمهورها .

قال المهدي : « ما زال هرون يقع وقع الحياك^(١) ، حتى خرج خروج القَدَح من الماء ، وانسلَّ انسلال السيف فيما ادعى ، فدعوا ما سبق موسى فيه أنه هو الرأي ، وثني بعده هرون ، ولكن من لأعنة الخيل وسياسة الحرب ، وقيادة الناس ، إن أمعن بهم اللجاج ، وأفرطت بهم الدالة ؟ »

٦٢ — مقال صالح بن علي^(٢)

قال صالح :

« لسنا نبلغ أيها المهدي بدوام البحث وطول الفكر أدنى فِراسةٍ رأيك ، وبعضَ لحظاتِ نظرك ، وليس ينفضُ عنك من بيوتات العرب ، ورجالاتِ العجم ، ذودينِ فاضل ، ورأي كامل ، وتدبير قوي ، تقلده حربك ، وتستودعه جندك ، ممن يحتمل الأمانة العظيمة ، ويضطلع بالأعباء الثقيلة ، وأنت بحمد الله ميمون التقيية^(٣) ، مبارك العزيمة ، مخبور التجارب ، محمود العواقب ، معصوم العزم ، فليس يقع اختيارك ، ولا يقف نظرك على أحد ثوليه أمرك ، وتُسند إليه ثَعْرُك ، إلا أراك الله ماتحب ، وجمع لك منه ما تريد . »

قال المهدي : « إني لأرجو ذلك لقديم عادةٍ الله فيه ، وحسن معونته عليه ، ولكن أحب الموافقة على الرأي ، والاعتبار للمشاورة في الأمر المهم »

٦٣ — مقال محمد بن الليث

قال محمد بن الليث :

« أهل خراسان أيها المهدي قومٌ ذوو عزّةٍ ومنعةٍ ، وشياطينُ خدعةٍ ،

زُرُوعِ الْحَمِيَّةِ فِيهِمْ نَابِتَةٌ ، وَمَلَابِسِ الْأَنْفَةِ عَلَيْهِمْ ظَاهِرَةٌ ، فَالرُّوِيَّةُ عَنْهُمْ عَازِبَةٌ ،
وَالعَجَلَةُ فِيهِمْ حَاضِرَةٌ ، تَسْبِقُ سِيُوهُمْ مَطْرَحٌ ، وَسِيُوفُهُمْ عَذْلُهُمْ ، لِأَنَّهُمْ بَيْنَ
سِفْلَةٍ لَا يَعِدُو مَبْلَغُ عَقُولِهِمْ مَنْظَرَ عِيُونِهِمْ ، وَبَيْنَ رُؤْسَاءٍ لَا يُلْجَمُونَ إِلَّا بِشِدَّةٍ ،
وَلَا يُفْطَمُونَ إِلَّا بِالرُّبِّ ، وَإِنْ وُلِّيَ الْمَهْدَى عَلَيْهِمْ وَضِعًا لَمْ تَنْقَدْ لَهُ الْعِظْمَاءُ ، وَإِنْ
وُلِّيَ أَمْرَهُمْ شَرِيفًا تَحَامَلُ عَلَى الضَّعْفَاءِ ، وَإِنْ أَخْرَجَ الْمَهْدَى أَمْرَهُمْ ، وَدَافَعَ حَرْبَهُمْ ،
حَتَّى يُصِيبَ لِنَفْسِهِ مِنْ حَسَمِهِ وَمَوَالِيهِ أَوْ بَنِي عَمِّهِ أَوْ بَنِي أَبِيهِ نَاصِحًا ، يَتَّفِقُ عَلَيْهِ
أَمْرَهُمْ ، وَثِقَةٌ تَجْتَمِعُ لَهُ أُمَلَاؤُهُمْ ^(١) ، بَلَا أَنْفَةَ تَلْزَمُهُمْ ، وَلَا حَمِيَّةً تَدْخُلُهُمْ ، وَلَا
مُصِيبَةَ تَنْفَرُهُمْ ، تَنْفَسَتْ الْأَيَّامُ بِهِمْ ، وَتَرَخَتْ الْحَالُ بِأَمْرِهِمْ ، فَدَخَلَ بِذَلِكَ مِنَ
الْفَسَادِ الْكَبِيرِ ، وَالضِّيَاعِ الْعَظِيمِ ، مَا لَا يَتَلَفَاهُ صَاحِبُ هَذِهِ الصِّفَةِ وَإِنْ جَدَّ ،
وَلَا يَسْتَصْلِحُهُ وَإِنْ جَهَدَ ، إِلَّا بَعْدَ دَهْرٍ طَوِيلٍ ، وَشَرٌّ كَبِيرٍ ، وَليْسَ الْمَهْدَى وَفَقَهُ
اللَّهُ فَاطِمًا عَادَاتِهِمْ ، وَلَا قَارِعًا صِفَاتِهِمْ ^(٢) ، بِمَثَلِ أَحَدِ رَجُلَيْنِ لَا ثَالِثَ لهُمَا ، وَلَا
عِدْلَ ^(٣) فِي ذَلِكَ بَيْنَهُمَا ، أَحَدُهُمَا لِسَانٌ نَاطِقٌ مُوَصُولٌ بِسَمْعِكَ ، وَيَدٌ مِمْتَلَةٌ لِعَيْنِكَ ،
وَصَخْرَةٌ لَا تَزْعَزَعُ ، وَبُهْمَةٌ ^(٤) لَا تُتَنَّى ، وَبَازِلٌ ^(٥) لَا يُفْرَعُهُ صَوْتُ الْجُلْجُلِ ،
نَقِيٌّ الْعَرِضُ ، نَزِيهٌ النَّفْسُ ، جَلِيلٌ الْخَطَرُ ^(٦) ، أَتَضَعْتَ الدُّنْيَا عَنْ قَدْرِهِ ، وَسَمَا
نَحْوَ الْآخِرَةِ بِهَمَّتَهُ ، وَجَعَلَ الْعَرِضُ الْأَقْصَى لِعَيْنِهِ نُصْبًا ، وَالْعَرِضُ الْأَدْنَى لِقَدَمِهِ
مَوْطِئًا ، فَلَيْسَ يَقْبَلُ عَمَلًا ، وَلَا يَتَعَدَّى أَمَلًا ، وَهُوَ رَأْسُ مَوَالِيكَ ، وَأَنْصَحُ
بَنِي أَبِيكَ ، رَجُلٌ قَدْ غَدَّى بِالطِّيفِ كَرَامَتِكَ ، وَنَبَتَ فِي ظِلِّ دَوَاتِكَ ، وَنَشَأَ عَلَى

[١] جمع ملاكسب وهو الجماعة . [٢] الصفاة : الحجر الصلد الضخم . [٣] العدل : النظير .

[٤] البهمة : الصخرة ، والشجاع الذي لا يهتدى من أين يؤتى . [٥] البازل : الجمل في السنة

الناسعة ، والرجل الكامل في تجربته . [٦] انقدر .

قوائِم أدبِكَ ، فإن قَلدَتِه أمرَهم ، ومَحَلَّتِه ثِقَلَمَهم ، وأسندتَ إليه ثَعَرَمَهم ، كان قُفلاً فَتَحَه أمرُك ، وباباً أَغلقَه نَهْيُك ، فجعلَ العدلَ عليه وعليهم أميراً ، والإِنصافَ بينَهُ وبينهم حاكماً ، وإذا أَحكمَ المَنصَفَةَ ، ومَلَكَ المَعَدَلَةَ ، فأعطاهم ما لهم ، وأخذَ منهم ما عليهم ، غرس لك في الذي بين صدورهم ، وأسكن لك في السُّوَيَداءِ داخلَ قلوبهم ، طاعةً راسخةً العروق ، باسقةً الفروع ، متماثلةً في حواشي عوامهم ، متمكنةً من قلوب خواصهم ، فلا يبقى فيهم ريبٌ إلا نَفَوَه ، ولا يلزمهم حقٌ إلا أدَوَه ، وهذا أحدهما ، والآخرُ عودٌ من غِيضَتِكَ (١) ، وَنَبْعَةٌ من أرومتك ، فَتِي السن ، كَهْلُ الحِلْمِ ، راجحُ العَقلِ ، محمودُ الصَّرامةِ ، مأمونُ الخِلافِ ، يجرّدُ فيهم سيفه ، ويبدسطُ عليهم خيره ، بقدر ما يستحقون ، وعلى حسب ما يستوجبون ، وهو فلان ، أيها المهدي ، فسَلطَه أعزك اللهُ عليهم ، ووجَّهه بالجيوش إليهم ، ولا تَمَنَعَكَ ضِراعةُ (٢) سِنِّه ، وحادثةُ مَوَلِدِه ، فإن الحِلْمَ والثِقَةَ مع الحَدائِةِ ، خير من الشك والجَهْلِ مع الكَهولَةِ ، وإنما أحداكم أهلَ البيتِ فيما طبعكم اللهُ عليه ، واختصمَ به ، من مكارم الأخلاق ، ومحامد الفعال ، ومحاسن الأمور ، وصواب التدبير ، وصِرامةِ الأنفُسِ ، كَفِراخِ عِتاقِ الطيرِ ، المُحَكِّمةِ لأخذِ الصيدِ بلا تَدْرِيبِ ، والعارفةِ لوجوه النفعِ بلا تَأديبِ ، فالحلمُ والعلمُ ، والعزمُ والحزمُ ، والجودُ والثوَدَةُ ، والرِّفقُ ، ثابتٌ في صدوركم ، مزرورٌ في قلوبكم ، مُسْتَحَكِّمٌ لكم ، متكامِلٌ عندكم ، بطبائعٍ لازمةٍ ، وغرائرٍ ثابتةٍ .

٦٤ - مقال معاوية بن عبد الله

قال معاوية بن عبد الله :

[١] الفيضة : الأجمة ومجتمع الشجر في مفيض ماء . [٢] المراد حادثة .

«أفتاء»^(١) أهل بيتك أيها المهدي في الحلم على ما ذكر، وأهل خراسان في حال عزٍّ على ما وُصِفَ، ولكن إن ولى المهدي عليهم رجلا ليس بقديم الذكر في الجنود، ولا بنيه الصوت في الحروب، ولا بطويل التجربة للأموار، ولا بمعروف السياسة للجيوش، والهيبية في الأعداء، دخل ذلك أمران عظيمان، وخطران مهولان، أحدهما أن الأعداء يفتنهم ونها منه، ويحتقرونها فيه، ويختبرون بها عليه، في النهوض به، والمقارعة له، والخلاف عليه، قبل ما حين الاختبار لأمره، والتكشيف لحاله، والعلم بطباعه؛ والأمر الآخر أن الجنود التي يقود، والجيوش التي يسوس، إذا لم يختبروا منه البأس والتجدة، ولم يعرفوه بالصوت^(٢) والهيبية، انكسرت شجاعتهم، وماتت نجدتهم، واستأخرت طاعتهم، إلى حين اختبارهم، ووقوع معرفتهم، وربما وقع البوارق قبل الاختبار، وبياب المهدي - وَفَّقَهُ اللهُ - رجل مهيب، نبيه، حنيك،^(٣) صيِّت. له نسبٌ زالك، وصوت عال، قد قاد الجيوش وساس الحروب، وتألَّفَ أهلَ خراسان، واجتمعوا عليه عليه بالثقة، ووثقوا به كل الثقة، فلو ولاء المهدي أمرهم، لكفاه الله شرهم». قال المهدي: «جانبَتَ قَصْدَ الرَّمِيَّةِ، وَأَيْتَتْ إِلَّا عَصَبِيَّةً، إِذْ رَأَى الْحَدَثَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِنَا، كَرَأَى عَشْرَةَ حُمَامٍ مِنْ غَيْرِنَا، وَلَكِنْ أَيْنَ تَرَكْتُمْ وُلَى الْعَهْدِ؟». قالوا: «لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيهه جدّه، ونسيجَ وحده»^(٤)، ومن الدين وأهله، بحيث يقصُرُ القول عن أدنى فضله، ولكن وجدنا الله عز وجل حَجَبَ عن خلقه، وسَتَرَ دون عبادِه، عِلْمَ ما تختلف به الأيام، ومعرفة ما تجرى

[١] جمع فتى كيتيم وأيتام . [٢] الصوت والصات والصيت : الذكر الحسن . [٣] محسك . [٤] هو نسيج وحده : لا نظير له منفرد بمخال محمود لا يشركه فيها غيره ، كما أن التوب النهميس لا ينسج على منواله غيره ، أى لا يشرك بينه وبين غيره في السدى .

عليه المقاديرُ من حوادث الأمور ، ورَيْبُ المنون ^(١) الْمُخْتَرِمَةُ لِحَوَالِي القرون ،
 وَمَوَاضِي الملوِك ، فِكْرِهِنَا شُسُوعَه ^(٢) عِن مَحَلَّةِ المَلِك ، وِدَارِ السُلْطَان ، وَمَقَرِّ
 الإِمَامَةِ وَالوَلَايَةِ ، وَمَوْضِعِ المَدَائِنِ وَالخَزَائِنِ ، وَمَسْتَقَرِّ الجُنُودِ ، وَمَعَدِنِ الجُودِ ،
 وَمَجْمَعِ الأَمْوَالِ ، الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ قُطْبًا لِمَدَارِ المَلِكِ ، وَمِصِيدَةً لِقُلُوبِ النَّاسِ ، وَمَثَابَةً
 لِإِخْوَانِ الطَّمَعِ ، وَثَوَارِ الفِتَنِ ، وَدَوَاعِي البِدْعِ ، وَفُرْسَانَ الضَّلَالِ ، وَأَبْنَاءَ المَوْتِ ،
 وَقَلْنَا إِنْ وَجَّهَ المَهْدَى وُلِيَّ عَهْدِهِ ، فَحَدَثَ فِي جِيوشِهِ وَجُنُودِهِ ، مَا قَدْ حَدَثَ بِجُنُودِ
 الرِّسْلِ مِنْ قَبْلِهِ ، لَمْ يَسْتَطِعِ المَهْدَى أَنْ يُعَقِّبَهُمْ بغيرِهِ ، إِلَّا أَنْ يَنْهَضَ إِلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ ،
 وَهَذَا خَطَرٌ عَظِيمٌ ، وَهَوْلٌ شَدِيدٌ ، إِنْ تَنَفَّسَتِ الأَيَّامُ بِمَقَامِهِ ، وَاسْتَدَارَتِ الحَالُ
 بِإِمَامِهِ ، حَتَّى يَقَعَ عَوَضٌ لَا يُسْتَفْنَى عَنْهُ ، أَوْ يَحْدُثُ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ ، صَارَ مَا بَعْدَهُ
 مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ هَوَلاً ، وَأَجَلُ خَطَرًا ، لَهُ تَبَعًا ، وَبِهِ مَتَصِلًا»

٦٥ — مقال المهدي

قال المهدي :

« الخَطْبُ أَيْسَرُ مِمَّا تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ ، وَعَلَى غَيْرِ مَا تَصِفُونَ الأَمْرَ عَلَيْهِ ، نَحْنُ
 أَهْلَ البَيْتِ نَجْرِي مِنْ أَسْبَابِ القَضَايَا ، وَمَوَاقِعِ الأُمُورِ ، عَلَى سَابِقِ مِنَ العِلْمِ ،
 وَمَحْتَمٍ مِنَ الأَمْرِ ، قَدْ أَنْبَأَتْ بِهِ الكُتُبُ ، وَتَنْبَأَتْ عَلَيْهِ الرِّسْلُ ، وَقَدْ تَنَاهَى
 ذَلِكَ بِأَجْمَعِهِ إِلَيْنَا ، وَتَكَامَلَ بِحَدِّ أَفِيرِهِ ^(٣) عِنْدَنَا ، فِيهِ نَدْبَرُّ ، وَعَلَى اللهِ تَتَوَكَّلُ ،
 إِنَّهُ لَا بُدَّ لَوَلِيِّ عَهْدِي ، وَوَلِيِّ عَهْدِ عَقْبِي بَعْدِي ، أَنْ يَقُودَ إِلَى خِرَاسَانَ البِعُوثِ ،
 وَيَتَوَجَّهُ نَحْوَهَا بِالْجُنُودِ ؛ أَمَّا الأَوَّلُ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ إِلَيْهِمْ رِسْلَهُ ، وَيُعْمَلُ فِيهِمْ حِيَلَهُ ،

[١] المنون المنية (مؤنث) والمختزمة : الهلكة ، والحوالي جمع خالية وهي الماضية .

[٢] شسع كنع شسعا وشسوتا : بعد فهو شاسع وشسوع .

[٣] جمع حذفور كمصفور أو حذفار كقرطاس وهو الجانب .

ثم يخرج نَشِيطًا إِلَيْهِمْ ، حَنَقًا عَلَيْهِمْ ، يريد أن لا يدعَ أحداً من إخوان الفتن ، ودواعي البدع ، وفُرْسَان الضلال ، إلا توطأه بحرَّ القتل ، وألبسه قِنَاع القَهْر ، وقلَّده طوق الذل ، ولا أحداً من الذين عملوا في قصِّ جَنَاح الفتنه ، وإخماد نار البدعة ، ونُصرة وُلاة الحق ، إلا أجرى عليهم دِيَم فضله ، وجداولَ نَهْلِهِ ، فإذا خرج مُزْمِعًا به ، مُجْمِعًا عَلَيْهِ ، لم يَمِرْ إلا قليلاً حتى يأتيه أن قد عملت حيله ، وكَدَحَت كتبه ، ونَفَذَت مكايده ، فَهَدَّات نافرَةَ القلوب ، ووقعت طائرة الأهواء ، واجتمع عليه المختلفون بالرضا ، فيميل نظراً لهم ، وبراً بهم ، وتعطفاً عليهم ، إلى عدو قد أخاف سبيلهم ، وقطع طريقهم ، ومنع حجاجهم بيتَ الله الحرام ، وسلب تجارهم رزقَ الله الحلال ؛ وأما الآخر فإنه يوجهُ إليهم ، ثم تعتقد له الحُجَّة عليهم بإعطاء ما يطلبون ، وبذَل ما يسألون ، فإذا سَمَحَت الفِرَاق بقراباتها له ، وَجَنَحَ أهل النواحي بأعناقهم نحوه ، فأصغَت إليه الأفتدة . واجتمعت له الكلمة ، وقدمت عليه الوفود ، قَصَدَ لأول ناحية بَجَعَت (١) بطاعتها ، وألقت بأزمئتها ، فألبسها جَنَاح نعمته ، وأنزلها ظِلَّ كرامته ، وخصَّها بمُعْظِم حَبائِهِ (٢) ، ثم عمَّ الجماعة بِالْمُعْدِلَةِ ، وتعطف عليهم بالرحمة ، فلا تبقى فيهم ناحية دانية ، ولا فِرقة قاصية ، إلا دخلت عليها بركته ، ووصلت إليها منفعتُه ، فأغنى فقيرها ، وَجَبَرَ كَسِيرها ، ورفَع وضعيها ، وزاد رفيها ، ما خلا ناحيتين ، ناحية يغلب عليها الشقاء ، وتستميلهم الأهواء ، فتستخف بدعوته ، وَتُثْبِطُ عن إجابته ، وتتناقل عن حقه ، فتكون آخر مَنْ يَبْعَثُ ، وَأَبْطَأ مَنْ يُوَجِّهُ ، فيصطلي عليها مَوْجِدَةٌ ، ويتغنى لها عِلَّةٌ ، لا يلبث يَجِدُ (٣) بحق يلزمهم ، وأمر يجب عليهم ، فتستلحمهم

[١] بجمع بالحق بخموا : أقره وخضع له . [٢] عطائه . [٣] يفضب .

الجيش ، وتأكلهم السيوف ، ويستحربهم القتل ، ويحيط بهم الأسر ، ويفنيهم
التبضع ، حتى يُحزَّب البلاد ، ويؤتم الأولاد ، وناحية لا يبسط لهم أماناً ، ولا يقبل
لهم عهداً ، ولا يجعل لهم ذمّة ، لأنهم أول من فتح باب الفرقة ، وتدرّع جلباب
الفتنة ، وربّض في شقّ العصا ، ولكنه يقتل أعلامهم ، ويأسر قوادهم ، ويطلب
هزأهم ، في أجبج البحار ، وقُلل الجبال ، وحميل^(١) الأودية ، وبطون الأرض ،
تقتيلا وتغليلا وتنكيلا ، حتى يدع الديار خراباً ، والنساء أياحى ، وهذا أمر
لا نعرف له في كتبنا وقتاً ، ولا نصحح منه غير ما قلنا تفسيراً ؛ وأما موسى ولى
عهدى ، فهذا أوانُ توجّهه إلى خراسان ، وحلوله بخرّجان ، وما قضى الله له من
الشخص إلىها ، والمقام فيها ، خير للمسلمين مغبّةً ، وله بإذن الله عاقبة من المقام
بميت يُغمّر في لُجج بحورنا ، ومدافع سيولنا ، ومجامع أمواجنا ، فيتصاغر عظيم
فضله ، ويتدأب^(٢) مشرق نُوره ، ويتقلل كثير ما هو كائن منه ، فمن يصحبه
من الوزراء ، ويختار له من الناس ؟ » .

٦٦ — مقال محمد بن الليث

قال محمد بن الليث :

« أيها المهدي : إن ولىّ عهدك أصبح لأمتك ، وأهل ملتك ، علماً قد تثنت
نحوه أعناقها ، ومدّت سمته أبصارها . وقد كان قرّب داره منك ، ومحلّ
جواره لك ، عطل^(٣) الحال ، غفل الأمر ، واسع العذر . فأما إذا انفرد بنفسه .
وخلا بنظره . وصار إلى تدييره . فإن من شأن العامة أن تتفقّد خارج رأيه .

[١] الجميل : بطن المسيل . [٢] يضطرب .

[٣] عطل (كفرح) من المال والأدب خلا فهو عطل كفعل وعنى .

وتستنصت لمواقع آثاره ، وتسأل عن حوادث أحواله ، في برّه وقرّحتمته . وإقساطه ^(١) ومعدّته ، وتدييره وسياسته ، ووزرائه وأصحابه . ثم يكون ما سبق إليهم أغلب الأشياء عليهم ، وأملك الأمور بهم ، وألزمها لقلوبهم ، وأشدّها استعمالاً لرايهم ، وعطفاً لأهوائهم . فلا يفتأ المهدي - وفقه الله - ناظراً له فيما يقوى عمده مملكته ، ويسدّد أركان ولايته ، ويستجمع رضا أمته بأمر هو أزين لحاله . وأظهر لجّماله ، وأفضل مغبّة لأمره ، وأجل موقفاً في قلوب رعيته ، وأحمد حالاً في نفوس أهل ملّته . ولا أذفع مع ذلك باستجماع الأهواء له . وأبلغ في استعطاف القلوب عليه ، من مَرَحمةٍ تظهر من فعله . ومعدلة تنتشر عن أثره . ومحبة للخير وأهله ، وأن يختار المهديّ - وفقه الله - من خيار أهل كل بلدة . وفقهاء أهل كلّ مصر ، أقواماً تسكن العامة إليهم إذا ذكروا ، وتأنس الرعية بهم إذا وُصِفوا . ثم تسهّل لهم عمارة سبيل الإحسان ، وفتح باب المعروف . كما قد كان فُتح له ، وسهّل عليه .

قال المهدي : صدقت ونصحت . ثم بعث في ابنه موسى ، فقال :

٦٧ - مقال المهدي

« أَيُّ مُبْنِيٍّ . إناك قد أصبحت لسمت وجوه العامة نُصباً ، ولثنتي أعطاف الرعية غايةً ، فحسنتك شاملة . وإساءتك نائية ، وأمرك ظاهر ، فمليك بتقوى الله وطاعته . فاحتمل مسخّط الناس فيهما ، ولا تطلب رضاهم بخلافهما ، فإن الله عز وجل . كافيك من أسخّطه عليك إيثارك رضاه . وليس بكافيك من يُسخّطه عليك إيثارك رضاه من سواه . ثم اعلم أن الله تعالى في كلّ زمان قرةً من رسله .

وبقايها من صَفْوَةِ خَلْقِهِ ، وَخَبَايَا لِنُصْرَةِ حَقِّهِ ، يَجِدُّ حَبْلَ الْإِسْلَامِ بِدَعْوَاهُمْ ، وَيَشِيدُ أَرْكَانَ الدِّينِ بِنُصْرَتِهِمْ ، وَيَتَّخِذُ لِأَوْلِيَاءِ دِينِهِ أَنْصَارًا ، وَعَلَى إِقَامَةِ عَدْلِهِ أَعْوَانًا . يَسُدُّونَ الْخَلَلَ ، وَيُقِيمُونَ الْمِيزَانَ ، وَيُدْفَعُونَ عَنِ الْأَرْضِ الْفَسَادَ ، وَأَنْ أَهْلَ خِرَاسَانَ أَصْبَحُوا أَيْدِيَ دَوْلَتِنَا ، وَسَيُوفَ دَعْوَتِنَا ، الَّذِينَ نَسْتَدْفِعُ الْمَكَارِهِ بِطَاعَتِهِمْ ، وَنَسْتَصْرِفُ نَزُولَ الْعِظَائِمِ بِمُنَاصَحَتِهِمْ . وَنُدَافِعُ رَيْبَ الزَّمَانِ بِعِزَائِهِمْ ، وَنُرَاحِمُ رُكْنَ الدَّمْرِ بِبِصَائِرِهِمْ ، وَهُمْ عِمَادُ الْأَرْضِ إِذَا أَرْجَفَ كَنْفُهَا ، وَخَوْفُ الْأَعْدَاءِ إِذَا بَرَزَتْ صَفْحَتُهَا ، وَحُصُونُ الرِّعْيَةِ إِذَا تَضَايَقَتْ الْحَالُ بِهَا ، قَدْ مَضَتْ لَهُمْ وَقَائِعُ صَادِقَاتٍ ، وَمَوَاطِنُ صَالِحَاتٍ ، أَخَذَتْ نِيرَانَ الْفِتَنِ ، وَقَسَمَتْ دَوَاعِيَ الْبِدْعِ . وَأَذَلَّتْ رِقَابَ الْجَبَّارِينَ ، وَلَمْ يَنْفَكُوا كَذَلِكَ مَا جَرَّوْا مَعَ رِيحِ دَوْلَتِنَا ، وَأَقَامُوا فِي ظِلِّ دَعْوَتِنَا ، وَاعْتَصَمُوا بِحَبْلِ طَاعَتِنَا ، الَّتِي أَعَزَّ اللَّهُ بِهَا ذِلَّتَهُمْ ، وَرَفَعَ بِهَا ضَعْفَتَهُمْ ، وَجَعَلَهُمْ بِهَا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، وَمُلُوكًا عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ ، بَعْدَ لِبَاسِ الذِّلِّ ، وَقِنَاعِ الْخَوْفِ ، وَإِطْبَاقِ الْبَلَاءِ ، وَمُحَالَفَةِ الْأَسَى ، وَجَهْدِ الْبَأْسِ وَالضَّرِّ . فَظَاهَرُوا عَلَيْهِمْ لِبَاسَ كِرَامَتِكَ ، وَأَنْزَلَهُمْ فِي حُدَاثِقِ نِعْمَتِكَ ، ثُمَّ اعْرِفْ لَهُمْ حَقَّ طَاعَتِهِمْ ، وَوَسِيلَةَ دَائَتِهِمْ ، وَمَاتَةَ سَابِقَتِهِمْ ، وَحُرْمَةَ مَنَاصِحَتِهِمْ ، بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، وَالتَّوَسُّعِ عَلَيْهِمْ ، وَالْإِثَابَةَ لِحَسَنِهِمْ ، وَالْإِقَالََةَ لِمَسِيئَتِهِمْ .

أَيُّ بَنِي ، ثُمَّ عَلَيْكَ الْعَامَّةَ . فَاسْتَدْعِ رِضَاهَا بِالْعَدْلِ عَلَيْهَا ، وَاسْتَجْلِبْ مَوَدَّتَهَا بِالْإِنْصَافِ لَهَا ، وَتَحَسَّنْ بِذَلِكَ لِرَبِّكَ ، وَتَوَثَّقْ بِهِ فِي عَيْنِ رِعْيَتِكَ ، وَأَجْعَلْ عُمَالَ الْعُذْرِ وَوُلَاةَ الْحَجِيجِ مُقَدِّمَةً بَيْنَ يَدَيْ عَمَلِكَ ، وَنَصِيفَةً مِنْكَ لِرِعْيَتِكَ ، وَذَلِكَ أَنْ تَأْمُرَ قَاضِيَ كُلِّ بَلَدٍ ، وَخِيَارَ أَهْلِ كُلِّ مِصْرٍ ، أَنْ يَخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ رِجَالًا تَوَلِيَهُمْ أَمْرَهُمْ ، وَتَجْعَلَ الْعَدْلَ حَاكِمًا بَيْنَهُمْ ، فَإِنْ أَحْسَنَ مُحَمَّدٌ ، وَإِنْ أَسَاءَ عُذِرَتْ .

هؤلاء عمال العُدْر، ووَلاة الحُجج ، فلا يسقطنَّ عليك ما في ذلك إذا انتشر في الآفاق ، وسبق إلى الأسماع من انعقاد السنة المرجفين ، وَكَبَّتِ قلوب الحاسدين ، وإطفاء نيران الحروب ، وسلامة عواقب الأمور ، ولا ينفكَّن في ظل كرامتك نازلاً ، وَبِعُرَا حَبْلِكَ متعلقاً ، رجلاً : أحدهما كريمة من كرائم رجالات العرب ، وأعلام بيوتات الشرف ، له أدب فاضل ، وَحِلْمٌ راجح ، ودين صحيح ، والآخر له دين غير مغموز ، وه وضع غير مدخول ، بصير بتقليب الكلام ، وتصريف الرأى ، وَأَهْمَاءُ العَرَب ، ووضع الكتب ، عالم بمجالات الحروب ، وتصاريف الخُطوب ، يضع آداباً نافعةً ، وآثاراً باقيةً ، من محاسنك وتحسين أمرك ، وَتَحْلِيَةٌ ذَكَرَكَ ، فتستشيرهُ في حربك ، وتدخلهُ في أمرك ، فرجل أَصَبْتَهُ كذلك ، فهو يا أوى إلى مَحَلَّتِي ، ويرعى في خُضرة جناني ، ولا تدع أن تختار لك من فقهاء البلدان ، وخيار الأمصار ، أقواماً يكونون جيرانك وَسُمَّارَكَ ، وأهل مشاورتك فيما تُورِد ، وأصحاب مناظرتك فيما تُصَدِر ، فَسِرْ على بركة الله ، أَصْحَبَكَ اللهُ مِنْ عَوْنِهِ وَتَوْفِيقِهِ دليلاً يَهْدِي إلى الصواب قلبك ، وهادياً يُنطق بالخير لسانك » .

وكتب في شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد (١) .

(العقد الفريد ١ : ٥٧)

[١] ملاحظة: أقول: وهذا يتنافى ما ورد في التاريخ: إذ المعروف أن المهدي توفي في الحرم سنة ١٦٩ وأعقبه الهادي ، الذي توفي في ربيع الأول سنة ١٧٠ ، فكيف يكون تاريخ كتابة هذه المشاورة هو ربيع الآخر سنة ١٧٠ أى بعد وفاة المهدي والهادي ، مع أنه ذكرى سياق خبرها أن المهدي أمر محمد بن الليث بحفظ مراجعتهم ، وإثبات مقالاتهم في كتاب ، أى أنها كتبت في المجلس الذي حدثت فيه المشاورة . وانوارد في التاريخ أيضاً أن الهادي خرج إلى جرجان سنة ١٦٦ و ١٦٧ (راجع تاريخ الطبري ج ١٠ ص ٧ - ٨) اللهم إلا أن يقال إنها كتبت في مجلس المشاورة ، وبقيت محفوظة لدى كاتبها ، حتى نشرت للناس في ربيع الآخر سنة ١٧٠ أى أن ذلك التاريخ هو تاريخ كتابتها لإعلانها للجمهور ، على أننا نشكك فيها من وجهة أخرى ، وذلك لما نراه عليها من مسحة الكتابة الفنية المنسقة .

٦٨ - ابن عتبة يعزى المهدي ويهنئه

لما ثوَّفِي المنصور دخل ابن عُتْبَةَ^(١) مع الخطباء على المهديّ ، فسلمَ فقال :
« آجَرَ اللهُ أميرَ المؤمنين على أمير المؤمنين قَبْلَهُ ، وبارك اللهُ لأَمير المؤمنين فيما
خلفه له أمير المؤمنين بعده ، فما مصيبةٌ أعظم من فَقْد أمير المؤمنين ، ولا عُقْبَى
أفضلُ من وِراثَةِ مقام أمير المؤمنين ، فاقْبَلْ يا أمير المؤمنين من اللهُ أفضلَ العطية ،
وَاحْتَسِبْ عند الله أفضلَ الرِّزْيَةِ » . (البيان والنبين ٢ : ١٠٣ ، والعقد المرید ٢ : ٣٥)

٦٩ - يعقوب بن داود يستعطف المهدي

لما سَخَطَ المهدي على وزيره يعقوب بن داود^(٢) أحضره ، فقال : يا يعقوب ، قال :
لبيك يا أمير المؤمنين ، تلبيةً مكروبٍ لِمَوْجِدِ تِك ، شَرِقِ بَعْصَتِكَ ، قال : « ألم أرفع
قدرك وأنت خامل ، وأسيرٌ ذكرك وأنت هامل ، وَالْبِسْكَ من نعم الله تعالى
وَنِعْمَى ما لم أَجِدْ عندك طاقةً لِحَمْلِهِ ، ولا قيامًا بشكره ؟ فكيف رأيت الله تعالى
أظهرَ^(٣) عليك ، وردَّ كيدك إليك ! » .

قال : « يا أمير المؤمنين ، إن كنت قلت هذا بتيقن وعلم فإني معترف ، وإن
كان بسعاية الباغين ، ونعائم المعاندين ، فأنت أعلمُ بأكثرها ، وأنا عائِدٌ
بكرمك ، وعميم شرفك » .

[١] وفي العقد الفريد « أبو العيناء المحدث » .

[٢] وكان المهدي قد فوض إليه الأمور كلها ، وسلم إليه الدواوين ، وقدمه على جميع الناس ، ثم سخط عليه . وسبب ذلك أنه دفع إليه رجلا من العلويين ، وقال له : أحب أن تكفيني أمره ، فلما صار العلوي في يده ، قال له : يا يعقوب تلتقي الله بدمي ، وأنا ابن علي بن أبي طالب ، وابن فاطمة رضی اللهُ عنها ، وليس لي إليك ذنب ؟ فرق له ، وخلي سبيله ، ونعمي الخبر إلى المهدي ، فأرسل في طلب العلوي حتى ظفر به ، واستدعى يعقوب ، فقال : ما فعلت بالعلوي ؟ قال : قد أراح الله منه أمير المؤمنين ، قال : مات ؟ قال : نعم ، فاستحلغه ، خلف له ، فأخرج إليه العلوي ، فلم يجر جوابا ، فأمر بحبسه في بئر مظلمة ، وما زال محبوسا حتى عفا عنه الرشيد وتوفى سنة ١٨٦ هـ . [٣] أي أمان عليك .

فقال : لولا الحنث^(١) في دمك لألبستك قيصاً لا تشد عليه أزراراً ، ثم أمر به إلى السجن ، فتولى وهو يقول : «الوفاء يا أمير المؤمنين كرم ، والمودة رحيم ، وما على العفو ندم ، وأنت بالعفو جدير ، وبالحاسن خليق » ، فأقام في السجن إلى أن أخرجه الرشيد . (زهر الآداب ٣ : ٢٠٧)

٧٠ رجل من أهل خراسان يخطب بحضرة المهدي

وقدم على المهدي رجل من أهل خراسان ، فقال : « أطال الله بقاء أمير المؤمنين ، إناقوم نأيننا عن العرب ، وشغلتنا الحروب عن الخطب ، وأمير المؤمنين يعلم طاعتنا ، وما فيه مصلحتنا ، فيكتفي منا باليسير عن الكثير ، ويقتصر على ما في الضمير ، دون التفسير » ، فقال المهدي : أنت أخطب من سمعته . (الصناعتين ص ٤٠)

٧١ - مقام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدي

دخل صالح بن عبد الجليل على المهدي ، فسأله أن يأذن له في الكلام ، فقال : تكلم ، فقال :

« إنه لما سهل علينا ما توعد على غيرنا من الوصول إليك ، قننا مقام الأداء عنهم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بإظهار ما في أعناقنا من فریضة الأمر ، والنهي ، عند انقطاع عُذر الكتمان ، ولاسيما حين أُسِّمَتَ بِمِسْمِ التواضع ، ووعدت الله وَحَمَلَةَ كِتَابِهِ إِثْرَ الْحَقِّ عَلَى مَاسِوَاهِ ، جَمَعْنَا وَإِيَّاكَ مُشْهَدًا مِنْ مَشَاهِدِ التَّحْيِصِ ، إِيْتِمَّ مُؤَدِّينَا عَلَى مَوْعِدِ الْأَدَاءِ عَنْهُمْ ، وَقَابَلْنَا عَلَى مَوْعِدِ الْقَبُولِ ، أَوْ يَزِيدُنَا تَحْيِصُ اللَّهِ إِيَّانَا فِي اخْتِلَافِ السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَيُحَلِّمُنَا حَلِيَّةَ

[١] في الأصل « الحسب » وأرى أنها محرفة عن « الحنث » وهو الذنب العظيم والإثم .

الكذابين ، فقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : « من حَجَبَ الله عنه العلم ، عَذَّبَهُ على الجهل ، وَأَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا مَنْ أَقْبَلَ إِلَيْهِ الْعِلْمَ وَأَدْبَرَ عَنْهُ ، وَمَنْ أَهْدَى اللَّهُ إِلَيْهِ عَامًا فَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ ، فَقَدْ رَغِبَ عَنْ هَدْيَةِ اللَّهِ وَقَصَّرَ بِهَا » ، فَأَقْبَلَ مَا أَهْدَى اللَّهُ إِلَيْكَ مِنْ أَسْنَتِنَا ، قَبُولَ تَحْقِيقِ وَعْمَلِ ، لِقَبُولِ سُمْعَةِ وَرِيَاءِ ، فَإِنَّهُ لَا يَعْدَمُكَ مِنْهَا إِعْلَامٌ لِمَا تَجْهَلُ ، أَوْ مُوَاطَاةٌ عَلَى مَا تَعْلَمُ ، أَوْ تَذْكَيرٌ لَكَ مِنْ غَفْلَةٍ ، فَقَدْ وَطَّنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى نَزْوِلِهَا ، تَعْزِيَةً عَمَّا فَاتَ ، وَتَحْصِينًا مِنَ التَّمَادِي ، وَدَلَالَةً عَلَى الْمَخْرَجِ ، فَقَالَ : « وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » فَأَطَاعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِكَ ، بِمَا يَنْوِرُ اللَّهُ بِهِ الْقُلُوبَ ، مِنْ إِيْثَارِ الْحَقِّ ، وَمَنْابِذَةِ الْأَهْوَاءِ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ ، يُرْثِرُكَ وَأَثْرُكَ اللَّهُ عَلَيْكَ فِيهِ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

(العقد الفريد ١ : ٣٠٣ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٣ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٨١)

٧٢ — عظة شيب بن شيبه للمهدى

وَقَالَ شَيْبِ بْنِ شَيْبَةَ ^(١) الْمَهْدِيُّ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ اللَّهُ إِذْ قَسَمَ الْأَقْسَامَ فِي الدُّنْيَا ، جَعَلَ لَكَ أَسْنَاهَا وَأَعْلَاهَا ، فَلَا تَرْضَى لِنَفْسِكَ مِنَ الْآخِرَةِ ، إِلَّا مِثْلَ مَا رَضِيَ لَكَ مِنْ الدُّنْيَا ، فَأَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ ، فَعَلَيْكُمْ نَزَلَتْ ، وَمِنْكُمْ أُخِذَتْ ، وَإِلَيْكُمْ تُرَدُّ »

(العقد الفريد ١ : ٣٠٧)

٧٣ — خطبته في تعزية المهدي بابنته

لَمَّا مَاتَتِ الْبَابُوقَةُ بِنْتُ الْمَهْدِيِّ ، جَزَعَ عَلَيْهَا جَزَعًا لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ ، فَجَلَسَ لِلنَّاسِ يَعْزُونَهُ ، وَأَمَرَ الْأَيُّمُحَجَّبَ عَنْهُ أَحَدًا ، فَأَكْثَرَ النَّاسَ فِي التَّعَازِي ،

[١] هو شيب بن شيبه بن عبد الله بن عمرو بن الأهمم المقرئ التميمي وهو ابن عم خالد بن صفوان .

وَاجْتَهَدُوا فِي الْبَلَاغَةِ ، وَفِي النَّاسِ مَنْ يَنْتَقِدُ هَذَا عَلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، فَاجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا تَعْزِيَةً أَوْجَزَ ، وَلَا أَبْلَغَ ، مِنْ تَعْزِيَةِ شَيْبِ بْنِ شَيْبَةَ ، فَإِنَّهُ قَالَ :

« أَعْطَاكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا رُزِمْتَ أَجْرًا ، وَأَعْقَبَكَ صَبْرًا ، وَلَا أَجْهَدَ اللَّهُ بِلَاءَكَ بِنِقْمَةٍ ، وَلَا نَزَعَ مِنْكَ نِعْمَةً ، ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْهَا ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَهَا مِنْكَ ، وَأَحَقُّ مَا صُبرَ عَلَيْهِ مَا لِاسْبِيلٍ إِلَى رَدِّهِ (١) » .

(تاريخ الطبري ١٠ : ٢١)

٧٤ — خطبة أخرى له في مدح الخليفة

قيل لبعض الخلفاء إن شبيب بن شيبَةَ يستعمل الكلام ويستعدّ له ، فلو أمرته أن يصعد المنبر فجأة لرجوت أن يفتضح ، فأمر رسولاً فأخذ بيده إلى المسجد فلم يفارقه حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم حتى الصلاة عليه ، ثم قال :

« أَلَا إِنَّ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَشْبَاهًا أَرْبَعَةً : الْأَسَدَ الْخَادِرَ (٢) ، وَالْبَحْرَ الزَّاخِرَ ، وَالْقَمَرَ الْبَاهِرَ ، وَالرَّبِيعَ الْنَاضِرَ ؛ فَأَمَّا الْأَسَدُ الْخَادِرُ : فَأَشْبَهَ مِنْهُ صَوْلَتَهُ وَمَضَاءَهُ ؛ وَأَمَّا الْبَحْرُ الزَّاخِرُ : فَأَشْبَهَ مِنْهُ جُودَهُ وَعِطَاءَهُ ؛ وَأَمَّا الْقَمَرُ الْبَاهِرُ : فَأَشْبَهَ مِنْهُ نُورَهُ وَضِيَاءَهُ ؛ وَأَمَّا الرَّبِيعُ الْنَاضِرُ : فَأَشْبَهَ مِنْهُ مَحْسَنَهُ وَبِهَاءَهُ ، ثُمَّ نَزَلَ وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

وَمَوْقِفٍ مِثْلَ حَدِّ السِّيفِ قَمْتُ بِهِ أَهْمِي الذَّمَّارَ وَتَرْمِينِي بِهِ الْحَدَقُ (٣)

فَا زَلِقْتُ ، وَمَا أَلْقَيْتُ كَاذِبَةً إِذَا الرِّجَالُ عَلَى أَمْثَالِهِ زَلِقُوا

(العقد الفريد ٢ : ١٥٨ ، ١ : ١٣٨ ، زهر الآداب ٣ : ٢٠٩)

[١] روى صاحب العقد أن شيبيا عزي بهذا المقال المنصور على أخيه أبي العباس (العقد الفريد ٢ : ٣٥).

[٢] الحدر : أجمة الأسد ومنه يقال أسد خادر ، وأخدر الأسد لزم الأجمة . وأخدر المرين الأسد :

ستره فهو مخدر بكسر الدال وفتحها . [٣] الذمار : ما تجب حمايته .

٧٥ - كلمات لشبيب بن شيبه

وقال شبيب : « اطلب الأدب ، فإنه دليل على المرءوة ، وزيادة في العقل ، وصاحب في العزبة ، وصلة في المجلس » .

وقال للمهدى يوماً : « أراك الله في بنيك ، ما أرى أباك فيك ، وأرى الله في بنيك فيك ، ما أراك في أبيك » . (البيان والبيان ١ : ١٩٠)

وخرج من دار الخلافة يوماً ، فتمال له قائل : كيف رأيت الناس ؟ قال : « رأيت الداخل راجياً ، والخارج راضياً » .

(البيان والبيان ١ : ١٩٠ ، وزهر الآداب ٣ : ١٢٩)

٧٦ - خطبة يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب

يوم ولي الرشيد الخلافة

روى الطبري قال : لما كانت الليلة التي توفي فيها موسى الهادي ، أخرج هرمة بن أعين هرون الرشيد ليلاً ، فأقعدته للخلافة ، فدعا هرون يحيى بن خالد ابن برمك - وكان محبوساً - وقد كان عزم موسى على قتله ، وقتل هرون الرشيد في تلك الليلة^(١) ، فحضر يحيى ، وتقلد الوزارة ، ووجه إلى يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب ، فأحضره وأمره بإنشاء الكتب ، فلما كان غداة تلك الليلة وحضر القواد ، قام يوسف بن القاسم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« إن الله بمتته ولطفه ، من عليكم معاشر أهل بيت نبيه ، بيت الخلافة ،

[١] وكان الهادي يريد أن يجعل الخلافة في ابنه جعفر ، ويخلف أخاه هرون . وسمى إلى الهادي يحيى ابن خالد ، وقبل له لأنه ليس عليك من هرون خلاف ، وإنما يفسده يحيى بن خالد ، فأغضب ذلك موسى الهادي على يحيى وأمر بحبسه .

وَمَعْدِنِ الرِّسَالَةِ ، وَإِيَّاكُمْ أَهْلَ الطَّاعَةِ مِنْ أَنْصَارِ الدَّوْلَةِ وَأَعْوَانَ الدَّعْوَةِ ، مِنْ نِعْمِهِ الَّتِي لَا تَحْصَى بِالْعَدَدِ ، وَلَا تَنْقُضِي مَدَى الْأَبَدِ ، وَأَيَادِيهِ التَّامَّةَ ، أَنْ جَمَعَ الْفِتْمَ ، وَأَعْلَى أَمْرِكُمْ ، وَشَدَّ عَضُدَكُمْ ، وَأَوْهَنَ عَدُوَكُمْ ، وَأَظْهَرَ كَلِمَةَ الْحَقِّ ، وَكَتَمَ أَوْلَى بِهَا وَأَهْلَهَا ، فَأَعَزَّكُمْ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ، فَكُتِمَ أَنْصَارِ دِينِ اللَّهِ الْمُرْتَضَى ، وَالذَّابِّينَ بِسَيْفِهِ الْمُنْتَضَى ، عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَبِكُمْ اسْتَنْقَذَهُمْ مِنْ أَيْدِي الظُّلْمَةِ أُمَّةِ الْجَوْرِ ، وَالنَّاقِضِينَ عَهْدَ اللَّهِ ، وَالسَّافِكِينَ الدَّمَ الْحَرَامَ ، وَالْآكِلِينَ النَّفْيَ وَالْمُسْتَأْثِرِينَ بِهِ ، فَاذْكُرُوا مَا عَطَاكُمْ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ ، وَاحذَرُوا أَنْ تَغْيِرُوا فِيغْيِرَ بِكُمْ ، وَإِنْ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ اسْتَأْثَرَ بِخَلِيفَتِهِ مُوسَى الْهَادِي الْإِمَامَ ، فَغَبِضَهُ إِلَيْهِ ، وَوَلَّى بَعْدَهُ رَشِيدًا مَرْضِيًّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِكُمْ رَجَاءً وَفَارْحِيًّا ، مِنْ مُحْسِنِكُمْ قَبُولًا ، وَعَلَى مَسِيئِكُمْ بِالْعَفْوِ عَطُوفًا ، وَهُوَ أَمْتَعَهُ اللَّهُ بِالنِّعْمَةِ ، وَحَفِظَ لَهُ مَا اسْتَرْعَاهُ إِيَّاهُ مِنْ أَمْرِ الْأُمَّةِ ، وَتَوَلَّاهُ بِمَا تَوَلَّى بِهِ أَوْلِيَاءَهُ وَأَهْلَ طَاعَتِهِ ، يَمِدُّكُمْ مِنْ نَفْسِهِ الرَّأْفَةَ بِكُمْ ، وَالرَّحْمَةَ لَكُمْ ، وَقَسَمَ أَعْطِيَاتِكُمْ فِيمَكُمْ عِنْدَ اسْتِحْقَاقِكُمْ ، وَيَبْذُلُ لَكُمْ مِنَ الْجَائِزَةِ ، مِمَّا آفَأَ اللَّهُ عَلَى الْخُلَفَاءِ ، مِمَّا فِي بُيُوتِ الْمَالِ مَا يَنْوِبُ عَنْ رِزْقِ كَذَا وَكَذَا شَهْرًا ، غَيْرَ مُقَاضٍ لَكُمْ بِذَلِكَ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَ مِنْ أَعْطِيَاتِكُمْ ، وَحَامِلًا بَاقِي ذَلِكَ لِلدَّفْعِ عَنْ حَرِيمِكُمْ ، وَمَا لَعَلَّ أَنْ يَحْدُثَ فِي النُّوَاحِي وَالْأَقْطَارِ مِنَ الْعُصَاةِ الْمَارِقِينَ ، إِلَى بُيُوتِ الْأَمْوَالِ ، حَتَّى تَعُودَ الْأَمْوَالُ إِلَى جِمَاهَا ^(١) وَكَثْرَتِهَا ، وَالْحَالِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا ، فَاحْمَدُوا اللَّهَ وَجَدُّوا شُكْرًا يُوجِبُ لَكُمْ الْمَزِيدَ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْكُمْ ، بِمَا جَدَّدَ لَكُمْ مِنْ رَأْيِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْكُمْ ، أَيَّدَهُ اللَّهُ بِطَاعَتِهِ ، وَارْغَبُوا إِلَى اللَّهِ لَهُ فِي الْبَقَاءِ ، وَلَكُمْ بِهِ فِي إِدَامَةِ النِّعْمَاءِ ،

لعلكم ترحمون ، وأعطوا صَفْقَةَ إيمانكم ، وقوموا إلى بيعتكم ، حاطكم الله وحاط
عليكم ، وأصلح بكم وعلى أيديكم ، وتولاكم ولاية عباده الصالحين .

(تاريخ الطبري ١٠ : ٤٨)

٧٧ - خطبة هرون الرشيد (توفي سنة ١٩٣ هـ)

« الحمد لله نحمده على نعمه ، ونستعينه على طاعته ، ونستنصره على أعدائه ،
ونوثق من به حقا ، ونتوكل عليه ، مَفْوَضِينَ إليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، بعثه على قَترَةٍ من الرسل ،
وَدُرُوسٍ^(١) من العلم ، وإدبارٍ من الدنيا ، وإقبالٍ من الآخرة ، بشيراً بالنعيم
المقيم ، ونذيراً بين يدي عذاب أليم ، فبلغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله ،
فأدى عن الله وعده ووعدته ، حتى أتاه اليقين ، فعلى النبي من الله صلاة
ورحمة وسلام .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن في التقوى تكفير السيئات ، وتضعيف
الحسنات ، وفوزاً بالجنة ، ونجاةً من النار ، وأحذركم يوماً تشخص^(١) فيه
الأبصار ، وتعلمن فيه الأسرار ، يوم البعث ، ويوم التغابن^(٢) ، ويوم التلاق ،
ويوم التناد ، يوم لا يُسْتَعْتَبُ من سيئة ، ولا يُزْدَادُ من حسنة ، يوم الآزفة^(٣) ،
إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ،
يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ^(٤) وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، وَأَتَقُوا يَوْمَما تُرْجَمُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ
ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

[١] دروس : احاء . [١] شخص بصره كنع : فتح عينه ، وجعل لا يطرف .

[٢] يوم القيامة ، وصمى بذلك لأن أهل الجنة تبين فيه أهل النار بأخذ منازلهم في الجنة لو آمنوا .

[٣] القيامة ، من أرف كفرح : دنا وقرب . [٤] بمسارقتها النظر إلى الحرم .

عباد الله : إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولن تُتركوا سُدَى ، حصنوا إيمانكم بالأمانة ،
 ودينكم بالورع ، وصلاتكم بالزكاة ، فقد جاء في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم
 قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له ، ولا صلاة لمن لا
 زكاة له » . إنكم سَفَرٌ^(١) مجتازون ، وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار
 بقاء ، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى ، وإلى الهدى بالأمانة ،
 فإن الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين ، ومغفرته للتائبين ، وهداه للمؤمنين .
 قال الله عز وجل وقوله الحق : « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ
 يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » ، وقال : « وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا
 ثُمَّ اهْتَدَى » وإياكم والأمانى ، فقد غرَّت وأردت^(٢) ، وأوبقت كثيراً ، حتى
 أكذبتهم مناياهم ، فتناوشوا^(٣) التوبة من مكان بعيد ، وحيلَ بينهم وبين ما
 يَشْتَهُونَ ، فأخبركم ربكم عن المثالات فيهم ، وصرَّف الآيات ، وضرب الأمثال ،
 فرغَّب بالوعد ، وقدم إليكم الوعيد ، وقد رأيتم وقائعهم بالقرون الخوالى جيلاً جديلاً ،
 وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر ، باختطاف الموت إياهم من بيوتكم ، ومن
 بين أظهركم ، لا تدفعون عنهم ، ولا تحولون دونهم ، فزالت عنهم الدنيا ،
 وانقطعت بهم الأسباب ، فأسأمتهم إلى أعمالهم عند المواقف والحساب والعقاب ،
 « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » ، إن أحسن
 الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ؛ يقول الله عز وجل « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ
 فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إنه

[١] جماعة المسافرين . [٢] أهلكت وكذا أوبقت . [٣] تناولوا .

هو السميع العليم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ . وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ . آمُرُكُمْ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، وَأَنْهَاكُمْ عَمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ ، وَاسْتَغْفِرُ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ . (العقد الفريد ٢ : ١٤٧)

٧٨ - وصية الرشيد لمؤدب ولده الأمين

ووصى الرشيد مؤدب ولده الأمين ، فقال :

« يَا أَحْمَرُ^(٢) ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مَهْجَةً نفسه ، وَمَمْرَةَ قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطةً ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعت أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروّه الأشعار ، وعمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفّع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها ، من غير أن تحزنه ، فتميت ذهنه ، ولا تمنع في مساحته ، فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقومته ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة » . (مقدمة ابن خلدون ص ٦٣٢)

٧٩ - خطبة لجعفر بن يحيى البرمكي (قتل سنة ١٨٧ هـ)

وهاجت العصبية بالشأم بين أهلها في عهد الرشيد (سنة ١٨٠ هـ) وتفاقم أمرها ، فاغتم لذلك الرشيد ، وعقد لجعفر بن يحيى على الشأم ، وقال له : إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا ، فقال له جعفر : بل أقيك بنفسى ، فشخص في جلة القواد والكراع والسلاح ، فاتاهم فأصلح بينهم ، وقتل زواقيهم^(٢) والمتلصصة منهم ، ولم يدع بها رحماً ولا فرساً ، فعادوا إلى الأمن والطمانينة ، وأطفأ تلك النائرة .

[١] هو علي بن المبارك الأحمر صاحب الكسائي ، وكان يؤدب الأمين ، وكان مشهوراً بانحو واتساع الحفظ ، ومات سنة ٢٠٦ ، أو سنة ٢٠٧ . انظر ترجمته في «زهة الألبا في طبقات الأدبا» ص ١٢٥

[٢] الزواويل : اللصوص .

فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى الرَّشِيدِ دَخَلَ عَلَيْهِ، فَقَبَّلَ يَدَيْهِ وَرَجَلَيْهِ، ثُمَّ مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ :
 « الْحَمْدُ لِلَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي آوَى نَفْسِي وَحَشَتِي ، وَأَجَابَ دَعْوَتِي ، وَرَحِمَ
 تَضَرُّعِي ، وَأَنَسَأَ ^(١) فِي أَجَلِي ، حَتَّى أَرَانِي وَجْهَ سَيِّدِي ، وَأُكْرِمَنِي بِقُرْبِهِ ، وَأَمْتَنَ
 عَلَيَّ بِتَقْبِيلِ يَدَيْهِ ، وَرَدَّنِي إِلَى خِدْمَتِهِ ، فَوَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لِأَذْكَرَ غَيْبَتِي عَنْهُ ،
 وَتَخَرَّجِي وَالْمَقَادِيرَ الَّتِي أَزْعَجَتْنِي ، فَأَعْلَمُ أَنَّهَا كَانَتْ بِمَعَاصِي لِحَقَّتِي ، وَخَطَايَا أَحَاطَتْ
 بِي ، وَلَوْ طَالَ مُقَامِي عَنْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ - لَخِيفْتُ أَنْ يَذْهَبَ
 عَقْلِي ، إِشْفَاقًا عَلَى قُرْبِكَ ، وَأَسَفًا عَلَى فِرَاقِكَ ، وَأَنْ يَعْجَلَ بِي عَنْ إِذْنِكَ
 الْاِشْتِيَاقُ إِلَى رُؤْيَيْكَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَصَمَنِي فِي حَالِ الْغَيْبَةِ ، وَأَمْتَعَنِي بِالْعَافِيَةِ ،
 وَعَرَّفَنِي الْإِجَابَةَ ، وَمَسَّكَنِي بِالطَّاعَةِ ، وَحَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ اسْتِعْمَالِ الْمَعْصِيَةِ ، فَلَمْ
 أَشْخَصْ إِلَّا عَنْ رَأْيِكَ ، وَلَمْ أَقْدِمْ إِلَّا عَنْ إِذْنِكَ وَأَمْرِكَ ، وَلَمْ يَخْتَرِمْنِي أَجَلٌ
 دُونَكَ ، وَاللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - فَلَا أَعْظَمَ مِنَ الْيَمِينِ بِاللَّهِ - لَقَدْ عَايَنْتُ مَا لَوْ
 تُعْرَضُ لِي الدُّنْيَا كُلُّهَا ، لَخَاتَرْتُ عَلَيْهَا قُرْبَكَ ، وَمَا رَأَيْتُهَا عِوَضًا مِنْ
 الْمَقَامِ مَعَكَ » .

ثم قال له بعقب هذا الكلام في هذا المقام :

« إِنَّ اللَّهَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَزَلْ يُبَلِّغُكَ ^(٢) فِي خِلَافَتِكَ ، بِتَدْرِ مَا يَعْلَمُ مِنْ
 نِيَّتِكَ ، وَيُرِيكَ فِي رِعْيَتِكَ ، غَايَةَ أَمْنِيَّتِكَ ، فَيُصَلِّحُ لَكَ جَمَاعَتَهُمْ ، وَيَجْمَعُ
 أَلْفَتَهُمْ ، وَيَلْمُ شَعَثَهُمْ ، حِفْظًا لَكَ فِيهِمْ ، وَرَحْمَةً لَهُمْ ، وَإِنَّمَا هَذَا لِلتَّمَسُّكِ
 بِطَاعَتِكَ ، وَالِاعْتِمَادِ بِجِبِلِّ مَرْضَاتِكَ ، وَاللَّهُ الْحَمِيدُ عَلَى ذَلِكَ وَهُوَ مُسْتَحِقُّهُ ،
 وَفَارَقْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلَ كُورِ الشَّامِ وَهُمْ مُنْقَادُونَ لِأَمْرِكَ ، نَادِمُونَ عَلَى

ما فرّط من معصيتهم لك ، متمسكون بجنبك ، نازلون على حُكْمِكَ ، طالبون لعفوك ، واثقون بِحَمَامِكَ ، مؤمّلون فضلك ، آمِنون بادرَتِكَ ، حالهم في اتِّلافهم كحالهم كانت في اختلافهم ، وحالهم في الفِتنهم كحالهم كانت في امتناعهم ، وعفو أمير المؤمنين عنهم ، وتغمُّده^(١) لهم ، سابقٌ لمعذرتهم ، وصلةُ أمير المؤمنين لهم ، وعطفه عليهم ، متقدِّمٌ عنده لمسألتهم ، وإيم الله يا أمير المؤمنين لئن كُنْتُ قد شَخَّصْتُ عنهم ، وقد أخذ الله شِرَارهم ، وأطفأ نارهم ، ونفَى مُرَاقَهم^(٢) ، وأصلَحَ دَهْمَاءهم^(٣) ، وأولاني الجميلَ فيهم ، ورزقني الانتصارَ منهم ، فما ذلك كله : إلا بركتك وِئْمنك وريحِك^(٤) ، ودوام دَوْلَتِكَ السعيدة الميمونة الدائمة ، وتخوفهم منك ، ورجائهم لك ، والله يا أمير المؤمنين ما تقدمتُ إليهم إلا بوصيتك ، وما عاملتهم إلا بأمرِك ، ولا سِرْتُ فيهم إلا على حدِّ ما مثلتَه لي ورَسْمَتَه ، ووقفْتَنِي عليه ، ووالله ما اتقادوا إلا لِذَعْوَتِكَ ، وتَوَحَّدَ^(٥) الله بالصُّنْعِ لك ، وتخوَّفَهم من سَطْوَتِكَ ، وما كَانَ الذي كَانَ مني ، وإن كُنْتُ قد بذلتُ جهدي ، وَبَلَغْتُ مجهودي ، قاضيا بعضَ حَقِّكَ عليّ ، بل ما ازدادت نعمتُكَ عليّ عِظْمًا ، إلاَّ ازددتُ عن شُكْرِكَ عَجْزًا وضعفًا ، وما خَلَقَ اللهُ أَحَدًا من رعيَتِكَ ، أبعدَ من أن يُطْمِعَ نَفْسَه في قضاء حَقِّكَ مني ، وما ذلك إلاَّ أن أكونَ باذلاً مُهْجَتِي في طاعتِكَ ، وكلُّ ما يقرب إليّ موافَقَتِكَ ، ولكنني أعْرِفُ من أياديكَ عندي مَا لَا أعْرِفُ مثلَهَا عند غيري ، فكيف بشكري ! وقد أصبحتُ واحدًا أهلَ دهرِي ، فيما صنعته فيّ وبِي ؟ أم كيف بشكري ! وإنما أقوى على شُكْرِكَ يا كرامَكَ

[١] تغمده الله برجته : غمره بها . [٢] جمع مارق : وهو الخارج الحائد .

[٣] الدهماء : جماعة الناس . [٤] قوتك .

[٥] توحده الله تعالى بعصمته : عصمه ولم يكله إلى غيره .

إيأى ؟ ، وكيف بشكري ! ولو جعل الله شكري في إحصاء ما أوليتنى ، لم يأت على ذلك عدى ؟ وكيف بشكري ! وأنت كهفى دون كل كهف لى ؟ وكيف بشكري ! وأنت لا ترضى لى ما أرضاه لى ؟ وكيف بشكري ! وأنت تجدد من نعمتك عندى ما يستغرق كل ما سلف عندك لى ؟ أم كيف بشكري ! وأنت تُنسينى ما تقدم من إحسانك إلى ، بما تُجدده لى ؟ أم كيف بشكري ! وأنت تقدمنى بطولك على جميع أ كفاءى ؟ أم كيف بشكري ! وأنت ولى ؟ أم كيف بشكري ! وأنت المكرم لى ؟ وأنا أسأل الله الذى رزقنى ذلك منك من غير استحقاقٍ له - إذ كان الشكر مقصراً عن بلوغ تأدية بعضه ، بل دون شقضى^(٤) من عشر عشيره - أن يتولّى مكافأتك عنى ، بما هو أوسع له وأقدر عليه ، وأن يقضى عنى حَقك ، وجليل مننتك ، فإن ذلك بيده ، وهو القادر عليه .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٦٦)

٨٠ - استعطاف أم جعفر بن يحيى للرشيد

روى صاحب العقد قال :

« كانت أم جعفر بن يحيى^(٢) - وهى فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة - أرضعت الرشيد مع جعفر ، لأنه كان رُبى فى حجرها ، وغذى برسلها^(٣) ، لأن أمه ماتت عن مهده ، فكان الرشيد يشاورها مظهرًا لآ كرامها ، والتبرك برأيها ، وكان آلى وهو فى كفالتها أن لا يحجبها ، ولا استشفتته لأحد إلا

[١] الشقص : السهم والنصيب ، والعشير : جزء من عشرة كالمشار والمعسر .

[٢] كان البرامكة قد استأثروا بشئون الدولة وأموالها ، وغلبوا الرشيد على سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى ملكه ، ولم يبق له من الخلافة إلا رسمها وصورتها - وحديثهم فى ذلك طويل ، ليس ها هنا موضعه - فمزم على نكبتهم ، حتى انتهز فرصة رجوعه معهم من الحج سنة ١٨٧ ، فقتل جعفرًا ليلا فى طريقه ، وقبض على محبي وابنه الفضل وبقية البرامكة ، وحبسهم فى سجن الرنادقة إلى أن ماتوا فيه . ، واستصنف أموالهم وضياعهم . [٣] الرسل : اللبن .

شفعها ، وآلت عليه أمُ جعفر أن لا تدخلت عليه إلا مأذوناً لها ، ولا شفعت لأحدٍ مقترف ذنباً ، فكم أسير فككت ، ومُبهِمٍ عنده فتحت ، ومستغلقٍ منه فرجت ، واحتجب الرشيد بعد قدومه ^(١) ، فطلبت الإذن عليه من دار الباقونة ، ومئت ^(٢) بوسائلها إليه ، فلم يأذن لها ، ولا أمر بشيء فيها ، فلما طال ذلك بها خرجت كاشفةً وجهها ، واضعةً لثامها ، محففةً ^(٣) في مشيها ، حتى صارت بباب قصر الرشيد ، فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب ، فقال : ظُر ^(٤) أمير المؤمنين بالباب ، في حالة تقلب شماتة الحاسد ، إلى شفقة أم الواحد . فقال الرشيد : ويحك يا عبد الملك ! أو ساعية ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين حافية . قال : أدخلها يا عبد الملك ، فربَّ كبد غذتها ، وكرُبة فرجتها ، وعورقة سترتها ، فدخلت فلما نظر الرشيد إليها داخلةً محففةً ، قام محفياً حتى تلقاها بين عمد المجلس ، وأكبَّ على تقبيل رأسها ، ومواضع ثديها ، ثم أجلسها معه ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، أيعذو علينا الزمان ، ويجفوننا خوفاً لك الأعوان ، ويحردك ^(٥) بنا البهتان ، وقد ريتك في حجرى ، وأخذت برضاعك الأمان من عدوى دهرى ؟ فقال لها : وما ذلك يا أم الرشيد ، قالت : ظنرك يحيى ، وأبوك بعد أيبك ، ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين ، من نصيحتة ، وإشفاقه عليه ، وتعرضه للحتحف في شأن موسى أخيه ^(٦) ، قال لها : يا أم الرشيد ، أمره

[١] أى من الحج . [٢] نولت . [٣] احتق : مشى حافياً .

[٤] الظائر : العاطفة على ولد غيرها ، المرصعة له ، و الناس وغيرهم ، للذكر وللأنثى .

[٥] يفضبك . [٦] قدمنا أن الهادى كان قد اعترم خلع أخيه الرشيد من ولاية العهد ، واستخلف ابنه جعفر ، وقد سمي إلى الهادى يحيى بن خالد ، وأنه يفسد عليه آحاه الرشيد ، حبسه وهم بقتله ، ويروى أنه قال للهادى و خلع الرشيد لما كلفه فيه : « يا أمير المؤمنين ، إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان ، هانت عليهم أعانهم ، وإن تركتهم على بيعة أخيك ، ثم بايعت لجعفر من بعده كان

سَبَقَ ، وقضاء حُمٍّ^(١) ، وغضب من الله نَفَذَ ، قالت : يا أمير المؤمنين « يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ »^(٢) قال : صدقتِ فهذا مما لم يَمْحُوهُ اللهُ ، فقالت : الغيب محجوب عن النبيين ، فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟ فأطرق الرشيد مليئاً ، ثم قال :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تميم لا تنفع^(٣)

فقالت بغير روية : ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين ، وقد قال الأول^(٤) :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله عز وجل : « وَالكَافِرِينَ الْغَائِبِينَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » . فأطرق هرون مليئاً ، ثم قال : يا أم الرشيد أقول :

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكذب إليه بوجه آخر الدهر تقبل

فقالت يا أمير المؤمنين وأقول :

ستقطع في الدنيا إذا ما قطعنتي عيّنك فانظر أيّ كفّ تبدّل^(٥)

ذلك أوكد لبعته « فقال : صدقت ونصحت ، ولى في هذا تدير ، ولما أمر بحبسه رفع إليه يحيى رقعة . إن عندي نصيحة ، فدعأ به ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أخلى ، فأخلاه ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن كان الأمر — أسأل الله ألا نبلغه ، وأن يقدمنا قبله — أتظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر ، وهو لم يبلغ الحلم ، ويرضون به لصلواتهم وحجهم وغزوم ؟ قال : والله ما أظن ذلك ، قال : يا أمير المؤمنين ، أفتأمن أن يسمو إليها أهلك ، وجلبتهم مثل فلان وفلان ، ويطمع فيها غيرهم ، فتخرج من ولد أبيك ؟ فقال له : نهنتى يا يحيى » وقال له : لو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك ؟ أما كان ينبغي أن تقدمه له ؟ فكيف بأن تحله عنه ، وقد عقدته المهدي له ؟ ولكن أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله ، فإذا بلغ جعفر وبلغ الله به ، أتيتته بالرشيد نفلح نفسه ، وكان أول من يبايعه — ويعطيه صفقة يده ، قيل فقبل الهادى قوله ورأيه وأمرنا بطلاقه . [١] حمّ : قدر . [٢] أم الكتاب : أصله ، أو اللوح المحفوظ .

[٣] التأم جمع تميمية : وهى العوذة التى تعلق على الصبي دنعا للعين ، أو المارض والبيت لأبى ذؤيب الهدلى .

[٤] هو الأخطل . [٥] هذا البيت والذي قبله من قصيدة لمعن بن أوس المزنى مطلعها :

لمعرك ما أدرى ، ولانى لأوجل على أينا تمدو المنية أول ؟ .

قال هرون : رضيت ، قالت : فهبُّه لى يا أمير المؤمنين ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ترك شيئاً لله ، لم يُوجدْهُ ^(١) الله لِقَدِّهِ » فأكبَّ هرون ملياً ، ثم رفع رأسه يقول : « لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ » قالت يا أمير المؤمنين : « وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » ، واذكر يا أمير المؤمنين أليتك ^(٢) ما استشفعتُ إلا شفعتنى . قال : واذكرى يا أم الرشيد أليتك أن لا شفعت لمقترف ذنباً ، فلما رأته صرَّح بمنعها ، ولاذ ^(٣) عن مطلبها ، أخرجت حُقًّا من زُمُرْدَةٍ ^(٤) خضراء ، فوضعتَه بين يديه ، فقال الرشيد : ما هذا ؟ ففتحت عنه قُفْلاً من ذهب ، فأخرجت منه خَفَضَتَهُ ^(٥) وذوائبه وثناياه ، قد غمست جميع ذلك فى المسك ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، أستشفع إليك ، وأستعين بالله عليك ، وبما صار معى من كريم جسدك ، وطيب جوارحك ، ليحبنى عبدك ، فأخذ هرون ذلك فليثمه ، ثم استعبر وبكى بكاء شديداً ، وبكى أهل المجلس ، ومرَّ البشير إلى يحيى ، وهو لا يظن إلا أن البكاء رحمة له ، ورجوع عنه ، فلما أفاق روى جميع ذلك فى الحق ، وقال لها : لِحَسَنٍ مَا حَفِظْتَ الْوَدِيمَةَ ، قالت : وأهل للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين ، فسكت وأقبل الحق ، ودفعه إليها ، وقال : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا » قالت : والله يقول : « وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » ، ويقول : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ » ، ثم قال : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ قالت : أو ما أقسمت لى به ألا تحجبنى ولا تتمهننى ^(٦) ؟ قال : أحب يا أم الرشيد

[١] أى يجزئه . [٢] الآية : القسم . [٣] أى لم يجبه . [٤] الزمرد وازمرد بالدال والدال . [٥] خفض الجارية كضرب خفضاً ، وهو كالحنان للسلام ، وقيل : خفض الصبي خفته ، فاستعمل فى الرجل ، والأعراف أن الخفض المرأة والحنان للصبي ، يقال للجارية خفضت ، وللغلام ختن . [٦] أمتهته : ابتذله .

أن نشتره محكمة فيه . قالت : أنصفت يا أمير المؤمنين ، وقد فعلت غير مُستقيمة لك ، ولا راجعة عنك . قال : بكم ؟ قالت : برضاك عمن لم يُسَخِّطك ، قال : يا أم الرشيد أما لي عليك من الحق مثل الذي لهم ؟ قالت : بلى يا أمير المؤمنين ، أنت أعزُّ عليّ ، وهم أحبُّ إليّ . قال : فتحكمتي في تمنيةٍ بغيرهم ، قالت : بلى قد وهبتك ، وجعلتك في حلٍّ منه ، وقامت عنه ، وبقى مَبْهُوتًا ما يُحِيرُ (١) لفظةً .

(المقدم الفريد ٣ : ٢٣)

٨١ - خطبة يزيد بن يزيد الشيباني

لما رضى الرشيد عن يزيد بن يزيد (٢) أذن له بالدخول عليه ، فلما مثل بين يديه قال : « يا أمير المؤمنين ، الحمد لله الذي سهَّل لي سبيلَ الكرامة بلقائك ، وردَّ عليَّ النعمةَ بوجه الرضا منك ، وكشف عني ضبابة الكرب بإفضالك ، وجزاك الله يا أمير المؤمنين في حال سُخْطِكَ جزاءَ المحسنين المراقبين ، وفي حال رضاك جزاءَ المنعمين الممتنين المتطولين ، فقد جعلك الله - وله الحمد - تَثَبَّتْ (٣) تَحْرُجًا عند الغضب ، وتمتُّ تَطَوُّلاً بالنعم ، وتستبقي المعروف عند الصنائع (٤) تفضلاً بالعفو . »

(المقدم الفريد ١ : ١٤١ ، وتاريخ الطبري ١٠ : ١١٧ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٨٧)

[١] يحير : يرد . [٢] وذلك أن الوايد بن طريف الشاري خرج في عهد الرشيد بالجريرة ، واشتدت شوكته ، وكثر تبعه سنة ١٧٩ ، فوجه إليه الرشيد يزيد بن يزيد الشيباني ، فجعل يخاتله وبتاكره ، وكانت البرامكة منحردة عن يزيد ، فأغروا به الرشيد ، وقالوا : إمامنا يجاني عنه للرحم (لأنه شيباني مثله) وإلا مشوكة الوليد بسيرة وهو يواعد ، وينتظر ما يكون من أمره ، فوجه إليه الرشيد كتاب منغضب ، يقول فيه : « لو وجهت بأحد الخدم لقام بأكثر مما تقوم به ولكنتك مداهن منعصب ، وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن أخرجت مناخزة الوليد ، ليوجهن إليك من يحمل رأسك إلى أمير المؤمنين » ثم حل يزيد على الوليد بقتله وبعث برأسه إلى الرشيد ، فلما انصرف يزيد بالظفر ، حجب برأى البرامكة ، وأظهر الرشيد السخط عليه ، فقال : وحق أمير المؤمنين لأصيفن وأبشون على فرسي أو أدخل ، فارتفع الخبر بذلك فأذن له فدخل ، فلما رآه الرشيد ضحك وصر ، وأنبسل يصيح مرحباً بالأعرابي ، حتى دخل وأجلس وأكرم وعرف بلاؤه وتفاء صدره (راجع أخباره في الأغاني ١١ : ٨ ، وابن خلكان ٢ : ٢٨٣ ، والطبري ١٠ : ٦٥) .

[٣] وفي رواية الطبري « تنيب » . [٤] وفي الطبري : « وتعفو عن السيء » .

٨٢ - خطبة عبد الملك بن صالح^(١) (توفي سنة ١٩٦ هـ)

أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم : « أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ
أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا؟ » يَأْهَل الشَّام ، إن الله وصف إخوانكم في الدين ،
وأشباهكم في الأجسام ، فحذَرهم نبيّه محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقال : « وَإِذَا
رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّكُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ ،
يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوُّ فَأَحْذَرُكُمْ ، قَاتِلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ؟ »
فقاتلكم الله أنى نُصْرَفُونَ ؟ جُثتْ مائة ، وقلوبٌ طائرة ، تشبُّون^(٢) الفتن ،
وتولون الدُّبْرَ ، إلا عن حرَمِ الله ، فإنه دَرَيْتَكُم^(٣) ، وحرَمِ رسوله ، فإنه مَعْرَاكُم ،
أَمَا وَحُرْمَةُ النُّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ لَتَنْفِرُنَّ خِفَافًا وَثِقَالًا ، أَوْ لَأَوْسِعَنَّكُمْ إِرْغَامًا وَنَكَالًا .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٦)

٨٣ - عبد الملك بن صالح يعزى الرشيد ويهنئه

ودخل عبد الملك بن صالح دار الرشيد ، فقال له الحاجب : إن أمير المؤمنين
قد أُصيب الليلة بآبن له ، ووُلد له آخر ، فلما دخل عليه قال : « سَرَّكَ اللهُ يَا أَمِيرِ
المؤمنين فيما ساءك ، ولا ساءك فيما سَرَّكَ ، وجعل هذه بهذه ، مَثُوبَةٌ عَلَى
الصبر ، وَجَزَاءٌ عَلَى الشكر » .

(العقد الفريد ٢ : ٣٥)

٨٤ - غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح

وَنَصَبَ^(٤) لَهُ ابْنَهُ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » وَكَاتَبَهُ « قِمَامَةٌ » فَسَعِيَ بِهِ إِلَى الرَّشِيدِ ،
وَقَالَ لَهُ : إِنَّهُ يَطْلُبُ الْخِلَافَةَ ، وَيَطْمَعُ فِيهَا ، فَأَخَذَهُ وَحَبَسَهُ عِنْدَ الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ ،
وَذَكَرُوا أَنَّهُ أَدْخَلَ عَلَى الرَّشِيدِ حِينَ سَخِطَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ : أَكُفْرًا

[١] هو عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ، ولى للرشيد بلاد الجزيرة والشام وغيرها .

[٢] توقدون . [٣] الدريئة : الحلقة يتعلم الطعن والرمي عليها . [٤] عاداه

بالنعمه ، وَجُحوداً لَجَلِيلِ المِنَّةِ والتكْرِيمَةِ ؟ فقال : « يا أمير المؤمنين ، لقد بُوتُ (١) »
إذن بالندم ، وتعرضتُ لاستحلال النِّقَمِ ، وما ذاك إلا بغيُّ حاسدٍ ، نافسني فيك
مودعة القِرابَةِ ، وتقديمَ الولاية ، إنك يا أمير المؤمنين خليفةُ رسول الله صلى الله
عليه وسلم في أمته ، وأمينه على عِترته ، لك عليها فرضُ الطاعة وأداء النصيحة ،
ولها عليك العدلُ في حُكْمها ، والتثبتُ في حادِثها ، والغفران لذنوبها » ، فقال
له الرشيد : « أتضعُ لى من لسانك ، وترفعُ لى من جنانك ؟ هذا كَأَتْبِكُ قِمامةً ،
يُخْبِرُ بِغِلَّتِكَ ، وفسادِ نيتِكَ ، فاشمَعْ كلامه » ، فقال عبد الملك : « أعطاك ما ليس
في عَقْدِهِ (٢) ، ولعله لا يقدرُ أن يعضمني (٣) ولا يبيهتنى بما لم يعرفه منى » ،
وَأَحْضِرُ قِمامةً ، فقال له الرشيد : تكلم غير هائبٍ ولا خائفٍ ، قال : « أقول إنه
عازم على الغدر بك والخِلافِ عليك » ، فقال عبد الملك : أهو كذاك يا قِمامة ؟
قال قِمامة : نعم ، لقد أردتَ ختلَ (٤) أمير المؤمنين ، فقال عبد الملك : « كيف
لا يكذبُ على من خلقى ، وهو يبيهتنى فى وجهى » ؟ فقال له الرشيد : « وهذا
ابنك عبد الرحمن يخبرنى بعُتُوك ، وفسادِ نيتِكَ ، ولو أردتُ أن أحتجَّ عليك
بِحُجَّةٍ لم أجدُ أعدلَ من هذين لك ، فبِمَ تدفعهما عنك ؟ » ، فقال عبد الملك :
« هو أمور ، أو عاقٌّ مجبور ، فإن كان مأموراً : فمعدور ، وإن كان عاقاً : ففاجر
كفور ، أخبر الله عزَّ وجلَّ بعداوته ، وحذر منه بقوله : « إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ
وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ » ، فنهض الرشيد وهو يقول : « أمَّا أمرك
فقد وَصَحَ ، ولكنى لا أعجلُ حتى أعلم الذى يُرضى الله فىك ، فإنه الحكم بينى

[١] رجعت . [٢] أى ما يعتقده . [٣] عضه كنع : كذب ونم ، وعضه فلاتا : بهته وقال فيه ما لم يكن . [٤] ختله : خدعه .

ويعينك» ، فقال عبد الملك : « رضيت بالله حكماً ، وبأمر المؤمنين حاكماً
فإني أعلم أنه يؤثر كتاب الله على هواه ، وأمر الله على رضاه »

*
*

فاما كان بعد ذلك جلس مجلساً آخر ، فسلم لما دخل ، فلم يردّ عليه ، فقال
عبد الملك : ليس هذا يوماً أحتج فيه ، ولا أجاذب منازعاً وخصماً . قال : ولم ؟
قال : لأن أوله جرى على غير السنّة ، فأنا أخاف آخره ، قال : وما ذاك ؟ قال :
لم تردّ على السلام ، أنصف نصفة العوام ، قال : السلام عليكم اقتداءً بالسنة ،
وإيثاراً للعدل ، واستعمالاً للتحية ، ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر فقال :
وهو يخاطب بكلامه عبد الملك :

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد
ثم قال : « أما والله لكأني أنظر إلى شوؤبها^(١) قد همع ، وعارضها^(٢) قد لمع ،
وكأني بالوعيد قد أوزى ناراً تسطع ، فأقلع عن برّاجم^(٣) بلا معاصم ، وورء وس
بلا غلاصم^(٤) فمهلاً مهلاً ، فبي والله سهل لكم الوعر ، وصفاً لكم الكدر ،
وألت إليكم الأمور أثناء^(٥) أزمتها ، فنذار لكم نذار قبل حلول داهية خبوط
باليد ، لبوط^(٦) بالرجل » . فقال عبد الملك : « اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولأك ،
وفي رعيته التي استرعاك ، ولا تجعل الكفر مكان الشكر ، ولا العقاب موضع

[١] الشؤب : الدفمة من المطر ، وهمع : سال وانصب .

[٢] العارض : السحاب المعترض في الأفق ، والضمير للفتنة المفهومة من سياق الحديث .

[٣] جمع برجة كقنفذة : وهي مفاصل الأصابع ، أو ظهر القصب من الأصابع ، والمعاصم جمع معصم
ككبر وهو موضع السوار أو اليد . [٤] جمع غلصمة بالفتح وهي رأس الخلقوم وهو الموضع الناتج في

الخلق . [٥] أثناء الشيء ، ومثابه طاقاته ، واحدها ثبي كحمل ومثناة بفتح الميم وكسرهما .

[٦] لبط به الأرض ضرب ، ولبط البعير كضرب : خبط بيده وهو يمدد .

الثواب ، فقد نَحَلْتُ لَكَ النصيحةَ ، وَمَحَضْتُ^(١) لَكَ الطاعةَ ، وَشَدَدْتُ أَوَاحِي^(٢) مَلِكِكَ بِأَمْتَلٍ مِنْ رُكْنِي يَأْمَلُ^(٣) ، وَتَرَكْتُ عَدُوَّكَ مُشْتَغِلًا^(٤) ، فَاللَّهُ اللَّهُ فِي ذِي رَحْمَةٍ أَنْ تَقْطَعَهُ - بَعْدَ أَنْ بَلَّغْتَهُ^(٥) - بِظَنْ أَفْصَحَ الْكِتَابُ لِي بَعْضَهُ^(٦) ، أَوْ بِيَعْنِي بَاغٍ يَنْهَسُ^(٧) اللَّحْمَ ، وَيَأْلَعُ^(٨) الدَّمَ ، فَقَدْ وَاللَّهِ سَهَّلْتُ لَكَ الْوَعُورَ ، وَذَلَّلْتُ لَكَ الْأُمُورَ ، وَجَمَعْتُ عَلَى طَاعَتِكَ الْقُلُوبَ فِي الصَّدُورِ ، فَكَمْ مِنْ لَيْلٍ تَمَامٍ^(٩) فِيكَ كَأَبْدَتِهِ ، وَمَقَامٍ ضَيْقٍ لَكَ قُومَتُهُ ، كُنْتُ فِيهِ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي جَعْفَرِ ابْنِ كَلَابِ :

وَمَقَامِ ضَيْقٍ فَرَجَّتُهُ
بَيْنَانِي وَلِسَانِي وَجَدَلُ
لَوْ يَقُومُ الْفَيْلُ أَوْ فَيْالُهُ
زَلَّ عَنْ مِثْلِ مَقَامِي وَزَحَلُ^(١٠)

فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ : « أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا الْإِبْقَاءُ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ لَضْرَبْتَ عُنُقَكَ » .

وَلَمْ يَزَلْ عَبْدُ الْمَلِكِ مَجْبُوسًا حَتَّى تُوُفِّيَ الرَّشِيدُ ، فَأَطْلَقَهُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ وَعَقَدَ لَهُ

عَلَى الشَّامِ^(١١) . (تاريخ الطبري ١٠ : ٨٩ ، والعقد الفريد ١ : ١٤٣ ،
والكامل لابن الأثير ٦ : ٧٢ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٨٣)

[١] أَخْلَصْتُ . [٢] جَمْعُ آخِيَةٍ وَتَشَدُّدٌ : عُرُوةٌ رُبِطَ إِلَى وَنَدْمٌ دَقُوقٌ وَتَشَدُّدٌ فِيهَا الدَّابَّةُ ، وَأَخْبَتُ لِلدَّابَّةِ نَأْخِيَةً : صَنَعْتُ لَهَا آخِيَةً وَرَبَطْتُهَا بِهَا . [٣] يَأْمَلُ أَوْ الْمَلْمُ أَوْ يَرْمَرُمُ : مِيقَاتُ الْيَمِينِ : جَبَلٌ عَلَى مَرَحَلَتَيْنِ مِنْ مَكَّةَ . [٤] وَوِي رِوَايَةِ الْعَقْدِ : « وَتَرَكْتُ عَدُوَّكَ سَبِيلًا تَعَاوَرَهُ الْأَقْدَامُ » .

[٥] بَلَّغْتُ فَلَانًا : لَزِمْتَهُ . [٦] الْعَضَةُ بِسُكُونِ الضَّادِ وَتَنْجِهَا : السُّكُوبُ وَالنَّمِيمَةُ . [٧] نَهَسَ اللَّحْمَ كَتَمَ وَسَمِعَ : أَخَذَهُ بِقَدَمِ أَسْنَانِهِ وَنَفَعَهُ . [٨] وَلَعَّ السُّكْبُ فِي الْإِنَاءِ وَمِنْهُ وَبِهِ يَبْلُغُ كَيْهَبٌ وَيَالِغٌ : شَرِبَ مَا فِيهِ بِأَطْرَافِ لِسَانِهِ ، أَوْ أَدْخَلَ لِسَانَهُ فِيهِ فَحَرَكَهُ . [٩] لَيْلُ التَّمَامِ أَطْوَلُ لَيَالِي الشِّتَاءِ .

[١٠] زَحَلَ عَنْ مَقَامِهِ : زَالَ كَتَرَحُولٍ . [١١] وَقَدْ جَمَلَ لِلْأَمِينِ عَهْدُ اللَّهِ رِمِيثًا : لَثْنٌ قَتْلٌ وَهُوَ حَيٌّ ، لَا يُعْطَى الْمَأْمُونُ طَاعَةَ أَبَدًا ، فَمَاتَ قَبْلَ قَتْلِ الْأَمِينِ ، فَدُفِنَ فِي دَارٍ مِنْ دُورِ الْإِمَارَةِ ، فَلَمَّا خَرَجَ الْمَأْمُونُ يَرِيدُ الرُّومَ أُرْسِلَ إِلَى ابْنِ لَهْ : حَوْلَ أَبَاكَ مِنْ دَارِي ، فَنَبَشْتُ عِظَامَهُ وَحَوَّلْتُ .

٨٥ - قوله بعد خروجه من السجن

ولما خرج من السجن وذَكَرَ الرشيدَ وفعله به قال :

« وَاللَّهِ إِنْ الْمَلِكَ لَشَىءٌ مَا نَوَيْتُهُ ، وَلَا تَمَنَيْتُهُ ، وَلَا نَصَبْتُ لَهُ وَلَا أَرَدْتُهُ ،
 وَلَوْ أَرَدْتُهُ لَكَانَ إِلَيَّ أَسْرَعُ مِنَ الْمَاءِ إِلَى الْحَدَوْرِ^(١) ، وَمِنَ النَّارِ إِلَى يَبَسِ الْعَرَفِجِ^(٢) ،
 وَإِنِّي لَمَا خُوذُ بِمَا لَمْ أَجُنِّ ، وَمَسْئُولٌ عَمَّا لَا أَعْرِفُ ، وَلَكِنَّهُ حِينَ رَأَى لِمَلِكِ قَيْنَا^(٣) ،
 وَلِلْخَلِيفَةِ خَطِيرًا^(٤) ، وَرَأَى لِي يَدًا تَنَالُهَا إِذَا مُدَّتْ ، وَتَبْلُغُهَا إِذَا بُسِطَتْ ، وَنَفْسًا
 تَكْمُلُ لِحِصَالِهَا ، وَتَسْتَحِقُّهَا بِفِعَالِهَا ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَخْتَرْتُ تِلْكَ الْحِصَالَ ، وَلَمْ
 أَصْطَنِعْ تِلْكَ الْفِعَالَ ، وَلَمْ أُرْشِحْ لَهَا فِي السَّرِّ ، وَلَا أَشْرْتُ إِلَيْهَا فِي الْجَهْرِ ، وَرَأَاهَا
 تَمَحُّنًا إِلَيَّ حَنِينَ الْوَالِدَةِ الْوَالِهَةِ ، وَتَمِيلُ إِلَى مَيْلِ الْهَلُوكِ^(٥) ، وَخَافَ أَنْ تَرْغَبَ إِلَيَّ
 خَيْرٌ مَرْغَبٍ ، وَتَنْزِعَ إِلَيَّ أَخْصَبَ مَنْزِعٍ ، عَاقَبَنِي عِقَابَ مَنْ سَهَرَ فِي طَلِبِهَا ،
 وَجَهَّدَ فِي التَّمَاسِكِ ، فَإِنْ كَانَ إِنَّمَا حَبَسَنِي عَلَى أَنْيِّ أَصْلِحَ لَهَا وَتَصْلُحَ لِي ، وَالْأَلِيقُ
 بِهَا وَتَلِيقُ بِي ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِذَنْبٍ جَنِيْتُهُ فَآتُوبَ مِنْهُ ، وَلَا تَطَاوَلْتُ لَهُ فَأَحْطُ
 نَفْسِي عَنْهُ ، وَإِنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَا صَرْفَ لِعِقَابِهِ ، وَلَا نَجَاةَ مِنْ عَذَابِهِ ، إِلَّا بَأْنِ أَخْرَجَ
 لَهُ مِنْ جِدِّ الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالْحَزْمِ ، فَكَمَا لَا يَسْتَطِيعُ الْمِضْيَاعُ أَنْ يَكُونَ مُصْلِحًا ، كَذَلِكَ
 لَا يَسْتَطِيعُ الْعَاقِلُ أَنْ يَكُونَ جَاهِلًا ، وَسِوَايَ عَلَيْهِ أَعَاقَبَنِي عَلَى عَالِي وَحَامِي ، أَمْ
 عَاقَبَنِي نَسَبِي وَسِنِّي ، وَسِوَايَ عَلَيْهِ عَاقَبَنِي عَلَى جَمَالِي ، أَمْ عَاقَبَنِي عَلَى مَحَبَّةِ النَّاسِ لِي ،
 وَلَوْ أَرَدْتَهَا لِأَعْجَلْتَهُ عَنِ التَّفْكِيرِ ، وَشَغَلْتَهُ عَنِ التَّدْيِيرِ ، وَمَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْخَطْبِ

(العقد الفريد ١ : ١٤٣)

إلا اليسير .

[١] المكان المهدور . [٢] شجر . [٣] جديرا . [٤] عظيم القدر .

[٥] العاجرة المتساقطة على الرجال .

٨٦ - وصية عبد الملك بن صالح لابنه

أوصى عبد الملك بن صالح ابناً له فقال :

« أَيُّ بَنِي أَحْلُمُ ، فَإِنْ مِنْ حَلْمٍ سَادَ ، وَمَنْ تَفَهَّمْ أَزْدَادَ ، وَالقَّ أَهْلَ الْخَيْرِ فَإِنْ لِقَاءَهُمْ عِمَارَةٌ لِلْقُلُوبِ ، وَلَا تَجْمَعُ بِكَ مَطِيَّةَ اللَّجَاجِ ، وَفِيكَ مَنْ أَعْتَبَكَ ^(١) ، وَالصَّاحِبُ الْمُنَاسِبُ لَكَ ، وَالصَّبْرُ عَلَى الْمَكْرُوهِ يَعِصِمُ الْقَلْبَ ، الْمُزَاحُ يُوْرِثُ الضَّنَائِنَ ، وَحَسَنُ التَّدْيِيرِ مَعَ الْكِفَافِ ، خَيْرٌ مِنْ الْكَثِيرِ مَعَ الْإِسْرَافِ ، وَالْاِقْتِسَادُ يُمَرِّ ^(٢) الْقَلِيلَ ، وَالْإِسْرَافُ يُبِير ^(٣) الْكَثِيرَ ، وَنِعْمَ الْحِظُّ الْقِنَاعَةُ ، وَشَرُّ مَا صَبَّ الْمَرْءُ الْحَسَدُ ، وَمَا كُلُّ عَوْرَةٍ تُصَابُ ، وَرَبْمَا أَبْصَرَ الْعَمَى رُشْدَهُ ، وَأَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ ، وَالْيَاسُ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ ، وَالْعِفَّةُ مَعَ الْحِرْفَةِ ^(٤) خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفَجْوْرِ ، ارْفُقْ فِي الطَّلَبِ ، وَأَجْمَلْ فِي الْمَكْسَبِ ، فَإِنَّ رَبَّ طَلَبٍ ، قَدْ جَرَّ إِلَى حَرْبٍ ^(٥) ، لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمُنْجِحٍ ^(٦) ، وَلَا كُلُّ مُلِحٍّ بِمُحْتَاجٍ ، وَالْمَغْبُونُ مِنْ غَمٍّ نَصِيْبُهُ مِنَ اللَّهِ ، عَاتِبٌ مِنْ رَجَوْتِ عُنْبَاهِ ، وَفَاكِهَةٌ مِنْ أَمْنَتِ بِلَوَاهِ ، لَا تَكُنْ مِضْحَاكًا مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ ، وَلَا مَشَاءً إِلَى غَيْرِ أَرْبٍ ، وَمَنْ نَأَى عَنِ الْحَقِّ أَضَاقَ مَذْهَبُهُ ، وَمَنْ اِقْتَصَرَ عَلَى حَالِهِ ، كَانَ أَنْعَمَ لِبَالِهِ ، لَا يَكْبُرُنْ عَلَيْكَ ظُلْمٌ مِنْ ظَالِمِكَ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا سَعَى فِي مَضْرَتِهِ وَنَفْعِكَ ، وَعَوْدٌ نَفْسِكَ السَّمَاحَ ، وَتَخْيِيرٌ لَهَا مِنْ كُلِّ خُلُقٍ أَحْسَنَهُ ، فَإِنَّ الْخَيْرَ عَادَةٌ ، وَالشَّرُّ لِحَاجَةٌ ، وَالصُّدُودُ آيَةُ الْمَقْتِ ، وَالتَّعَلُّلُ آيَةُ الْبَخْلِ ، وَمَنْ الْفِقْهُ كِتْمَانُ السِّرِّ ، وَلِقَاحُ الْمَعْرِفَةِ دِرَاسَةُ الْعِلْمِ ، وَطَوْلُ التَّجَارِبِ زِيَادَةُ فِي الْعَقْلِ ، وَالْقِنَاعَةُ رَاحَةُ الْأُبْدَانِ ، وَالشَّرْفُ التَّقْوَى ، وَالبَلَاغَةُ مَعْرِفَةُ رَتَقِ الْكَلَامِ وَفَتْقِهِ ، بِالْعَقْلِ تُسْتَخْرَجُ الْحِكْمَةُ ، وَبِالْحِلْمِ

[١] أعتبه : أعطاه الغني أي الرضا . [٢] ينمي ويكثر . [٣] يهلك .

[٤] الحرمان . [٥] حربه حرباً كطلبه : سلب ماله . [٦] أنجح : صار ذا نجاح .

يستخرج غَوْرَ العقل ، ومن شَمَّرَ في الأمور، ركب البحور، شر القول ما تَقَصَّصَ بعضه بعضا ، وَمَنْ سَعَى بالنيمة حَذِرَه البعيد ، وَمَقَّتَه القريب . من أطال النظر بإرادةٍ تامةٍ أدرك الغاية ، ومن توانى في نفسه ضاع ، من أسرف في الأمور انتشرت عليه ، ومن اقتصد اجتمعت له ، واللَّجَاجَة تورث الضياع للأمر، غِبُّ الأدب أحمد من ابتدائه ، مُبادرة الفهم تورث النسيان ، سوء الاستماع يُعَقِّبُ العيِّ ، لَا تُحَدِّثُ من لَا يُقْبَلُ بوجهه عليك ، وَلَا تُنصِتُ لمن لَا يَنْمِي (١) بحديثه إليك ، البلادة للرجل هُجْنَة ، قَلَّ مَالِكٌ إِلَّا اسْتَأْثَرَ ، وَقَلَّ عَاجِزٌ إِلَّا تَأَخَّرَ ، الإحجام عن الأمور يُورث العجزَ ، والإقدام عليها يورث اجتلاب الحظ ، سوء الطُعْمَة (٢) يُفسد العِرضَ ، وَيُخْلِقُ الوجهَ ، وَيَمَحِّقُ الدينَ ، الهيبة قرين الحرمان ، والجسارة قرين الظفر ، وَفِيكَ من أنصفك ، وَأخوكَ من عاتبك ، وشريكك مَنْ وَفَى لكَ ، وَصَفِيكَ من آثركَ ، أَعْدَى الأعداء العقوقُ ، اتباعُ الشهوة يُورث الندامةَ ، وَفَوَتْ الفرصة يورث الحسرةَ ، جميع أركان الأدب التأنى للرفق ، أَكْرَمَ نفسك عن كل دنيَّة ، وَإِنْ سَاقَتِكَ إِلَى الرغائب ، فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ بِمَا تَبْذُلُ من دينك ونفسك عَوْضًا ، لَا تَسَاعِدُ (٣) النساءُ فَيَمْلَأَنَّكَ ، واستبِقِ من نفسك بقيَّة ، فَإِنَّهُنَّ أَنْ يَرِينَ أَنَّكَ ذُو اقتدار ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَطَّلِعْنَ مِنْكَ عَلَى انكسار ، لَا تَمْلِكُ المرأةُ الشفاعةَ لغيرها ، فتميلُ من شفعتْ لها عليك معها ، أَيْ بنى ، إني قد اخترت لك الوصيةَ ، ومَحَضَّتِكَ النصيحةَ ، وَأَدَيْتُ الحقَّ إِلَى الله فِي تَأديبك ، فَلَا تُغْفَلَنَّ الأخذَ بأحسنها ، والعملَ بها ، وَاللهُ موفِّقك .

(البيان والنبين ٣ : ٢٣٢)

[١] نعى الحديث ونما بالثديد : رفعه . [٢] الطعمة : وجه المكسب . [٣] لعلها « لا تقاعد » .

٨٧ - وصية أخرى له

عن يزيد بن عقال قال :

وَصَّى عبد الملك بن صالح ابنه وهو أمير سريّة ، ونحن ببلاد الروم فقال له :
« أنت تاجرُ الله لعباده ، فكن كالمضارب الكيس ، الذي إن وجد رجلاً
نَجَرَ ، وإلا احتفظ برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تحوز السلامة ، وكن
من احتياك على عدوك ، أشدَّ خوفاً من احتيال عدوك عليك ^(١) » .

(البيان والتبين ٢ : ٥٤)

٨٨ - كلمات حكيمة لابن السماك

وقال محمد بن صباح - المعروف بابن السماك ^(٢) - :

« خيرُ الإخوان أقلُّهم مَسانعةً في النصيحة ، وخير الأعمال أحلاها عاقبةً ،
وخير الثناء ما كان على أفواه الأخيار ، وأشرفُ السلطان ما لم يخالطه البَطْرُ ،
وأغنى الأغنياء من لم يكن للحرص أسيراً ، وخير الإخوان من لم يخاصم ، وخير
الأخلاق أعونها على الورع ، وإنما يُخْتَبَرُ ذلُّ الرجال عند الفاقة والحاجة » .

(زهر الآداب ٢ : ٢٠٥)

٨٩ - ابن السماك والرشيدي

وذكر محمد بن هرون عن أبيه قال : حضرت الرشيدي ، وقال له الفضل

ابن الربيع : يا أمير المؤمنين قد أحضرتُ ابن السماك كما أمرتني ، قال : أدخِله ،

[١] أوردت هذه الوصية في الجزء الثاني ص ١٨٥ معزوة إلى عبد الملك بن مروان كما أوردها صاحب
العقد ، ويؤيد ذلك ما رواه الطبري - ج ٨ : ٣٧ - إذ يقول : « وى سنة ٨٤ كانت غزوة عبد الله بن
عبد الملك بن مروان الروم ، ففتح فيها المصيبة - كسفية - » وعزاها الجاحظ إلى عبد الملك بن صالح كما ترى
في هذه الرواية . [٢] كان راهباً عابداً حسن الكلام صاحب مواعظ ، وهو كوفي قدم بعدد زمن
الرشيدي ، فسكت بها مدة ، ثم رجع إلى الكوفة فمات بها سنة ١٨٣ هـ .

فدخل ، فقال له : عِظْنِي ، قال : يا أمير المؤمنين : اتَّقِ اللَّهَ وَحَدَّه لاشْرِيكَ لَهُ ،
واعلم أنك واقِفٌ غداً بين يدي الله رَبِّكَ ، ثم مصروفٌ إلى إحدى منزلتين ،
لا ثالثةَ لهما : جنةٌ أو نار ، فبكى هرون حتى اخضَلَّتْ^(١) لحيتُهُ ، فأقبل الفضل
على ابن السماك ، فقال : سبحان الله ! وهل يتخالَجُ أحداً شكٌّ في أن أمير المؤمنين
مصروفٌ إلى الجنة إن شاء الله ؟ لقيامه بحق الله ، وعدَلِهِ في عبادِهِ ، وفضله ،
فلم يَحْفَلِ بذلك ابن السماك من قوله ، ولم يلتفت إليه ، وأقبل على أمير المؤمنين ،
فقال : يا أمير المؤمنين إن هذا - يعنى الفضل بن الربيع - ليس والله معك ولا
عندك في ذلك اليوم ، فاتق الله وانظر لنفسك ، فبكى هرون حتى أشفقنا عليه ،
وأفهم الفضل بن الربيع ، فلم ينطق بحرف حتى خرجنا .

قال : ودخل ابن السماك على الرشيد يوماً ، فبينما هو عنده إذ استسقى ماءً ،
فأتى بِقُلَّةٍ من ماء ، فاما أهوى بها إلى فيه ليشربها ، قال له ابن السماك : على
رِسْلِكَ^(٢) يا أمير المؤمنين ، بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو
مُنِعْتَ هذه الشَّرْبَةَ ، بكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي ، قال : اشرب
هَذَاكَ اللهُ ، فاما شربها ، قال له : أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
لو مُنِعْتَ خروجَها من بدنك ، بماذا كنت تشتريها ، قال : بجميع ملكي ،
قال ابن السماك : إن ملكاً قيمته شربةُ ماءٍ لَجِدِيرٌ أَلَّا يُنَافَسَ فِيهِ ، فبكى هرون ،
فأشار الفضل بن الربيع إلى ابن السماك بالانصراف ، فانصرف .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١١٩ ، وشرح ابن أبي الحديد ١٠ م : ص ١٤٩)

الفتنة بين الأمين والمأمون

وفد الأمين إلى المأمون

لما عزم محمد الأمين على خلع أخيه عبد الله المأمون من ولاية العهد^(١) ، كتب إليه كتاباً يستقدمه ، ويحبّب أن يكون بقربه - وكان المأمون على خراسان - ودفع الكتاب إلى العباس بن موسى ، وإلى عيسى بن جعفر ، وإلى محمد بن عيسى بن نَهَيْك ، وإلى صالح صاحب المصلي ، وأمرهم أن يتوجهوا به إلى المأمون ، والأيدعوا وجهاً من اللين والرفق إلا بلغوه ، وسهّلوا الأمر عليه ، (وذلك سنة ١٩٤ هـ) فتوجهوا بكتابه ، فلما وصلوا إلى المأمون أذن لهم ، فدفعوا إليه الكتاب ، ثم تكلم العباس بن موسى :

٩٠ - خطبة العباس بن موسى

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الأمير : إن أخاك قد تحمّل من الخلافة ثقلاً عظيماً ، ومن النظر في أمور الناس عبئاً جليلاً ، وقد صدقت نيته في الخير ، فأعوزّه الوزراء والأعوان والكفأه على العُدل ، وقليل ما يأنس بأهل بيته ، وأنت أخوه وشقيقه ، وقد فزع إليك في أموره ، وأملاك للموازرة والمكائفة^(٢) ،

[١] ذكروا أن الفضل بن الربيع وزير الأمين ، كان مدح المأمون ، لما فعله عند موت الرشيد بطوس من إحضار جميع ما كان في عسكره إلى الأمين ، بعد أن كان الرشيد قد أشهد به المأمون ، وعلم أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون يوماً وهو حي لم يبق عليه ، فحسن للأمين خلع المأمون والبيعة لابنه موسى - ولم يكن ذلك من رأى الأمين ولا عزمه - واتفق مع الفضل جماعة على ذلك ، قال الأمين إلى أقوالهم ، ثم إنه استشار عقلاء أصحابه ، فنهوه عن ذلك وحذروه طاقبة البغي ونكت العهود ، وقالوا له : لا تحرى القواد على الكت للأيمان وعلى الخلع فيخلعوك ، فلم يلتفت إليهم ، ومال إلى رأى الفضل بن الربيع ، وشرع في خدع المأمون باستدعائه إلى بغداد ، فلم يتخذ وكتب يعتذر . [٢] المعاونة .

ولسنا نستبطنك في برّه ، اتهاماً لنصرك له ، ولا نحضك على طاعة ، تخوفاً لخلافك عليه ، وفي قدومك عليه أنس عظيم ، ، وصلاح لدولته وسلطانه ، فأجبت أيها الأمير دعوة أخيك ، وآثر طاعته ، وأعنه على ما استعانك عليه في أمره ، فإن في ذلك قضاء الحق ، وصلة الرحم ، وصلاح الدولة ، وعزّ الخلافة ، عزم الله للأمير على الرشيد في أموره ، وجعل له الخيرة والصلاح في عواقب رأيه .

٩١ - خطبة عيسى بن جعفر

وتكلم عيسى بن جعفر بن أبي جعفر ، فقال :

« إن الإكثار على الأمير - الله ، الله - في القول خرق ، والاقتصار في تعريفه ما يجب من حق أمير المؤمنين تقصير ، وقد غاب الأمير - أكرمه الله - عن أمير المؤمنين ، ولم يستغن عن قربه من شهيد غيره من أهل بيته ، ولا يجد عنده غنى ، ولا يجد منه خلفاً ، ولا عوضاً ، والأمير أولى من برّ أخاه ، وأطاع إمامه ، فليعمل الأمير فيما كتب به إليه أمير المؤمنين بما هو أَرْضَى وأقرب من موافقة أمير المؤمنين ومحبته ، فإن القُدوم عليه فضلٌ وحظٌ عظيم ، والإبطاء عنه وكف^(١) في الدين ، وضرر ومكروه على المسلمين . »

٩٢ - خطبة محمد بن عيسى بن نهيك

وتكلم محمد بن عيسى بن نهيك ، فقال :

« أيها الأمير إنا لا نزيدك بالإكثار والتطويل فيما أنت عليه من المعرفة بحق أمير المؤمنين ، ولا نشحد نيتك بالأساطير والخطب فيما يلزمك من النظر والعناية بأمر المسلمين ، وقد أعوز أمير المؤمنين الكفاة والنصحاء بحضرتة ،

[١] الوكف : الليل والجور والعيب والإثم .

وَتَنَاوَلْكَ فَرِعًا إِلَيْكَ فِي الْمَعُونَةِ وَالتَّقْوِيَةِ لَهُ عَلَى أَمْرِهِ ، فَإِنْ تُجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
فِيمَا دَعَاكَ إِلَيْهِ ، فَنِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ يَتَلَفَّى بِهَا رِعْيَتِكَ وَأَهْلَ بَيْتِكَ ، وَإِنْ تَقَعُدْ يُغْنِ اللَّهُ
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْكَ ، وَلَنْ يَضَعَهُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْبِرِّ بِكَ ، وَالاعْتِمَادَ عَلَى
طَاعَتِكَ وَنَصِيحَتِكَ » .

٩٣ - خطبة صالح صاحب المصلى

وتكلم صالح صاحب المصلى ، فقال :

« أَيُّهَا الْأَمِيرُ : إِنَّ الْخِلَافَةَ ثَقِيلَةٌ ، وَالْأَعْوَانُ قَلِيلٌ ، وَمَنْ يَكِيدُ هَذِهِ الدَّوْلَةَ ،
وَيَنْطَوِي عَلَى غَشَّهَا ، وَالْمَعَانِدَةَ لِأَوْلِيَاءِهَا ، مِنْ أَهْلِ الْخِلَافِ وَالْمَعْصِيَةِ كَثِيرٌ ،
وَأَنْتَ أَخُو أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَشَقِيقَتِهِ ، وَصَلَاحُ الْأُمُورِ وَفَسَادُهَا رَاجِعٌ عَلَيْكَ وَعَلَيْهِ ،
إِذْ أَنْتَ وَلِيُّ عَهْدِهِ ، وَالْمُشَارِكُ فِي سُلْطَانِهِ وَوِلَايَتِهِ ، وَقَدْ تَنَاوَلْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
بِكِتَابِهِ ، وَوَثِقَ بِمَعَاوَنَتِكَ عَلَى مَا اسْتَعَانَكَ عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِهِ ، وَفِي إِجَابَتِكَ إِيَّاهُ إِلَى
الْقُدُومِ عَلَيْهِ صَلاَحٌ عَظِيمٌ فِي الْخِلَافَةِ ، وَأَنْسُ وَسُكُونُ أَهْلِ الْمِلَّةِ وَالذِّمَّةِ ، وَفَقَّ
اللَّهُ الْأَمِيرَ فِي أُمُورِهِ ، وَقَضَى لَهُ بِالذِّمَّةِ هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ وَأَنْفَعُ لَهُ » .

٩٤ - خطبة المأمون

فحمد الله المأمون ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« قَدْ عَرَّفْتُمُونِي مِنْ حَقِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - أَكْرَمَهُ اللَّهُ - مَا لَا أَنْكَرُهُ ،
وَدَعَوْتُمُونِي مِنَ الْمَوَازِرَةِ وَالْمَعُونَةِ إِلَى مَا أَوْثَرَهُ وَلَا أَدْفَعُهُ ، وَأَنَا لَطَاعَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
مُقَدَّمٌ ، وَالْمَسَارِغَةُ إِلَى مَاسِرِّهِ وَوَافِقُهُ حَرِيصٌ ، وَفِي الرِّوَايَةِ تَبْيَانُ الرَّأْيِ ، وَفِي
إِعْمَالِ الرَّأْيِ نُصْحُ الْعِزْمِ ، وَالْأَمْرُ الَّذِي دَعَانِي إِلَيْهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمْرٌ لَا أَتَأَخَّرُ

عنه تَبَطُّطًا ومدافعةً ، ولا أتقدّم عليه اعتسافاً وَعَجَلَةً ، وأنا في ثغر^(١) من ثغور
المسامين ، كَلِبُ عَدُوِّهِ ، شديدٌ شوكتُهُ ، وإن أهملتُ أمره لم آمن دخول الضرر
والمكروه على الجنود والرعية ، وإن أقمت عليه لم آمن قَوْتَ ما أَحَبَّ من معونة
أمير المؤمنين وموازرتة وإيثار طاعته ، فانصرفوا حتى أنظر في أمري ، ويصح
الرأى فيما أعزِمُ عليه من مسيرى إن شاء الله .

ثم بعث معهم بكتاب إلى الأمين ، يسأله أن يُعْفِيَهُ من الشخوص إليه ،
وأن يُقْرِه على عمله ، إذ يرى أن ذلك أعظم غناج على المسامين .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٦)

٩٥ - وصية السيدة زبيدة لعلى بن عيسى بن ماهان

وَنَمَى الشريين الأخوين ، واستطار شرره ، وبعث الأمين جيشاً كثيفاً
بقيادة على بن عيسى بن ماهان لحرب المأمون ، وأعد المأمون للقائه جيشاً بقيادة
طاهر بن الحسين ، فلما أراد على الشخوص إلى خراسان ، ركب إلى باب السيدة
زُبَيْدَةَ^(٢) والدة الأمين فودّعها ، فقالت له :

« يا على ، إن أمير المؤمنين ، وإن كان ولدى ، إليه تناهت شفقتى ، وعليه
تكامل حذرى ، فإنى على عبد الله مُنْعَطِفَةٌ مُشْفِقَةٌ لما يَحْدُثُ عليه من مكروه
وأذى ، وإنما ابنى مَلِكٌ نَافِسُ أخاه فى سلطانه ، وَغَارَاهُ^(٣) على ما فى يده ، والكريم
يؤكل لحمه ، يُعِيْمَتُهُ غيره ، فاعْرِفْ لعبد الله حق والده وأخوته ، ولا تُجَبِّهْهُ^(٤)
بالكلام ، فإنك لست نظيره ، ولا تُقْتَسِرْهُ^(٥) اقتسار العبيد ، ولا تُرْهِنْهُ^(٦)

[١] الثغر : موضع الحفاة من فروج البلدان . [٢] هو السيدة زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن منصور .

[٣] فى الأصل : « غاره » وأراه جرفاً عن « غراه » ، غارته مغارة وغراء : لاجبته .

[٤] جبّه كنبه : لقيه بما يكره . [٥] قسره واقسره : قهره .

[٦] أرهنه : أضعفه ، وفى الفخرى : « ولا توهنه » وأوهنه : أضعفه أيضاً ، والغل : الفيد

بقيد ولا غلّ ، ولا تمنع منه جارية ولا خادماً ، ولا تمنف عليه في السير ، ولا تساور في المسير ، ولا تركب قبله ، ولا تستقلّ على دابتك حتى تأخذ بركابه ، وإن شتمك فاحتمل منه ، وإن سفّه عليك فلا تراده .

ثم دفعت إليه قيلاً من فضّة ، وقالت : إن صار في يدك فقيده بهذا القيد ، فقال لها : سأقبل أمرك ، وأعمل في ذلك بطاعتك .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٤٩ ، والفخرى ص ١٩٥)

٩٦ - وصية الأمين لابن ماهان

وخرج على بن عيسى بن ماهان من بغداد (في ٧ من شعبان سنة ١٩٥ هـ) وخرج معه الأمين يشيعه ، وأقبل يوصيه ، فقال :

« أَمْنَعُ جُنْدَكَ مِنَ الْعَبَثِ بِالرَّعِيَّةِ ، وَالغَارَةِ عَلَى أَهْلِ الْقُرَى ، وَقَطْعِ الشَّجَرِ ، وَاتِّهَاكِ النِّسَاءِ ، وَوَلِّ الرِّىَّ يَحْيَى بْنَ عَلِيٍّ ^(١) ، وَاضْمُمْ إِلَيْهِ جُنْدًا كَثِيفًا ، وَمُرَّهُ لِيُدْفَعْ إِلَى جَنْدِهِ أَرْزَاقَهُمْ مِمَّا يَحْيَى ، مِنْ خَرَّاجِهَا ، وَوَلِّ كُلَّ كُورَةٍ تَرَحَّلَ عَنْهَا رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ ، وَهَنْ خَرَجَ إِلَيْكَ مِنْ جَنْدِ أَهْلِ خُرَّاسَانَ وَوَجُوهَهَا فَأَظْهَرِ إِكْرَامَهُ ، وَأَحْسِنِ جَائِزَتَهُ ، وَلَا تَعَاقِبْ أَخًا بِأَخِيهِ ، وَضَعْ عَنْ أَهْلِ خُرَّاسَانَ رِبْعَ الْخَرَّاجِ ، وَلَا تَأْمَنْ أَحَدًا رِمَاكَ بِسَهْمٍ ، أَوْ طَعْنَ فِي أَصْحَابِكَ بِرِمْحٍ ، وَلَا تَأْذَنْ لِعَبْدِ اللَّهِ فِي الْمَقَامِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، مِنْ الْيَوْمِ الَّذِي تَظْهَرُ فِيهِ عَلَيْهِ ، فَإِذَا أَشْخَصْتَهُ ، فَلْيَكُنْ مَعَ أَوْثَقِ أَصْحَابِكَ عِنْدَكَ ، فَإِنْ غَرَّهُ الشَّيْطَانُ فَنَاصَبِكَ ، فَاحْرَصْ عَلَى أَنْ تَأْسِرَهُ أَسْرًا ، وَإِنْ هَرَبَ مِنْكَ إِلَى بَعْضِ كُورِ خُرَّاسَانَ ، فَتَوَلَّ إِلَيْهِ الْمَسِيرَ بِنَفْسِكَ ، أَفْهَمْتَ كُلَّ أَوْصِيكَ بِهِ ؟ » .

[١] هو يحيى بن على بن عيسى بن ماهان .

قال : نعم ، أصلح الله أمير المؤمنين ، قال : سر على بركة الله وعونه .
(تاريخ الطبري ١٠ : ١٥٠)

٩٧ - استهانة ابن ماهان بأمر طاهر بن الحسين

وخرج ابن ماهان ، فلما جاز حُلوانَ ، لَقِيتهُ القوافل من خُرَاسان ، فكان يسألها عن الأخبار ، فيقال له : إن طاهراً مقيماً بالرّيِّ ، يعرض أصحابه ، ويَرِمُ^(١) آله ، فيضحك ثم يقول :

« وما طاهر؟ فوالله ما هو إلا شوكة من أغصاني ، أو شرارة من نارى ، وما مثلُ طاهر يتولَّى على الجيوش ، ويلقى الحروب » ، ثم التفت إلى أصحابه فقال : « والله ما بينكم وبين أن ينقصف انقصاصَ الشجر من الريح العاصف ، إلا أن يبلغه عبورُنا عقبه^(٢) هَمْدَان ، فإن السَّخال^(٣) لا تقوى على نِطاح الكِباش ، والثعالب لا ضبرَ لها على لقاء الأسد ، فإن يُقِم طاهر بموضعه يكن أول معرَّض لِظَبَاتٍ^(٤) السيوف وأسنَّة الرماح » .

وسار حتى صار في أول بلاد الرّيِّ ، وأتاه صاحب مقدّمته وقال : « لو كنت - أبقى الله الأمير - أذكيتَ العيون ، وبعثت الطلائع ، وارتدت موضعاً تُعسكِر فيه ، وتتخذ خندقاً لأصحابك يأمنون به ، كان ذلك أبلغَ في الرأى ، وآنسَ للجند » .

قال : « لا ، ليس مثلُ طاهر يستعدُّ له بالمكائد والتحفظ ، إن حال طاهر تتولَّى إلى أحد أمرين ، إما أن يتحصن بالرّيِّ ، فيبيته^(٥) أهلها ، فيكفونامثوثته ،

[١] يصلح . [٢] العتبة : مرقى صعب من الجبال . [٣] السجال جمع سجلة بالفتح : وهو ولد الغنم ذكراً أو أنثى . [٤] الظبات جمع ظبة وهي حد السيف . [٥] بيته كمنعه : أخذه بغتة ، قال تعالى : « بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ » ، وفي مروج الذهب : « فينب به » .

أَوْ يُخْلِدُهَا وَيُدْبِر رَاجِعًا لَوْ قَرُبَتْ خِيولُنَا وَعَسَا كَرْنَا مِنْهُ .
 وَأَنَاهُ يَحْيَى بْنُ عَلِيٍّ ، فَقَالَ : « اجْمَعْ مَتَفَرِّقِ الْعَسْكَرَ ، وَاحْذِرْ عَلَى جَنْدِكَ
 الْبِيَاتَ ، وَلَا تَسْرَحِ الْخَيْلَ إِلَّا وَمَعَهَا كَنْفٌ ^(١) مِنَ الْقَوْمِ ، فَإِنَّ الْعَسَاكِرَ
 لَا تُسَاسُ بِالتَّوَانِي ، وَالْحُرُوبُ لَا تَدْبَرُ بِالْإِغْتِرَارِ ، وَالثَّقَةُ أَنْ تَحْتَرِزَ ، وَلَا تَقُلْ :
 الْمَحَارِبُ لِي طَاهِرٌ ، فَالْشَّرَارَةُ الْخَفِيَّةُ رُبَّمَا صَارَتْ ضِرَامًا ^(٢) ، وَالثَّمَلَةُ مِنَ السَّيْلِ
 رُبَّمَا اغْتَرَبَتْ بِهَا وَتُهْمُونَ ، فَصَارَتْ بَحْرًا عَظِيمًا ، وَقَدْ قَرُبَتْ عَسَا كَرْنَا مِنْ طَاهِرٍ ،
 فَلَوْ كَانَ رَأْيُهُ الْمَهْرَبَ لَمْ يَتَأَخَّرْ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا .

قال : اسكت ، فإن طاهرًا ليس في هذا الموضع الذي ترى ، وإنما يتحفظ
 الرجال إذا لقيت أقرانها ، وتستعد إذا كان المناوي ^(٣) لها أكفاءها ونظراءها .
 (تاريخ الطبري ١٠ : ١٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٢٩٩)

٩٨ - حزم طاهر وقوة عزمه

وعسكر طاهر على خمسة فراسخ من الرّبيّ ، وأتاه محمد بن العلاء ، فقال :
 « أيها الأمير ، إن جندك قد هابوا هذا الجيش ، وامتلأت قلوبهم خوفًا ورعبًا
 منه ^(٤) ، فلو أقتت بمكانك ، ودافعت القتال إلى أن يشامهم ^(٥) أصحابك ،
 ويأنسوا بهم ، ويعرفوا وجه المأخذ في قتالهم » ، فقال :

« لا ، إني لا أوتى من قلة تجربة وحزم ، إن أصحابي قليل ، والقوم عظيم
 سوادهم ، كثير عددهم ، فإن دافعت القتال ، وأخرت المناجزة ، لم آمن أن
 يطلّعوا على قتلنا وعورتنا ، وأن يستميلوا من معي برغبة أو رهبة ، فينفر عني

[١] الكنف : الجماعة . [٢] الضرام : اشتعال النار في الحلقاء وغيرها ، ودقاق الخطب الذي
 يسرع اشتعال النار فيه . [٣] المعادى .

[٤] وكانت عدة عسكر ابن ماهان خمسين ألفا ، وذكر بعض أهل بغداد أنهم لم يروا عسكرا كان أكثر
 رجلا ، وأفره كراعا ، وأظهر سلاحا ، وأتم عدة ، وأكمل هيئة من عسكره ، وروى أن طاهرا كان في
 أقل من أربعة آلاف . [٥] شاما وتشاما : شم أحدهما الآخر ، والمعنى اقتربا .

أكثر أصحابي ، ويخذلني أهل الحِفاظ والصبر ، ولكن ألف الرجال بالرجال ،
والْحِم (١) الخليل بالخليل ، وأعتمد على الطاعة والوفاء ، وأصبر صَبْرَ مُحْتَسِبٍ للخير ،
حريصٍ على الفوز بفضل الشهادة ، فإن يرزق الله الظفر والفأج (٢) ، فذلك
الذي نريد ونرجو ، وإن تكن الأخرى فليست أول من قاتل فقتل ، وماعند الله
أجزل وأفضل . (تاريخ الطبري ١٠ : ١٥١)

٩٩ - طاهر يشد عزيمة جنده

وكتب طاهر بن الحسين كتابته ، وَكَرَدَسَ كَرَادِيْسَهُ (٣) ، وسوَّى صفوفه ،
وجعل يمرّ بقائد قائد ، وجماعة جماعة ، فيقول :

« يا أولياء الله ، وأهل الوفاء والشكر ، إنكم لستم كهؤلاء الذين ترون من
أهل النَّكث والغدر ، إن هؤلاء ضيعوا ما حفظتم ، وصغروا ما عظمت ، ونكثوا
الأيمان التي رعيتهم ، وإنما يطلبون الباطل ، ويقاتلون على الغدر والجهل ، أصحاب
سائب ونهب ، فلو قد غصصتم الأبصار ، وأثبتتم الأقدام ، قد أنجز الله وعده ،
وفتح عليكم أبواب عزّه ونصره ، فجالدوا طواغيت (٤) الفتنه ، ويا مسيب النار
عن دينكم ، ودافعوا بحقكم باطلهم ، فإنما هي ساعة واحدة ، حتى يحكم الله بينكم
وهو خير الحاكمين » .

ونشب القتال بين الفريقين ، ودارت الدائرة على جيش ابن ماهان وقُتِل (٥)

[١] أى أقرن الحيل بالخليل ، من قولهم : ألحمت الحرب فالتحمت ، والملاحم ضم الميم وبتفتح الحاء : الماصق
بالقوم ، ولأحم الشيء بالشيء : ألصقه به . [٢] الفوز والظفر . [٣] الكراديس جمع كردوسة
بالضم ، وهى القطعة العظيمة من الخيل ، وكردس الخيل جعلها كتيبة كتيبة .

[٤] الطواغيت جمع طاغوت : وهو الشيطان وكل رأس ضلال ، واليعاسيب جمع يسوب : وهو الرئيس
الكبير . [٥] روى أن نمى على بن عيسى ورد إلى الأمين وهو على الشط يصيد السمك ، فقال للذى
أخبره : وبلك دعنى ، فإن كوثرًا قد اصطاد سمكين ، وأنا ما اصطدت شيئًا بعد - وكان كوثر خادما
خصياله وكان يحبه . -

ووجه الأمين بعد ذلك لحرب طاهر جيشاً بقيادة عبد الرحمن بن جبلة ،
فهزم وقتل أيضاً . (تاريخ الطبري ١٠ : ١٥٢)

١٠٠ - وصف الفضل بن الربيع غفلة الأمين

ونب أسد بن يزيد بن يزيد ائقتال طاهر

وبعث الفضل بن الربيع بعد مقتل عبد الرحمن بن جبلة إلى أسد بن يزيد
ابن يزيد ، قال : فأثبته ، فلما دخلت عليه وجدته قاعداً في صحن داره ، وفي يده
رُقعة قد قرأها ، واحمرّت عيناه ، واشتد غضبه ، وهو يقول :

« ينام نوم الظربان ^(١) ، وينتبه انتباه الذئب ، همته بطنه ، ولذته قرجه ،
لا يفكر في زوال نعمته ، ولا يروى في إمضاء رأى ولا مكيدة ، قد ألهاه كأسه ،
وشغله قدحه ، فهو يجري في لهوه ، والأيام تمرع ^(٢) . في هلاكه ، قد شمّر
عبد الله له عن ساقه ، وفوق له أصيب ^(٣) أسهمه ، يرميه على بعد الدار بالحتف
النافذ ، والموت القاصد ^(٤) ، قد عي له المنايا على متون الخيل ، وناط ^(٥) له البلاء
في أسنة الرماح ، وشفار السيوف » .

ثم استرجع وتمثل بأبيات للبعيث ^(٦) ، ثم التفت إلى فقال :

« يا أبا الحارث ، إنا وإياك لنجری إلى غاية ، إن قصرنا عنها ذمنا ، وإن

اجتهدنا في بلوغها انقطعنا ، وإنا نحن شعب من أصل ، إن قوى قوينا ، وإن

[١] الظربان : دوية فوق حرو السكب منقنة الريح كثيرة القسو ، يضرب بها المثل فيقول : « أسي من
ظربان » . [٢] في الأصل « نرع » وأراه محرفاً . [٣] أصيب : أفعل من صاب السهم يصيب
صيباً : أي أصاب ، وسهم صيوب كصبور . [٤] انقاصد أي الكاسر ، من القصد بالفتح : وهو
الكسر بأي وجه كان ، أو بالنصف ، كالنقص ، يقال قصد الخبة وقصدها : كسرها وفصلها فتقصدت .
[٥] حلق . [٦] هو خداس بن بشر الجاشعي ، أحد شعراء الدولة الأموية ، وكان يهاجى جريراً .

ضَعْفُ ضَعْفُنَا ، إِنْ هَذَا قَدْ أَلْتِي بِيَدِهِ إِلقاءَ الأَمَّةِ الوَكْفَاءِ (١) ، يَشَاوِرُ النِّسَاءَ ، وَيَعْتَمِدُ عَلَى الرُّوْيَا ، وَقَدْ أَمَكَّنَ أَهْلَ اللُّهُوِّ وَالْحَسَارَةَ مِنْ سَمْعِهِ ، فَهَمَّ يَمْدُونَهُ الظَّفَرَ ، وَيَمْنُونَهُ عُقْبَ (٢) الأَيَّامِ ، وَالهِلَاكَ أَسْرَعَ إِلَيْهِ مِنَ السَّبِيلِ إِلَى قِيَعَانَ (٣) الرَّمْلِ ، وَقَدْ خَشَيْتُ وَأَلَّهِ أَنْ نَهْلِكَ بِهِلَاكِهِ ، وَنَعْطَبَ بِعِطْبِهِ .

وَأَنْتَ فَارِسُ الْعَرَبِ وَابْنُ فَارِسِهَا ، وَقَدْ فَزَعَ إِلَيْكَ فِي لِقَاءِ هَذَا الرَّجُلِ (طَاهِرٍ) ، وَأَطَمَّهُ فِيمَا قَبْلَكَ أَمْرَانِ ؛ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَصِدْقُ طَاعَتِكَ ، وَفَضْلُ نَصِيحَتِكَ ؛ وَالثَّانِي يُمْنُ تَقْيِيدِكَ (٤) ، وَشِدَّةُ بَأْسِكَ ، وَقَدْ أَمَرَنِي بِإِزَاحَةِ عِلَّتِكَ ، وَبَسْطِ يَدِكَ فِيمَا أَحْبَبْتَ ، غَيْرَ أَنْ الْاِقْتِصَادَ رَأْسَ النِّصِيحَةِ ، وَمِفْتَاحَ الْيُمْنِ وَالْبَرَكَاتِ ، فَأَنْجِزْ حَوَائِجِكَ ، وَعَجِّلْ الْمَبَادِرَةَ إِلَى عَدُوِّكَ ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤَلِّمَكَ اللهُ شَرَفَ الْفَتْحِ ، وَيَلْمَ بِكَ شَعَثَ هَذِهِ الْخِلَافَةِ وَالِدَوْلَةِ .

فَأَجَابَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، غَيْرَ أَنَّهُ طَلَبَ مَطَالِبَ لَمْ تَرُقْ فِي عَيْنِ الْأَمِينِ فَغَضِبَ عَلَيْهِ ، وَأَمَرَ بِسَجْنِهِ . (تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ ١٠ : ١٥٨ ، وَزَهْرُ الْآدَابِ ٢ : ١٥٨)

١٠١ - وَصِيَّةُ الْأَمِينِ لِأَحْمَدَ بْنِ مَزِيدٍ

ثُمَّ نَدَبَ عَمَّةَ أَحْمَدَ بْنِ مَزِيدٍ ، فَلَمَّا أَرَادَ الشَّخْصُوصَ دَخَلَ عَلَى الْأَمِينِ ، فَقَالَ :
أَوْصِنِي أَكْرَمَ اللهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ :

« أَوْصِيكَ بِخِصَالِ عِدَّةٍ ، إِيَّاكَ وَالْبَغْيَ فَإِنَّهُ عِقَالٌ (٥) النَّصْرَ ، وَلَا تَقَدِّمَ رِجَالًا إِلَّا بِاسْتِخَارَةٍ ، وَلَا تَشْمَهْرَ سَيْفًا إِلَّا بَعْدَ إِعْذَارٍ ، وَمَهْمَا قَدِرْتَ عَلَيْهِ بِاللَّيْنِ ،

[١] وَصَفَ مِنَ الْوَكْفِ بِالتَّحْرِيكِ : وَهُوَ الْإِيْثُ وَالْعَيْبُ وَالنَّقْصُ ، وَكَفَّ كَفْرَحَ إِذَا أُمِّمَ ، وَفِي رِوَايَةِ الطَّبْرِيِّ « الْوَكْمَاءُ » بِالْعَيْنِ ، وَهِيَ الْإِقْمَاءُ . [٢] الْعَقْبُ كَقَفْلٍ وَعَنْقُ : الْعَاقِبَةُ .
[٣] الْقِيَعَانُ جَمْعُ قَاعٍ : وَهُوَ أَرْضٌ مَطْبُونَةٌ سَهْلَةٌ قَدْ انْفَرَجَتْ عَنْهَا الْجِبَالُ وَالْأَلْكَامُ .
[٤] النِّقْيَةُ : النَّفْسُ وَالطَّبِيعَةُ . [٥] الْعِقَالُ فِي الْأَصْلِ : الْحَبْلُ الَّذِي تَفِيدُ بِهِ الدَّابَّةَ

فلا تتعدّه إلى الخرق والشَّرَه، وأحسن صحابة من معك من الجند ، وطالغني بأخبارك في كل يوم ، ولا تخاطر بنفسك طلب الزلفة^(١) عندي ، ولا تستقها فيما تخوف رجوعه على ، وكن لعبد الله أخاً مضافياً ، وقريناً برّاً ، وأحسن مجامعته ، وصحبته ومعاشرته ، ولا تحذله إن استنصرك ، ولا تبطئ عنه إذا استنصرحك ، وتكن أيديكما^(٢) واحدة ، وكلتكما متفقة .

وتوجه أحمد بن مزيد في عشرين ألفاً من الأعراب ، وعبد الله بن حميد بن قحطبة في عشرين ألفاً من الأبناء ، حتى نزلا خاتقين - قريباً من حلوان - ولم يزل طاهر بحتال في وقوع الاختلاف والشغب بينهم ، حتى اختلفوا ، وانتقض أمرهم ، وقاتل بعضهم بعضاً ، فأخلوا خاتقين ورجعوا عنها ، دون أن يلقوا طاهراً .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٥٩)

١٠٢ - مقال عبد الملك بن صالح للأمين

وكان عبد الملك بن صالح يشكر للأمين تخليّة سبيله ، ويوجب بذلك على نفسه طاعته ونصيحته ، فلما قوى طاهر ، واستعلى أمره ، وهزم من هزم من قواد الأميين وجيوشه ، دخل عبد الملك على الأمين ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إني أرى الناس قد طمعوا فيك ، وأهل العسكرين قد اعتمدوا ذلك ، وقد بذلت سماحتك ، فإن تمت على أمرك أفسدتهم وأبطرتهم ، وإن كففت أمرك عن العطاء والبذل أسخطتهم وأغضبتهم ، وليس تملك الجنود بالإمساك ، ولا يبقى ثبوت الأموال على الإنفاق والسرف ، ومع هذا فإن جندك قد رعّببتهم الهزائم ونهكتهم ، وأضعفتهم الحرب والوقائع ، وامتلت

[١] الزلفة والزلي : القرية . [٢] أي أنت وعبد الله بن حميد بن قحطبة .

قلوبهم هيبّة لعدوهم ، وَنُكُولاً^(١) عن لقائهم ومناهضتهم ، فَإِنْ سِيرْتَهُمْ إِلَى طاهر ، غَلَبَ بِقَلِيلٍ مَنْ مَعَهُ كَثِيرَهُمْ ، وهزم بقوة نيته ضعف نصائحهم ونياتهم ، وأهل الشام قوم قد ضُرَّستهم^(٢) الحروب ، وأدبّتهم الشدائد ، وَجَلَّتْهُمْ مِنْقَادٌ إِلَى ، مساعٍ إِلَى طاعتي ، فَإِنْ وَجَّهْنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ اتَّخَذْتُ لَهُ مِنْهُمْ جَنْدًا يَعِظُمُ نِكَائْتَهُمْ فِي عَدُوهِ ، وَيُؤَيِّدُ اللَّهُ بِهِمْ أَوْلِيَاءَهُ وَأَهْلَ طَاعَتِهِ .

فقال الأمين : « فَإِنِّي مُؤَلِّيكَ أَمْرَهُمْ ، ومقويك بما سألت من مال وَعُدَّةٍ ، فعجّلْ الشَّخْصَ إِلَى ما هُنَاكَ ، فاعمل عملاً يظهر أثره ، وَيُحْمَدُ بِرَكَتِهِ ، بِرَأْيِكَ وَنَظْرِكَ فِيهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ، فولاه الشام والجزيرة .

(ناريخ الطبري ١٠ : ١٦١ ، والكامل لابن الأثير ٦ : ١٠٣)

١٠٣ - الشَّعْبُ فِي جَيْشِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ صَالِحٍ

وسار عبد الملك بن صالح ، فلما قَدِمَ الرَّقَّةَ^(٣) ، كتب إلى رؤساء أجناد الشام ووجوه الجزيرة ، فلم يبقَ أَحَدٌ مِمَّنْ بُرِّجِي ، وَيَذْكَرُ بِأَسْئِهِ وَغَنَائِهِ إِلَّا وَعَدَهُ ، وبسط له في أماله وأمنيته ، فقدموا عليه رئيساً بعد رئيس ، وجماعة بعد جماعة ، فكان لا يدخل عليه أَحَدٌ إِلَّا أَجَازَهُ ، وخلع عليه وحمله ، فأتاه أهل الشام ، الزَّوْاقِيلُ والأعراب من كل فج ، واجتمعوا عنده حتى كثروا ، بَيَّنَدَ أَنَّهُ شَبَتِ نَارُ الْفِتْنَةِ بَيْنَ جَنْدِ أَهْلِ خِرَاسَانَ وَبَيْنَ الزَّوْاقِيلِ^(٤) ، وَأَفْضَى الْأَمْرَ إِلَى تِلَاحِهِمْ وَأَقْتَالِهِمْ ، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ حِمَصٍ ، فَقَالَ :

[١] جَبْنَا وَخَوْفًا . [٢] جَرَّبْتَهُمْ وَأَحْكَمْتَهُمْ .

[٣] بَلَدٌ عَلَى الْبَرَاتِ . [٤] وَسَبَّحَهَا أَنْ بَعْضُ جَنْدِ أَهْلِ خِرَاسَانَ نَظَرَ إِلَى دَابَّةٍ كَانَتْ قَدْ أَخَذَتْ مِنْهُ فِي إِحْدَى الْوَقْعَاتِ تَحْتَ بَعْضِ الزَّوْاقِيلِ ، فَتَعَلَّقَ بِهَا ، فَجَرَى الْأَمْرَ بَيْنَهُمَا إِلَى أَنْ اخْتَلَفَا ، وَاجْتَمَعَتِ جَمَاعَةٌ مِنَ الزَّوْاقِيلِ وَالْجَنْدِ فَتَلَاخَرُوا ، وَأَمَانَ كُلَّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ صَاحِبَهُ ، ثُمَّ اتَّسَعَ نِطَاقُ الْفِتْنَةِ فَانْشَقَّتْ وَحِدَةَ الْجَيْشِ .

« يأهل حمص ، الهَرَبُ أهونُ من العَطَبِ ، والموت أهون من الذل ، إنكم بعدتم عن بلادكم ، وخرجتم من أقاليمكم ، ترجون الكثرة بعد القلة ، والعزة بعد الذلة ، ألا وفي الشر وقعتم ، وإلى حومة الموت أنحتم ، إن المنايا في شوارب المسوودة^(١) وقلائسهم ، النفير النفير^(٢) قبل أن ينقطع السبيل ، وينزل الأمر الجليل ، ويفوت المطلب ، ويعسر المذهب ، ويبعد العمل ، ويقرب الأجل .
وقام رجل من كلب ، فقال :

« يا معشر كلب ، إنها الراية السوداء ، والله ما ولت ولا عدلت ، ولا ذلّ نصرها ، ولا ضعف وليها ، وإنكم لتعرفون مواقع سيوف أهل خراسان في رقابكم ، وآثار أسدنتهم في صدوركم ، اعتزلوا الشرق قبل أن يعظم ، وتخطوه قبل أن يضطرم ، شأمكم ، داركم داركم ، الموت الفلستيني خير من العيش الجزري ، ألا وإني راجع فمن أراد الانصراف فلينصرف معي » .

ثم سار وسار معه عامة أهل الشام ، وأقبلت الزواويل حتى أضرموا ما كان جُمع من الأعلاف بالنار ، (وكان ذلك سنة ١٩٦ هـ) .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٦٢)

١٠٤ - خطبة الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان

يدعو إلى خلع الأمين

ومات عبد الملك بن صالح بالرقة ، وكان معه الحسين بن علي بن عيسى ابن ماهان ، فأقفل الجند من الجزيرة إلى بغداد ، فتلقاه أهلها بالكرامة والتعظيم ، وضربوا له القباب ، واستقبله القواد والرؤساء والأشراف ، ثم اجتمع إليه الناس فقام فيهم فقال :

[١] كانت الجود الحراسانية التي تقاوت الأوبين في سبيل نصر الدعوة العباسية يحملون الرايات السود فعدوا من أجل ذلك المسوودة . [٢] نفر إلى الأمر كضرب نفيرا : أسرع إليه .

« يا معشر الأبناء ، إن خلافة الله لا تُجَاوَزُ بالبَطَرِ ، وَنِعْمَهُ لَا تَسْتَصْحَبُ
بِالتَّجْبُرِ وَالتَّكْبُرِ ، وَإِنْ مُحَمَّدًا يُرِيدُ أَنْ يُوتَعَ ^(١) أَدْيَانِكُمْ ، وَيُنَكِّثَ بَيْعَتِكُمْ ، وَيَفْرُقَ
جَمْعَكُمْ ، وَيَنْقُلَ عِزَّكُمْ إِلَى غَيْرِكُمْ ، وَهُوَ صَاحِبُ الزَّوَالِ بِالْأَمْسِ ، وَبِاللَّهِ إِنْ
طَالَتْ بِهِ مَدَّةٌ ، وَرَاجِعُهُ مِنْ أَمْرِهِ قُوَّةٌ ، لِيَرْجِعَنَّ وَإِلَّا ذَلِكَ عَلَيْكُمْ ، وَلِيُعْرِفَنَّ
ضُرُّهُ وَمَكْرُوهُهُ فِي دَوْلَتِكُمْ وَدَعْوَتِكُمْ ، فَاقْطَعُوا أَثْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَقْطَعَ آثَارَكُمْ ، وَضَعُوا
عِزَّهُ قَبْلَ أَنْ يَضَعَ عِزَّكُمْ ، فَوَاللَّهِ لَا يَنْصُرُهُ مِنْكُمْ نَاصِرٌ إِلَّا خُذِلَ ، وَلَا يَمْنَعُهُ مَانِعٌ
إِلَّا قُتِلَ ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ لِأَحَدٍ هَوَادَةٌ ، وَلَا يَرِاقِبُ عَلَى الْاسْتِخْفَافِ بِعَهْدِهِ ،
وَالْحِنْثِ بِأَيْمَانِهِ . »

وخلع الحسين بن علي محمد الأمين وحبسه ^(٢) ، وأخذ البيعة لعبد الله المأمون .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٦٣)

١٠٥ - خطبة محمد بن أبي خالد

في فض الناس عن اتباع الحسين بن علي بن عيسى

فلما أصبح الناس من الغد ، طلبوا من الحسين بن علي الأرزاق ، وماج

الناس بعضهم في بعض ، وقام محمد بن أبي خالد ، فقال :

« أيها الناس ، والله ما أدري ، بأي سبب يتأمر الحسين بن علي علينا ،

ويتولَّى هذا الأمر دوننا ؟ ما هو بأكبرنا سِتًّا ، ولا أكرمنا حَسَبًا ، ولا أعظمنا

مَنْزَلَةً ، وَإِنْ فِينَا مَنْ لَا يَرْضَى بِالدُّنْيَةِ ، وَلَا يُقَادُ بِالْمُخَادَعَةِ ، وَإِنِّي أَوْلَكُمْ ،

تَقْضِ عَهْدَهُ ، وَأَظْهَرِ التَّغْيِيرَ عَلَيْهِ ، وَالْإِنْكَارَ لِفِعْلِهِ ، فَمَنْ كَانَ رَأْيُهُ رَأْيِي ،

فليعتزل معي . (تاريخ الطبري ١٠ : ١٦٤)

[١] أوتع دينه بالإثم : أفسده ، وأوتفه الله : أهلكه .

[٢] وكان حبس الحسين محمد الأمين في قصر أبي جعفر يومئذ .

١٠٦ - إطلاق الأمين من سجنه ورده إلى مجلس الخلافة

وقام أسد الحرّبيّ، فقال: «يا معشر الحرّبية، هذا يومٌ له ما بعده، إنكم قد نمتُم وطال نومكم، وتأخرتم فقدم عليكم غيركم، وقد ذهب أقوامٌ بذِكر خلع محمد وأسرّه، فاذهبوا بذِكر فكّه وإطلاقه».

فأقبل شيخ كبير من أبناء الكفاية على فرس، فصاح بالناس: اسكتوا، فسكتوا، فقال:

«أيها الناس، هل تعتدّون على محمد بقطع منه لأرزاقكم؟ قالوا: لا، قال: فهل قصر بأحد منكم، أو من رؤسائكم وكبرائكم؟ قالوا: ما علمنا، قال: فهل عزّل أحداً من قوادكم؟ قالوا: معاذ الله أن يكون فعل ذلك، قال: فما بالكم خذلتموه، وأعتتم عدوّه على اضطهاده وأسرّه؟ أما والله ما قتّل قومٌ خليفتهم قطّ، إلا سلّط الله عليهم السيّف القاتل، والحتف الجارِف، انهضوا إلى خليفتمكم وادفعوا عنه، وقاتلوا من أراد خلعه والفتك به».

فنهضوا معه وقاتلوا الحسين بن عليّ وأصحابه قتالاً شديداً، وأكثروا في أصحابه الجراح، وأسروا الحسين، ودخل أسد الحرّبي على محمد فكسر قيوده، وأقعده في مجلس الخلافة.

وأتى الأمين بالحسين بن عليّ، فلامه على خلافه وقال له: ألم أقدم أبك على الناس، وأولّه أعنة الخيل. وأملاً يده من الأموال، وأشرف أقداركم في أهل خراسان، وأرفع منازلكم على غيركم من القواد؟ قال: بلى، قال: فما الذي استحققتُ به منك أن تخلع طاعتي، وتؤأب الناس على. وتندبهم إلى قتالي؟

قال : الثقة بعضو أمير المؤمنين ، وحسن الظن بصفحة وتفضله ، قال : فإن أمير المؤمنين ، قد فعل ذلك بك ، وولأك الطلب بشارك ، ومن قُتِل من أهل بيتك ، ثم دعا له بخلعة ، فخلعها عليه ، وحمله على مراكب ، وأمره بالمسير إلى حُلوان ، وخرج الحسين ، فهرب في نفر من خدمه ومواليه ، فنادى محمد في الناس ، فركبوا في طلبه فأدركوه وقتلوه . (تاريخ الطبري : ١٠ : ١٦٤)

١٠٧ - خطبة داود بن عيسى يدعو إلى خلع الأمين

وقام داود بن عيسى^(١) والى مكة والمدينة - وكان خطيباً فصيحاً جهير الصوت - يدعو إلى خلع الأمين ومبايعة المأمون ، فقال :

« الحمد لله مالك الملك ، يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، بيده الخَيْرُ ، وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالدين ، وختم به النبيين ، وجعله رحمة للعالمين ، صلى الله عليه في الأولين والآخرين .

[١] هو داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان الأمين حين أفضت الخلافة إليه بت به والياً على مكة والمدينة ، فأقام والياً عليهما حتى دخلت سنة ١٩٦ ، فكتب الأمين إلى داود بن عيسى يأمره بجمع عبد الله المأمون ، والبيعة لابنه موسى ، وبعث إلى الكتائب الذين كان الرشيد كتبهما وعلفهما في الكعبة ، فأخذهما ، فلما فعل ذلك جمع داود حجة الكعبة والقرشيين والفقهاء ، ومن كان شهد على ما في الكتابين من اليهود - وكان داود أحدهم - فقال داود : قد علمتم ما أخذ علينا وعليكم الرشيد من العهد والميثاق ، عند بيت الله الحرام ، حين بايعنا لابنيه لتكونن مع المظلوم منهما على الظالم ، ومع المبني عليه على الباغي ، ومع المغدور به على العادر ، فقد رأينا ورأيتم أن محمداً (الأمين) قد بدأ بالظلم والبغي والعدو على أخويه عبد الله المأمون ، والقاسم المؤمن ، وخلعهما ، وبايع لابنه الطفل رضيع صغير لم يفظم ، واستخرج الشرطين من الكعبة عاصياً ، فخرقهما بالنار ، وقد رأيت خلعه ، وأن أبايع لعبد الله المأمون بالخلافة ، إذ كان مظلوماً مبنياً عليه ، فقال له أهل مكة : رأينا تبع لرأيك ، ونحن خالعوهم معك ، فجمع الناس ، وخطبهم هذه الخطبة .

أما بعد ، يأهل مكة ، فأنتم الأصل والفرع ، والعشيرة والأُسرة ، والشركاء في النعمة ، إلى بلدكم يَفِدُ وَقَدْ لَهِ اللهُ ^(١) ، وإلى قبلكم يَأْتُمُّ المساهون ، وقد علمتم ما أخذ عليكم الرشيد هرون ، رحمة الله عليه وصلاته ، حين بايع لابنيه محمد وعبد الله بين أظهركم من العهد والميثاق ، لَتَنْصُرُنَّ المظلومَ مِنهُمَا على الظالم ، والمبغى عليه على الباغي ، والمغدورَ به على الغادر ، ألا وقد علمنا أن محمد ابن هرون قد بدأ بالظلم والبنى والغدر ، وخالف الشروط التي أعطها من نفسه في بطن البيت الحرام ، وقد حَلَّ لَنَا وَلَكُمْ خَلْعُهُ من الخِلافة وتصييرها إلى المظلوم المبغى عليه ، المغدور به ، ألا وإني أُشهِدُكُمْ أني قد خلعت محمد بن هرون من الخِلافة ، كما خلعت قَلَنْسُوتِي هذه من رأسي - وخلعت قَلَنْسُوتَهُ عن رأسه ، فرمى بها إلى بعض الخدم تحته ، وكانت من بُرُودِ حَبْرَةَ ^(٢) مسلسلة حمراء ، وأتى بقَلَنْسُوتِ سِوداءِ هاشمِيَّةٍ فَلَبَسَهَا - ثم قال : قد بايعت لعبد الله المأمون أمير المؤمنين بالخِلافة ، ألا فقوموا إلى البيعة لخليفتمكم ، فصعد جماعة من الوجوه إليه إلى المنبر رجل فرجل ، فبايعه لعبد الله المأمون بالخِلافة وخلع محمداً .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٧٠)

١٠٨ - خطبة الأمين وقد تولى الأمر عنه

ولما رأى الأمين الأمر قد تولى عنه ، وأنصاره يتسللون فيخرجون إلى طاهر ، أمر بإحضار كل من كان معه في المدينة من انقواد والجند ، فأشرف عليهم وقال :

[١] أى لتأدية فريضة الحج . [٢] برود حبرة : ضرب من البرود اليمانية ، يقال : برد حبرة مثل عنبه على الوصف والإضافة ، وبرود حبرة ، وليس حبرة موضعاً أو شيئاً معلوماً ، إنما هو وثنى كقولك : ثوب قرمز ، والقرمز : صبغة

« الحمد لله الذي يرفع ويضع ، ويعطي ويمنع ، ويقبض ويبسط ، وإليه المصير ، أحمده على نوائب الزمان ، وخذلان الأعوان ، وتشدت الرجال ، وذهاب الأموال ، وحلول النوائب ، وتوفد المصائب ، حمداً يدخر لي به أجزل الجزاء ، ويرفدني ^(١) أحسن العزاء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كما شهد لنفسه ، وشهدت له ملائكتُه ، وأن محمداً عبده الأمين ، ورسوله إلى المسامحين صلى الله عليه وسلم ، آمين رب العالمين .

أما بعد : يا معشر الأبناء ، وأهل السبق إلى الهدى ، فقد علمتم غفاتي كانت أيام الفضل بن الربيع وزير علي ومشير ، فادَّت ^(٢) به الأيام بما لزمني به من الندامة في الخاصة والعامة ، إلى أن نبهتموني فاتبته ، واستعتموني في جميع ما كرهتم من نفسي وفيكم ، فبذلت لكم ما حواه منكم ، ونالته مقدرتي ، مما جمعتُه وورثته عن آبائي ، فقودت ^(٣) من لم يجز ، واستكفيت من لم يكف ، واجتهدت - علم الله - في طلب رضاكم بكل ما قدرت عليه ، واجتهدتم - علم الله - في مساءتي في كل ما قدرت عليه ، من ذلك توجيهي إليكم على ابن عيسى شيخكم وكبيركم ، وأهل الرأفة بكم ، والتحنن عليكم ، فكان منكم ما يطول ذكره ، فغفرت الذنب ، وأحسنتم واحتملت ، وعزيت نفسي عند معرفتي بشذوذ الظفر ، وحرصى على مقامكم مسلحة ^(٤) بجلوان مع ابن كبير صاحب دعوتكم ، ومن على يدي أبيه ^(٥) كان فخركم ، وبه تمت طاعتكم : عبد الله بن حميد ابن قحطبة ، فصرت من التائب عليه إلى ما لا طاقة له به ، ولا صبر عليه ، يقودكم

[١] رفته وأرْفده : أعطاه . [٢] طاوانه وأمهله . [٣] أى اتخذته فاندأ .

[٤] للسلحة : القوم ذوو سلاح . [٥] يعنى جد عبد الله بن حميد بن قحطبة ، وهو قحطبة ابن شبيب الطائي ، أحد الدعاة العباسية والقواد الذين قاتلوا الجيوش الأموية - انظر الجزء الثاني

رجل منكم وأنتم عشرون ألفاً إلى عامين ، وعلى سيدكم متوثبين ، مع سعيد الفرد ، سامعين له مطيعين ، ثم وثبتم مع الحسين عليّ ، نخلعتموني وشتمتموني ، واتهبتموني وحبستموني وقيدتموني ، وأشياء منعتموني من ذكرها ، حقد قلوبكم ، وتلصق^(١) طاعتكم أكبر وأكبر ، فالحمد لله حمد من أسلم لأمره ، ورضي بقدره ، والسلام .

وكانت عاقبة أمره أن قتل سنة ١٩٨ هـ وحمل رأسه إلى المأمون بخراسان .

(تاريخ الطبري ١٠ : ٢٠٥ ، ومروج الذهب ٢ : ٣٠٥)

١٠٩ - استعطاف الفضل بن الربيع للمأمون

وقال المأمون للفضل بن الربيع^(٢) لما ظفر به : « يا فضل ، أكان من حقّ عليك وحقّ آبائي ونعمهم عند أبيك وعندك أن تثلبني^(٣) وتسبني وتحرّض علي دمي ؟ أتحبّ أن أفعل بك ما فعلته بي ؟ »

فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن عذري يُحمدك إذا كان واضحاً جميلاً ، فكيف إذا حفته^(٤) العيوب ، وقبحته الذنوب ، فلا يضيق عني من عفوك ما وسع غيري منك ، فأنت كما قال الشاعر^(٥) فيك :

صَفُوحٌ عَنِ الْأَجْرَامِ حَتَّى كَأَنَّهُ مِنْ الْعَفْوِ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ النَّاسِ مُجْرِمًا
وَلَيْسَ يُبَالِي أَنْ يَكُونَ بِهِ الْأَذَى إِذَا مَا الْأَذَى لَمْ يَغْشَ بِالْكَرْهِ مُسَامَا

(زهر الآداب ٢ : ١٦٣)

[١] مسهل عن تلصق . [٢] توفي سنة ٢٠٨ . [٣] ثلبه كصره : لأمه وعابه .

[٤] مكذافي الأصل ، وربما كان « أخفته » لقله قبل : « إذا كان واضحاً » .

[٥] هو الحسن بن رجا بن أبي الضحاك .

خطب المأمون (توفى سنة ٢١٨ هـ)

١١١ - خطبته وقد ورد عليه نعي الرشيد

خطب الناس بمرّوحين ورد عليه نعي الرشيد ، فقال :

« إن ثمرة الصبر الأجر ، وثمره الجزع الوزر ، والتسليم لأمر الله عز وجل فائدةٌ جليلة ، وتجارةٌ مُربحة ، فالموت حَوْضٌ مُورود ، وكأسٌ مشروب ، وقد أتى على خليفتم ما أتى على نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فإنّا لله وإنا إليه راجعون ، فما كان إلا عبداً دعى فأجاب ، وأمر فأتاع ، وقد سدّ أمير المؤمنين ثلمه ، وقام مقامه ، وفي أعناقكم من العهد ما قد عرفتم ، فأحسنوا العزاء على إمامكم الماضى ، واغتنبوا بالنعماء والوفاء فى خليفتم الباقى ، يأهل الدنيا : الموت نازل ، والأجلُ طالبٌ ، وأمسِ واعظٌ ، واليوم معتمٌ ، وغدٌ منتظرٌ » .

١١٢ - خطبته وقد سلم الناس عليه بالخلافة

ولما بلغه بخراسان قتل أخيه ، وأقبل الناس للتسليم عليه بالخلافة ، صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال :

« أيها الناس : إني جعلتُ لله على نفسي ، إن أسترعاني أموركم أن أطيعه فيكم ، ولا أسفك دماً عمداً لا تُحِلُّه حدوده ، وتسفك فرائضه ، ولا آخذ لأحد مالا ، ولا أثاماً ، ولا نِحْمَةَ^(١) تُحْرِمُ عَلَى ، ولا أحكم بهواى ، فى غضبى ولا رضاي ، إلا ما كان فى الله وله ، جعلتُ كَلَّهَ لله عهداً مؤكِّداً ، وميثاقاً مُشَدِّداً ،

• [١] نَحْمَة : أعطاه والاسم النَّحْمَة .

إني أفي رغبةً في زيادته إياي في نعمتي ، ورهبةً من مسألته إياي عن حقه وخلقه ، فإن غيرتُ أو بدلتُ كنتُ للغيرِ مستأهلاً ، وللذكالِ مُعرّضاً ، وأعوذ بالله من سَخَطِهِ ، وأرغب إليه في الممونة على طاعته ، وأن يحول بيني وبين معصيته .

١١٣ - خطبته يوم الجمعة

الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ، ومستوجبه على خلقه ، أحمده وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وحده ، والعمل لما عنده ، والتنجز لوعده ، والخوف لوعيده ، فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه ، وعمل له وأرضاه ، فاتقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ، وترحلوا فقد جدُّ بكم ، واستعدوا للموت فقد أظلمكم ، وكونوا قوماً صيخ بهم فانتبهوا ، وعاموا أن الدنيا ليست لهم بدارٍ فاستبدلوا ، فإن الله لم يخلقكم عبثاً ، ولم يترككم سدىً ، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به ، وإن غاية تنقُصها اللحظة ، وتهدمها الساعة الواحدة ، لجديرة بقصر المدة ، وإن غائباً يحذوه ^(١) الجديدان : الليل والنهار الحريّ بسرعة الأوبة ، وإن قادماً يحلّ بالفوز أو بالشقوة لمستحق لأفضل العدة ، فاتق عبد ربّه ، ونصح نفسه ، وقدم توبته ، وغلب شهوته ، فإن أجله مستور عنه ، وأمله خادع له ، والشيطان موكل به ، يزين له المعصية ليركبها ، ويعنيّه التوبة ليسوفها ، حتى تهجم عليه

منيته أغفل ما يكونُ عنها ، فيالها حسرةً على ذى غفلة ، أن يكون عمره عليه حجةً ، أو تؤدّيه أيامه إلى شقوة ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تُبطره نعمة ، ولا تقصّر به عن طاعته غفلة ، ولا تحلّ به بعد الموت فزعة . إنه سميع الدعاء ، ويده الخير ، وإنه فعّال لما يُريد .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٣ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٨)

١١٤ - خطبته يوم الأضحى

قال بعد التكبير والتحميد : إن يومكم هذا يوم أبان الله فضله ، وأوجب تشريفه ، وعظّم حرّمته ، ووفّق له من خلّقه صفوته ، وابتلى فيه خليله ، وفدّى فيه من الذّبح نبيه ، وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر ، ومتقدّم الأيام المعدودات من النّفرة^(١) ، يوم حرام ، من أيام عظام ، في شهر حرام ، يوم الحج الأكبر ، يوم دعا الله إلى مشهده ، ونزل القرآن بتعظيمه ، قال الله جل وعز : « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا ، وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ، ثُمَّ لِيَقْضُوا تَقْتِهِمْ ، وَلِيُؤْفُوا نَذْوَرَهُمْ ، وَلِيُطَوِّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ^(٢) » فتقرّبوا إلى الله في

[١] يوم السفر : اليوم الذي ينفر فيه الناس من مى ، وهو بعد يوم القرّ (ويوم القرّ بالفتح : اليوم الذي بعد يوم النحر ، لأنّ الناس يقرّون في منازلهم) .

[٢] رجلا : أى مشاة ، جمع راجل كقائم وقيام ، وعلى كل ضامر : أى وركبانا على كل ضامر ، أى غير مهزول ، يأتين : أى الضواصر ، صفة لضامر جلا على المعنى ، من كل فج عميق : أى طريق بعيد ، ليشهدوا منافع لهم : دينية ودينية ، في أيام معلومات : هى عشر ذى الحجة ، وقيل : أيام النحر ، من

هذا اليوم بذبائحكم ، وعظّموا شعائر الله ، واجعلوها من طيب أموالكم ، وبصحة التقوى من قلوبكم ، فإنه يقول : « لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَا كُنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ »^(١) ، ثم التكبير والتحميد والصلاة على النبي والوصية بالتقوى ، ثم قال بعد ذكر الجنة والنار : عَظُمَ قَدْرُ الدَّارَيْنِ ، وارتفع جَزَاءُ الْعَمَلَيْنِ^(٢) ، وطالت مدة الفريقين ، اللَّهُ اللَّهُ ، فوالله إنه الجِدُّ لَا اللَّعِبَ ، وإنه الحقُّ لا الكذب ، وما هو إلا الموت والبعث ، والميزان والحساب والقصاص والصراف ، ثم العقاب والثواب ، فمن نجا يومئذ فقد فاز ، ومن هوى يومئذ فقد خاب ، الخير كله في الجنة ، والشر كله في النار .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٤ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٨)

١١٥ - خطبته يوم الفطر

قال بعد التكبير والتحميد : إن يومكم هذا يوم عيد وَسُنَّةٌ ، وابتهاج ورجبة ، يومٌ خَتَمَ اللَّهُ به صِيَامَ شهر رمضان ، وافتتح به حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرَامِ ، فجعله خاتمة الشهر ، وأوّل أيامِ شهور الحج ، وجعله مُعَقَّبًا لمفروض صومكم ، وَمُتَنَفَّلًا قيامكم ، أَحَلَّ فِيهِ الطَّعَامَ لَكُمْ ، وحرّم فيه الصيامَ عليكم ، فاطلبوا إلى الله حوائجكم ، واستغفروه لتفريطكم ، فإنه يقال : « لا كبير مع استغفار ، ولا صغير مع إصرار » ، ثم التكبير والتحميد ، وذكر النبي عليه الصلاة والسلام ، والوصية بالتقوى ، ثم قال : فاتقوا الله عباد الله ، وبادروا الأمر الذي أعتدل فيه يقينكم ، ولم يَحْتَضِرْ^(٣) الشك فيه أحدكم ، وهو الموت المكتوب عليكم ، فإنه لَا تُسْتَقَالُ بعده عَثْرَةٌ ، وَلَا تُحْطَرُ قبله تَوْبَةٌ ، واعلموا أنه لا شيء قبله إلا دونه ، ولا شيء بعده

بهجة الأنعام : الإبل والبقر والغنم التي تنحر للضحايا ، ثم ليقضوا نفوسهم : أى يزيلوا أوساخهم وشعرهم

من نحو قس الأظفار ، وخلق العانة ، وغير ذلك . [١] أى يرفع إليه منكم العمل الصالح .

[٢] أى عمل الخير وعمل الشر . [٣] يحضر

إلأفوقه ، ولا يمين على جزعه وعَلَّزَه ^(١) وَكْرَبَه ، ولا يمين على القبر وظلمته ،
 وَضِيْقِهِ وَوَحْشَتِهِ ، وَهَوَلِ مَطْلَمِهِ وَمَسْأَلَةِ مَلَائِكَتِهِ ، إلأ العملُ الصالحُ الذى
 أَمَرَ اللهُ به ، فمن زَلَّتْ عند الموت قدمه ، فقد ظهرت ندامته ، وفاتته استقالته ،
 ودعا من الرجعة إلى ما لا يُجَابُ إليه ، وبذل من الفدية ما لا يُقْبَلُ منه ، فالله
 اللهُ عباد الله ، وكونوا قوماً سألوا الرجعة فأعطوها ، إذ مُنِعَهَا الذين طَلَبُوهَا ،
 فإنه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم إلأ هذا المهال المبسوط لكم ، واحذروا
 ما حذركم الله ، واتقوا اليوم الذى يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم ، ونَشَرَ صُفْحِكُمْ
 الحافظة لأعمالكم ، فلينظر عبده ما يَضَعُ فى ميزانه مما يثقل به ، وما يُعَلِّقُ ^(٢) فى
 صحيفته الحافظة لما عليه وله ، فقد حكى الله لكم ما قال المفرطون عندها ، إذ
 طال إعراضهم عنها ، قال : « وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا
 فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا ، مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إلأ
 أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يُظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا » ، وقال : « وَنَضَعُ
 الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ ^(٣) لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ
 خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَاحِسِينَ » ، ولست أنها كم عن الدنيا بأعظم مما نهتكم الدنيا
 عن نفسها ، فإن كل ما بها ينهى عنها ، وكل ما فيها يدعو إلى غيرها ، وأعظم
 مما رآته أعينكم من عجائبها ذم كتاب الله لها ، ونهى الله عنها ، فإنه يقول :
 « فَلَا تَقْرَأُكُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ » ، وقال : « إِنَّمَا
 الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ . . الآية » ، فاتفَعُوا بمعرفتم بها ، و بإخبار الله عنها ،

[١] العز : ما يصيب المريض عند حشجة الموت من رعدة واضطراب . [٢] يلى

[٣] القسط : العدل ، مصدر وصف به المبالغة أو ذوات القسط .

واعلموا أن قوماً من عباد الله أدركتهم عصمة الله فحذروا مَصَارِعَهَا ، وجانبُوا خدائِعَهَا ، وآثروا طاعة الله فيها ، فأدركوا الجنة بما تركوا منها .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٥ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٨)

١١٦ — خطبة ابن طباطبا العلوى

وخطب محمد^(١) بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم طباطباً بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، حين انتهب قائدُ جيوشه أبو السرايا السريُّ ابن منصور قصرَ العباس بن موسى بن عيسى ، فقال :

« أما بعدُ : فإنه لا يزال يبئلغنى أن القائل منكم يقول : إن بنى العباس فينا لنا ، نخوضُ في دماءهم ، وتزترعُ في أموالهم ، ويُقبلُ قولنا فيهم ، وتُصدّق دعوانا عليهم ، حُكْمٌ بلا علم ، وعزْمٌ بلا رويّة ! عجبا لمن يُطلق بذلك لسانه ، ويحدثُ به نفسه ! أبكتاب الله تعالى حَكْمَ ، أم اسِنَّة نبيه صلى الله عليه وسلم أتبعَ؟ أفي مَيْبلي^(٢) معه طَمَع ، أم بسَطَ يدي له بالجود أَمَل؟ هيهات ! فازدو الحق بما نوى ، وأخطأ ذو الباطل بما تمى ، حقُّ كل ذى حقٍّ في يده ، وكل

[١] خرج بالكوفة اعشر خلون من جادى الآخرة سنة ١٩٩ هـ يدعو إلى الرضى من آل محمد ، والعمل بالكتاب والسنة ، وكان القيم بأمره في تدبير الحرب ، وقيادة جيوشه أبا السرايا السرى بن منصور وكان سبب خروجه صرف المأمون ظاهر بن الحسين عما كان إليه من أعمال البلدان التي افتتحها ، وتوجيهه إلى ذلك الحسن بن سهل ، ولما فعل ذلك تحدث الناس بالعراق أن الفصل بن سهل قد غلب على المأمون ، وأنه قد أنزله قسراً حجبه فيه عن أهل بيته ، ووجوه قواده من الخاصة والعامة ، وأنه يبرم الأمور على هواه ، وسبقت بالرأى دونه ، ففضب لذلك بالعراق من كان بها من بنى هاشم ، ووجوه الناس ، وأنفوا من غلبة الفضل على المأمون ، واجتروا على الحسن بن سهل بذلك ، وهاجت الفتن في الأمصار ، فكان أول من خرج بالكوفة ابن طباطبا المدكور ، فوجه إليه الحسن بن سهل زهير بن السيب في عشرة آلاف فواقعهم فهزموه واستباحوا عسكره ، فلما كان من غد اليوم الذى كانت فيه اوقمة (وذلك يوم الخميس ليلة خلت من رجب سنة ١٩٩) مات ابن طباطبا فجأة ، فدكر أن أبا السرايا سمع ، وذلك أن ابن طباطبا لم أحرز ما في عسكر زهير منعه أبا السرايا ، وحظره عليه ، وكان الناس له مطيعين ، فعلم أبو السرايا أن لا أسره معه فسمه . [٢] في الأصل : « أئى مثلى » وهو تحريف ، والصواب ما ذكرته .

مُدَّعٍ عَلَى حِجَّتِهِ ، وَيَلُمُّ مَنْ اغْتَصَبَ حَقًّا ، وَاَدْعَى بِاطْلَابِ ، أَفْلَحَ مَنْ رَضِيَ بِحُكْمِ
اللَّهِ ، وَخَافَ مِنْ أَرْغَمِ الْحَقُّ أَنْفَهُ ، الْعَدْلُ أَوْلَى بِالْأَثَرَةِ وَإِنْ رَغِمَ الْجَاهِلُونَ ، حُقِّ
لِمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ أَنْ يَجْتَنِبَ الْمُنْكَرَ ، وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَ الْعَدْلِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى
مِرَارَةِ الْحَقِّ ، كُلُّ نَفْسٍ تَسْمُو إِلَى هِمَّتِهَا ، وَنِعْمَ الصَّاحِبُ الْقِنَاعَةِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنْ أَكْرَمَ الْعِبَادَةَ الْوَرَعَ ، وَأَفْضَلَ الزَّادَ التَّقْوَى ، وَاعْمَلُوا فِي
دُنْيَاكُمْ ، وَتَزَوَّدُوا لِآخِرَتِكُمْ ، اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ،
وَإِيَّاكُمْ وَالْعَصْبِيَّةَ وَحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنَّهُمَا يَحَقِّقَانِ الدِّينَ ، وَيُورِثَانِ النِّفَاقَ ، وَلَا
تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، يَسْلُخُ لَكُمْ دِينِكُمْ ، وَتَحْسُنُ الْمَقَالَةَ فِيكُمْ . الْحَقُّ أَوْجِبُ ،
وَالسَّبِيلُ مَنَهْجٌ ، وَالْبَاطِلُ لَجَلَجٌ ^(١) ، وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ ، وَلِكُلِّ فِي الْحَقِّ سَعَةٌ ،
مِنْ حَارِبِنَا حَارِبِنَاهُ ، وَمَنْ سَأَلَنَا سَأَلَنَا ، وَالنَّاسُ جَمِيعًا آمِنُونَ إِلَّا رَجُلًا نَصَبَ
لَنَا نَفْسَهُ ، وَأَعَانَ عَلَيْنَا بِمَالِهِ ، وَلَوْ شِئْتَ أَنْ أَقُولَ : وَرَجُلٌ قَالِ فِينَا يَتَنَاوَلُ مِنْ
أَعْرَاضِنَا : لَقُلْتُ ، وَكُنِي ، حَسْبُ كُلِّ امْرَأٍ مَا يَصْنَعُهُ ، وَسَيُكْفِي الظَّالِمُونَ » .
(موسم الأدب ٢ : ١١٣)

١١٧ - استعطاف إبراهيم بن المهدي المأمون

لِمَا ظَفَرَ الْمَأْمُونُ بِعَمِّهِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ ^(٢) أَمْرًا بِإِدْخَالِهِ عَلَيْهِ ، فَجِيءَ بِإِبْرَاهِيمَ
يُحْجِلُ ^(٣) فِي قِيُودِهِ ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةَ اللَّهِ وَبَرَكَاتَهُ ،
فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ : لَا سَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَلَا حَفِظَكَ ، وَلَا رَعَاكَ ، وَلَا كَلَّأَكَ ^(٤)

[١] أبلج : أى واضح بين ، والمنهج : الطريق الواضح ، والباطل للجلج : أى يتردد فيه صاحبه ،
فلا يصيب مخرجا . [٢] كان المأمون قد عهد بالخلافة لعلي الرضا بن موسى الكاظم ، فلما سمع العباسيون
ببغداد (وكان المأمون بمرور حاضرة خراسان) ما فعله المأمون من نقل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت
العلوي ، أنكروا منه ذلك ، وحلوه من الخلافة ، وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدي سنة ٢٠١ هـ ، ولما
علم المأمون بذلك جد في السير إلى بغداد ، وهرب عمه إبراهيم وتوارى .
[٣] حجل المفيد كضرب ونصر : رفع رجلا ، وتريث في مشيه على رجله . [٤] كلاه : حرسه .

يا إبراهيم ، فقال له إبراهيم : على رسلك ^(١) يا أمير المؤمنين ، ولى ^(٢) الثائر محكم في القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، ومن مد له الاعتذار في الأمل ، هجمت به الأناة على التلذذ ^(٣) وقد أصبح ذنبى فوق كل ذنب ، كما أن عفوك فوق كل ^(٤) عفو ، فإن تعاقب فبحقك ، وإن تعف فبفضلك » ، ثم قال :

ذنبى إليك عظيمٌ وأنت أعظمُ منه
فخذ بحقك أو لا فاصفح بفضلك عنه
إن لم أكن فى فعالى من الكرام فكنته

فأطرق المأمون ملياً ، ثم رفع رأسه فقال : إني سأورت أبا إسحق ^(٥) والعباس في قتلك فأشارا على به ، قال : فما قلت لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت لهما : بدأنا له بإحسان ، ونحن نستأمره فيه ، فإن غير فالله يغير ما به ، قال : أما أن يكونا قد نسحاك في عظم قدر الملك ، وما جرت عليه عادة السياسة فقد فعلا ، ولكن أبيت أن تستجلب النصر إلا من حيث عودك الله ، ثم استعبر باكيما ، فقال له المأمون : ما يبكيك ؟ قال : جدلاً ، إذ كان ذنبى إلى من هذه صفة في الإنعام ، ثم قال : يا أمير المؤمنين إنه وإن كان جرئى يبلغ سفك دمي ، فحلم أمير المؤمنين وتفضله يبلغاننى عفوه ، ولى بعدها شفاعاة الإقرار بالذنب ، وحرمة الأب بعد الأب ، قال المأمون : « القدرة تذهب الحفيظة ^(٦) ، والندم توبة ، وعفو الله بينهما ، وهو أكبر ما يحاول ، يا إبراهيم : لقد حببت إلى العفو ، حتى خفت

[١] المهل والنوذة . [٢] صاحبه . [٣] وفي رواية : « ومن تناوله الاعتذار بما مد له من أسباب الرحاء ، أمن عادية الدهر » . [٤] وفي رواية : « وقد أصبحت فوق كل ذى ذنب ، كما أصبح كل ذى هو دونك » ، وفي أخرى : « وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب ، كما جعل كل ذى ذنب دونك » . [٥] أبو إسحق هو المعتصم أخو المأمون ، والعباس هو ابن المأمون . [٦] الحفيظة : النضب ، وفي رواية الأغاني أن هذه الجملة من قول إبراهيم بن المهدي .

أَنْ لَا أُوجَرَ عَلَيْهِ ، أَمَا لَوْ عَلِمَ النَّاسُ مَا لَنَا فِي الْعَفْوِ مِنَ اللَّذَّةِ ، لَتَقَرَّبُوا إِلَيْنَا بِالْجُنَايَاتِ ، لَا تَثْرِيْبٌ^(١) عَلَيْكَ ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي حَقِّ نَسْبِكَ مَا يَبْلُغُ الصَّفْحَ عَنْ زَلَّتِكَ ، لَبَلَّغْتُكَ مَا أَمَلْتُ حَسَنُ تَوْصُلِكَ ، وَلَطِيفُ تَنْصُلِكَ » ، ثُمَّ أَمْرٌ بَرْدٌ مَالِهِ وَضِيَاعِهِ ، فَقَالَ :

رَدَدْتُ مَالِي ، وَلَمْ تَبْخَلْ عَلَيَّ بِهِ وَقَبْلَ رَدِّكَ مَالِي قَدْ حَقَنْتَ دَمِي
فَأَبْتُ مِنْكَ - وَمَا كَأَفْأَتْهَا - بِيَدِي هُمَا الْحَيَاتَانِ مِنْ وَفْرِ وَمِنْ عَدَمِ^(٢)
وَقَامَ عَامُكَ بِي فَاحْتِجَّ عِنْدَكَ لِي مَقَامَ شَاهِدٍ عَدْلٍ نَيْرٍ مُتَّهَمٍ
فَلَوْ بَدَأْتُ دَمِي أَبْغِي رِضَاكَ بِهِ وَالْمَالِ ، حَتَّى أَسْأَلَ النَّعْلَ مِنْ قَدَمِي
مَا كَانَ ذَاكَ سِرْوَى عَارِيَّةٍ رَجَعَتْ إِلَيْكَ ، لَوْ لَمْ تَهَبَّهَا كُنْتَ لَمْ تُتَلَمَّ

(الأغاني ٩ : ٥٧ ، والعقد الفريد ١ : ١٤٢ ، والأمل ١ : ٢٠٢ ، وزهر الآداب ٣ : ١٩١)

١١٨ - إبراهيم بن المهدي وبختيشوع الطيب

تنازع إبراهيم بن المهدي هو وبختيشوع الطيب بين يدي أحمد بن أبي دؤاد القاضي ، في مجلس الحكم ، في عقارٍ بناحية السَّوَادِ^(٣) ، فزَرَى عليه^(٤) ابن المهدي ، وأغاظ له بين يدي أحمد بن أبي دؤاد ، فأحفظه^(٥) ذلك ، فقال : « يا إبراهيم إذا نازعت أحداً في مجلس الحكم ، فلا أعلمنَّ أنك رفعت عليه صوتاً ، ولا أشرتَ إليه بيد ، وليكن قصدك أمماً^(٦) ، وطريقك نهجاً^(٧) ، وريحك ساكنة ، وكلامك مُمتدلاً ، ووف مجلس الحكومة حقوقها ، من التوقير والتعظيم والاستكانة والتوجه إلى الواجب ، فإن ذلك أشبه بك ، وأشكَلُ لمذهبك في

[١] لا لوم . [٢] اليد : النعمة .

[٣] سواد العراق ، والعقار : كل ملك ثابت له أصل كالدار والجزل ، والجمع عقارات .

[٤] عابه . [٥] أغضبه . [٦] الأمم : القصد الوسط . [٧] واضحاً .

مَحْتَدِكَ^(١) ، وَعَظِيمِ خَطَرِكَ^(٢) ، وَلَا تَعَجَلْ ، فَرُبَّ مَجَلَّةٍ تَهَبُ رَيْثًا^(٣) ، وَاللَّهِ يَعْصِمُكَ مِنَ الزَّلَلِ ، وَخَطَلَ الْقَوْلَ وَالْعَمَلَ ، وَيَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ^(٤) .

قال إبراهيم : « أصاحك الله أمرت بسداد ، وحضضت على رشاد ، ولست بعائد إلى ما يثلم^(٥) مروءتى عندك ، ويسقطنى من عينك ، ويخرجنى من مقدار الواجب إلى الاعتذار ، فهأنأ معتذرم إليك من هذه البادرة ، اعتذار مقرر بذنبه ، باخع بجرمه^(٥) ، فإن الغضب لا يزال يستفزنى بمواده ، فيردنى مثلك بحلمه ، وتلك عادة الله عندنا منك ، وحسدنا الله ونعم الوكيل ، وقد وهبت حق من هذا العقار لبختيشوع ، فليت ذلك اليوم يعول^(٦) بأرش^(٧) الجناية ، ولم يتلف مال أفاد موعظة ، وبالله التوفيق . »

(العقد الفرید ١ : ٢٧ ، وزهر الآداب ١ : ٢٢٢)

١١٩ - استعطاف إسحاق بن العباس المأمون

وقال المأمون لإسحاق بن العباس : « لا تحسبني أغفلت إجلابك مع ابن المهدي ، وتأيدك لرأيه ، وإيقادك لناره ، قال : « يا أمير المؤمنين ، ولرحمى أمس من أرحامهم ، وقد قال لهم كما قال يوسف لآخوته : « لا تثریب^(٨) عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » ، وأنت يا أمير المؤمنين أحق وارث لهذه المنة ، وممثل^(٩) لخلال العفو والفضل . »

قال : هيهات ! تلك أجرام جاهلية ، عفا عنها الإسلام ، وجرمك جرم في إسلامك ، وفي دار خلافتك . قال : « يا أمير المؤمنين فوالله ألمسلم أحق بإقالة

[١] أصلك . [٢] قدرك . [٣] إبطاء . [٤] يعيب ويقص . [٥] مقر .

[٦] يزيد ويرجع . [٧] الأرض : الدية .

[٨] لا لوم . [٩] امتثل طريقته : تبعها فلم يعدما .

العثرة، وغُفران الزلّة من الكافر، هذا كتاب الله بيني وبينك، يقول الله تعالى :
 « وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ
 لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ
 النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » فهي للناس يا أمير المؤمنين سنّة دخل فيها
 المسلم والكافر، والشريف والمشروف « قال : صدقت ، اجلس ، وريّت بك
 زنادى ، ولا برحت أرى من أهلك أمثالك .

(العقد الفريد ١ : ١٤٢ ، وزهر الآداب ٢ : ١٩٣)

١٢٠ - أحد وجوه بغداد يمدح المأمون حين دخلها

لما دخل المأمون بغداد ، تلقّاه وجوه أهلها ، فقال له رجل منهم : « يا أمير
 المؤمنين ، بارك الله لك في مقدّمك ، وزاد في نعمتك ، وشكرك عن رعيتك ،
 تقدمت من قبلك ، وأتعبت من بعدك ^(١) ، وآيست أن يعاين مثلك ، أما فيما
 مضى فلا نعرفه ، وأما فيما بقي فلا نرجوه ، فنحن جميعاً ندعوك ، ونثني
 عليك ، خصب لنا جنابك ، وعذب ثوابك ، وحسنت نظرتك ، وكرّمت
 مقدرتك ، جبرت الفقير ، وفككت الأسير ، فإنك يا أمير المؤمنين كما
 قال الأول :

مازلت في البذل والنوال وإطلاق لعان بجرمه غلتي ^(٢)

حتى تمنى البراء أنهم عندك أسرى في القييد والخلق ^(٣)

(العقد الفريد ١ : ١٣٧)

[١] إذ أنه يجهد أن يلحق بك فلا يستطيع . [٢] العاني : الأسير ، والغلق : أصله من غلق
 الرهن إذا استحقه الرهن ، وذلك إذا لم يفتكك في الوقت المشروط . [٣] البراء ككرام جمع برى .

١٢١ - أحد أهل الكوفة يمدح المأمون

وقدم وفد من الكوفة إلى بغداد ، فوقفوا للمأمون فأعرض عنهم ، فقال شيخ منهم : « يا أمير المؤمنين ، يدُك أحقُّ يدِ بنقبيل ، لعلوها في المكارم ، وبُعدها من المآثم ، وأنت يوسفُ العوفي قلة التريب ، مَنْ أَرادك بسوء جعله الله حصيدَ سيفك ، وطريدَ خوفك ، وذليلَ دولتك » ، فقال يا عمرو : نعم الخطيب خطيبهم ، اقضِ حوائجهم . (مروج الذهب ٢ : ٣١٩)

١٢٢ - محمد بن عبد الملك بن صالح بين يدي المأمون

ودخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون حين قبض ضياعهم ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، محمد بن عبد الملك بين يديك ، ربيب دولتك ، وسكليل نعمتك ، وغُصْن من أغصان دَوْحَتِكَ ^(١) ، أتأذن في الكلام ؟ قال : نعم ، قال : « أَسْتَمْنِحُ اللهَ حِيَاةَ دِينِنَا وَدِينَانَا ، وَرِعَايَةَ أَدْنَانَا وَأَقْصَانَا بِيَقَائِكَ ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَزِيدَ فِي عَمْرِكَ مِنْ أَعْمَارِنَا ، وَفِي أَثْرِكَ مِنْ آثَارِنَا ، وَيَقِيمَكَ الْأَذَى بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا ، هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِفَضْلِكَ ، الْمَهَارِبِ إِلَى كِنْفِكَ وَظِلِّكَ ، الْفَقِيرِ إِلَى رَحْمَتِكَ وَعَدْلِكَ » ، ثم تكلم في حاجته ، فقضاها . (العقد الفريد ١ : ١٤٦)

١٢٣ - الحسن بن سهل يمدح المأمون

وقال الحسن بن سهل ^(٢) يوماً للمأمون :

« الحمد لله يا أمير المؤمنين على جزيل ما آتاك ، وَسَنِيَّ ما أعطاك ، إذ قَسَمَ لك الخِلافةَ ، وَوَهَبَ لك معها الحُجَّةَ ، وَمَكَّنَكَ بِالسُّلْطَانِ ، وَحَلَّاهُ لك بِالْعَدْلِ ،

[١] الدوحة : الشجرة العظيمة .

[٢] وُزِرَ للمأمون بعد أخيه العُضَلُ بن سهل ، وتزوج المأمون ابنته بوران ، وتوفي سنة ٢٣٦ هـ .

وأيدك بالظفر، وشفمه لك بالعفو، وأوجب لك السعادة، وقرنها بالسيادة، فمن فسح^(١) له في مثل عطية الله لك؟ أم من ألبسه الله تعالى من زينة المواهب ما ألبسك؟ أم من ترادفت نعمة الله تعالى عليه ترادفها عليك؟ أم هل حاولها أحدٌ وارتبطها بمثل محاولتك؟ أم أي حاجة بقيت لرعيته لم يجدها عندك؟ أم أي قيم للإسلام انتهى إلى عنايتك ودرجتك؟ تعالى الله تعالى، ما أعظم ما خص القرآن الذي أنت ناصرُه، وسبحان الله! أي نعمة طبقت^(٢) الأرض بك إن أدى شكرها إلى بارئها والمنعم على العباد بها؟ إن الله تعالى خلق السماء في فلكتها ضياءً يستنير بها جميع الخلائق، فكل جوهر زها حسنه ونوره، فهل لبسته زينته إلا بما اتصل به من نورك؟ وكذلك كل ولي من أوليائك، سهد بأفعاله في دولتك، وحسنت صنائه عند رعيته، فإنما نالها بما أيدته من رأيك وتديريك، وأسعدته من حسنك وتقويمك». (زهر الآداب ٣ : ٢٠٠)

١٢٤ — يحيى بن أكرم يمدح المأمون

وقال المأمون ليحيى بن أكرم^(٣) : صف لي حالى عند الناس، فقال :
« يا أمير المؤمنين، قد انقادت لك الأمور بأزمته، وملكتك الأمة فضول أعنتها، بالرغبة إليك، والمحبة لك، والرفق منك، والعياذ بك، بعدلك فيهم، ومنك عليهم، حتى لقد أنسيتهم سلفك، وآيستهم من خلفك، فالحمد لله الذى جمعنا بك بعد التقاطع، ورفعنا فى دولتك بعد التواضع ».

[١] أى وسع . [٢] ملأت وعمت ، والاستفهام للتعظيم .

[٣] من ولد أكرم بن صبيو التميمي ، وكان فقيها عالما بالفقه بصيراً بالأحكام ، وقد غلب على المأمون ، حتى لم يتقدمه أحد عنده من الناس جيماً ، وقلده قضاء القضاة ، وتدير أهل مملكته ، فكانت الوزراء لا تعمل فى تدبير الملك شيئاً إلا بعد مطالعة يحيى بن أكرم ، وتوفى سنة ٢٤٦ هـ ، وعمره ٨٣ سنة .

فقال : يا يحيى ، أتحييراً أم ارتجالاً ؟ قال : قلت : وهل يمتنع فيك وصف ، أو يتعذر على مادحك قول ، أو يُفحَم فيك شاعر ، أو يتلجلج فيك خطيب ؟
(الصناعتين ص ٤٠)

١٢٥ - أحد بنى هاشم والمأمون

أذنب رجل من بنى هاشم ذنباً ، فَعَنَّفَه المأمون ، فقال :
« يا أمير المؤمنين من كانت له مثلُ دَأْتِي ، ولبسِ ثوبِ حُرْمَتِي ، وَمَتَّ بِمِثْلِ قِرَابَتِي ، غُفِرَ له فوق زَأْتِي » فأعجب المأمونَ كَلَامُهُ وصفح عنه .
(الأملال ٢ : ١٣٦ ، وزهر الآداب ٣ : ٨٩)

١٢٦ - رجل يتظلم إلى المأمون

وتظلمَ رجل إلى المأمون من عامل له فقال :
« يا أمير المؤمنين ، ما تَرَكَ لِي فِضَّةً إِلَّا فُضَّهَا ، ولا ذَهَبًا إِلَّا ذَهَبَ بِهِ ،
ولا غَلَّةً إِلَّا غَلَّهَا ^(١) ، ولا ضَيْعَةً إِلَّا أَضَاعَهَا ، ولا عَلِيقًا ^(٢) إِلَّا عَلِقَهُ ، ولا عَرَضًا
إلا عَرَضَ له ، ولا ماشيةً إِلَّا أَمْتَشَّهَا ^(٣) ، ولا جليلاً إلا أجلاه ، ولا دقيقاً
إلا دَقَّه » ، فعجب من فصاحته وقضى حاجته . (زهر الآداب ٢ : ١٣٧)

١٢٧ - عمرو بن سعيد والمأمون

وقال عمرو بن سعيد بن سلم : كانت عليّ نوبةٌ نُوبِهَا في حَرَسِ المأمون ،
فكنت في نوبتي ليلةً ، فخرج متفقداً من حضر ، فعرفته ولم يعرفني ، فقال :
من أنت ؟ قلت : عمرو ، عمرك الله ، ابن سعيد ، أسعدك الله ، ابن سلم ، سلمك

[١] المراد احتازها ، والأصل فيه غله : أى وضع في عنقه أو يده الغلّ (بالضم) وهو الفيد .

[٢] اللقي : النفيس من كل شيء ، وعلقه ، وعلق به كفرح أحبه ، أو هو « علقه » مشدداً مبنياً

للمجهول ، علق امرأة : أى أحبها . [٣] امتشّ مافى الضرع : أخذ جميعه .

الله ، فقال : أنت تَكَلِّوْنَا منذ الليلة ؟ قلت : الله يكلؤك قبلي ، وَهُوَ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فقال المأمون :

إِنْ أَخَاكَ الصَّدَقَ مَنْ يَسْعَى مَعَكَ وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكَ

وَمَنْ إِذَا صَرَفَ الزَّمَانَ صَدَعَكَ بَدَدٌ شَمَلَ نَفْسَهُ لِيَجْمَعَكَ

(زهر الآداب ٢ : ١٣٧)

١٢٨ - الحسن بن رجاء والمأمون

ودخل المأمون بعض الدواوين ، فرأى غلاماً جميلاً على أذنه قلم ، فقال :

مَنْ أَنْتَ يَا غَلامَ ؟ فقال :

« أنا يا أمير المؤمنين ، الناشئ في دولتك ، المتقلب في نعمتك ، المؤمل

لخدمتك ، خادمك وابن خادمك : الحسن بن رجاء » ، فقال : أحسنت يا غلام ،

وبالإحسان في البديهة تفاضلت العقول ، وأمر برفع مرتبته .

(زهر الآداب ٢ : ١٧٣)

١٢٩ - سعيد بن مسلم والمأمون

وقال سعيد بن مسلم بن قتيبة له المأمون :

« لو لم أشكر الله تعالى إلا على حسن ما أبلاني من أمير المؤمنين ، من

قصدته إلى بحديثه ، وإشارته إلى بطرفه ، لقد كان في ذلك أعظم الرفعة ،

وأرفع ما توجب الحُرمة » .

فقال : « يفعل أمير المؤمنين ذلك ، لأن أمير المؤمنين يجد عندك من

حسن الإفهام إذا حدثت ، وحسن الفهم إذا حدثت ، ما لم يجده عند أحد ممن

مضى ، ولا يظنُّ أنه يجدُّ عند أحدٍ ممَّن بَقِيَ ، فإنك لَتَسْتَقْصِي حَدِيثِي ، وَتَقِفْ
عند مَقَاطِعِ كَلَامِي ، وَتُخْبِرُ بِمَا كُنْتُ أَغْفَلْتُهُ مِنْهُ . (زهر الآداب ١ : ١٧٣)

١٣٠ - أبو زهمان يعظ سعيد بن مسلم

وقال سعيد بن مسلم : « كنت والياً بَارْمِينِيَّةَ ، فَعَبَّرَ (١) أَبُو زَهْمَانَ الْعَلَانِيَّ

على بابي أياماً ، فاما وصل إلىَّ مثل بين يديَّ قائماً بين السَّمَاطِينِ (٢) وقال :

« والله إني لأعرف أقواماً لو علموا أن سَفَّ التراب يُقِيمُ من أود (٣) أصلابهم ،

لجعلوه مُسْكَةً (٤) لازماً فيهم ، إشاراً للتنزه عن عيشٍ رقيقِ الحواشي ، أَمَا وَاللَّهِ

إني لبعيد الوتبية ، بطي ، العطفة ، إنه والله ما يَتَّبِعُنِي عَلَيْكَ إِلَّا مِثْلُ مَا يَصْرِفُنِي

عَنكَ ، وَلَآنَ أَكُونُ مُقْبَلًا مَقْرَبًا ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكُونَ مُكْتَرَبًا مُبْعَدًا ،

والله ما نسأل عملاً لا نضبطه ، ولا مالاً إلا نحن أكثر منه ، وهذا الأمر الذي

صار إليك في يديك ، كَانَ فِي يَدِ غَيْرِكَ ، فَأَمْسُوا وَاللَّهِ حَدِيثًا ، إِنْ خَيْرًا خَيْرٌ ،

وإن شراً فشرٌّ ، فَتَجَبَّبْ إِلَى عِبَادِ اللَّهِ بِحَسَنِ الْبَشَرِ ، وَلِيَنِ الْجَانِبِ ، فَإِنْ حُبَّ

عِبَادِ اللَّهِ مَوْصُولٌ بِحُبِّ اللَّهِ ، وَبَغْضِهِمْ مَوْصُولٌ بِبَغْضِ اللَّهِ ، لِأَنَّهُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ

عَلَى خَلْقِهِ ، وَرُقْبَاؤُهُ عَلَى مَنْ أَعْوَجَّ عَنْ سَبِيلِهِ . (البيان والتبيين ٢ : ١٠٥)

١٣١ - وصية طاهر بن الحسين

لابنه عبد الله لما ولَّاه المأمون الرِّقَّةَ ومصر وما بينهما (٥) سنة ٢٠٦ هـ

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، أَمَا بَعْدُ : فَعَمَلِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَحَدَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ ،

وَخَشِيَّتِهِ وَمِرَاقَبَتِهِ وَمَزَالِيَةَ سَخْطِهِ وَحِفْظِ رِعْيَتِكَ ، وَالزَّمْ مَا أَلْبَسَكَ اللَّهُ مِنْ

[١] مكث . [٢] السَّمَاطَانُ مِنَ النَّاسِ : الْجَانِبَانِ ، يُقَالُ : مَشَى بَيْنَ السَّمَاطَيْنِ .

[٣] أَعْوَجَّ . [٤] الْمَسْكَةُ : مَا يَمْسِكُ الْأَيْدَانَ مِنَ الْغِذَاءِ وَالشَّرَابِ ، أَوْ مَا يَتَلَبَّغُ بِهِ مِنْهُمَا .

[٥] أَثْبَتْنَا هَذَا الْكِتَابَ هُنَا لِأَنَّهُ فِي عِدَادِ الْوَصَايَا .

العافية بالذكر لمعادك ، وما أنت صائر إليه ، وموقوف عليه ، ومستمول عنه ، والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله ، وينجيك يوم القيامة من عذابه ، وأليم عقابه ، فإن الله قد أحسن إليك ، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده ، وألزمك العدل عليهم ، والقيام بحقه وحدوده فيهم ، والذب^(١) عنهم ، والدفع عن حريمهم وَيَبْضَتَهُمْ^(٢) ، والحقن لدمائهم ، والأمن لسبيلهم^(٣) ، وإدخال الراحة عليهم في معاشهم ، ومؤاخذك بما فرض عليك من ذلك ، وموقفك عليه ، ومسائك عنه ، ومُثِيبك عليه بما قدمت وأخرت ، ففرغ لذلك فِكْرُكَ وعقلك وبصرُكَ ورؤيتُكَ ، ولا يَذْهَبُكَ^(٤) عنه ذاهل ، ولا يَشْغَلُكَ^(٥) عنه شاغل ، فإنه رأس أمرك ، وملاك شأنك ، وأول ما يوقفك الله به لرشدك ، وليكن أول ما تُلتزم به نفسك ، وتنسب إليه فعالك ، المواظبة على ما اقترض الله عليك من الصلوات الخمس ، والجماعة عليها بالناس قبلك في مواقيتها على سُنَنِهَا ، في إسباغ^(٦) الوضوء لها ، وافتتاح ذكر الله فيها ، وتَرْتَلُ^(٧) في قراءتك ، وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك ، ولتصدق فيها لربك نيتك ، واحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك ، وأدأب عليها فإنها كما قال الله : تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، ثم أتبع ذلك الأخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمثابرة على خلائقه ، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة^(٨) الله وتقواه ، ولزوم ما أنزل الله في كتابه

[١] الدفع . [٢] البيضاء : حوزة كل شيء .

[٣] وفي مقدمة ابن خلدون : لسربهم ، والسرب : النفس . [٤] ذهبت عن الشيء (كفتح) غفلت

وقد يتعدى بنفسه . فيقال ذهاته ، والأكثر أن يتعدى بالهزمة ، فيقال : أذهلني فلان عن الشيء .

[٥] شغله من باب فتح وأشغله لغة جيدة أو قليلة أو رديئة . [٦] أسبغ الوضوء : وفي كل عضو حقه .

[٧] تمهل ولا تعجل . [٨] استخار الله : طلب منه الخيرة .

من أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، وائتمام ما جاءت به الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قم فيه بما يحق لله عليك ، ولا تَمَلِ عن العدل فيما أحببت أو كرهت ، لقريب من الناس أو بعيد ، وآثرِ الفقهَ وأهله ، والدينَ وحملة ، وكتاب الله والعاملين به ، فإن أفضل ما تزيّن به المرء الفقه في دين الله ، والطلب له ، والحث عليه ، والمعرفة بما يتقرب به إلى الله ، فإنه الدليل على الخير كله ، والقائد له ، والآمر به ، والناهي عن المعاصي والموبقات كلها ، وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفةً بالله عزّ وجلّ ، وإجلالا له ، ودَرَكَاً للدرجات العُلاّ في المعاد ، مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمرك ، والهيبه لسلطانك ، والأنسة بك ، والثقة بعدلك ، وعليك بالاعتقاد في الأمور كلها ، فليس شيء أئين نفعاً ، ولا أحضّر أمناً ، ولا أجمعَ فضلاً من القصد ، والقصد داعية إلى الرشد ، والرشد دليل على التوفيق ، والتوفيق قائد إلى السعادة ، وقوام الدين والسنن الهادية بالاعتقاد ، فأثره في دينك كلها ، ولا تقصّر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة ، والسنن المعروفة ، ومعالم الرشد ، فلا غاية للاستكثار من البرّ والسعى له ، إذا كان يُطلب به وجه الله ومَرْضَاتُه ، ومرافقة أوليائه في دار كرامته ، واعلم أن القصد في شأن الدنيا يُورث العزّ ويحصّن من الذنوب ، وإنك لن تحوِّط^(١) نفسك ومن يليك ، ولا تستصلح أمورك بأفضل منه ، فأته واهتد به تتمّ أمورك ، وتردّ مقدرتك ، وتصلح خاصتك وعامتك ، وأحسن الظن بالله عزّ وجلّ تستقم لك رعيتك ، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها ، تستدّم به النعمة عليك ، ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره ،

فإن إيقاع النهم بالبُرَاءِ، والظنون السيئة بهم مأثم، واجعل من شأنك حُسنَ الظن بأصحابك، واطرد عنك سوء الظن بهم، وارفضه فيهم، يُعينك ذلك على اصطناعهم^(١) ورياضتهم، ولا يجدنَّ عدو الله الشيطانُ في أمرِكَ مَفْخَرًا، فإنه إنما يكتفى بالقليل من وَهَنِكَ^(٢)، فَيُدْخِلُ عَلَيْكَ مِنَ الزَّمِّ فِي سُوءِ الظَّنِّ مَا يَنْغَصُكَ لَدَاذَةَ عَيْشِكَ، واعلم أنك تجد بحُسنِ الظنِ قُوَّةً وَرَاحَةً، وَتُكْفَى بِهِ مَا أَحْبَبْتَ كِفَايَتَهُ مِنْ أُمُورِكَ، وتدعوه به الناس إلى محبتك، والاستقامة في الأمور كلها لك، ولا يمنَعُكَ حُسنِ الظنِّ بأصحابك والرأفة برعيتك، أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورِكَ، والمباشرة لأُمُورِ الأولياء، والحياطة للرعية، والنظرَ فيما يُقِيمُهَا وَيُصْلِحُهَا، بل لتكن المباشرة لأُمُورِ الأولياء، والحياطة للرعية، والنظر في حوائجهم وَحَمَلُ مَثُونَاتِهِمْ، آثَرَ عِنْدَكَ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ، فإنه أقومُ للدين، وأحيا للسنة، وأخلصُ نيتك في جميع هذا، وتفرد بتقويم نفسك تفردَ من يعلم أنه مسئول عما صنع، ومجزى بما أحسن، ومأخوذ بما أساء، فإن الله جعل الدين حرزاً وَعِزًّا، ورفع من اتبعه وعزَّزه، فاسلك بمن تسوسه وترعاه نَهْجَ الدين وطريقة الهدى، وأقيم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه، ولا تعطلَّ ذلك ولا تتهاون به، ولا تؤخِّرْ عقوبة أهل العقوبة، فإن في تفريطك في ذلك لَمَّا يُفْسِدُ عَلَيْكَ حُسْنَ ظَنِّكَ، واعزم على أمرِكَ في ذلك بالسنن المعروفة، وجانب الشبهة والبِدعات، يَسَلِّمْ لَكَ دِينَكَ، وتتم لك مرء وتك، وإذا عاهدت عهداً فَفِ بِهِ، وإذا وعدت

[١] اصطفتك لنفسى: اخترتك لخاصة أمر أستكنيك إياه .

[٢] الوهن بسكون الهاء وفتحها: الضعف .

الخير فَأَنْجِزْهُ ، واقبل الحسنة وادفع بها ، وأغمض عن عيب كل ذى عيب من رعيتك ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور ، وأبغض أهله ، وأقص أهل النيمة ، فإن أول فساد أمرك فى عاجل الأمور وآجلها تقريب الكذوب والجُرأة على الكذب ، لأن الكذب رأس المآثم ، والزور والنيمة خاتمتها ، لأن النيمة لا يسلم صاحبها ، وقائلها لا يسلم له صاحب ، ولا يستقيم لمطيعها أمر ، وأحب أهل الصدق والصلاح ، وأعز الأشراف بالحق ، وواصل الضعفاء ، وصل الرحم ، وابتغ بذلك وجه الله وعزة أمره ، واتمس فيه ثوابه والدار الآخرة ، واجتنب سوء الأهواء والجور ، واصرف عنهما رأيك ، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك ، وأنعم بالعدل فى سياستهم ، وقم بالحق فيهم ، وبالعرفة التى تنتهى بك إلى سبيل الهدى ، واملك نفسك عند الغضب ، وآثر الوقار والحلم ، وإياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله ، وإياك أن تقول : إني مُسَلِّطُ أَفْعَلِ مَا أَسَاءُ ، فإن ذلك سريع بك إلى تقص الرأى ، وقلة اليقين بالله وحده لا شريك له ، وأخلص لله النية فيه واليقين به ، واعلم أن الملك لله ، يُعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَنْزِعُهُ مَنْ يَشَاءُ ، ولن تجد تغير النعمة وحلول النعمة إلى أحد ، أسرع منه إلى حَمَلَةِ النعمة من أصحاب السطان ، والمبسوط لهم فى الدولة ، إذا كفروا بنعم الله وإحسانه ، واستطالوا بما آتاهم الله من فضله ، ودع عنك شره نفسك ، ولتكن ذخرك وكنوزك التى تدخر وتكبر البر والتقوى والمعدلة ، واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم ، والتفقد لأموالهم والحفظ لدمهم^(١) والإغاثة للمهوفهم ، واعلم أن الأموال إذا كثرت وذُخِرَتْ فى الخزائن لا تُثْمِرُ ، وإذا

كَانَتْ فِي إِصْلَاحِ الرِّعِيَّةِ وَإِعْطَاءِ حَقُوقِهِمْ ، وَكَفِّ الْمَثُونَةِ عَنْهُمْ ، نَمَّتْ وَرَبَّتْ وَصَلَحَتْ بِهِ الْعَامَّةُ ، وَتَزَيَّنَتْ بِهِ الْوَلَاةُ ، وَطَابَ بِهِ الزَّمَانُ ، وَاعْتَقَدَ فِيهِ الْعِزُّ وَالْمَنْعَةُ ، فَلْيَكُنْ كَنْزَ خَزَائِنِكَ تَفْرِيقَ الْأَمْوَالِ فِي عِمَارَةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، وَوَفَّرْ مِنْهُ عَلَى أَوْلِيَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكَ حَقُوقَهُمْ ، وَأَوْفِ رِعِيَّتِكَ مِنْ ذَلِكَ حِصَصَهُمْ ، وَتَعَهَّدْ مَا يُصْلِحُ أُمُورَهُمْ وَمَعَايِشَهُمْ ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَرَّرْتَ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ ، وَاسْتَوْجَبْتَ الْمَزِيدَ مِنَ اللَّهِ ، وَكُنْتَ بِذَلِكَ عَلَى جَبَايَةِ خِرَاجِكَ ، وَجَمَعَ أَمْوَالَ رِعِيَّتِكَ وَعَمَلِكَ أَقْدَرَ ، وَكَانَ الْجَمْعُ لِمَا شَمَلَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ وَإِحْسَانِكَ أَسْلَسَ اطِّعَاتَهُمْ ، وَأَطْيَبَ نَفْسًا لِكُلِّ مَا أَرَدْتَ ، فَاجْهَدْ نَفْسَكَ فِيمَا حَدَدْتَ لَكَ فِي هَذَا الْبَابِ ، وَلْتَعْظُمَ حِسْبَتُكَ فِيهِ ، فَإِنَّمَا يَبْقَى مِنَ الْمَالِ مَا أُتْفِقَ فِي سَبِيلِ حَقِّهِ ، وَاعْرِفْ لِلشَّاكِرِينَ شُكْرَهُمْ وَأَثْبَهُمْ عَلَيْهِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُنْسِيكَ الدُّنْيَا وَغُرُورَهَا هَوْلَ الْآخِرَةِ ، فَتَهَاوَنَ بِمَا يَحِقُّ عَلَيْكَ ، فَإِنَّ التَّهَاوُنَ يُوجِبُ التَّفْرِيطَ ، وَالتَّفْرِيطَ يُورِثُ الْبُورَانَ ، وَلْيَكُنْ عَمَلُكَ لِلَّهِ وَفِيهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَارْجُ الثَّوَابَ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَأَظْهَرَ لَدَيْكَ فَضْلَهُ ، فَاعْتَصِمِ بِالشُّكْرِ ، وَعَلَيْهِ فَاعْتَمِدْ ، يَزِدْكَ اللَّهُ خَيْرًا وَإِحْسَانًا ، فَإِنَّ اللَّهَ يُثِيبُ بِقَدْرِ شُكْرِ الشَّاكِرِينَ ، وَسِيرَةَ الْمُحْسِنِينَ ، وَقَضَى الْحَقَّ فِيمَا حَمَلَ مِنَ النِّعَمِ ، وَأَلْبَسَ مِنَ الْعَافِيَةِ وَالْكَرَامَةِ ، وَلَا تَحْقِرَنَّ ذَنْبًا ، وَلَا تَمَالُئَنَّ حَاسِدًا ، وَلَا تَرْحَمَنَّ فَاجِرًا ، وَلَا تَصِلَنَّ كَفُورًا ، وَلَا تَدَاهِنَنَّ عَدُوًّا ، وَلَا تَصَدَّقَنَّ نَمَامًا ، وَلَا تَأْمَنَنَّ غَدَارًا ، وَلَا تَوَالِيَنَّ فَاسِقًا ، وَلَا تَتَّبِعَنَّ غُلُوبًا ، وَلَا تَحْمَدَنَّ مُرَائِيًا ، وَلَا تَحْقِرَنَّ إِنْسَانًا ، وَلَا تَرُدَّنَّ سَائِلًا فَقِيرًا ، وَلَا تَجْبِينَ^(١) بَاطِلًا ، وَلَا تَلَاخِظَنَّ مَضْحَكًا ، وَلَا تُخْلِفَنَّ وَعْدًا ، وَلَا تَزْهَوَنَّ نَخْرًا ،

ولا تُظهِرَنَّ غضباً ، ولا تأتين بَدَخًا ^(١) ، ولا تمشين مَرَحًا ، ولا تركبن سَفَهًا ^(٢) ، ولا تفرطن في طلب الآخرة ، ولا ترفع للنمام عيناً ، ولا تُغمضن عن الظالم رهبة منه أو مخافة ، ولا تطلبن ثواب الآخرة بالدنيا ، وأكثر مشاورة الفقهاء ، واستعمل نفسك بالحلم ، وخذ عن أهل التجارب ، وذوى العقل والرأى والحكمة ، ولا تُدخِلن في مشورتك أهل الدقة ^(٣) والبخل ، ولا تسمعن لهم قولاً ، فإن ضررهم أكثر من منفعتهم ، وایس شیء أسرع فساداً لما استقبلت في أمر رعيتك من الشح ، واعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ قليل العطية ، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلاً ، فإن رعيتك إنما تعتقد على محبتك ، بالكف عن أموالهم وترك الجور عنهم ، ويدوم صفاء أوليائك لك ، بالإفضال عليهم وحسن العطية لهم ، فاجتنب الشح ، واعلم أنه أول ما عصى به الإنسان ربه، وأن العاصي بمنزلة خزي، وهو قول الله عز وجل: « وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ، فسهل طريق الجود بالحق ، واجعل للمسلمين كلهم من نيتك حظاً ونصيلاً ، وأيقن أن الجود من أفضل أعمال العباد ، فأعدده لنفسك خُلُقًا ، وارض به عملاً ومذهباً ، وتفقد أمور الجند في دواوينهم ومكاتبتهم ، وأذر عليهم أرزاقهم ، ووسع عليهم في معاشهم ، ليذهب بذلك الله فاقبتهم ، ويقوم لك أمرهم ، ويزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وانشراحاً ، وحسب ذى سلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمةً في عدله ، وحيطة ^(٤) وإنصافه ، وعنايته وشفقته ، وبره

[١] البخ: الكبر . [٢] وفي المقدمة : « ولا تركبن سفياً »
 [٣] وفي المقدمة : « أهل الرأه » . [٤] في المقدمة : « وعطيته »

وتوسعته ، فزایل مكرهه أحد البابين باستشعار تكلمة الباب الآخر ، ولزوم العمل به ، تلقى إن شاء الله نجاحاً وصلاحاً وفلاحاً ، واعلم أن القضاء من الله بالمكان الذى ليس به شىء من الأمور ، لأنه ميزان الله الذى يعتدل عليه الأحوال فى الأرض ، وبإقامة العدل فى القضاء والعمل تصلح الرعية ، وتأمين السبل ، وينتصف المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهم ، وتحسن المعيشة ، ويؤدى حق الطاعة ، ويرزق الله العافية والسلامة ، ويقوم الدين ، وتجرى السنن والشرائع ، وعلى مجاريها يتنجز الحق والعدل فى القضاء ، واشتد فى أمر الله ، وتورع عن النطف (١) ، وامض لإقامة الحدود ، وأقل العجلة ، وابتعد من الضجر والقلق ، واقنع بالقسم ، ولتسكن ريحك ، ويقر جدك ، وانتفع بتجربتك ، وانتبه فى صمتك ، وأسدد (٢) فى منطقتك ، وأنصف الخضم ، وقف عند الشبهة ، وأبلغ فى الحجة ، ولا يأخذك فى أحد من رعيته محاباةً ولا محاماة (٣) ولا لوم لأمم ، وثبت وتأن وراقب ، وانظر وتدبر ، وتفكر واعتبر ، وتواضع لربك ، وأراف (٤) بجميع الرعية ، وسلط الحق على نفسك ، ولا تسرعن إلى سفك دم (فإن الدماء من الله بمكان عظيم) انتهها كما لها بغير حقها ، وانظر هذا الخراج الذى قد استقامت عليه الرعية ، وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة ، ولأهله سعة ومنعة ، ولعدوه وعدوهم كبتاً (٥) وغيظاً ، ولأهل الكفر من معاديتهم ذلاً وصغاراً ، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه ، ولا ترفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه ، ولا عن غني لغناه ، ولا عن كاتب لك ، ولا أحد من خاصتك ، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال

[١] النطف : اليب والشر والفساد . [٢] سد يسد كضرب : صار سديداً .

[٣] فى المقدمة : « ولا جمالة » . [٤] من باب كرم وقطع وطرب .

[٥] كبتة : صرعه وأخزاه ، ورد العدو بغيظه وأذله .

له ، ولا تَكَلَّفَنَّ أَمْرًا فِيهِ شَطَطٌ ، واحمل الناس كلهم عَلَى مَرِّ الْحَقِّ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ لِأَلْفَتِهِمْ ، وَأَلْزَمُ لِرِضَا الْعَامَةِ ، واعلم أَنَّكَ جُعِلْتَ بَوْلَايَتِكَ خَازِنًا وَحَافِظًا وَرَاعِيًا ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ أَهْلُ عَمَلِكَ رَعِيَّتِكَ ، لِأَنَّكَ رَاعِيَهُمْ وَقَيِّمُهُمْ ، تَأْخُذُ مِنْهُمْ مَا أُعْطَوْكَ مِنْ عَفْوِهِمْ وَمَقْدَرَتِهِمْ ، وَتَنْفِقُهُ فِي قِيَامِ أَمْرِهِمْ وَصِلَاحِهِمْ وَتَقْوِيمِ أَوْدَعِهِمْ ، فَاسْتَعْمَلْ عَلَيْهِمْ فِي كُورِ عَمَلِكَ ذَوِي الرَّأْيِ وَالتَّجْدِيرِ وَالتَّجْرِبَةِ وَالتَّجْبُرَةِ بِالْعَمَلِ ، وَالعِلْمِ بِالسِّيَاسَةِ وَالعِفَافِ ، وَوَسَّعْ عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْحَقُوقِ اللَّازِمَةِ لَكَ فِيمَا تَقْلُدُتْ وَأُسْنِدُ إِلَيْكَ ، وَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُ شَاغِلٌ ، وَلَا يَصْرِفَنَّكَ عَنْهُ صَارِفٌ ، فَإِنَّكَ مَتَى آثَرْتَهُ وَقَمْتْ فِيهِ بِالْوَاجِبِ ، اسْتَدْعَيْتْ بِهِ زِيَادَةَ النِّعْمَةِ مِنْ رَبِّكَ وَحَسَنَ الْأَحْدُوثَةِ فِي عَمَلِكَ ، وَاحْتَرِزْتَ النَّصِيحَةَ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، وَأَعْنَيْتْ عَلَى الصِّلَاحِ ، فَدَرَّرْتَ الْخَيْرَاتِ بِلَدِّكَ ، وَفَشِتْ الْعِمَارَةَ بِنَاحِيَّتِكَ ، وَظَهَرَ الْخُصْبُ فِي كُورِكَ ، فَكَثُرَ خَرَاجُكَ ، وَتَوَفَّرَتْ أَمْوَالُكَ ، وَقَوِيَتْ بِذَلِكَ عَلَى ارْتِبَاطِ جَنْدِكَ ، وَإِرْضَاءِ الْعَامَةِ بِإِفَاضَةِ الْعَطَاءِ فِيهِمْ مِنْ نَفْسِكَ ، وَكَانَتْ مَجْهُودِ السِّيَاسَةِ ، مَرْضِيَّ الْعَدْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَ عَدُوِّكَ ، وَكَانَتْ فِي أَمْوَالِكَ كُلِّهَا ذَا عَدْلٍ وَقُوَّةٍ وَآلَةٍ وَعُدَّةٍ ، فَنَافِسٌ فِي هَذَا وَلَا تَقْدَمُ عَلَيْهِ شَيْئًا ، تَحْمَدُ مَغْبِيَّةَ أَمْرِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَاجْعَلْ فِي كُلِّ كُورَةٍ مِنْ عَمَلِكَ أَمِينًا يُخْبِرُكَ أَخْبَارَ عَمَالِكَ ، وَيَكْتُبُ إِلَيْكَ بِسِيرَتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، حَتَّى كَأَنَّكَ مَعَ كُلِّ عَامِلٍ فِي عَمَلِهِ ، مُعَايِنٌ لِأَمْرِهِ كُلِّهِ ، وَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَأْمُرَهُ بِأَمْرٍ ، فَانظُرْ فِي عَوَاقِبِ مَا أَرَدْتَ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنَّ رَأْيَ السَّلَامَةِ فِيهِ وَالعَافِيَةَ ، وَرَجُوحَتَ فِيهِ حَسَنَ الدِّفَاعِ وَالنِّصْحِ وَالصَّنْعِ فَأَمْرُهُ ، وَإِلَّا فَتَوَقَّفْ عَنْهُ ، وَرَاجِعْ أَهْلَ الْبَصَرِ وَالعِلْمِ ، ثُمَّ خُذْ فِيهِ عُدَّتَهُ ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا نَظَرَ الرَّجُلَ فِي أَمْرٍ مِنْ أَمْرِهِ قَدْ وَاتَاهُ عَلَى مَا يَهْوَى فَتَوَّاهُ ^(١) ذَلِكَ وَأَعْجَبَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي عَوَاقِبِهِ

[١] فِي الْمَقْدِمَةِ : « وَقَدْ آتَاهُ عَلَى مَا يَهْوَى فَتَوَّاهُ ذَلِكَ » .

أهلكه ونقض عليه أمره ، فاستعمل الحزم في كل ما أردت ، وبشره بعد عون الله بالقوة ، وأكثر استخارة ربك في جميع أمورك ، وافرغ من عمل يومك ، ولا تؤخره لغدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لغد أموراً وحوادث تُلهيك عن عمل يومك الذي آخرت ، واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، فإذا آخرت عمله اجتمع عليك أمر يومين ، فشغلك ذلك حتى تُعرض عنه ، فإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت نفسك وبدنك ، وأحكمت أمور سلطانك ، وانظر أحرار الناس وذوى الشرف منهم ، ثم استيقن صفاء طوبيتهم ، وتهذيب مودتهم لك ، ومظاهرهم بالنصح والمخالصة على أمرك ، فاستخلصهم وأحسن إليهم ، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة ، فاحتمل مئونتهم ، وأصلح حالهم ، حتى لا يجذوا خلتهم ^(١) مساً ، وأفرد نفسك بالنظر في أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مظالمته إليك ، والمحترق الذي لا علم له بطلب حقه ، فاسأل عنه أحق مسألة ، ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ، ومُرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك ، لتنظر فيها بما يُصلح الله به أمرهم ، وتعاهد ذوى البأساء ویتاماهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال ، اقتداء بأمر المؤمنين - أعزه الله - في العطف عليهم والصلة لهم ، ليُصلح الله بذلك عيشتهم ، ويرزقك به بركةً وزيادة ، وأجر للأضرء من بيت المال ، وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره في الجرایة ^(٢) على غيرهم ، وانصب لمرضى المسلمين دُوراً تُؤويهم ، وقواماً يرفقون بهم ، وأطباء يعالجون أسقامهم ، وأسعفهم بشهواتهم ، ما لم يؤد ذلك إلى سرف في بيت المال ، واعلم أن الناس

إذا أعطوا حقوقهم وأفضلَ أمانيتهم ، لم يُرضِهِم ذلك ، ولم تُطِبْ أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى وُلاتهم ، طمعاً في نيل الزيادة وفضل الرفق منهم ، وربما برِم^(١) المتصفح لأموال الناس ، لكثرة ما يرد عليه ، وَيَشغَل فكره وذهنه منها ما يناله به مؤونة ومشقة ، وليس من يرغب في العدل ، وَيَعرف محاسن أموره في العاجل ، وفضل ثواب الآجل ، كالذي يستقبل ما يقربُه إلى الله ، ويلتمس رحمته به ، وأكثر الإذن للناس عليك ، وَأبرز لهم وجهك ، وسكن لهم أحراسك ، واخفِض لهم جناحك ، وأظهر لهم بِشرك ، وَلَبِن لهم في المسألة والمنطق ، واعطِف عليهم بجدك وفضلك ، وإذا أعطيت فأعط بسماحةٍ وطيب نفس ، والتمس الصنعة والأجر غير مكدّر ولا ممتّان ، فإن العطية على ذلك تجارة مرتجة إن شاء الله ، واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضي من قبلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والأمم البائدة ، ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله ، والوقوف عند محبته ، والعمل بشريعته وسنته ، وإقامة دينه وكتابه ، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله ، واعرف ما تجمع عمالك من الأموال ، وما ينفقون منها ، ولا تجمع حراماً ، ولا تُنفق إسرافاً ، وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم ، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها ، وإيثار مكارم الأمور ومعاليتها ، وليكن أكرم دُخلائك وخاصيتك عليك ، مَنْ إذا رأى عيباً فيك لم يمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك في سر ، وإعلامك ما فيه من النقص ، فإن أولئك أنصح أوليائك ، ومظاهريك لك ، وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتّابك ، فوقت لكل رجل منهم في كل يوم

وقتاً يدخل عليك فيه ، بكتبه ومؤامرتة وما عنده من حوائج عمالك ، وأمر
كورك ورعيتك ، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك
وعقلك ، وكرّر النظر إليه والتدبير له ، فما كان موافقاً للحزم والحق
فأمنه ، واستخبر الله فيه ، وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى التثبيت فيه
والمسأله عنه، ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعرف تآتيه إليهم ، ولا تقبل من
أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين ، ولا تضعن المعروف
إلا على ذلك ، وتفهم كتابي إليك ، وأكثِرِ النظر فيه والعمل به ، واستعن بالله
على جميع أمورك واستخِرْه ، فإن الله مع الصالح وأهله ، وليكن أعظم سيرتك
وأفضل رعيتك ، ما كان لله رضا ، ولدينه نظاماً ، ولأهله عزاً وتمكيناً ، وللذمة
والملة عدلاً وصلاحاً ، وأنا أسأل الله أن يُصلح عونك وتوفيقك ورُشدك
وكلاءك ، وأن يُنزل عليك فضله ورحمته بتمام فضله عليك وكرامته لك ،
حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيباً ، وأوفرهم حظاً ، وأسناهم ذكراً وأمرأً ، وأن
يهلك عدوك ومن ناوأك وبنى عليك ، ويرزقك من رعيتك العافية ، ويحجز
الشیطان عنك ووساوسه ، حتى يستعمل أمرُك بالعز والقوة والتوفيق ، إنه
قريب مجيب .

وذكروا أن طاهراً لما عهد إلى ابنه عبد الله هذا العهد ، تنازعه الناس
وكتبوه وتدارسوه ، وشاع أمره حتى بلغ المأمون ، فدعا به وقرئ عليه ، فقال :
ما بقی أبو الطیب (یعنی طاهراً) شیئاً من أمر الدین والدنیا والتدبیر والرأی
والسیاسة ، وإصلاح الملك والرعية ، وحفظ البیضة ، وطاعة الخلفاء ، وتقويم

الخليفة إلا وقد أحكمه وأوصى به وتقدم ، وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في نواحي الأعمال .

(تاريخ الطبري ١٠ : ٢٥٨ ، ومقدمة ابن خلدون ص ٣٣٩)

١٣٢ - خطبة عبد الله بن طاهر

خطب عبد الله بن طاهر الناس ، وقد تيسر لقتال الخوارج ^(١) فقال :
 « إنكم فئة الله ، المجاهدون عن حقه ، الذائبون عن دينه ، الذائدون عن محارمه ،
 الداعون إلى ما أمر به ، من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاية أمره ، الذين جعلهم
 رعاة الدين ، وَنِظَامٌ ^(٢) المسلمين ، فاستنجزوا موعود الله ونصره ، بمجاهدة عدوه ،
 وأهل معصيته ، الذين أُشِرُوا ^(٣) وتمردوا ، وشقوا العصا ، وفارقوا الجماعة ، ومَرَقُوا
 من الدين ، وَسَعَوْا في الأرض فساداً ، فإنه يقول تبارك وتعالى : « إِنْ تَنْصَرُوا
 اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » ، فليكن الصبر معقلكم الذي إليه تَلَجَّبُونَ ^(٤) ،
 وَعُدَّتْكم التي بها تستظهِرون ، فإنه الوزر المنيع ، الذي دلّم الله عليه ، وَالجَنَّةُ ^(٥)
 الحصينة التي أمركم الله بلباسها ، غُضُّوا أَبْصَارَكُمْ ، وَأَخْفَتُوا أَصْوَاتَكُمْ في مصافِّكم ،
 وَأَمْضُوا قُدُماً عَلَى بَصَائِرِكُمْ ، فارغين إلى ذكر الله ، والاستعانة به كما أمركم الله ،

[١] الوارد في كتاب « الفرق بين المرق » أن المأمون بعث طاهر بن الحسين لقتال حمزة بن أكرح
 - هكذا فيه ، وفي الملل والنحل حمزة بن أدرك بالذل - وهو زعيم فرقة الحمزية لإحدى فرق الخوارج
 المعجزة ، وقد عاث في سجستان وخراسان ومكران وقوهستان وكرمان ، وهزم الجيوش الكثيرة ،
 وكان ظهوره في أيام هرون الرشيد سنة ١٧٩ ، وبقى الناس في فتنته إلى أن مضى صدر من أيام خلافة
 المأمون ، فلما تمكن المأمون من الخلافة كتب إليه كتابا استدعاه فيه إلى طاعته ، فما ازداد إلا عتوا ،
 فبعث لقتاله طاهر بن الحسين ، فدارت بينه وبين حمزة حروب قتل فيها من الفريقين مقدار ثلاثين ألفاً ،
 أكثرهم من أتباع حمزة ، وانتهز حمزة إلى كرمان ، ثم استدعى المأمون طاهراً من خراسان ، فطمع فيها
 حمزة ، وأقبل بجيشه من كرمان ، فخرج إليه عبد الرحمن النيسابوري في عشرين ألفاً فهزموه ، وقتلوا
 الألوف من أصحابه ، وانفلت منهم حمزة جريماً ، ومات في هزيمته - انظر ص ٧٩ - .

[٢] النظام : السلك ينظم فيه ، وملاك الأمر . [٣] بطروا .

[٤] اللجأ والمتعم ، وكذا الوزر . [٥] كل ما بقي .

فإنه يقول: « إِذَا لَقَيْتُمْ فِتْنَةً فَابْتُئْتُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »
أيدكم الله بعز الصبر، ووليكمم بالحياة والنصر. (العقد الفريد ٢ : ١٥٥)

١٣٣ - العباس بن المأمون والمعتم (المتوفى سنة ٢٢٧ هـ)

قال العباس بن المأمون : لما أفضت الخلافة إلى المعتم دخلت ، فقال :
هذا مجلس كنت أكرهه الناس لجلوسى فيه ، فقلت : « يا أمير المؤمنين ، أنت
تعفو عما تيقنته ، فكيف تعاقب على ما توهمتة ؟ » ، فقال : لو أردت عقابك ،
لتركت عتابك . (زهر الآداب ٣ : ٩١)

١٣٤ - استعطاف تميم بن جميل للمعتم

كَانَ تَمِيمُ بْنُ جَمِيلِ السَّدُوسَى قَدْ خَرَجَ بِشَاطِئِ الْفُرَاتِ ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ كَثِيرٌ
مِنَ الْأَعْرَابِ ، فَعَظُمَ أَمْرُهُ ، وَبَعُدَ ذِكْرُهُ ، فَكَتَبَ الْمَعْتَمُ إِلَى مَالِكِ بْنِ طَوْقٍ
فِي النَّهْوِضِ إِلَيْهِ ، فَبَدَّدَ جَمْعَهُ ، فَظَفَّرَ بِهِ ، فَحَمَلَهُ مُوثِقًا إِلَى الْمَعْتَمِ ، قَالَ أَحْمَدُ بْنُ
أَبِي دُوَادٍ : مَا رَأَيْتُ رَجُلًا عَيْنَ الْمَوْتِ ، فَمَا هَالَهُ ، وَلَا أَذْهَلَهُ عَمَّا كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ
أَنْ يَفْعَلَ إِلَّا تَمِيمَ بْنَ جَمِيلٍ ، فَإِنَّهُ أَوْفَى بِهِ الرَّسُولُ بَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَعْتَمِ ، فِي
يَوْمِ الْمَوْكَبِ ، حِينَ يَجْلِسُ لِلْعَامَةِ ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، دَعَا بِالنَّطْعِ (١)
وَالسِّيفِ فَأَحْضَرَا ، فَعَمِلَ تَمِيمُ بْنُ جَمِيلٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِمَا وَلَا يَقُولُ شَيْئًا ، وَجَعَلَ
الْمَعْتَمُ يَصْعَدُ النَّظَرَ فِيهِ وَيَصُوبُهُ ، وَكَانَ جَسِيمًا وَسِيمًا (٢) ، وَرَأَى أَنْ يَسْتَنْطِقَهُ
لِيَنْظُرَ أَيْنَ جَنَاحُهُ وَلِسَانُهُ مِنْ مَنْظَرِهِ ، فَقَالَ : يَا تَمِيمُ إِنْ كَانَ لَكَ عَذْرٌ فَأْتِ بِهِ ،
أَوْ حِجَّةٌ فَأَذِلِّ بِهَا ، فَقَالَ : أَمَا إِذْ قَدْ أَذِنَ لِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنِّي أَقُولُ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ،

[١] النطع كحل وشمس وسبب وعنب : بساط من الأديم . [٢] جملا .

ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ « جَبَرَ بِكَ صَدْعَ الدِّينِ ، وَلَمْ بِكَ شَعَثَ
المسامين ، وأوضح بك سُبُلَ الحق ، وَأَخَذَ بِكَ شَهَابَ الباطل ، يا أمير المؤمنين
إن الذنوب تُخْرِسُ الألسنة الفصيحة ، وتُعَيِّبُ الأفئدة الصحيحة ، ولقد عَظَمَتِ
الجَريرة ، وانقطعت الحُجَّةُ ، وَكَبُرَ الذَّنْبُ ، وساء الظن ، ولم يبق إلا عفوك أو
انتقامك ، وأرجو أن يكون أقربهما مني ، وأسرعهما إلي ، أو لاهما بامتنانك ،
وأشبههما بخلافتك ، ثم أنشأ يقول :

أَرَى المَوْتَ بَيْنَ السِّيفِ والنَّطْعِ كَأَمْنًا يلاحظني من حيثما أتلفتُ
وَأَكْبَرُ ظَنِي أَنَّكَ اليَوْمَ قَاتِلِي وأى أمرى مما قضى الله يُفْلِتُ ؟
وَمَنْ ذَا الَّذِي يُدْلِي بِعُذْرٍ وَحُجَّةٍ وسبغ المنايا بين عيديه مُصَلَّتُ ؟^(١)
يَعْرِضُ عَلَى الأَوْسِ بْنِ تَغَلِبٍ مَوْقِفُ يُسَلِّ عَلَى السِّيفِ فِيهِ وَأَسْكُتُ
وَمَا جَزَعَى مِنْ أَنْ أَمُوتَ وَإِنِّي لأعلم أن الموت شئٌ مَوْقَتُ
وَلَكِنْ خَلْفِي صَبِيَّةٌ قَدْ تَرَكَتْهُمْ وأكبادهم من حَسرة تتفتتُ
كَأَنِّي أَرَاهُمْ حِينَ أُنْعَى إِلَيْهِمْ وقد خَمَشُوا تلك الوجوه وَصَوَّتُوا^(٢)
فَإِنْ عَشْتُ عَاشُوا خَافِضِينَ بِغِبْطَةٍ أذودُ الرَّدَى عنهم وَإِنَّمِتَّ مَوْتُوا^(٣)
فَكَمْ قَائِلٍ لَا يُبْعِدُ اللهُ رُوحَهُ وَآخَرَ جَذَلَانٍ يُسَرُّ وَيَشْمَتُ
فَتَبَسُّمِ المَعْتَصِمِ وَقَالَ : « كَادَ اللهُ يَا تَمِيمُ أَنْ يَسْبِقَ السِّيفُ العَدْلَ »^(٤) ، أَذْهَبُ

[١] مسلول . [٢] خمش وجهه كنعصر وضرب خدشه ولطمه وضربه . [٣] كثر فيهم الموت .
[٤] العذل كشمس وسبب : اللوم ، وهو مثل ، وأول من قاله ضبة بن أد بن طابحة ، وكان له ابنان
يقال لأحدهما سعد ، وللآخر سعيد ، فنفرت لبل لضبة تحت الليل ، فوجه ابنيه في طلبها فنفرا ، فوجدها
سعد فردها ، ومضى سعيد في طلبها ، فلقى الحرث بن كعب ، وكان على الغلام بردان ، فسأله الحرث إياها
فأبى عليه فقتله وأخذ برديه ، فكان ضبة إذا أمسى فرأى تحت الليل سوادا . قال : أسعد أم سعيد ؟
فكث ضبة بذلك ماشاء الله أن يمكث ، ثم إنه حج فوافى عكاظ ، فلقى بها الحرث بن كعب ، ورأى عليه

فقد غفرت لك الصبوة^(١) ، وَوَهَبْتُكَ لِلصَّبِيَّةِ » ، ثم أمر بفك قيوده وخلع عليه ، وعقد له بشاطئ الفرات . (العقد الفريد ١ : ١٤٥ ، وزهر الآداب ٣ : ٨٩)

١٣٥ - بين يدي سليمان بن وهب وزير المهدي بالله

ولما ولى المهدي بالله^(٢) بن الواثق بن المعتمد سليمان بن وهب وزارته ، قام إليه رجل من ذوى حُرْمَتِهِ ، فقال : « أَعَزَّ اللهُ الْوَزِيرَ ، أَنَا خَادِمُكَ ، الْمُؤَمَّلُ لِدَوْلَتِكَ ، السَّعِيدُ بِأَيَامِكَ ، الْمَنْظُورِ الْقَلْبَ عَلَى وَدِّكَ ، الْمَنْشُورِ اللِّسَانَ بِمَدْحِكَ ، الْمُرْتَمِّنَ بِشُكْرِ نِعْمَتِكَ » . (زهر الآداب ٣ : ١٩٧)

١٣٦ - أحمد بن أبي دواد والواثق (المتوفى سنة ٢٣٣ هـ)

دخل أحمد بن أبي دواد^(٣) على الواثق فقال : ما زال اليوم قومٌ في ثَلْبِكَ وتقصك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنْ الْأَثْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ^(٤) مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، وَاللَّهُ وَلِيُّ جَزَائِهِ ، وَعِقَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ وَرَائِهِ ، وَمَا ذَلَّ يَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ أَنْتَ نَاصِرُهُ ، وَمَا ضَاقَ مِنْ كُنْتَ جَاراً لَهُ ، فَمَا قَلْتَ لَهُمْ يَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : قَلْتُ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ :

بردى ابنه سعيد فعرهما ، فقال له : هل أنت مخبري ما هذان البردان اللذان عليك ؟ قال بلى : أقيت خلافاً ، وهما عليه فسألته إياهما ، فأبى عليّ فقتلته ، وأخذت بردبه هذين ، فقال ضبة : سيفك هذا ؟ قال نعم ، فقال : فأعطينيه أنظر إليه فإنني أظنه صارما ، فأعطاه الحرت سيفه ، فلما أخذه من يده هزه وقال : الحديث ذو شجون ، ثم ضربه به حتى قتله ، فقيل له يا ضبة : أفى الشهر الحرام ؟ فقال : سبق السيف العذل . [١] جهلة العتوة . [٢] تولى الخلافة سنة ٢٥٥ إلى سنة ٢٥٦ هـ .

[٣] هو القاضي أبو عبد الله أحمد بن أبي دواد من كبار أئمة المعتزلة ، ونصراء الاعترال ، كان مقرباً من المأمون أنيرا عنده ، ولما ولي المعتمد الخلافة جعله قاضي القضاة ، وعزل يحيى بن أكثم ، وخسب به أحمد ، حتى كان لا يفعل فعلا باطنا ولا ظاهراً إلا برأيه ، ولما مات المعتمد ، وتولى بعده ابنه الواثق بالله حسنت حال ابن أبي دواد عنده ، ثم فالج في أول خلافة المتوكل ، فقلد ولده محمداً القضاء مكانه ، وتوفى سنة ٢٤٠ هـ . [٤] أى معظمه ، وفي قراءة « كبره » بضم الكاف .

وَسَعَى إِلَى بَيْبِ عَزَّةَ مَعَشَرُهُ جَعَلَ الْإِلَهَ خَدُودَهُنِ نِعَامَهَا

(زهر الآداب ٣ : ٢٠٨ ، والعقد الفريد ١ : ١٤١)

١٣٧ - ابن أبي دواد والوائق أيضاً

وقال الواثق يوماً لابن أبي دواد تضحجراً بكثرة حوائجهم : قد أخليت بيوت

الأموال بطلمبائكك للأئدين بك ، والمتوسلين إليك ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، تنأجج شكرها متصلة بك ، وذخائرهما موصولة لك ، ومالي

من ذلك إلا عشقُ اتصال الألسن بخلود المدح » ، فقال : « والله لا منعناك

ما يزيد في عشقتك ، ويقوى في هممتك فينا ولنا » ، وأمر فأخرج له خمسة وثلاثين

(زهر الآداب ٢ : ٣١٠)

ألف درهم

١٣٨ - ابن أبي دواد وابن الزيات

وكان بين القاضي أحمد بن أبي دواد وبين الوزير محمد بن عبد الملك الزيات^(١)

منافسة وشحناء ، حتى منع الوزير شخصاً كان يصحب القاضي ، ويختص بقضاء

حوائجهم ، من الترداد إليه ، فبلغ ذلك القاضي ، فجاء إلى الوزير فقال له :

« والله ما أجيئك متكثرأً بك من قلة ، ولا متمززأً بك من ذلة ، ولكن

أمير المؤمنين رتبك مرتبة أوجببت لقاءك ، فإن لقيناك فله ، وإن تأخرنا

(وفيات الأعيان ١ : ٢٥)

عناك فلك^(٢) »

[١] وزر للمعصم ، وللواثق من بعده ، ثم نكبه المتوكل كما سيأتي .

[٢] وكان الواثق قد أسر الأيرى أحد من الناس ابن الزيات ، إلا قام له ، فكان ابن أبي داود إذا

رآه قام واستقبل القبله يصلى .

١٣٩ - الجاحظ وابن أبي دؤاد

وكان الجاحظ مختصاً بمحمد بن عبد الملك الزيات ، منحرفاً عن أحمد بن أبي دؤاد ، فاما نكب ابن الزيات ^(١) ، مُجمل الجاحظ مقيداً من البصرة ، وفي عنقه سلسلة ، وعليه قيص سَمَل ^(٢) ، فلما دخل على القاضي أحمد قال له : « والله ما أعلمك إلا متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنعة ، معدناً للمساوى ، وما فتنتي باستصلاحى لك ، ولكن الأيام لا تُصليح منك ، لفساد طويبتك ، ورداءة دَخيلتك ، وسوء اختيارك ، وغالب طباعك » .

فقال الجاحظ : « خَفَضُ عليك - أَيَّدِكَ اللهُ - فوالله لَأَن يكون لك الأمر على ، خيرٌ من أن يكون لى عليك ، وَلَأَن أُسِيءَ وَتُحْسِنَ ، أحسنُ فى الأُحْدوثَةِ عليك ، من أن أحسن وتسىء ، وَلَأَن تُعْفُوَ عَنى فى حال قدرتك ، أَجمل بك من الانتقام منى » .

فقال أحمد : والله ما علمتُك إلا كثير تزويق الكلام ، فحلَّ عنه الغلُّ والقيد ، وأحسن إليه ، وصدَّره فى المجلس .

(زهر الآداب ٢ : ١٠٦ ، والنية والأمل ص ٣٩)

[١] كان فى نفس المتوكل من ابن الزيات شىء كثير ، وذلك أنه لما مات الواثق (وهو أخو المتوكل) . أشار ابن الزيات بتولية ولد الواثق ، وأشار ابن أبى داود بتولية المتوكل ، وقام فى ذلك وقعد حتى عمه بيده وألبسه البردة ، وقبله بين عينيه ، وكان المتوكل فى أيام الواثق يدخل على ابن الزيات فينجهمه ويغلف له فى الكلام - يتقرَّب بذلك إلى الواثق - فحقد المتوكل ذلك عليه ، فلما ولى الخلافة ، أمهله أربعين يوماً حتى يطمئن إليه ، ثم قبض عليه وسجنه ، واستصق أمواله ، وكان ابن الزيات إبان وزارته قد اتخذ تنوراً من حديد ، وأطراف مساميره لى داخل ، وهى قائمة مثل رءوس المسالِّ ، يعذب فيه من يستحقون العقوبة وكان إذا قال أحدهم ارحمنى أيها الوزير . قال له : الرحمة خور فى الطبيعة ، فلما اعتقله المتوكل أمر بادخاله فى التنور ، وقيده بخمسة عشر رطلا من الحديد ، فقال : يا أمير المؤمنين ارحمنى ، فقال له : الرحمة خور فى الطبيعة ، وبقى فى العذاب أربعين يوماً حتى مات سنة ٢٣٣ هـ .

[٢] السمل : الخلق من الثياب .

١٤٠ - أبو العيناء وابن أبي دؤاد

وقال أبو العيناء لابن أبي دؤاد : إن قوماً من أهل البصرة قَدِمُوا إلى
«سُرْمَنْ رَأَى» يَدَا عَلِيٍّ ، فقال : «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» ، فقلت : إن لهم مكرًا ،
فقال : «وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» ، فقلت : إنهم كثير ، قال :
«كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةَ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» .

(زهر الآداب ٢ : ٣١٠ ، والعقد النريد ١ : ١٤١)

تم الجزء الثالث

ويليه

ذيل الجمهرة



فهرس

الخطبة الثالثة

من جمهرة خطب العرب

الباب الرابع

الخطب والوصايا في العصر العباسي الأول

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة أبي العباس السفاح وقد تولى بالخلافة	١	١
» داود بن عليّ	٢	٣
» داود بن عليّ وقد أرتج على السفاح	٣	٦
» أخرى له	٤	٧
» » للسفاح بالكوفة	٥	٧
» السفاح بالشام حين قتل مروان	٦	٨
» عيسى بن عليّ » »	٧	٨
» داود بن عليّ بمكة	٨	٩
خطبته بالمدينة	٩	١٠
خطبة أخرى له	١٠	١٠
خطبته وقد بلغه أن قوما أظهروا شكاة بني العباس	١١	١١
» وقد أرتج عليه	١٢	١٢
خطبة صالح بن عليّ	١٣	١٣
» سديف بن ميمون	١٤	١٣
» أبي مسلم الخراساني	١٥	١٥

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة
رقم
الخطبة

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خالد بن صفوان وأحوال السفاح	١٧	١٦
« » « ورجل من بني عبد الدار	١٩	١٧
« » « يرثي صديقاً له	٢٠	١٨
« » « يمدح رجلاً	٢٠	١٩
كلمات بليغة لخالد بن صفوان	٢٠	٢٠
عمارة بن حمزة والسفاح	٢١	٢١
خطب أبي جعفر المنصور	٢٢	
خطبته بمكة	٢٢	٢٢
« » بعد بناء ببغداد	٢٢	٢٣
« » ببغداد	٢٣	٢٤
« » وقد أخذ عبد الله بن الحسن وأهل بيته	٢٣	٢٥
« » حين خروج محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن	٢٦	٢٦
« » وقد قتل أبا مسلم الخراساني	٢٦	٢٧
خطبة أخرى	٢٧	٢٨
قوله وقد قوطع في خطبته	٢٧	٢٩
المنصور يصف خلفاء بني أمية	٢٨	٣٠
« » عبد الرحمن الداخل	٢٩	٣١
وصايا المنصور لابنه المهدي	٢٩	
وصية له	٢٩	٣٢
« » أخرى له	٣٠	٣٣
« » «	٣١	٣٤
خطبة النفس الزكية حين خرج على المنصور	٣٣	٣٥

الخطبة أو الوصية

رقم
الخطبة

وصية عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي لابنه	٣٦	٣٣
قوله وقد قتل ابنه محمد	٣٧	٣٤
امرأة محمد بن عبد الله والمنصور	٣٨	٣٤
جعفر الصادق والمنصور	٣٩	٣٥
صفح المنصور عن سفیان بن معاوية بن يزيد بن المهلب	٤٠	٣٦
استعطاف أهل الشام أبا جعفر المنصور	٤١	٣٧
» » » المنصور أيضاً	٤٢	٣٨
أبو جعفر المنصور والربيع	٤٣	٣٩
مقام عمرو بن عبيد بين يدي المنصور	٤٤	٤٠
» » » رجل من الزهاد	٤٥	٤٠
» الأوزاعي بين يدي المنصور	٤٦	٤٣
نصيحة يزيد بن عمر بن هبيرة المنصور	٤٧	٤٦
معن بن زائدة والمنصور	٤٨	٤٧
» » » وأحد زواره	٤٩	٤٨
المنصور وأحد الأعراب	٥٠	٤٨
أعرابية تعزى المنصور وتهنئه	٥١	٤٨
خطبة محمد بن سليمان	٥٢	٤٩
وصية مسلم بن قتيبة	٥٣	٤٩
خطبة المهدي	٥٤	٥٠

مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب خراسان ٥٢

مقال سلام صاحب المظالم ٥٥ ٥٣

» الربيع بن يونس ٥٦ ٥٤

» الفضل بن العباس ٥٧ ٥٥

مقال عليّ بن المهدي	٥٨	٥٧
» موسى بن المهدي	٥٩	٥٩
» العباس بن محمد	٦٠	٦٠
» هرون بن المهدي	٦١	٦٢
» صالح بن عليّ	٦٢	٦٤
» محمد بن الليث	٦٣	٦٤
» معاوية بن عبد الله	٦٤	٦٦
» المهدي	٦٥	٦٨
» محمد بن الليث	٦٦	٧٠
» المهدي	٦٧	٧١
ابن عتبة يعزى المهدي ويهنته	٦٨	٧٤
يعقوب بن داود يستعطف المهدي	٦٩	٧٤
رجل من أهل خراسان يخطب بحضرة المهدي	٧٠	٧٥
مقام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدي	٧١	٧٥
عظة شبيب بن شيبه للمهدي	٧٢	٧٦
خطبته في تعزية المهدي بابنته	٧٣	٧٦
خطبة أخرى له في مدح الخليفة	٧٤	٧٧
كلمات لشبيب بن شيبه	٧٥	٧٨
خطبة يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب يوم ولي الرشيد الخلافة	٧٦	٧٨
خطبة هرون الرشيد	٧٧	٨٠
وصية الرشيد لمؤدب ولده الأمين	٧٨	٨٢
خطبة لجعفر بن يحيى البرمكي	٧٩	٨٢
استعطاف أم جعفر بن يحيى للرشيد	٨٠	٨٥

خطبة يزيد بن يزيد الشيباني	٨١	٨٩
« عبد الملك بن صالح	٨٢	٩٠
عبد الملك بن صالح يعزى الرشيد ويهنته	٨٣	٩٠
غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح	٨٤	٩٠
قوله بعد خروجه من السجن	٨٥	٩٤
وصية عبد الملك بن صالح لابنه	٨٦	٩٥
« أخرى له	٨٧	٩٧
كلمات حكيمة لابن السماك	٨٨	٩٧
ابن السماك و الرشيد	٨٩	٩٧
الفتنة بين الأمين والمأمون		٩٩
وفد الأمين إلى المأمون		
خطبة العباس بن موسى	٩٠	٩٩
« عيسى بن جعفر	٩١	١٠٠
« محمد بن عيسى بن نهبك	٩٢	١٠٠
« صالح صاحب المصلي	٩٣	١٠١
« المأمون	٩٤	١٠١
وصية السيدة زبيدة لعلي بن عيسى بن ماهان	٩٥	١٠٢
« الأمين لابن ماهان	٩٦	١٠٣
استهانة ابن ماهان بأمر طاهر بن الحسين	٩٧	١٠٤
حزم طاهر وقوة عزمه	٩٨	١٠٥
طاهر يشد عزيمة جنده	٩٩	١٠٦
وصف الفضل بن الربيع غفلة الأمين	١٠٠	١٠٧
وصية الأمين لأحمد بن يزيد	١٠١	١٠٨

رقم الخطبة	رقم الصفحة
١٠٢	١٠٩
مقال عبد الملك بن صالح للأمين	
١٠٣	١١٠
الشغب في جيش عبد الملك بن صالح	
١٠٤	١١١
خطبة الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان يدعو إلى خلع الأمين	
١٠٥	١١٢
» محمد بن أبي خالد	
١٠٦	١١٣
إطلاق الأمين من سجنه ورده إلى مجلس الخلافة	
١٠٧	١١٤
خطبة داود بن عيسى يدعو إلى خلع الأمين	
١٠٨	١١٥
» الأمين وقد تولى الأمر عنه	
١٠٩	١١٧
استعطاف الفضل بن الربيع للمأمون	
١١٠	١١٨
خطبة طاهر بن الحسين ببغداد بعد مقتل الأمين	
	١١٩
خطب المأمون	
١١١	١١٩
خطبته وقد ورد عليه نهى الرشيد	
١١٢	١١٩
» وقد سلم الناس عليه بالخلافة	
١١٣	١٢٠
» يوم الجمعة	
١١٤	١٢١
» يوم الأضحى	
١١٥	١٢٢
» يوم الفطر	
١١٦	١٢٤
خطبة ابن طباطبا العلوي	
١١٧	١٢٥
استعطاف إبراهيم بن المهدي المأمون	
١١٨	١٢٧
إبراهيم بن المهدي وبختيشوع الطيب	
١١٩	١٢٨
استعطاف إسحاق بن العباس المأمون	
١٢٠	١٢٩
أحد وجوه بغداد يمدح المأمون حين دخلها	
١٢١	١٣٠
أحد أهل الكوفة يمدح المأمون	
١٢٢	١٣٠
محمد بن عبد الملك بن صالح بين يدي المأمون	

الحسن بن سهل يمدح المأمون	١٢٣	١٣٠
يحيى بن أكثم يمدح المأمون	١٢٤	١٣١
أحد بنى هاشم والمأمون	١٢٥	١٣٢
رجل يتظلم إلى المأمون	١٢٦	١٣٢
عمرو بن سعيد والمأمون	١٢٧	١٣٢
الحسن بن رجاء والمأمون	١٢٨	١٣٣
سعيد بن مسلم والمأمون	١٢٩	١٣٣
أبو زهان يعظ سعيد بن مسلم	١٣٠	١٣٤
وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله لمأولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما	١٣١	١٣٤
خطبة عبد الله بن طاهر	١٣٢	١٤٦
العباس بن المأمون والمعتصم	١٣٣	١٤٧
استعطاف تميم بن جميل للمعتصم	١٣٤	١٤٧
بين يدي سليمان بن وهب وزير المهدي بالله	١٣٥	١٤٩
أحمد بن أبي دواد والواثق	١٣٦	١٤٩
ابن أبي دواد والواثق أيضاً	١٣٧	١٥٠
ابن أبي دواد وابن الزيات	١٣٨	١٥٠
الجاحظ وابن أبي دواد	١٣٩	١٥١
أبو العيناء وابن أبي دواد	١٤٠	١٥٢

فهرس أعلام الخطباء

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل خطيب بأرقام الصفحات التي وردت فيها خطبه

ح	أ
الحارث بن عبد الرحمن ٣٧	إبراهيم بن المهدي ١٢٥ - ١٢٧
الحسن بن رجاء ١٣٣	ابن السماك ٩٧
الحسن بن سهل ١٣٠	ابن طباطبا العلوي ١٢٤
الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان ١١	ابن عتبة ٧٤
خ	أبو جعفر المنصور ٢٢ - ٢٣ - ٢٦
خالد بن صفوان ١٧ - ١٩ - ٢٠	٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٦
د	أبوزمان العلاني ١٣٤
داود بن علي	أبو العباس السفاح ١ - ٧ - ٨
٣ - ٦ - ٧ - ٩ - ١٠ - ١١ - ٢	أبو مسلم الخراساني ١٥
داود بن عيسى ١١٤	أحمد بن أبي دواد ١٤٩ - ١٥٠ - ١٥٢
ر	إسحاق بن العباس ١٢٨
الربيع بن يونس ٣٩ - ٥٤	أم جعفر بن يحيى ٨٥
ز	الأمين ١٠٣ - ١٠٨ - ١١٥
السيدة زبيدة ١٠٢	الأوزاعي ٤٣
س	ت
سديف بن ميمون ١٣	تميم بن جميل ١٤٧
سعید بن مسلم ١٣٣	ج
سلام (صاحب المظالم) ٥٣	الجاحظ ١٥١
ش	جعفر الصادق ٣٥
شبيب بن شبة ٧٦ - ٧٧ - ٧٨	جعفر بن يحيى البرمكي ٨٢

الفضل بن العباس ٥٥

- م -

المأمون ١٠١ - ١١٩ - ١٢٠ - ١٢١ - ١٢٢

محمد بن أبي خالد ١١٢

محمد بن سليمان ٤٩

محمد بن عبد الملك بن صالح ١٣٠

محمد بن عيسى بن نهيك ١٠٠

محمد بن الليث ٦٤ - ٧٠

مسلم بن قتيبة ٤٩

معاوية بن عبد الله ٦٦

معن بن زائدة ٤٧

المهدي ٥٠ - ٦٨ - ٧١

- ن -

النفس الزكية ٣٢

- ه -

المهادي ٥٩

هرون الرشيد ٦٢ - ٨٠ - ٨٢

- ي -

يحيى بن أكثم ١٣١

يزيد بن عمر بن هبيرة ٤٦

يزيد بن مزيد الشيباني ٨٩

يعقوب بن داود ٧٤

يوسف بن القاسم بن صبيح ٧٨

تم فهرس أعلام الخطباء

- ص -

صالح (صاحب المصلي) ١٠١

صالح بن عبد الجليل ٧٥

صالح بن علي ١٣ - ٦٤

- ط -

طاهر بن الحسين

١٠٥ - ١٠٦ - ١١٨ - ١٣٤

- ع -

العباس بن المأمون ١٤٧

العباس بن محمد ٦٠

العباس بن موسى ٩٩

عبد الله بن الحسن ٣٣ - ٣٤

عبد الله بن طاهر ١٤٦

عبد الملك بن صالح

٩٠ - ٩١ - ٩٤ - ٩٥ - ٩٧ - ١٠٩

عثمان بن خزيمة ٣٨

علي بن عيسى بن ماهان ١٠٤

علي بن المهدي ٥٧

عمارة بن حمزة ٢١

عمرو بن سعيد ١٣٢

عمرو بن عبيد ٤٠

عيسى بن جعفر ١٠٠

عيسى بن علي ٨

- ف -

الفضل بن الربيع ١٠٧ - ١١٧

جدول الخطأ والصواب

الصواب	الخطأ	سطر	صفحة
وأرْمض	أرَوْمض	٢١	٤
لِأَوَّلِي	لَاوِلِي	٨	١٧
ثَقَلْت	ثَقَّلْت	٧	٣٩
(تَحْذِف)	إِنْ	١٠	٤٣
الْمَنْصُور	الْمَنْصُو	٨	٤٤
سَجَّالَهَا	سَجَّالَهَا	٩	٥٣
الْحَطْبُ	الْحَطْبُ	١٠	٥٧
م.م.	م.	١٠	٦٠
بِالْمَعْدَلَةِ	بِالْمَعْدَلَةِ	١٤	٦٩
حُسْنُهُ	مَحْسَنُهُ	١٨	٧٧
الرَّشْدُ	الرَّشِيدُ	٥	١٠٠
كُلُّ مَا أَوْصِيكَ	كُلُّ أَوْصِيكَ	١٩	١٠٣

ذَلِكَ

جَمْعُهُ خَطَبُ الْعَرَبِ

فِي عَصُورِ الْعَرَبِ الزَّاهِرَةِ

وَيَحْوِي خَمْسَةَ أَبْوَابٍ :

الباب الأول : في خطب الأندلسيين والمغاربية

« الثاني : في خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها

« الثالث : في نثر الأعراب

« الرابع : في خطب النكاح

« الخامس : في خطب من أرتج عليهم ونوادير طريفة

لبعض الخطباء .

فهرس المآخذ

- نفع الطيب ، للمقرى : الجزء الأول - الثانى - الرابع
- مطمح الأنفس ، للفتح بن خاقان :
- المعجب ، فى تلخيص أخبار المغرب ، :
لمحي الدين بن علىّ المراكشى
- الإحاطة : فى أخبار غرناطة ، للسان :
- الدين بن الخطيب :
- الأمالى : لأبى علىّ القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
- الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى : « الثالث عشر - السابع عشر
- صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى : « الأول
- نهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى : « السابع
- عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
- الكامل : لأبى العباس المبرد : الجزء الأول
- العقد الفريد : لابن عبد ربه : « الأول - الثانى - الثالث
- زهر الآداب : لأبى إسحق الحصرى : « الأول - الثانى - الثالث
- البيان والتبيين : للجاحظ : « الأول - الثانى - الثالث
- أمالى السيد المرتضى : « الرابع
- مجمع الأمثال : لأبى الفضل الميدانى : « الأول - الثانى
- تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى : « السابع - الثامن
- مروج الذهب : للمسعودى : الجزء الثانى

- الصناعتين ، لأبي هلال العسكري :
- بلاغات النساء : لابن أبي طاهر طيفور :
- سرح العيون : لابن نباتة المصري :
- سيرة عمر بن عبد العزيز : لابن الجوزي :
- مواسم الأدب للسيد جعفر البيهقي العلوي : الجزء الثاني
- بلوغ الأرب : للسيد محمود شكرى الألوسى : « الثالث
- مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح
-



الباب الأول

في

خطب الأندلسيين والمغاربة

١ - خطبة عبد الرحمن الداخل (المتوفى سنة ١٧١ هـ)

يوم حربه مع يوسف الفهري صاحب الأندلس

لما اشتد الكرب بين يدي عبد الرحمن الداخل^(١) ، يوم حربه مع يوسف

الفهري^(٢) صاحب الأندلس ، ورأى شدة مُقاساة أصحابه قال :

« هذا اليوم هو أسُّ ما مَيَّنَى عليه ، إمَّا ذلُّ الدهر ، وإمَّا عزُّ الدهر .

فاصبرُوا ساعةً فيما لا تشتهون ، تَرْبِحُوا بها بقيةَ أعماركم فيما تشتهون »

ولما أنحى أصحابه على أصحاب الفهري بالقتل يوم هزيمتهم على قرطبة قال

[١] هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل ، وذلك أنه لما أصاب دولتهم بالمشرق ما أصابها ، وتبع السفاح من بقي من بني أمية بالقتل والإهلاك ، فرَّ عبد الرحمن إلى الأندلس ، واستطاع بهيمته أن يؤسس هناك دولة أورثها عقبه حقة من الدهر ، وهي دولة بني أمية المغرب من سنة ١٣٨ إلى سنة ٤٢٢ هـ ، وكانت طاصمة ملكها قرطبة ، وهي مدينة على نهر الوادي الكبير

[٢] يوسف الفهري هو ابن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع باني القيروان وأمير معاوية على أفريقية والمغرب ، وكانت ولاية يوسف الفهري الأندلس سنة ١٢٩ فدانته له ثلث سنين وتسعة أشهر ، وعنه انتقل سلطانها إلى بني أمية .

« لا تستأصلوا شأفة ^(١) أعداءٍ ترجون صداقتهم ، واستبقوهم لأشدَّ عداوةً منهم »
 - يشير إلى استبقائهم ، ليُستعان بهم على أعداء الدين - . (فتح الطيب ٢ : ٧٠)

٢ - عبد الرحمن الداخل ورجل من جند قنسرين

ولما أذعن يوسف صاحب الأندلس لعبد الرحمن ، واستقر ملكه ، استحضر الوفود إلى قُرْطبة ، فاثالوا ^(٢) عليه ، ووالى القعود لهم في قصره عدة أيام ، في مجالسٍ يكلم فيها رؤساءهم ووجوههم ، بكلامٍ سرهم ، وطيب نفوسهم .
 وفي بعض مجالسهم هذه مثَّل بين يديه رجل من جند قنسرين ^(٣) يستجديه ، فقال له :

« يابن الخلائف الراشدين ، والسادة الأكرمين ، إليك فرزتُ ، وبك عُذتُ ، من زمن ظلوم ، ودهرٍ غشوم ، قَدَلَّ المال ، وكثُر العيال ، وشَعَّتْ ^(٤) الحال ، فصيرَ إلى نَدَاك المآلَ ، وأنت وليُّ الحمدِ والمجدِ ، والمرجوُّ للرفدِ ^(٥) »
 فقال له عبد الرحمن مسرعاً :

« قد سمعنا مقاتلك ، وقَضَيْنَا حاجتك ، وأمرنا بعَوْنِكَ على دهرِك ، على كُرْهنا لسوء مقامك ، فلا تعودنَّ ولاسِواك لمثله ، من إراقة ماء وجهك بتصریح المسألة ، والإلحاف في الطلبة ^(٦) ، وإذا ألمَّ بك خطبٌ ، أو حَزَبَكَ ^(٧) أمرٌ ، فارفعه إلينا في رُقعة لا تعدوك ، كما نستُرُ عليك خدَّتِكَ ، ونكفُ شماتَ العدو عنك ، بعد رفعك لها إلى مالِكِك ومالِكِنا - عزَّ وجهه - بإخلاصِ الدعاء ، وصدقِ النية » .

[١] الشأفة : فرحة تخرج في أسفل القدم فتكوى فتذهب ، أو إذا قطعت مات صاحبها ، والأصل ،

استأصل الله شأفته : أذهب كما تذهب تلك الفرحة ، أو معناه أزاله من أصله .

[٢] اثال : انصب ، أى تتابعوا وتوافدوا عليه . [٣] بالشام .

[٤] شعت الأمر : نشره وفرقه . [٥] الرشد : العطاء والصلة .

[٦] الطلبة : الطلب . [٧] أى اشتدَّ عليك ، والحلَّة : الحاجة .

وأمر له بجائزة حسنة ، وخرج الناس يتعجبون من حسن منطقه ، وبراعة أدبه ، وكفّ فيما بعدُ ذوو الحاجات عن مقابله بها شفاهاً في مجلسه .

(نفع الطيب ٢ : ٦٨)

٣ - عبد الرحمن الداخل ورجل من جنده يهنئه بفتح سر قسطة

ولما فتح عبد الرحمن الداخل سر قسطة^(١) ، وَحَصَلَ فِي يَدِهِ نَائِرُهَا الْحَسِينِ الْأَنْصَارِي ، وَاتَّهَى نَصْرُهُ فِيهَا إِلَى غَايَةِ أَمَلِهِ ، أَقْبَلَ خَوَاصُّهُ يَهْنِئُونَهُ ، فَجَرَى بَيْنَهُمْ أَحَدٌ مِنْ لَا يُؤْتِبُهُ بِهِ مِنَ الْجُنْدِ ، فَهَتَّاهُ بِصَوْتِ عَالٍ ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : « وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ هَذَا الْيَوْمَ يَوْمٌ أَسْبَغَ عَلَيَّ فِيهِ النِّعْمَةَ مَنْ هُوَ فَوْقِي ، فَأَوْجَبَ عَلَيَّ ذَلِكَ أَنْ أَنْعِمَ فِيهِ عَلَيَّ مَنْ هُوَ دُونِي ، لِأَصْلِيَّتِكَ مَا تَعَرَّضْتَ لَهُ مِنْ سُوءِ الْمَسْكَالِ ، مَنْ تَكُونُ ؟ حَتَّى تُقْبَلَ مُهْنِتًا رَافِعًا صَوْتِكَ ، غَيْرَ مُتَلَجِّجٍ وَلَا مُتَهَيِّبٍ لِمَسْكَانِ الْإِمَارَةِ ، وَلَا عَارِفٍ بِقِيَمَتِهَا ، حَتَّى كَأَنَّكَ تَخَاطَبُ أَبَاكَ أَوْ أَخَاكَ ! وَإِنَّ جَهْلَكَ لِيَحْمِلُكَ عَلَى الْعَوْدِ لِمِثْلِهَا ، فَلَا تَجِدُ مِثْلَ هَذَا الشَّافِعِ فِي مِثْلِهَا مِنْ عَقُوبَةٍ . »

فَقَالَ : « وَلَعَلَّ فَتُوحَاتِ الْأَمِيرِ يَقْتَرِنُ اتِّصَالُهَا بِاتِّصَالِ جَهْلِي وَذَنُوبِي ، فَتَشْفَعَ لِي مَتَى أَتَيْتَ بِمِثْلِ هَذِهِ الزَّلَّةِ ، لِأَعِدَ مِنْهُ اللَّهُ تَعَالَى . »

فتهلل وجه الأمير ، وقال : ليس هذا باعتذار جاهل ، ثم قال : نبهونا على أنفسكم إذا لم تجدوا من يذنبنا عليها ، ورفع مرتبته وزاد في عطائه . (نفع الطيب ٢ : ٧٠)

٤ - تأديب عبد الرحمن الأوسط لابنه المنذر

كَانَ الْمَنْذَرُ بْنُ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَوْسَطِ^(٢) سَيِّئُ الْخُلُقِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ ، كَثِيرُ الْإِصْغَاءِ إِلَى أَقْوَالِ الْوُشَاةِ ، مُفْرِطُ الْقَلْتِ مِمَّا يُقَالُ فِي جَانِبِهِ ، مُعَاقِبًا عَلَى

[١] مدينة على نهر لمبره . [٢] هو عبد الرحمن الأوسط (الثاني) ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، حكم الأندلس من سنة ٢٠٦ إلى سنة ٢٣٨ هـ .

ذلك من يقدر على معاقبته ، مكثر التشكى ممن لا يقدر عليه لوالده الأمير عبد الرحمن ، فطال ذلك على الأمير ، فأمر ثقةً من ثقاته أن يبني بجبل منقطع عن العمران بناءً يُسكن فيه ابنه ، والأيدع أحداً من أصحابه يزوره ، فلما استقر المنذر في ذلك المكان ، وبقي وحده ، ونظر إلى ما سلبه من الملك ، ضَجِرَ وقال للثقة : عسى أن يصلني غاماني وأصحابي آنسُ بهم ! فقال له : إن الأمير أمر ألاَّ يصلك أحد ، وأن تبقى وحدك ، لتستريح مما يرفع لك أصحابك من الوشاية ، فعلم أن الأمير قصد بذلك محنته وتأديبه ، فكتب إليه يشكو استيحاشه^(١) بمكانه ، فاما وقف الأمير على رُقعته ، وعلم أن الأدب بلغ به حَقَّهُ استدعاه ، فقال له :

« وصلت رُقعتك ، تشكو ما أصابك من توحش الانفراد ، في ذلك الموضع ، وَتَرَعَبَ أن تَأْسَ بِخَوْلِكَ^(٢) وعبيدك وأصحابك ، وإن كَانَ لك ذنب يترتب عليه أن تطول سُكنائك في ذلك المكان ، وما فعلتُ ذلك عقاباً لك ، وإنما رأيناك تُكثِر الضَجْرَ والتشكى من القال وَالْقِيل ، فأردنا راحتك بأن نَحْجُبَ عنك سماعَ كلامٍ من يَرَفَعُ لك وَيَنِمُّ ، حتى تستريح منهم . »
فقال له : « سماعُ ما كنت أضجِرُ منه ، أخفُّ علىَّ من التوحد والتوحش ، والتخلِّي مما أنا فيه من الرفاهية والأمر والنهي . »

فقال له : « فَإِذْ قد عَرَفْتَ وتَأَدَّبْتَ ، فارجع إلى ما اعتدته ، وَعَوِّلْ على أن تسمع كأنك لم تسمع ، وترى كأنك لم تَرَ ، وقد قال النبي صلى الله

[١] ونس الكتاب : « لاني قد توحشت في هذا الموضع توحشا ما عليه من مزيد ، وعدمت فيه من كنت آنس إليه ، وأصبحت مسلوب العز ، فقيد الأمر والنهي ، فإن كان ذلك عقاباً لذنب كبير ارتكبه ، وعلمه مولاي ولم أعلمه ، فإني صابر على تأديبه ، ضارع إليه في عفوه وصفحته . »

وإن أمير المؤمنين ونعله لكالدهر، لاغار بما فعل الدهر»

[٢] الخول : مثال الخدم والحشم وزنا ومعنى .

عليه وسلم : « لو تكاشفتهم ما تدافنتم » ، واعلم أنك أقرب الناسِ إلىَّ ، وأحبهم فيَّ ، وبعد هذا فما يخلو صدرك في وقت من الأوقات عن إنكارِ عليَّ ، وسُخْط لما أفعله في جانبك ، أو جانب غيرك ، مما لو أطلعني الله تعالى عليه لساءني ، لكن الحمد لله الذي حَفِظَ ما بين القلوب ، بِسِتْرٍ بعضها عن بعض ، فيما يجول فيها ، وإنك لذو هِمَّةٍ وَمَطْمَحٍ ، ومن يكن هكذا يَصْبِرُ وَيُمْضِي وَيَحْمِلُ ، وَيُبْدِلُ بالعقاب الثوابَ ، ويصيِّرُ الأعداء من قبيل الأصحاب ، ويصبر من الشخص على ما يسوء ، فقد يَرَى منه بعد ذلك ما يَسُرُّ ، ولقد يخفُّ علىَّ اليومَ مَنْ قاسيتُ من فعله وقوله ما لو قطعتم عضواً عضواً لما ارتكبه مني ، ما شفيتُ منهم غيظي ، ولكن رأيت الإغضاء والاحتمال ، لا سيما عند الاقتدار أولى ، ونظرت إلى جميع مَنْ حولي ممن يُحْسِنُ وَيُسِيءُ ، فوجدت القلوب متقاربةً بعضها من بعض ، ونظرت إلى المسيء يعود محسناً ، والمحسن يعود مسيئاً ، وصرتُ أندم على من سَبَقَ له مني عقاب ، ولا أندم على من سَبَقَ له مني ثواب ؛ فالزَمَ يا بني معالي الأمور ، وإنَّ جماعها في التفاضي ، ومن لا يتفاض لا يسلم له صاحب ، ولا يُقَرَّبُ منه جانبٌ ، ولا ينال ما تترقُّ إليه همتهُ ، ولا يظفر بأمله ، ولا يجد مُعيناً حين يَحْتَاجُ إليه .

فقبل المنذريده وانصرف ، ولم يزل يأخذ نفسه بما أوصاه والده ، حتى تخلَّقَ بالخلق الجميل ، وبلغ ما أوصاه به أبوه ، ورُفِعَ قدره . (فتح الطيب ٢ : ٣٢٧)

ه - عبد الرحمن الأوسط وابنه المنذر أيضا

وقال له أبوه يوماً : إن فيك أتيهاً مُفْرِطاً ، فقال له : حُقَّ لفرع أنت أصله أن يعلو ، فقال له : يا بني ، إن العيون تَمُجُّ التَّيَّاهَ ، والقلوب تَنْفِرُ عنه ، فقال :

يا أباي ، لي من العزّ والنسب وعلوّ المكان والسلطان ما يَحِلُّ^(١) عن ذلك ، وإني لم أراعيونَ إلا مُقْبَلَةً عَلَيَّ ، ولا الأسماعَ إلا مُصْغِيَةً إِلَيَّ ، وإن لهذا السلطان رَوْنَقًا يُرِيْقُهُ التَبَدُّلُ ، وَعُلُوًّا يَخْفِضُهُ الانبساط ، ولا يصونه ويشرفه إلا التَّيِّهُ والانتقباض^(٢) ، وإن هوّلاء الأندال ، لهم ميزان يسْبُرُونَ^(٣) به الرجلَ منا ، فإن رَأَوْه راجحاً ، عَرَفُوا له قدرَ رَجَاحَتِهِ ، وإن رَأَوْه ناقصاً عاملوه بنقصه ، وصيِّروا تواضعه صِغْرًا ، وتخفُّضه خِسَّةً ، فقال له أبوه : لله أنت ! فابقَ وما رأيتَ .
(نفع الطيب ٢ : ٣٢٩)

٦ — يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط وأحد خدامه

ومدح بعض الشعراء يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط ، فأمر له بجال جزيل ، فلما كان مثل ذلك الوقت ، جاءه بمدحٍ آخر ، فقال أحد خُدَّام يعقوب :
هذا اللئيم له دَيْنٌ عِنْدَنَا يَقْتَضِيهِ ! فقال الأمير :

« يا هذا ، إن كان الله تعالى خلقك محبوباً على كُرهه رَبِّ الصنائع ، فاجرٍ على ما جُبِدَتْ عليه في نفسك ، ولا تكن كالأجرب يُعَدِّي غيره ، وإن هذا رجل قَصَدْنَا قَبْلُ ، فكان منا ما أشرَّ^(٤) به ، وحمله على العودة ، وقد ظن فينا خيراً ، فلا تخيِّبْ ظنَّه ، والحديثُ أبداً يحفظ القديم ، وقد جاءنا على جهة التهنئة بالعمر ، ونحن نسأل الله تعالى أن يُطِيلَ عمرنا ، حتى يكثرَ تَرَدُّده ، وَيُدِّيمَ نعمنا حتى

[١] في الأصل : « يحمل » ، وأرى صوابه : « يحل » .

[٢] جرى في ذلك على سنن أنى مسلم الحراساني ، وكان يقول لقواده إذا أخرجهم : « لا تكلموا الناس إلا رمزاً ، ولا تلحظوهم إلا شزراً ، لتتلى صدورهم من هيبكم » - انظر العقد الفريد ٢ : ٢٩٩ -

[٣] السبر : امتحان غور الجرح . [٤] أشر : مرح .

نجد ما نُنعِم به عليه ، ويحفظ علينا مُرُوءتنا ، حتى يعيننا على التجمل معه ، ولا يُبلينا بجليس مثلك ، يَقْبِضُ أَيْدِيَنَا عن إسداء الأيادي .

وأمر للشاعر بما كان أمر له به قبلُ ، وأوصاه بالعود عند حلول ذلك الأوان

ما دام العمر . (نفع الطيب ٢ : ٣٣٠)

٧ - وفاء الوزير ابن غانم لصديقه الوزير هاشم بن عبد العزيز

واعذاره عنه لدى الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط

كَانَ الوزير الوليد بن عبد الرحمن بن غانم صديقاً للوزير هاشم بن عبد العزيز ، ثابتاً على مودته ، فإِذَا قَضَى اللهُ عَلَى هَاشِمٍ بِالْأَسْرِ ، أَجْرَى السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأُمَوِيُّ^(١) ذِكْرَهُ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ خُدَّامِهِ ، وَالْوَلِيدُ حَاضِرٌ ، فَنَسَبَهُ إِلَى الطَّيْشِ وَالْعَجَلَةِ وَالِاسْتِبْدَادِ بِرَأْيِهِ ، فَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مَنْ اعْتَذَرَ عَنْهُ غَيْرَ الْوَلِيدِ ، فَقَالَ :

« أَصْلَحَ اللهُ تَعَالَى الْأَمِيرَ ، إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى هَاشِمٍ التَّخِيرُ فِي الْأُمُورِ ، وَلَا

الْخُرُوجَ عَنِ الْمَقْدُورِ ، بَلْ قَدْ اسْتَعْمَلَ جَهْدَهُ ، وَاسْتَفْرَغَ نَصَحَتَهُ ، وَقَضَى حَقَّ

الْإِقْدَامِ ، وَلَمْ يَكُنْ مَلَكَ النَّصْرِ بِيَدِهِ ، فَخَذَلَهُ مِنْ وَثْقِ بِهِ ، وَنَكَلَ عَنْهُ مَنْ كَانَ

مَعَهُ ، فَلَمْ يُزْحِجْ قَدَمَهُ عَنِ مَوْطِنِ حِفَاظِهِ ، حَتَّى مُلِكَ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ ، مُبْلِيًا

غَيْرَ فَشِيلٍ ، جُوزِي خَيْرًا عَنْ نَفْسِهِ وَسُلْطَانِهِ ، فَإِنَّهُ لَا طَرِيقَ لِلْمَلَامِ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ

عَلَيْهِ مَا جَنَّتَهُ الْحَرْبُ الْعَشُومُ ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ مَا قَصَدَ أَنْ يَجُودَ بِنَفْسِهِ إِلَّا رِضًا لِلْأَمِيرِ ،

وَاجْتِنَابًا لِلسُّخْطِهِ ، فَإِذَا كَانَ مَا اعْتَمَدَ فِيهِ الرِّضَا جَالِبَ التَّقْصِيرِ ، فَذَلِكَ مَعْدُودٌ

فِي سُوءِ الْحِظِّ .

[١] هو الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، حكم الأندلس من سنة ٢٣٨ إلى سنة ٢٧٣ هـ ، وكان غزاه لأهل الشرك والخلاف ، وربما أوغل في بلاد العدو ستة أشهر أو أكثر يجرق وينسف ، وله في العدو وقعة وادي سليط ، وهي من أمهات الوقائع لم يعرف مثلها في الأندلس قبلها .

فأعجب الأمير كلامه ، وشكر له وفاءه ، وأقصر عن تنفيذ هاشم ، وسمى
في تخليصه . (نفع الطيب ٢ . ٢٣٠)

٨ - خطبة منذر بن سعيد البلوطي ^(١) (المتوفى سنة ٣٥٥ هـ)

في الاحتفال بقدم رسل ملك الروم

روى المؤرخون أن الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله ^(٢) ، بلغ من عزّة
الملك ، ورفعة السلطان بالأندلس ، أن كانت ملوك الروم والإفرنجة تزُدِّف إليه ،
تطلب مُهادنته ، وشمدي إليه أنفس الذخائر ، ومن جملتهم قسطنطين بن ليون
صاحب القسطنطينية ، فقد رَغِبَ في موادعته ، وبعث إليه سنة ٣٣٨ هـ
وفداً من قبله بهدية له ، فتأهَّب الناصر لورودهم ، واحتفل بقدمهم احتفالاً
رائعاً ، أحبَّ أن يقوم فيه الخطباء والشعراء بين يديه ، لتذكّر جلالة ملكه ،
وعظيم سلطانه ، وتصف ما تهباً من توطيد الخلافة في دولته ، وتقدم إلى الأمير
الحكم ابنه ووليّ عهده ، بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء ، فأمر الحكم
صنيعه الفقيه محمد بن عبد البرّ بالتأهب لذلك ، وكان يدعى من القدرة على تأليف
الكلام ما ليس في وسع غيره ، وحضر المجلس السلطاني ، فلما قام يحاول التكلم ،
بهره هولُّ المقام ، وأبّهة الخلافة ، فلم يهتد إلى لفظه ، بل غشي عليه وسقط

[١] ولد سنة ٢٦٥ هـ ، وتوفى سنة ٣٥٥ هـ ، وكان خطيباً بليغاً عالماً بالجدل حاذقاً فيه ، شديد العارضة
حاضر الجواب عتيده ، ثابت الحجّة ، ولى بقرطبة قضاء الجماعة - المعبر عنه في المشرق بقضاء القضاة -
لعبد الرحمن الناصر ، ثم لابنه الحكم المستنصر ، ستة عشر طاماً من سنة ٣٣٩ إلى سنة ٣٥٥ هـ ، لم يحفظ
عليه فيها جور في قضية ، ولا قسم بغير سووية ، ولا ميل لهوى .

[٢] هو عبد الرحمن الثالث ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الثاني ابن الحكم بن هشام بن
عبد الرحمن الداخل ، حكم الأندلس من سنة ٣٠٠ هـ إلى سنة ٣٥٠ هـ ، وهو أول من تسمى من أمراء بني
أمية بالأندلس بأمر المؤمنين عندما التاها الخلافة بالمشرق ، وغلب موالى الترك على بني العباس ، وبلغه
أن المقتدر قتله مولاه مؤنس المظفر سنة ٣١٧ هـ .

إلى الأرض ، فقيل لأبي عليّ القالي - صاحب الأمل ، وهو حينئذ ضيف الخليفة الوafd عليه من العراق - : قم فارقع هذا الوهي^(١) ، فقام فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم انقطع به القول ، فوقف ساكتاً متفكراً في كلام يدخل به إلى ذكر ما أريد منه ، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد البلوطي - وكان ممن حضر في زُمرَة الفقهاء - قام من ذاته بدرجة من مرقاته ، فوصل افتتاح أبي عليّ لأول خطبته بكلام كان يسُحّه سحاً ، كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة ، فقال :

« أما بعد حمد الله، والثناء عليه، والتَّعَدَادُ لآلَائِهِ ، والشكر لِنِعْمَائِهِ ، والصلاة والسلام على محمد صَفِيهِ وخاتم أنبيائه ، فإن لكل حادثةٍ مقاماً ، ولكل مقام مقال ، وليس بعد الحق إلا الضلال ، وإني قد قمتُ في مقام كريم ، بين يَدَيِ مَلِكٍ عظيم ، فَأَصْغُوا^(٢) إلى معشر المَلَأَ بأسماعكم ، وَاتَّقِنُوا عني^(٣) بأفئدتكم ، إن من الحق أن يقال لِلْمُحِقِّ صدقتَ ، وَلِلْمُبْطِلِ كَذَبْتَ ، وإن الجليلَ تعالَى في سماءه ، وَتَقَدَّسَ في صفاته وأسمائه ، أمر كَلِيمَهُ موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه ، أن يذكر قومه بأيام الله جل وعز عندهم ، وفيه وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، وإني أذكركم بأيام الله عندهم ، وَتَلَا فِيهِ لَكُمْ بخلافة أمير المؤمنين ، التي لَمَّتْ شَعْمَكُمْ ، وَأَمَنْتَ سِرْبَكُمْ^(٤) ، ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلاً فكثركم ، ومستضعفين فقواكم ، وَمُسْتَذَلِّينَ فنصركم ، وَلِأَنَّ الله رعايتكم ، وأسند

[١] الوهي : الشق في الشيء . [٢] الذي في كتب اللغة : « أصغى إليه سمعه : أماله ، وأصغى

إليه : مال بسمعه نحوه » ولعل زيادة الباء في « بأسماعكم » من النسخ لا من الخطيب .

[٣] هكذا في نصح الطيب ، وفي مطمح الأنفس : « ومنوا عليّ بأفئدتكم » .

[٤] السرب : النفس .

إليه إمامتكم ، أيام ضَرَبَتُ الفتنَةُ سُرادِقَها على الآفاق ، وأجاطت بكم سُعلَ النفاق ، حتى صرتم في مِثْلِ حَدَقَةِ البعير ، من ضيقِ الحال ، ونكدِ العيش والتغيير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة الرخاء ^(١) ، وانتقلتم يَمُنُّن سياسته إلى تمهيد كَنَفِ العافية بعد استيطان البلاء .

أَلشُدُّكم بالله معاشرِ المَلَأ ، ألم تكن الدماء مسفوكة فحَقَنها ، والسُّبُلُ مَحْوُوفَةٌ ، فأمنها ، والأموال متتهبَةٌ فأحرزها وحَصَّنَها ؟ ألم تكن البلاد خراباً فعمَرها ، وثغور المسامين مُهْتَضَمَةٌ فحماها ونصرها ؟ فاذكروا آلاءَ الله عليكم بخلافته ، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته ، حتى أذهب الله عنكم غيظكم ، وَشَفَى صدوركم ، وَصَرِّمَ يداً على عدوكم ، بعد أن كَانَ بِأُسُكُمْ بينكم .

فَأَشُدُّكم الله ، ألم تكن خلافته قُفْلُ الفتنَةِ بعد انبلاجها من عِقالها ؟ ألم يَتَلَاَفَ صَلَاحَ الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ؟ ولم يَكِلِ ذلك إلى القُواد والأجناد ، حتى باشره بالقُوَّةِ والمُهْجَةِ والأولاد ، واعتزل النَّسوان ، وهجر الأوطان ، ورَفَضَ الدَّعَةَ ، وهي محبوبة ، وترك الرُّكُونِ إلى الراحة ، وهي مطلوبة ، بِطَوِيَّةٍ صَحِيحَةٍ ، وعزيمة صريحة ، وبصيرة ثابتة ، نافذة ناقبة ، وريح هابئة غالبة ، وَأُصْرَةٌ من الله واقعة واجبة ، وَسُلْطَانٌ قاهر ، وَجِدٌّ ظاهر ، وسيف منصور ، تحت عدل مشهور ، متحملاً لِلنَّصَبِ ، مستقلاً لما ناله في جانب الله من التعب ، حتى لانت الأحوال بعد شدتها ، وانكسرت شوكة الفتنَةِ عند حِدَّتِها ، ولم يبق لها غارِبٌ إِلاجِبَةٌ ^(٢) ، ولا نَجْمٌ ^(٣) لأهلها قرْنٌ إِلاجِدَّهُ ،

[١] في الأصل « فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء » والصواب ما ذكرنا :

[٢] الغارب : الكاهل ، أو ما بين السنام والعتق ، وجبته : قطعه .

[٣] في الأصل : « نجح » وهو تحريف ، والصواب « نجم » أى ظهر وطلع ، وجده : قطعه .

فأصبحتم بنعمة الله إخواناً ، و بِلِمِّ أمير المؤمنين لَشَعْنِكُمْ على أعدائه أعواناً ، حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم ، وآمال الأَقْصَيْنِ والأَذْنَيْنِ مستخدمةً إليه وإليكم ، يأتون من كل فجٍّ عميق ، وبلد سَحِيق ^(١) ، لأخذ حَبَل ^(٢) بينه وبينكم جُمَلَةً وتفصيلاً ، لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ، وإن يُخَلِّفَ اللهُ وعده ، ولهذا الأمر ما بعده ، وتلك أسباب ظاهرة بادية ، تدل على أحوال باطنة خافية ، دليلها قائم ، وَجَفَنَهَا غير قائم « وَعَدَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا » ، وليس في تصديق ما وَعَدَّ اللهُ ارتياب ، ونكل نبأٍ مُسْتَقَرًّا ، ولكل أجلٍ كتابٌ ، فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه ، واسألوه المزيد من نعمائه ، فقد أصبحتم بين ^(٣) خِلافة أمير المؤمنين - أيده الله بالعِصْمَةِ والسداد ، وألهمه خالص التوفيق إلى سبيل الرشاد - أحسن الناس حالاً ، وأنعمهم بالآ ، وأعزهم قراراً ، وأمنهم داراً ، وأكثفهم جمعاً ، وأجملهم صنماً ، لا تُشْهَاجُونَ ولا تُذَادُونَ ، وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرين ، فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم ، والتزام الطاعة لخليفتم وابن عمِّ نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فإن من نزع يده من الطاعة ، وسعى في تفريق الجماعة ، وَمَرَقَ من الدين ، فقد خَسِرَ الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

[١] سحيق : بعيد . [٢] أى معاودة بينه وبينكم . [٣] هكذا في فتح الطيب ، ومطعم الأَنْفَسِ ، ولعلَّ صوابه : « أصبحتم بخلافة أمير المؤمنين » .

وقد علمتم أن في التعلق بمِعْصَمَتِهَا ، والتمسك بِعُرْوَتِهَا ، حفظ الأموال ، وَحَقْنُ الدَّمَاءِ ، وَصِلَاحُ الْخَاصَّةِ وَالذَّهْمَاءِ^(١) ، وَأَنْ بَدَاوِمَ^(٢) الطَّاعَةِ تُقَامُ الْحُدُودُ ، وَتَوْفَى الْعُهُودُ ، وَبِهَا وَصِلَتِ الْأَرْحَامُ ، وَوَضَّحَتِ الْأَحْكَامُ ، وَبِهَا سَدَّدَ اللَّهُ الْخَلَلَ ، وَأَمَّنَ السَّبِيلَ ، وَوَطَّأَ الْأَكْنَافَ ، وَرَفَعَ الْاِخْتِلَافَ ، وَبِهَا طَابَ لَكُمْ الْقَرَارُ ، وَاطْمَأْنَنَتِ بَكُمْ الدَّارُ ، فَاعْتَصِمُوا بِمَا أَمَرَكُمْ اللَّهُ بِالْاِعْتِصَامِ بِهِ ، فَإِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ : « وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ » ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَحَاطَ بِكُمْ فِي جَزِيرَتِكُمْ هَذِهِ مِنْ ضُرُوبِ الْمُشْرِكِينَ ، وَصُنُوفِ الْمُلْجِدِينَ السَّاعِينَ فِي شَقِّ عَصَاكُمْ ، وَتَفْرِيقِ مَلَيْكِكُمْ ، الْآخِذِينَ فِي مَخَاذِلِ دِينِكُمْ ، وَهَتَّكَ حَرِيمِكُمْ ، وَتَوْهِينَ دَعْوَةَ نَبِيِّكُمْ ، صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامِهِ عَلَيْهِ ، وَعَلَى جَمِيعِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَخْتَمُ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، مُسْتَغْفِرًا لِلَّهِ الْغَفُورِ الرَّحِيمِ ، فَهُوَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ .

وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه ، وثبات جنانه ، وبلاغة لسانه ، وكان الناصر أشدهم تعجباً منه ، فولاه الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء ، ثم ثوَّفِي مُحَمَّدُ بْنُ عَيْسَى الْقَاضِي ، فَوَلَّاهُ قِضَاءَ الْجَمَاعَةِ بِقَرْطَبَةِ ، وَأَقْرَّهُ عَلَى الصَّلَاةِ بِالزَّهْرَاءِ . (نهج الطيب ١ : ١٧٢ ، ومطمح الأنفس ص ٤٢)

٩ - خطبة أخرى له

وخطب منذر بن سعيد يوماً - وأراد التواضع - فكان من فصول خطبته ، أن قال :

« حتى متى ، وإلى متى ، أعظ ولا أتعظ ، وأزجر ولا أنزجر ؟ أدل الطريق

[١] الدهماء : جماعة الناس . [٢] في الأصل : « بقوام » ، وأظنه : « بدوام » .

إلى المستدلين ، وَأَبْقَى مَقِيماً مَعَ الْحَاطِرِينَ ! كَلَّا ، إِنَّ هَذَا لَهُو الْبَلَاءُ الْمَبِينُ ! إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ ، وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ، أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ، اللَّهُمَّ فَرِّغْنِي لِمَا خَلَقْتَنِي لَهُ ، وَلَا تَشْغَلْنِي بِمَا تَكْفَلْتَنِي لِي بِهِ ، وَلَا تَحْرِمْ نِي وَأَنَا أَسْأَلُكَ ، وَلَا تَعْذِّبْنِي وَأَنَا أَسْتَغْفِرُكَ ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ » . (فتح الطب ١ : ٢٢٣)

١٠ - أحد حساد الرمادى الشاعر والمنصور بن أبى عامر

(المتوفى سنة ٣٩٤ هـ)

وقال المنصور بن أبى عامر المَعَاظِرِيُّ ^(١) يوماً لأبى عمر يوسف الرّمادىّ الشاعر : كيف ترى حالك ممي ؟ فقال : « فوق قدرى ، ودونَ قدرك ^(٢) » ، فأطرقَ المنصور كالغضبان ، فأَنَسَلَ الرّمادىّ وخرج وقد نَدِمَ على ما بَدَرَ منه ، وجعل يقول : أخطأتُ ! لا والله ، ما يُفْلِحُ مع الملوك من يعاملهم بالحق ، ما كَانَ ضَرَّنِي لو قلت له : إني بلغتُ السماء ، وتمنّطتُ بالجوزاء ! وأنشد :

متى يأتِ هذا الموتُ لا يُلْفِ حَاجَةً لِنَفْسِي إِلَّا قَدْ قَضَيْتُ قَضَاءَهَا
وكان في المجلس من يحسّده على مكانه من المنصور ، فوجد فُرْصَةً فقال :

[١] هو المنصور أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبى عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المازنى . دخل جده عبد الملك الأندلس مع طارق ، وكان عظيماً في قومه ، وله في الفتح أثر ، وكان الحكم بن الناصر قد استوزر ابن أبى عامر ، وفوض إليه أموره ، وترقت حاله عنده ، ثم توفى الحكيم سنة ٣٦٦ هـ ، وولى بعده ابنه هشام ، وكانت سنة تسع سنين ، فحدث ابن أبى عامر نفسه بالتغلب عليه لصغر سنه ، وتم له ما أمل ، فتغلب عليه ، وتربع على سرير الملك ، وأمر أن يجيأ بتحية الملوك ، وتسمى بالحاجب المنصور ، ونفذت الكتب والمحاطبات والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة ، ولم يبق لهشام من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء له على المنابر ، وكتابة اسمه في السكة والطرز ، وهلك المنصور أعظم ما كان ملكاً سنة ٣٩٤ هـ لسبع وعشرين سنة من ملكه .

[٢] يريد « ودون ما ينبغي أن يعطيه مثلك لثلى » .

« وَصَلَ اللَّهُ لِمَوْلَانَا الظَّفَرَ وَالسَّعْدَةَ ، إِنَّ هَذَا الصَّنِيفَ صَنَفَ زُورَ وَهَدْيَانَ ، لا يشكرون نعمة ، ولا يرعون إلا^(١) ولا ذمّة ، كلابٌ مَنْ غَلَبَ ، وأصحابٌ مَنْ أَخْصَبَ ، وأعداءٌ مَنْ أَجْدَبَ ، وَحَسْبُكَ مِنْهُمْ أَنْ اللَّهُ جَلَّ جلاله يقول فيهم : « وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » والابتعاد منهم أولى من الاقتراب ، وقد قيل فيهم : ما ظننك بقومٍ ، الصدقُ يستحسن إلاّ منهم ؟ » .

* *

رفع المنصور رأسه - وكان مُحَامِي أهل الأدب والشعر - وقد اسودَّ وجهه ، وظهر فيه الغضب المفرط ، ثم قال :

« ما بال أقوام يُسَيِّرُونَ في شَيْءٍ لم يُسْتَشَارُوا فيه ، ويسميئون الأدبَ بالحكمم فيما لا يدرون ، أَيُرْضَى أم يُسَخِطُ ؟ وأنت أيها المبتعث للشرِّ دون أن يُبْعَثَ ، قد عَلِمْنَا غرضَكَ في أهل الأدب والشعر عامّةً ، وَحَسَدُكَ لَهُمْ ، لأنَّ الناسَ كما قال القائل :

من رأى الناسُ له فضـ - إلاّ عليهم حسدوه

وَعَرَفْنَا غرضَكَ في هذا الرجل خاصّةً ، ولسنا إن شاء الله نبلغ أحداً غرضه في أحد ، ولو بلغناكم بلغنا في جانبكم ، وإنك ضربت في حديد بارد^(٢) ، وأخطأت وجه الصواب ، فزدت بذلك احتقاراً وصغاراً ، وإني ما أطرقتُ من كلام الرمادى إنكاراً عليه ، بل رأيت كلاماً يجِلُّ عن الأقدار الجليلة ، وَتَعَجَّبْتُ من تهديبه له

[١] الإلّة : العهد .

[٢] من أمثال العرب : « تفرب في حديد بارد » وهو مثل يضرب لمن طمع في غير مطمع .

بسرعة ، واستنباطه له على قلة من الإحسان الغامر ، ما لا يستنبطه غيره بالك :
 والله لو حكّمته في بيوت الأموال ، لرأيت أنها لا ترجح ما تكلم به قلبه ذرّة
 وإياكم أن يعود أحد منكم إلى الكلام في شخص ، قبل أن يؤخذ معه فيه ، ولا
 تحكّموا علينا في أوليائنا ، ولو أبصرتم منا التغير عليهم ، فإننا لا نتغيّر عليهم
 بغضاً لهم ، وانحرافاً عنهم ، بل تأديباً وإنكاراً ، فإننا من نريد إبعاده لم نُظهِر له
 التغيّر ، بل نبذّه مرة واحدة ، فإن التغيّر إنما يكون لمن يُراد استبقاؤه ، ولو
 كنتُ مائل السمع لكل أحد منكم في صاحبه ، لتفرقتم أيدي سبّا (١) ،
 وجؤنبتُ أنا مجانبة الأجر ، وإني قد أطلعتكم على ما في ضميري ، فلا تعدلوا
 عن مرّضاتي ، فتجنّبوا سُخْطِي بما جئتموه على أنفسكم »

* * *

ثم أمر أن يُردّ الرمادي ، وقال له : أعدّ على كلامك ، فارتاع ، فقال :
 الأمرُ على خلاف ما قدرت ، الثوابُ أولى بكلامك من العقاب ، فسكن
 لتأنيسه ، وأعاد ما تكلم به

فقال المنصور : « بلغنا أن النعمان بن المنذر حشاً فمّ النابغة بالدُر ، لكلام
 استملحه منه ، وقد أمرنا لك بما لا يقصّر عن ذلك ، ما هو أنوّه وأحسن عائدةً ،
 وكتب له بجمال وخِلاع وموضع يعيش منه ، ثم رد رأسه إلى المتكلم في شأن
 الرمادي - وقد كان يفوص في الأرض لو وجد ، لشدة ما حلّ به مما رأى وسمع -

[١] من أمثالهم أيضاً : « ذهبوا أيدي سبّا ، وتفرقوا أيدي سبّا ، وأيادي سبّا » ، واليد : الطريق
 أي فرقهم طرفهم التي سلكوها كما تفرق أهل سبّا في مذاهب مختلفة . ضرب انثل بهم ، لأنه لما غرق مكانهم ،
 وذهبت جناتهم ، تبددوا في البلاد - انظر القصة في الجزء الأول صفحة ٣٤٥ - وقد بنوا أيدي سبّا ،
 وأيادي سبّا على السكون لكونه مركبا تركيب خمسة عشر .

وقال : « وَالْعَجَبُ مِنْ قَوْمٍ يَقُولُونَ : الْإِبْتِعَادُ مِنَ الشُّعْرَاءِ أَوْلَى مِنْ الْإِقْتِرَابِ ، نَعَمْ ، ذَلِكَ لِمَنْ لَيْسَ لَهُ مَفَاخِرٌ ، يُرِيدُ تَخْلِيدَهَا ، وَلَا أَيَادٍ يَرْغَبُ فِي نَشْرِهَا ، فَأَيْنَ الَّذِينَ قِيلَ فِيهِمْ :

عَلَى مُكَثَرِيهِمْ رَزَقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمْ وَعِنْدَ الْمُقَلِّينَ السَّمَاةُ وَالْبَدَلُ^(١) وَأَيْنَ الَّذِي قِيلَ فِيهِ :

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو ذُلْفٍ بَيْنَ مَبْدَاهِ وَمُحْتَضَرِهِ
فَإِذَا وَلَّى أَبُو ذُلْفٍ وَوَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ^(٢)

أَمَا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ أَكْرَمُ مَنْ قِيلَ فِيهِ هَذَا الْقَوْلُ ؟ بَلَى ، وَلَكِنْ مُحِبَّةُ الشُّعْرَاءِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، أَحْيَتْ غَابِرَ ذِكْرِهِمْ ، وَخَصَّتْهُمْ بِمَفَاخِرِ عَصْرِهِمْ ، وَغَيْرِهِمْ لَمْ تَخْلُدِ الْأَمْدَاخُ^(٣) مَا تَرَاهُمْ ، فَدَثَّرَ ذِكْرَهُمْ ، وَدَرَسَ نَجْمُهُمْ .

(فتح الطيب ٢ : ٢٢٦)

١١ - ابن اللبانة الشاعر وعز الدولة بن المعتصم بن صمادح

لَمَّا مَاتَ الْمُعْتَصِمُ بْنُ صَمَادِحٍ^(٤) مَلِكُ الْمَرْيَةِ رَكِبَ الْبَحْرَ ابْنُهُ وَوَلَّى عَهْدَهُ الْوَائِقُ عِزُّ الدَّوْلَةِ ، وَفَارَقَ الْمَلِكُ كَمَا أَوْصَاهُ وَالِدُهُ الْمُعْتَصِمُ .

[١] البيت لزهير بن أبي سلمى من قصيدة في مدح آل هرم بن سنان .

[٢] البيتان لعلي بن جبلة الأنباري الملقب بالكوك من قصيدة قالها في مدح أبي ذلف انفاسم بن عيسى العجلي - وكان جواداً ممدحاً - وفيها يقول :

كل من في الأرض من عرب بين يديه إلى حضره
مسـتعير منه مكرمة يكنسها يوم مفتخره

وهذا البيتان الأخيران أحفظا عليه الأمون ، فطلبه حتى ظفر به ، فسلّ لسانه من قناه ، ويقال : بل هرب ولم يزل متوارياً منه حتى مات ، قال صاحب الأغاني : « وهذا هو الصحيح من القواين ، والآخر شاذ » .

[٣] لم أجد هذا الجمع في كتب اللغة ، وإنما الذي فيها : « المدحة بالسكسر والمدح والأمدوحة بالضم : ما يمدح به ، والجمع مدح كعنب ومدائح وأمدائح » .

[٤] هو أحد ملوك الطوائف بالأندلس ، وكان صاحب المرية « بلد بالأندلس على الساحل الجنوبي » ، وكان منافقاً للمعتد بن عباد صاحب إشبيلية مناوئاً له ، وقد سمي به لدى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين

قال أبو بكر بن اللبّانة الشاعر: ما علمتُ حقيقةَ جَوْزِ الدهرِ ، حتى اجتمعت
ببجاية^(١) مع عزّ الدولة بن المعتصم ، فإنني رأيت منه خيراً من يُجتمَع به ، كأنه
لم يخلقه الله تعالى إلا المُلْكِ والرياسة ، وإحياء الفضائل ، ونظرت إلى همته تَنِمُّ
من تحت مُحمّوله ، كما يَنِمُّ فِرِيدُ^(٢) السيفِ وَكَرْمُهُ من تحت الصِّدَأِ ، مع حفظه
لفنون الأدب والتواريخ ، وحسن استماعه وإسماعه ورقّة طباعه ، ولطافة ذهنه ،
ولقد ذكرته لأحد من صحبته من الأدياء في ذلك المكان ، ووصفته بهذه
الصفات ، فتشوّق إلى الاجتماع به ، وَرَغِبَ إِلَيَّ في أن أستأذنه في ذلك ، فلما
أعلمت عزّ الدولة قال :

« يا أبا بكر ، إنك لتعلم أنا اليومَ في مُحمولٍ وَضِيقٍ ، لا يتسع لنا معهما ، ولا
يجمُل بنا الاجتماعُ مع أحد ، لا سيما مع ذى أدب ونباهة ، يلقانا بعين الرحمة ،
ويزورنا بمنّة التفضل في زيارتنا ، ونكابد من أفاظ توجّعهِ ، وألحاظ تفجّعهِ ،
ما يجدد لنا همّاً قد بَلَى ، وَيُحْيِي كهداً قد فَنِي ، ومالنا قدرة على أن نجود عليه
بما يَرْضَى عن همّنا ، فَدَعْنَا كأننا في قبر ، تدرّع لسِهامِ الدهرِ ، بِدِرْعِ الصبرِ ،
وأما أنت فقد اختلطت بنا اختلاط اللحم بالدم ، وامتزجت امتزاج الماء بالخر ،
فكأننا لم نكشِفِ حالنا لسِوانا ، ولا أظهرنا ما بنا لغيرنا ، فلا نحمل غيرك بحملك .
قال ابن اللبّانة : فلا والله سمعي بلاغةً لا تصدُرُ إلا عن سَدَادٍ ، ونفسي أبيعة
متمكنة من أعنة البيان ، وانصرفت متمثلاً :

وأفسد ما بينهما ، وكان ابن عباد قد استنصر ابن تاشفين لصد غارة الإسبان ، فمهر بجيشه من مراكش
إلى الأندلس ، وأبلى بلاء حسناً في قتالهم حتى دارت عليهم الدائرة في وقعة الزلاقة ، ثم مال على ملوك
الطوائف ، فاكسح دولهم ، ودانت له الأندلس . [١] بجاية : بلد بالمغرب على ساحل بلاد الجزائر .
[٢] جوهرة .

لسانُ الفتى نصفٌ ، وَنِصْفٌ فَوَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالِدَمِ .
وَكَأَنَّ تَرَى مِنْ صَامَتٍ لَكَ مُعْجَبٍ زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَّكَلُّمِ (١)
(فتح الطيب ٢ : ٢٢٨)

١٢ - دفاع ابن الفخار عن القاضي الوحيدى

بحضرة ابن تاشفين

لَمَّا تَأَبَّ بَنُو حَسُونٍ عَلَى الْقَاضِي أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ الْوَحِيدِي قَاضِي مَالِقَةَ (٢) ،
انبرى للدفاع عنه العالم الأصولى أبو عبد الله بن الفخار ، فقصده إلى حضرة
الإمامة « مرّاكش » ، وقام فى مجلس أمير المسلمين ، يوسف بن تاشفين ، وقد
غصَّ بأربابه ، فقال :

« إِنَّهُ لَمَقَامٌ كَرِيمٌ ، نَبَدَأُ فِيهِ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى الدُّنُوءِ مِنْهُ ، وَنُصَلِّى عَلَى خَيْرَةِ أَنْبِيَائِهِ ،
مُحَمَّدِ الْمَهَادَى إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبَاتِهِ . نَجُومِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ (٣) ،
أَمَا بَعْدُ ، فَإِنَّا نَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي اصْطَفَاكَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَمِيرًا ، وَجَعَلَكَ لِلدِّينِ الْحَنِيفِيِّ
نَصِيرًا وَظَهِيرًا ، وَتَفَرَّعَ إِلَيْكَ مِمَّا دَهَمَنَا (٤) فِي حِمَاكَ ، وَنَبُتٌ إِلَيْكَ مَا لَحِقْنَا مِنْ
الضَّمِيمِ ، وَنَحْنُ تَحْتَ ظِلِّ عِلَاكَ ، وَيَأْبَى اللَّهُ أَنْ يُدْهَمَ مِنْ أَحْتَمَى بِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ،
وَيُضَابَ بِضِيمٍ مَنْ أَدْرَعَ بِحِصْنِهِ الْحَصِينَ ، شَكْوَى قَمْتِ بَهَا بَيْنَ يَدَيْكَ ، فِي
حَقِّ أَمْرِكَ الَّذِي عَضَدَهُ (٥) مَوَيْدَهُ ، لَتَسْمَعُ مِنْهَا مَا تَحْتَبِرُهُ بِرَأْيِكَ وَتَنْقُدُهُ ، وَإِنْ
قَاضِيَاكَ ابْنَ الْوَحِيدِي الَّذِي قَدَّمْتَهُ فِي مَالِقَةَ لِلْأَحْكَامِ ، وَرَضِيْتِ بَعْدَلَهُ فِيمَنْ بَهَا

[١] اليتان زهير بن أبى سلمى من معلقته . [٢] بلد بالأندلس على الساحل الجنوبي .

[٣] الأسود . [٤] دمه كسمع ومنع : غشيه .

[٥] عضده كنصره : أصاب عضده ، والمراد بمؤيده بنو حسون ، والمعنى : إن بنى حسون - وكانوا
أحق بتأييد أمرك وتوطيده - قد أوهنوه وأوهوه بتمرضهم لأحكام القاضي ، والظعن فيها ، أو معنى
عضده : نصره ، فالمراد بمؤيده القاضي الوحيدى ، والمعنى على ذلك ، إن اتقاضى القائم بأمرك يدأب على
نصره ، وتثبيت دعائمه ، باتهاجه طريق الحق فى حكمه ، ولو غضب من جراء ذلك فريق من الرعية .

من الخِصَّة والعوام ، لم يزل يَدُلُّ على حسن اختيارك بِحُسْن سيرته ، وَيُرْضِي
 اللَّهُ تَعَالَى وَيُرْضِي النَّاسَ بِظَاهِرِهِ وَسِرِّيهِ ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، وَلَا دَرَيْنَا
 لَهُ مَوْقِفٍ خِزْيٍ ، وَلَمْ يَزَلْ جَارِيًا عَلَى مَا يُرْضِي اللَّهُ تَعَالَى وَيَرْضِيكَ وَيَرْضِينَا ،
 إِلَى أَنْ تَعْرَضْتَ بِنَوْحِ سُونٍ لِلطَّعْنِ فِي أَحْكَامِهِ ، وَالْهَدِّ مِنْ أَعْلَامِهِ ، وَلَمْ يَعَامُوا
 أَنْ اهْتِضَامَ الْمَقْدَمِ ، رَاجِعَ عَلَى الْمَقْدَمِ ، بَلْ جَمَحُوا فِي لَجَاجِهِمْ ، فَعَمَّوْا وَصَمَّوْا ،
 وَفَعَلُوا وَأَمْضَوْا مَا بِهِ هُمُومًا ، وَإِلَى السُّحْبِ يَرْفَعُ الْكِفَّ مِنْ قَدْ جَفَّ عَنْهُ مَسِيلٌ
 عَيْنٍ وَنَهْرٌ .

فَلَا سَمِعَهُ بِبَلَاغَةِ أَعْقَبَتْ نَصْرَهُ وَنَصَرَ صَاحِبَهُ . (فتح الطيب ٢ : ٢٤٠)

١٣ — موعظة ابن أبي رندقة الطرطوشي المتوفى سنة ٥٢٠ هـ

للأفضل بن أمير الجيوش

دخل ابن أبي رندقة الطرطوشي^(١) مرة على الأفضل^(٢) بن أمير الجيوش

فوعظه ، وقال له :

« إن الأمر الذي أصبحت فيه من الملك ، إنما صار إليك بموت من كان

قبلك ، وهو خارجٌ عن يدك ، بمثل ما صار إليك ، فاتق الله فيما خولك من هذه

الأمّة ، فإن الله عزَّ وجلَّ سائلُك عن التَّقِيرِ والقَمِطِيرِ والْفَتِيلِ^(٣) ، واعلم أن الله

[١] هو الفقيه العالم أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهرى الطرطوشي

(بضم الطاءين ، وقد تفتح الطاء الأولى ، نسبة إلى طرطوشة من بلاد الأندلس) ويعرف بابن أبي رندقة
 وكان زاهداً عابداً متورطاً متقللاً من الدنيا قوَّالاً للحق ، رحل إلى المشرق ، ودخل بغداد والبصرة ،
 وسكن الشام مدة ، ودرس بها ، وكان الأفضل بن أمير الجيوش يكرهه ، فلما ولى بعده المأمون بن البطحاخي
 أكرم الطرطوشي إكراماً كثيراً ، وله ألف الشيخ « سراج الملوك » وتوفى بالاسكندرية سنة ٥٢٠ هـ .

[٢] هو الوزير الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش المشهور ، وكان أبوه بدر الجمالي حاكم عكا ، فأرسل
 إليه الخليفة الفاطمي المستنصر يسأله القدوم إلى مصر لإصلاح أحوالها المضطربة إذ ذاك ، فقدم إليها ، وتولى
 شئونها ، وأقام معوجها ، وصارت له فيها الكلمة النافذة ، ثم لابنه الأفضل .

[٣] التقير : النقرة التي في ظهر النواة ، والقمير : القشرة الرقيقة التي بين النواة والتمر ، والفتيل :

ما يكون في شق النواة .

عز وجل آتى سليمان بن داود ملك الدنيا بحدافيرها ، فسخر له الإنس والجِن والشياطين والطير والوحوش والبهائم ، وسخر له الريح تجرى بأمره رُخاءً^(١) حيث أُصاب ، ورفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال عز من قائل : « هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ^(٢) أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ، فاعد ذلك نعمة كما عددتموها ، ولا حسبها كرامةً كما حسبتموها ، بل خاف أن يكون استدراجاً من الله عز وجل فقال : « هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ، لِيَبْلُوَنِي^(٣) أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ » ، فافتح الباب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم . (نفع الطيب ١ : ٢٦٣)

١٤ - خطبة ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين

(المتوفى سنة ٥٣٤ هـ)

استدعى محمد بن عبد الله بن تومرت^(٤) مؤسس دولة الموحدين أصحابه ، قبل موته بأيام يسيرة ، وقد أراد أن يستخلف عليهم عبد المؤمن بن علي ، فاما حضروا بين يديه قام :

[١] الرخاء : الريح اللينة . [٢] أى فأعط منه من شئت . [٣] بلاه : اختبره .

[٤] هو محمد بن عبد الله بن تومرت من جبل السوس في أقصى بلاد المغرب ، ولد سنة ٤٨٥ هـ ، ورحل إلى المشرق سنة ٥٠١ هـ في طلب العلم ، وانتهى إلى بغداد ، وقيل إنه لقي أبا حامد الغزالي ، ثم رجع إلى المغرب ، وفامت دعوته في أول الأمر في صورة أمر بالمعروف ، ناه عن المنكر ، فاتبعه بعض القوم ، وخرج هو وأصحابه إلى السوس ، وشرع في التدريس والدعاء إلى الخير ، وما زال يستميل القلوب حتى كثرت شيعته ، ثم جعل يذكر المهدي ويشوق إليه ، وجمع الأحاديث التي جاءت فيه ، فلما قرر في نفوسهم فضيلة المهدي ، ادعى ذلك لنفسه ، وتسمى بالمهدي ، ورفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وادعى إنه من نسل الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وصرح بدعوى العصمة لنفسه ، وأنه المهدي المعصوم ، وروى في ذلك أحاديث كثيرة حتى استتقر عندهم أنه المهدي ، فبايعوه على ذلك ، ولما كانت سنة ٥١٧ هـ جهز جيشاً عظيماً - وكانت سراكش تحت إمرة المرابطين - يقال : اتصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسماوا بالمرابطين ، فادعومهم إلى إمارة المنكر ، وإحياء المعروف ، وإزالة البدع ، والإقرار بالإمام المهدي المعصوم ، فإن أجاوبكم فهم إخوانكم ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، وإن لم يفعلوا فقاتلوم فقد أباحت لكم السنة قتالهم ، وأمر على الجيش عبد المؤمن بن علي ، فخرجوا إلى سراكش فلقبهم المرابطون

فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين ، رضوان الله عليهم ، ويذكر ما كانوا عليه من الثبات في دينهم ، والعزيمة في أمرهم ، وأن أحدهم كان لا تأخذه في الله لومة لأثم ، وذكر من حدّ عمر رضى الله عنه ابنه في الحجر ، وتصميمه على الحق ، في أشباه هذه الفصول ، ثم قال :

فانقرضت هذه العصابة ، نضر الله وجوهها ، وشكر لها سعيها ، وجزاها خيراً عن أمة نبيها ، وخبطت الناس فتنة تركت الحليم حيران ، والعالم متجاهلاً ، مداهناً ، فلم ينتفع العلماء بعلمهم ، بل قصّدوا به الملوك ، واجتلبوا به الدنيا ، وأمالوا وجوه الناس إليهم ، في أشباه لهذا القول ، إلى هلمّ جراً .

ثم إن الله سبحانه - وله الحمد - منّ عليكم - أيها الطائفة - بتأييده ، وخصّكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده ، وقبض^(١) لكم من^(٢) ألفاكم ضلالاً لا انتهتون ، وعمياً لا تبصرون ، لا تعرفون معروفًا ، ولا تُنكرُونَ منكرًا ، قد فشت فيكم البدع ، واستهوتكم الأباطيل ، وزين لكم الشيطان أضاليل وترهات^(٣) ، أنزّه لسانى عن النطق بها ، وأزبأ^(٤) بلفظى عن

قريباً منها بجيش ضخم أميرهم الزبير بن على بن يوسف بن تاشفين ، فدعواهم إلى ما أمرهم به ابن تومرت فردوا عليهم أسوأ رد ، ثم التقت الثمان ، فانهزم أصحاب ابن تومرت وقتل منهم خلق كثير ، فلما رجع القوم إلى ابن تومرت جعل يهون عليهم أمر الهزيمة ، ويقرّر في نفوسهم أن قتلاهم شهداء ، لأنهم ذابون عن دين الله ، فزادهم ذلك بصيرة في أمرهم ، وحرصاً على لقاء عدوهم ، وجعلوا يشنون الغارات على نواحي مراکش ويقتلون ويسبون ولا يقفون على أحد من قدروا عليه ، وكثر الداخلون في طاعتهم ، ولم يزل أصحابه ظاهرين ، وأحوال المرابطين تختل ، وانتقاض دولتهم يترايد ، إلى أن توفى ابن تومرت سنة ٥٣٤ هـ بعد أن أسس الأمور ، وأحكم التدبير ، وقام بأمر الموحدين من بعده عبد المؤمن بن على . وقد استوثق له الأمر بموت على بن يوسف بن تاشفين ملك المرابطين سنة ٥٣٧ هـ .

[١] أتاح لكم وسبب وهياً . [٢] يعنى نفسه . [٣] جمع ترهه : وهى الباطل .

[٤] ارتفع .

ذكرها ، فهذا كم الله به بعد الضلالة ، وبصركم بعد العمى ، وجمعكم بعد الفرقة ، وأعزكم بعد الذلة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين ^(١) ، وسيؤرثكم أرضهم وديارهم ، ذلك بما كسبته أيديهم ، وأضرته قلوبهم ، وما ربك بظلام للعبيد .
 جددوا لله سبحانه خالص نيّاتكم ، وأرؤوه من الشكر قولاً وفعلماً ما يُزكى به سعيكم ، ويتقبل أعمالكم ، وينشر أمركم ، واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة ، وشتات الآراء ، وكونوا يداً واحدةً على عدوكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك ، هابكم الناس ، وأسرعوا إلى طاعتكم ، وكثرت أتباعكم ، وأظهر الله الحق على أيديكم ، وإلاً تفعلوا شملكم الذلّ ، وعممكم الصغار ^(٢) ، واحتقرتكم العامة ، فتخطفتكم الخاصة ، وعليكم في جميع أموركم بمنزج الرأفة بالغلظة ، واللين بالعنف ، واعلموا مع هذا أنه لا يصلح أمر آخر هذه الأمة ، إلا على الذي صلح عليه أمر أولها .

وقد اخترنا لكم رجلاً منكم ، وجعلناه أميراً عليكم ، هذا بعد أن بلّوناه ^(٣) في جميع أحواله ، من ليله ونهاره ، ومدخله ومخرجه ، واختبرنا سريرته وعلايته ، فرأيناه في ذلك كله ثبّتاً ^(٤) في دينه ، متبصّراً في أمره ، وإني لأرجو أن لا يخلف الظن فيه ، وهذا المشار إليه هو : « عبد المؤمن » ، فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعاً مطيعاً لربه ، فان بدّل أو نكص على عقبه ، أو ارتاب في أمره ، ففي الموحدّين - أعزّم الله - بركة وخير كثير ، والأمر أمر الله يقّله من شاء من عباده .

فبايع القوم عبد المؤمن ، ودعا لهم ابن تومرت .

(المعجب ، في تاريخ أخبار المغرب ص ١٠٨)

١٥ - مقال لسان الدين بن الخطيب (المتوفى سنة ٧٧٦ هـ)
في الحُضِّ على الجهاد

وقال لسان الدين بن الخطيب ^(١) في الحُضِّ على الجهاد ^(٢)

« أيها الناس - رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى - :

إخوانكم المسامون بالأندلس قد دهمهم العدو - قصمهم الله تعالى - ساحتهم ،
ورام الكفر - خذله الله تعالى - استباحتهم ، وزحفت أحزاب الطواغيت
إليهم ، ومدد الصليب ذراعيه عليهم ، وأيديكم - بعزة الله تعالى - أقوى ، وأنتم
المؤمنون أهل البر والتقوى ، وهو دينكم فانصروه ، وجواركم القريب فلا
تُخفروهم ^(٣) ، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه ، الجهاد الجهاد فقد تعين ،
الجار الجار فقد قرر الشرع حقه وبيّن ، الله الله في الإسلام ، الله الله في أمة
محمد عليه الصلاة والسلام ، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله ، الله الله في
وطن الجهاد في سبيل الله ، قد استغاث بكم الدين فأغيثوه ، قد تأكد عهد الله

[١] هو لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد المشهور بابن الخطيب خاتمة أدباء الأندلس ، ولد بقرنطة سنة ٧١٣ ، وكان أول أمره في عداد كتاب السلطان أبي الحجاج يوسف أحد ملوك بني الأحمر ، ثم اصطفاه وجعله وزيره ، وفوّض إليه شئون مملكته ، ولما مات أبو الحجاج ، وخلفه ابنه محمد أمره على الوزارة ، ثم وثب إسماعيل أخو السلطان على مملكته ، فاضطر أن ينادره إلى المغرب مع وزيره لسان الدين ، فلما تحسنت الأحوال عاد محمد إلى مملكته ، وبقي مدة كتب له فيها ابن زمرك أحد تلاميذ لسان الدين ، ثم عاد لسان الدين إلى قرنطة ، وحل مكانه من سلطانه ، فألهب ذلك نار الحسد في ابن زمرك وأنصاره ، فسموا به إليه حتى أحفظوه عليه ، فهرب إلى المغرب - وكان في حوزة بني مرين ، وهم من البربر . حكموا المغرب بعد الموحدن من سنة ٦٦٨ إلى سنة ٨٩٠ هـ - فأكرمه سلطان المغرب عبد العزيز ، وخطب ابن الأحمر في أهله وولده ، فبعثهم إليه إلى أن مات (عبد العزيز) ، وثار أحد أمراء بني مرين على ابن عبد العزيز ، وساعده ملك بني الأحمر بشرط تسليمه ابن الخطيب ، وتم له أمره ، وقبض عليه ، وسجن بغاس ، ونوظر في كلمات له في كتابه « الحجة » وأفتى الفقهاء بقتله ، فدمس عليه من خنقه في سجنه سنة ٧٧٦ .

[٢] وكان سلطانه محمد بن أبي الحجاج أسفروه إلى ملوك بني مرين يستنجدم على الإسبان .

[٣] أخفروه : غدر به ونقض عهده .

وحاشاكم أن تنكثوه، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة، أعانكم الله تعالى عند الشدائد، جددوا عوائد الخير، يصل الله تعالى لكم جميل العوائد، صلوا رحم الكامة^(١)، واسئوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسامة، كتاب الله بين أيديكم، والسنة الآيات تُناديكم، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة فيكم، والله سبحانه يقول فيه: «يأيتها الذين آمنوا هل أذلكم على تجارة تُنجيكم»، ومما صح عنه قوله: «من أغبرت قدماءه في سبيل الله حرهما الله على النار»، «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم»، «من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا»، أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت، بادروا على الإسلام قبل أن يموت، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عبادته، جاهدوا في الله بالألسن والأقوال حق جهاده:

ماذا يكون جوابكم لنبيكم وطريق هذا العذر غير مُهدد
 إن قال: لم فرطتمو في أممي وتركتموهم للعدو المعتدى؟
 تالله لو أن العقوبة لم تُخف لكفى الحياء من وجه ذلك السيد

اللهم اعطف علينا قلوب العباد، اللهم بثنا الحمية في البلاد، اللهم دافع عن الحريم والضعيف والأولاد، اللهم انصرنا على أعدائك، بأحبائك وأوليائك، يا خير الناصرين، اللهم أفرغ علينا صبراً، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

(فتح الطيب ٤ : ٣)

١٦ - ماخاطب به لسان الدين تربة السلطان الكبير أبي الحسن المريني
وخاطب لسان الدين بن الخطيب تربة السلطان الكبير أبي الحسن المريني
لما قصدها عقب ما شرع في جواره ، فقال :

« السلام عليك ثم السلام ، أيها المولى الهمام ، الذى عرف فضله الإسلام ،
وأوجبت حقه العلماء الأعلام ، وخفقت بعز نصره الأعلام ، وتنافست فى
إنفاذ أمره ونهيه السيوف والأقلام ، السلام عليك أيها المولى الذى قسم زمانه
بين حكم فصل ، وإمضاء نصل ، وإحراز خصل ^(١) ، وعبادة قامت من اليقين
على أصل ، السلام عليك يا مقرر الصدقات الجارية ، ومُشبع البطون الجائعة ،
وكاسى الظهور العارية ، وقادح زناد العزائم الوارية ، ومكتب الكتاب الغازية ،
فى سبيل الله تعالى والسرايا ^(٢) السارية ، السلام عليك يا حجة الصبر والتسليم ،
ومتلقى أمر الله تعالى بالخلق المرضي والقلب السليم ، ومفوض الأمر فى الشدائد
إلى السميع العليم ، ومعمل البنان الطاهر فى اكتاب الذكر الحكيم ، كرم
الله تعالى تربتك وقدسها ، وطيب روحك الزكية وآنسها ، فلقد كنت للدهر
جمالا ، وللإسلام ثمالا ^(٣) ، وللمستجير مجيراً ، وللمظلوم ولياً ونصيراً ، لقد كنت
لمحارب صدراً ، وفى المواكب بذكراً ، وللمواهب بجزراً ، وعلى العباد والبلاد
ظلاً ظليلاً وسيراً ، لقد فرعت ^(٤) أعلام عرك الثنايا ، وأجزأت همتك لملوك
الأرض الهدايا ، كأنك لم تعرض الجنود ، ولم تنشر البنود ^(٥) ، ولم تبسط العدل

[١] الحصل : الغلبة فى النضال . [٢] السرايا جمع سرية وهى من خمسة أنفس إلى ثلثائة
أو أربعمائة . [٣] الثمال : الغياث الذى يقوم بأمر قومه .
[٤] فرعت : علت ، والثنايا : جمع نفة كهدية ، وهى العتبة ، أو الجبل ، أو الطريقة فيه .
[٥] البنود جمع بند كشمس : وهو العلم الكبير .

المحدود ، ولم تُوجد الجود ، ولم تزين الرُكع السُّجود ، فتوسَّدت الثرى ، وأطلت الكرى ، وشربت الكأس التي يشربها الورى ، وأصبحت ضارع^(١) الخد ، كليل الحد ، سالكاً سنن الأب والجد ، لم تجذ بعد انصرام أجلك ، إلا صالح عمك ، ولا صحت قبرك ، إلا رابح تجرك^(٢) ، وما أسلفت من رضاك وصبرك ، فسال الله تعالى أن يؤنس اغترابك ، ويجود بسحاب الرحمة تُرابك ، وينفعك بصدق اليقين ، ويجعلك من الأئمة المتقين ، ويُعلي درجتك في عليين^(٣) ، ويجعلك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين .

وَلِيَهْنِكَ أَنْ صَيَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مَلَكَكَ مِنْ بَعْدِكَ ، إِلَى نَيْرِ سَعْدِكَ ، وَبَارَقَ رَعْدِكَ ، وَمُنْجَزَ وَعْدِكَ ، أَرْضَى وَلَدِكَ ، وَرَيْحَانَةَ خَلْدِكَ^(٤) ، وَشِقَّةَ نَفْسِكَ ، وَالسَّرْحَةَ الْمُبَارَكَةَ مِنْ غَرَسِكَ ، وَنُورَ شَمْسِكَ ، وَهُوَ صِلَ بِعَمَلِكَ الْبَرِّ إِلَى رَمْسِكَ ، فَقَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ أَثَرُ دَعْوَاتِكَ ، فِي خَلَوَاتِكَ ، وَأَعْقَابِ صَلَوَاتِكَ ، فَكَامَتْكَ وَالْمِنَّةُ لِلَّهِ تَعَالَى بَاقِيَةً ، وَحَسَنَتِكَ إِلَى مَحَلِّ الْقَبُولِ رَاقِيَةً ، يَرَعَى بِكَ الْوَسِيلَةَ ، وَيَتِمُّ مَقَاصِدَكَ الْجَمِيلَةَ ، أَعَانَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِبِرِّكَ رِضَاكَ عَلَى مَا قَلَّدَهُ ، وَعَمَرَ بِتَقْوَاهُ يَوْمَهُ وَعَدَهُ ، وَأَبْعَدَ فِي السَّعْدِ أَمَدَهُ ، وَأَطْلَقَ بِالْخَيْرِ يَدَهُ ، وَجَعَلَ الْمَلَائِكَةَ أَنْصَارَهُ وَالْأَقْدَارَ عَدَدَهُ . وَإِنِّي أَيُّهَا الْمَوْلَى الْكَرِيمُ ، الْبَرُّ الرَّحِيمُ ، لَمَّا اشْتَرَانِي ، وَرَاشَنِي^(٦) وَبَرَّانِي ، وَتَعَبَّدَنِي بِإِحْسَانِهِ ، وَاسْتَعْمَلَ فِي اسْتِخْلَاصِي خَطَّ بَنَانِهِ ، وَوَصِيَّةَ لِسَانِهِ ، لَمْ أَجِدْ مِكَافَأَةً إِلَّا التَّقَرُّبَ إِلَيْكَ وَإِلَيْهِ بَرْنَائِكَ ، وَإِعْرَاءَ لِسَانِي بِتَخْلِيدِ عَلَيَانِكَ ، وَتَعْفِيرِ

[١] ذليل . [٢] تاجر تجراً وتجارة .

[٣] اسم لأعلى الجنة ، أو هو كتاب جامع لأعمال الخير . [٤] الخلد : النفس والقلب .

[٥] الشقّة : نصف الشيء إذا شق ، والسرحة : الشجرة العظيمة .

[٦] راح السهم : ألق عليه الريش ، وراش الصديق : أطعمه وسقاه وكساه وأصلح حاله .

الْوَجْهَةَ فِي حَرَمِكَ ، وَالْإِشَادَةَ بَعْدَ الْمَمَاتِ بِمَجْدِكَ وَكَرَمِكَ ، فَفَتَحْتَ الْبَابَ فِي هَذَا الْغَرَضِ ، إِلَى الْقِيَامِ بِحَقِّكَ الْمَفْتَرَضِ ، الَّذِي لَوْلَاهُ لَاتَّصَلَتِ الْغَفْلَةُ عَنْ أَدَائِهِ وَتَمَادَّتْ ، فَمَا يَسَّتِ الْأَلْسُنُ وَلَا كَادَتْ ، مُتَحَيِّزًا بِالسَّبْقِ ، إِلَى أَدَاءِ هَذَا الْحَقِّ ، بَادِئًا بِزِيَارَةِ قَبْرِكَ الَّذِي هُوَ رَحْلَةُ الْغَرْبِ ، مَا نَوَيْتَهُ مِنْ رَحْلَةِ الشَّرْقِ ، وَمَا أَعْرَضْتَ عَنْهُ فَاقْطَعُهُ أَثْرَ مَوَاقِعِ الْإِسْتِحْسَانِ ، وَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ الشُّكْرِ وَالتَّنْوِيهِ وَالْإِحْسَانِ ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يَجْعَلُهُ عَمَلًا مَقْبُولًا ، وَيَبْلُغُ فِيهِ مِنَ الْقَبُولِ مَأْمُولًا ، وَيَتَغَمَّدُ مِنْ ضَاجِعَتِهِ مَنْ سَلَفَكَ الْكِرَامَ بِالْمَنْفَرَةِ الصَّيْبَةِ ، وَالتَّحِيَّاتِ الطَّيِّبَةِ ، فَتَعْمُ الْمُلُوكُ الْكِبَارَ ، وَالْخُلَفَاءُ الْأَبْرَارَ ، وَالْأَعْمَةُ الْأَخْيَارَ ، الَّذِينَ كَرُمَتْ مِنْهُمْ السَّيَرُ وَحَسُنَتْ الْأَخْبَارُ ، وَسَعَدَ بِعَزَمَاتِهِمُ الْجِهَادِيَّةِ الْمُؤْمِنُونَ وَشَقِيَ الْكُفَّارُ ، وَصَلَوَاتُ اللَّهِ تَعَالَى عَوْدًا وَبَدَأً عَلَى الرَّسُولِ الَّذِي اصْطَفَاهُ وَاخْتَارَهُ فَهُوَ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارُ ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ هُمْ السَّادَةُ الْأَبْرَارُ ، وَسَلِمَ تَسْلِيمًا . (نهج الطيب ٤ : ١٣٥)

١٧ - وصية لسان الدين بن الخطيب لأولاده

« الحمد لله الذي لا يُرْوَعُهُ الْجِمَامُ الْمَرْقُوبُ ، إِذَا شِيمَ ^(١) نَجْمُهُ الْمُتَقُوبُ ، وَلَا يَبْنَعْتُهُ الْأَجَلُ الْمَكْتُوبُ ، وَلَا يَفْجُوهُ الْفِرَاقُ الْمَعْتُوبُ ، مُلْهِمُ الْهَدَى الَّذِي تَطْمَئِنُّ بِهِ الْقُلُوبُ ، وَمَوْضِعُ السَّبِيلِ الْمَطْلُوبِ ، وَجَاعِلُ النَّصِيحَةِ الصَّرِيحَةِ مِنْ قِسْمِ الْوَجُوبِ ، لَا سِيَّمَا لِلْوَالِيِّ الْمَحْبُوبِ ، وَالْوَالِدِ الْمَنْسُوبِ ، الْقَائِلِ فِي الْكِتَابِ الْمُعْجِزِ الْأَسْلُوبِ : « أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ^(٢) » ، « وَوَصَّى بِهَا

[١] من شام البرق : نظر إليه أين يقصد ، وأين يطر . [٢] وتتمام الآية الكريمة : « إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »

إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ^(١) ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله ،
 أكرم من زُرْتُ على نُورِهِ جُيُوبُ الْغُيُوبِ ، وَأَشْرَفُ مَنْ خُلِعَتْ عَلَيْهِ حُلُلُ
 الْمَهَابَةِ وَالْعِصْمَةِ ، فَلَا تَقْتَحِمُهُ^(٢) الْعُيُونُ ، وَلَا تَصِمُهُ الْعُيُوبُ ، وَالرِّضَا عَنْ آلِهِ
 وَأَصْحَابِهِ الْمَثَابِرِينَ عَلَى لِسَانِ^(٣) الْاِسْتِقَامَةِ بِالْهَوَى الْمَغْلُوبِ ، وَالْأَمَلِ الْمَسْلُوبِ ،
 وَالْاِقْتِدَاءِ الْمَوْصِلِ الْمَرْغُوبِ ، وَالْعِزِّ وَالْأَمْنِ مِنَ اللَّغُوبِ^(٤) ، وَبَعْدُ : فَإِنِّي لَمَّا
 عَلَانِي الْمَشِيبِ بِقِمَّتِهِ^(٥) ، وَقَادِنِي الْكِبَرِ بِرُمَّتِهِ^(٦) ، وَأَدَّكَرْتُ الشَّبَابَ بَعْدَ
 أُمَّتِهِ^(٧) ، أَسِفْتُ لِمَا أَضَعْتُ ، وَنَدِمْتُ بَعْدَ الْفِطَامِ عَلَى مَا رَضَعْتُ ، وَتَأَكَّدَ
 وَجُوبُ نَصْحِي لِمَنْ لَزِمَنِي رَعِيَّهُ ، وَتَعَلَّقَ بَعَيْنِي سَعِيَّهُ ، وَأَمَلْتُ أَنْ تَتَعَدَّى إِلَيَّ
 ثَمْرَةٌ اسْتِقَامَتِهِ وَأَنَا رَهِينُ قَوَاتِ ، وَفِي بَرْزَخِ أَمْوَاتِ ، وَيَأْمَنُ الْعَثُورُ فِي الطَّرِيقِ
 الَّتِي اقْتَضَتْ عِثَارِي ، إِنْ سَلَكَ - وَعَسَى الْأُيُوكُنُ ذَلِكَ - عَلَى آثَارِي ، فَقَلْتُ
 أَخَاطِبُ الثَّلَاثَةَ الْوَالِدَ ، وَثَمَرَاتِ الْخَلْدِ^(٨) بَعْدَ الضَّرَاعَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي تَوْفِيقِهِمْ ،
 وَإِبْضَاحِ طَرِيقِهِمْ ، وَجَمْعِ تَفْرِيقِهِمْ ، وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيَّ مِنْهُمْ بِحَسَنِ الْخَلْفِ ،
 وَالتَّلَافِي مِنْ قَبْلِ التَّلَفِ ، وَأَنْ يَرْزُقَ خَلْفَهُمُ التَّمَسُّكَ بِهَدْيِ السَّلَفِ ، فَهُوَ وَوَلِيٌّ
 ذَلِكَ ، وَالْهَادِي إِلَى خَيْرِ الْمَسَالِكِ : اءَامُوا هِدَاكُمُ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي بَأْنَوَارِهِ تَهْتَدِي

[١] وتَمَامُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : « إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ ، قَالَ أَسَلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَوَصَّى بِهَا
 إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » .

[٢] تَزْدَرِيهِ وَتَحْتَقِرُهُ ، وَوَصَمَهُ : طَابَهُ . [٣] اللسان : الرسالة .

[٤] اللغوب : أشد الإعياء . [٥] القمة : أعلى كل شيء .

[٦] الرمة بالضم ويكسر : قطعة من حبل .

[٧] الأمة هنا : الحين ، اقتبسه من قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » .

[٨] الخلد : القلب والنفس .

الضَّلَالِ ، وَبِرِضَاهُ تُرْفَعُ الْأَغْلَالُ ، وَبِالْتِمَاسِ قُرْبِهِ يَحْصُلُ الْكَمَالُ ، إِذَا ذَهَبَ
 الْمَالُ ، وَأَخْلَفَتِ الْأَمَالُ ، وَتَبَرَّاتُ مِنْ يَمِينِهَا الشَّمَالُ ، أَنَى مُوَدَّعِكُمْ وَإِنْ سَأَلْتَنِي
 الرَّدَى ، وَمُفَارِقُكُمْ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى ، وَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا ، فَكَيْفَ وَأَدَوَاتُ
 السَّفَرِ تُجْمَعُ ، وَمَنَادَى الرَّحِيلِ يُسْمَعُ ، وَلَا أَقْلٌ لِلْحَيْبِ الْمُوَدَّعِ ، مِنْ وَصِيَّةِ
 مُحْتَضِرٍ ، وَتَجَالَةِ مُقْتَصِرٍ ، وَرَتِيمَةٍ ^(١) تُعْقَدُ فِي خِنْصِرٍ ، وَنَصِيحَةٍ تَكُونُ نَشِيدَةً ^(٢)
 وَإِعْجَابٍ مُبْصِرٍ ، تَتَكَفَّلُ لَكُمْ بِحَسَنِ الْعَوَاقِبِ مِنْ بَعْدِي ، وَتَوْضِيحٍ لَكُمْ مِنَ الشَّفِيقَةِ
 وَالْحَنُوقِ قَصْدِي ، حَسْبَمَا تَضْمَنُ وَعَدُّ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ وَعْدِي ، فَهِيَ أَرْبُكُمْ الَّذِي
 لَا يَتَغَيَّرُ وَقْفُهُ ، وَلَا يَنَالُكُمْ الْمَكْرُوهُ مَا رَفَّ عَلَيْكُمْ سَقْفُهُ ، وَكَأَنِّي بِشَبَابِكُمْ قَدْ
 شَاحَ ، وَبِرَاحِلِكُمْ قَدْ أَنَاخَ ، وَبِنَاشِطِكُمْ قَدْ كَسَلِ ، وَاسْتَبَدَلَ الصَّابَ ^(٣) مِنْ
 الْمَسَلِ ، وَأَنْصُولُ ^(٤) الشَّيْبِ تَرَوِّعُ بِأَسَلِ ، لَا بِلِ السَّامِ ^(٥) مِنْ كُلِّ حَدَبٍ قَدْ
 نَسَلِ ، وَالْمَعَادُ اللَّحْدُ وَلَا تَسَلْ ، فَبِالْأَمْسِ كَسْتُمْ فِرَاحَ حِجْرٍ ^(٦) ، وَالْيَوْمَ أَبْنَاءُ
 عَسْكَرٍ حَجْرٍ ، وَغَدًا شَيْوِخَ مَضْيَعَةٍ وَهَجْرٍ ، وَالْقَبُورُ فَاعْرَةَ ^(٧) ، وَالنَّفُوسُ عَنْ
 الْمَالُوفَاتِ صَاغِرَةَ ، وَالدُّنْيَا بِأَهْلِهَا سَاخِرَةَ ، وَالْأَوْلَى تَعْقُبُهَا الْآخِرَةَ ، وَالْحَازِمُ مِنْ لَمْ
 يُتَمَّظْ بِهِ فِي أَمْرٍ ، وَقَالَ : « بِيَدِي لَا يَبِيدُ عَمْرُو ^(٨) » ، فَاقْتَنُوهَا مِنْ وَصِيَّةِ ،

[١] الرتيمة : خيط يعقد في الإصبع للتذكير .

[٢] الصاب : عصارة شجر مرّ . [٣] النصول جمع نصل : وهو حديدة الرمح والسيف ،
 والأسل : الرماح . [٤] السام : الموت ، والحذب : ما ارتفع من الأرض ، ونسل كضرب : أسرع
 والمعاد : المرجع . [٥] أي كالفرأخ في حجر أمها وحضنها ، والحجر : الكثير من كل شيء ، وجيش
 بحر : كثير جدا . [٦] أي فاتحة أنوآها للوق .

[٧] هو مثل قاتله الزباء ملكة الجزيرة ، وذلك أنها كانت دعت جذيمة الأبرش ملك ما على شاطئ
 الفرات إلى زواجها ، فلما استقرت عندها قتله ثأراً بأبيها - وكان جذيمة قد قتله - فاحتال مولاه قصير للنأر
 منها ، فجدع أنفه وأثر آثاراً بظهره ، ثم خرج إلى الزباء ، وأظهر أن عمرو بن عدى - ابن أخت جذيمة -
 فدا ذلك به ، وأنه زعم أنه مكر بخاله جذيمة وغره من الزباء ، فلما استرسلت إليه ووثقت به ، زين لها

وَمَرَامٍ^(١) فِي النَّصْحِ قَصِيَّةٌ ، وَخُضُّوا بِهَا أَوْلَادَكُمْ إِذَا عَقَلُوا ، لِيَجِدُوا زَادَهَا إِذَا
 انْتَقَلُوا ، وَحَسْبِي وَحَسْبِكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَخْلُقِ الْخَلْقَ هَمَلًا ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ
 أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَلَا رَضِيَ الدُّنْيَا مَنْزِلًا ، وَلَا لَطْفَ بِنِ أَصْبَحَ عَنْ فِتْنَةِ الْخَيْرِ مُنْعَزِلًا ،
 وَلِتَلْقَنُوا تَلْقِينًا ، وَتَعَلَّمُوا عِلْمًا يَقِينًا ، أَنْتُمْ لَنْ تَجِدُوا بَعْدَ أَنْ أَنْفَرَدَ بِذَنبِي ،
 وَيَفْتَرِشَ التُّرَابَ جَنبِي ، وَيَسُحَّ انْسِكَابِي ، وَتَهْرُوِلْ عَنِ الْمَصْلِيِّ رِكَابِي ، أَحْرَصَ
 مِنِّي عَلَى سَعَادَةٍ إِلَيْكُمْ تُجَلِّبُ ، أَوْ غَايَةِ كَمَالٍ بِسَبْبِكُمْ تُرْتَادُ وَتُطَلَّبُ ، حَتَّى لَا يَكُونَ
 فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا أَوْرَفُ^(٢) مِنْكُمْ ظِلًّا ، وَلَا أَشْرَفُ مَحَلًّا ، وَلَا أَغْبَطُ نَهْلًا وَعَلًّا^(٣) ،
 وَأَقْلُ مَا يَجِبُ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُصَيِّخُوا^(٤) إِلَى قَوْلِي الْآذَانَ ، وَتَسْتَاهِبُوا صُبْحَ
 نُصْحِي فَقَدْبَانَ ، وَسَأُعِيدُ عَلَيْكُمْ وَصِيَّةَ لُقْمَانَ ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ :
 « وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكََ أَظْلَمُ
 عَظِيمٌ » - « يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ
 عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ، وَلَا تُصَعِّرْهُ^(٥) خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا

أن تبعته إلى العراق ليحمل إليها من طرائفها وثباها وطيبها ، وأنها ستصيب في ذلك أربابا عظاما ، فأذنت
 له وقدم العراق ، وأتى الحيرة متكرراً ، وزوده عمرو بصوف البر والأتمعة ، ورجع إلى الرباء ، فأنجبها
 ما رأته وسرها ، وازدادت به ثقة ، وجهازته ثانية ، فسار حتى قدم على عمرو فجهزه وعاد إليها ، ثم عاد
 الثالثة وجمع ثقات من رجال عمرو ، وحملهم في الغرائر على الجمال ، وسار إلى الرباء ، ودخلت الإبل المدينة
 - وكانت الرباء قد حذرت عمراً ، واتخذت نفقاً إلى حصن لها في داخل مدينتها ، وفاتت : إن جئاني أمر
 دخل النفق إلى حصني - ودلته قصير عمراً على باب الفق ، فلما خرجت الرجل من الغرائر صاحوا بأهل
 المدينة ووضعوا فيهم السلاح ، وقام عمرو على باب النفق ، وأقبلت الرباء تريد الفق ، فأبصرت عمراً ففرقت
 بالصورة التي صورت لها - فصبت خاتمها وكان فيه اسم ، وقالت : « بيدي لا يبيد عمرو » فدهبت مثلاً ،
 وتلقاها عمرو فخلها بالسيف وقتلها ، وأصاب ما أصاب من المدينة وأهلها ، وانكفأ راجعاً إلى العراق .

[١] مرام : جمع مرى ، وقصية : بعيدة .

[٢] ورف الظل : اتسع وطال وامتد . [٣] الهل : الشرب الأوّل ، والعلّ : والشرب

الثاني أو الشرب بعد الشرب تباراً . [٤] أصاخ له : استمع . [٥] صعر خده : أماله كبراً .

تَمَشُّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، وَأَقْصِدْ فِي مَشِيكَ،
وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » ، وأعيد وصية
خليل الله وإسرائيل، حُكْمٌ ^(١) مَا تَضَمَّنَتْهُ حُكْمٌ تَنْزِيلُهُ : « يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى
لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » والدين الذي ارتضاه واصطفاه ،
وأكملَه ووفاه ، وقرَّره مُصْطَفَاهُ ، من قبل أن يتوفاه ، إذا أُعْمِلَ فِيهِ انْتِقَادٌ ،
فهو عمل واعتقاد ، وكلاهما مُقَرَّرٌ ، ومستمدٌّ من عقل أو نقل محرر ، والعقل
متقدِّمٌ ، وبنائوه مع رَفْضِ أَخِيهِ مَتَهْدِمٌ ، فالله واحد أحد ، فَرَدَّ صَمَدٌ ^(٢) ،
ليس له والد ولا ولد ، تَنْزَهُ عَنِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ ، وَسَبَقَ وَجُودُهُ وَجُودَ الْأَكْوَانِ ،
خَالِقُ الْخَلْقِ وَمَا يَعْمَلُونَ ، الذي لَا يُسْأَلُ عَنِ شَيْءٍ وَهُوَ يُسْأَلُونَ ، الْحَيُّ الْعَلِيمُ الْمُدَبِّرُ
الْقَدِيرُ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ، أرسل الرسل رحمةً لتدعو الناس
إلى النجاة من الشقاء ، وتوجَّهَ الْحُجَّةَ فِي مَصِيرِهِمْ إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ ، مؤيِّدَةً بِالْمُعْجَزَاتِ
التي لَا تَتَّصِفُ أَنْوَارُهَا بِالِاخْتِفَاءِ ، وَلَا يَجُوزُ عَلَى تَوَاتُرِهَا دَعْوَى الْإِنْتِفَاءِ ، ثم
ختم ديوانهم بنبيِّ مِلَّتِنَا الْمَرْعِيَةِ الْهَمَلِ ، الشاهدة على الْمَلَلِ ، فتلخَّصت الطاعة ،
وَتَعَيَّنَتِ الْأَمْرَةُ الْمُطَاعَةُ ، ولم يَبْقَ بَعْدَهُ إِلَّا ارْتِقَابُ السَّاعَةِ ، ثم إن الله تعالى قَبَضَهُ
إِذْ كَانَ بَشَرًا ، وترك دينه يَضُمُّ مِنَ الْأُمَّةِ نَشْرًا ^(٣) ، فمن تَبِعَهُ لِحَقِّ بِهِ ، ومن تركه
نُوطٌ ^(٤) عَنْهُ فِي مَنْسَبِهِ ، وكانت نجاته على قدر سببه ، رُوي عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ : « تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكُمْ بِهِ لَمْ تَضِلُّوا بَعْدِي ، كِتَابَ اللَّهِ
وَسُنِّي » ، فَمَضُوا عَلَيْهِمَا بِالنَّوَاجِدِ ^(٥) .

[١] لإسرائيل : يعقوب عليه السلام ، والحكم : الحكمة ، وهو يدل من وصية .

[٢] الصمد : السيد ، لأنه يصمد أى يقصد في قضاء الحوائج . [٣] النسر : المنتشر ، ومنه :

« اللَّهُمَّ اصْنَمِ لِقِسْرِي » . [٤] أى أبعد عنه وطرده ، يقال ناطت الدار : أى بعدت .

[٥] أقصى الأضراس .

فاعملوا يا بَنِي بوصيةٍ من ناصحٍ جاهد ، وَمُشْفِقٍ شَفِيقَةٍ والد ، واستشعروا حُبَّهُ الذي توافرت دواعيه ، وَعُوَا مَرَّاسِدَ هَدْيِهِ ، فَيَا فَوْزَ وَاعِيهِ ! وَصِلُوا السَّبَبَ بسببه ، وَآمِنُوا بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ ، مُجْمَلًا أَوْ مُفَصَّلًا عَلَى حَسَبِهِ ، وَأَوْجِبُوا التَّجَلَّةَ لِصَحْبِهِ ، الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ اللهُ تَعَالَى لِصَحْبَتِهِ ، وَاجْعَلُوا مَحَبَّتَكُمْ إِيَّاهُمْ مِنْ تَوَابِعِ مَحَبَّتِهِ ، وَاشْمَلُوهُمْ بِالتَّوْقِيرِ ، وَفَضَّلُوا مِنْهُمْ أَوْلَى الْفَضْلِ الشَّهِيرِ ، وَتَبَرَّءُوا مِنْ الْعَصْبِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَدْعِكُمْ إِلَيْهَا دَاعٍ ، وَلَا تَعِ التَّشَاجِرَ بَيْنَهُمْ أَذُنُ وَاعٍ ، فَهُوَ عِنْوَانُ السَّدَادِ ، وَعِلَامَةُ سَلَامَةِ الْإِعْتِقَادِ ، ثُمَّ اسْحَبُوا فَضْلَ تَعْظِيمِهِمْ عَلَى فَقْهَاءِ الْمِلَّةِ ، وَأُمَّتِهَا الْجِلَّةِ ^(١) ، فَهِيَ صَقَلَةٌ نُصُوبُهُمْ ، وَفِرْعٌ نَاشِئَةٌ مِنْ أَصُولِهِمْ ، وَوَرَثَتُهُمْ وَوَرِثَةُ رَسُولِهِمْ ، وَاعْمَلُوا أَنِّي قَطَعْتُ فِي الْبَحْثِ زَمَانِي ، وَجَعَلْتُ النُّظْرَ شَانِي ، مِنْذُ بَرَأَنِي اللهُ تَعَالَى وَأَنْشَانِي ، مَعَ نُبْلِ ^(٢) يَمْتَرِفُ بِهِ الشَّانِي ، وَإِدْرَاكِ يَسْلَمُهُ الْعَقْلُ الْإِنْسَانِي ، فَلَمْ أَجِدْ خَابِطَ وَرَقٍ ، وَلَا مَصْبَبَ عَرَقٍ ، وَلَا نَازِعَ خِطَامٍ ، وَلَا مَتَكَلَّفَ فِطَامٍ ، وَلَا مَقْتَحِمَ بَحْرِ طَامٍ ، إِلَّا وَغَايَتُهُ الَّتِي يَقْصِدُهَا قَدْ نَضَلْتَهَا الشَّرِيعَةُ وَسَبَقْتَهَا ، وَفَرَعَتْ ^(٣) ثَمِينَتَهَا وَارْتَقَمَّتْهَا ، فَعَلَيْكُمْ بِالتَّزَامِ جَادَّتْهَا ^(٤) السَّالِبَةُ ، وَمَصَاحِبَةُ رَفَقَتَهَا الْكَامِلَةُ ، وَالْإِهْتِدَاءُ بِأَقَارِهَا غَيْرِ الْآفَلَةِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ ، وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » ، وَقَدْ عَلَتْ شَرَائِعُهُ ، وَرَاعَ الشُّكُوكَ رَائِعُهُ ، فَلَا تَسْتَنْزِلُكُمْ الدُّنْيَا عَنِ الدِّينِ ، وَابْذُلُوا دُونَهُ النُّفُوسَ فِعْلَ الْمُهْتَمِّينَ ، فَلَنْ يَنْفَعَ مَتَاعٌ بَعْدَ الْخُلُودِ فِي النَّارِ أَبَدَ الْآبِدِينَ ، وَلَا يَضُرُّ مَفْقُودٌ مَعَ الْفَوْزِ بِالسَّعَادَةِ وَاللَّهُ أَصْدَقُ الْوَاعِدِينَ ،

[١] جمع جليل . [٢] النبل : الذكاء والنجابة ، والشان : المفضل .

[٣] فرعه : علاه ، والثنية : العقبة ، أو الجبل أو الطريقة فيه أو إليه .

[٤] الجادة : الطريق الواضح ، والسالبة من الطرق : السلوك .

ومتاع الحياة الدنيا أَحْسُ ما وَرِثَ الأَوْلادِ عن الوالدين ، اللهم قد بَلَغْتُ فأنْت خيرا للشاهدين ، فاحذَرُوا المَعاطِبَ التي توجب في الشقاء الخلود ، وتستدعى شَوْهَ الوجوه وَنُضَجَ الجلود ، واستعيذوا برضا الله من سُخْطِهِ ، وازبُتُوا بنفوسكم عن غَمَطِهِ ، وارفعوا آمالكم عن القنوع بِغُرُورٍ قد خَدَعَ أسلافكم ، ولا تحمدوا على جيفة العَرَضِ الزائل ائْتِلافكم ، واقنعوا منه بما تيسر ، ولا تأسوا^(١) على ما فات وتعذر ، فإنما هي دُجْنَةٌ^(٢) ينسخها الصِّباح ، وَصَفْقَةُ يتعاقبها الحَسار أو الرِّباح ، ودونكم عقيدة الإيمان فَشُدُّوا بالنواجذ عليها ، وَكَفِّفُوا الشُّبُهَةَ أن تَدْنُوَ إليها ، واعلموا أن الإخلال بشيء من ذلك خَرَقٌ لا يَرْفُوهُ^(٣) عمل ، وكلُّ ما سوى الراعى هَمَلٌ ، وما بعدَ الرأسِ في صلاح الجسم أمل ، وتمسكوا بكتاب الله تعالى حِفْظًا وَتِلاوَةً ، واجعلوا حمله على حِمْلِ التكليفِ علاوة ، وتفكروا في آياته ومعانيه ، وامتلوا أوامره ونواهيه ، ولا تتألولوه ولا تَعْلُوا فيه ، وأشربوا قلوبكم حُبًّا من أنزل على قلبه ، وأكثروا من بواعث حُبِّه ، وصونوا شعائرَ الله صونَ المحترم ، واحفظوا القواعد التي يبنى عليها الإسلام حتى لا ينخرم ، اللهُ اللهُ في الصلاة ذريعة التَّجَلُّة ، وخاصة المِلَّة ، وحاقنة الدم ، وَغِنَى المستأجرِ المستخدم ، وأمَّ العبادة ، وحافظة اسم المراقبة لعالم الغيب والشهادة ، والناهية عن الفحشاء والمنكر ، إن عَرَضَ الشيطانُ عَرَضَها ، ووطأ للنفس الأمانة سماءها وأرضها ، والوسيلة إلى بلِّ الجوانح بِرُودِ الذكر ، وإيصال مُخَفَّةِ الله إلى مَرِيضِ الفكر ، وضامنة حسن العشرة من الجار ، وداعية للمسالمة من الفجار ، والواسمة

[١] ولا تحزنوا . [٢] الدجنة : الظلمة .

[٣] رفاً التوب كنعن : لأم خرقه ، وضمّ معنه إلى بعض .

بِسْمَةِ السَّلَامَةِ ، وَالشَّاهِدَةَ لِلْعَبْدِ بَرَفِ الْمَلَامَةِ ، وَغَسُولٍ ^(١) الطَّبْعِ إِذَا شَانَهُ طَبَعَ ،
وَالْخَيْرَ الَّذِي كُلُّ مَاسِوَاهُ لَهُ تَبَعٌ ، فَاصْبِرُوا النَّفْسَ عَلَى وِظَائِفِهَا ، بَيْنَ بَدَأٍ وَإِعَادَةٍ ،
فَالْخَيْرَ عَادَةً ، وَلَا تَفَضَّلُوا عَلَيْهَا الْأَشْغَالَ الْبَدْنِيَّةَ ، وَتَوَثَّرُوا عَلَى الْعَلِيَّةِ الدُّنْيَا ،
فَإِنْ أَوْقَاتِهَا الْمَعِينَةُ بِالْإِنْفِلَاتِ تَنْبَسُ ^(٢) ، وَالْفَلَكَ بِهَا مِنْ أَجْلِكُمْ لَا يُحْبَسُ ،
وَإِذَا قُورِنَتْ بِالشَّوَاغِلِ فَلَهَا الْجَاهُ الْأَصِيلُ ، وَالْحُكْمَ الَّذِي لَا يَغْيِرُهُ الْغُدُورُ
وَالأَصِيلُ ، وَالْوِظَائِفَ بَعْدَ أَدَائِهَا لَا تَقُوتُ ، وَأَيْنَ حَقٌّ مِنْ يَمُوتُ مِنْ حَقِّ
الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ؟ وَأَحْكُمُوا أَوْضَاعَهَا إِذَا أَقْتَمُوهَا ، وَأَتَّبِعُوهَا النُّوَاظِلَ
مَا أَطَقْتُمُوهَا ، فَبِالْإِتْقَانِ تَفَاضَلْتِ الْأَعْمَالُ ، وَبِالْمُرَاعَاةِ اسْتَحَقَّتِ الْكَمَالَ ، وَلَا
شَكَرَ مَعَ الْإِهْمَالِ ، وَلَا رَجَحَ مَعَ إِضَاعَةِ رَأْسِ الْمَالِ ، وَذَلِكَ أَحْرَى بِإِقَامَةِ
الْفَرَضِ ، وَأَدْعَى إِلَى مَسَاعِدَةِ الْبَعْضِ الْبَعْضِ .

وَالطَّهَارَةُ الَّتِي هِيَ فِي تَحْصِيلِهَا سَبَبُ مُوَصَّلٍ ، وَشَرْطُ لِمَشْرُوطِهِ مُحْصَلٍ ،
فَاسْتَوْفُوهَا ، وَالْأَعْضَاءَ نَظَّفُوهَا ، وَمِيَاهَهَا بَغِيرَ أَوْصَافِهَا الْحَمِيدَةِ فَلَا تَصْفُوهَا ،
وَالْحُجُولَ وَالْفُرْرَ ^(٣) فَاطِيلُوهَا ، وَالنِّيَّاتِ فِي كُلِّ ذَلِكَ فَلَا تُهْمَلُوهَا ، فَالْبِنَاءُ
بِأَسَاسِهِ ، وَالسَّيْفَ بِرِاسِهِ ، وَاعْمَلُوا أَنْ هَذِهِ الْوِظِيفَةُ مِنْ صَلَاةٍ وَطُهُورٍ ، وَذَكَرَ
مَجْهُورٌ وَغَيْرُ مَجْهُورٍ ، تَسْتَعْرِقُ الْأَوْقَاتَ ، وَتَنَازِعُ شَيْئَ الْخَوَاطِرِ الْمَقْتَرَقَاتِ ،

[١] الغسول كصبور وتور: الماء يعتسل به ، وفي الأصل « فاسول » وهو تحريف ، والطيب :
الطيب والعب . [٢] أى تذهب وتضيع ، يقال : انبس الرجل إذا ذهب ، وفي الأصل « تبس »
وأراه محرفا .

[٣] الحجول جمع حجل بالكسر والفتح : وهو الجمال ، والراد بها هنا الأطراف ، وباطالها
استيعاب غسلها ، والفرر جمع غرة بالضم وهى الوجه ، والمراد بتطويلها فى الوضوء : غسل مقدم الرأس
مع الوجه ، وغسل صفحة العنق ، وجملة المعنى : أنه يأمر بإسباغ الوضوء ، وفى الحديث الشريف :
« أُمَّتِي الْفُرُّ الْمُحَجَّلُونَ » والفر جمع الأفر من الفرّة ، وهى نياض فى جبهة العرس فوق الدرهم ،
يقال : فرس أفرّ وغراء ، والمجمل : الفرس الذى يرتفع البياض فى قوائمه فى موضع القيد ، أى يبيض
مواضع الوضوء من الوجه والأيدى والأقدام ، استعار أثر الوضوء فى الوجه واليدين والرجلين من البياض
الذى يكون فى وجه الفرس ويديه ورجليه .

فلا يضبطها إلا مَنْ ضَبَطَ نَفْسَهُ بِعِقَالٍ ، واستعاضَ صَدَأَهُ بِصِقَالٍ ^(١) ، وإن تراخى قَهَقَرٌ ^(٢) الباعُ ، وَسَرَقَتَهُ الطَّبَاعُ ، وَكَانَ لِمَا سِوَاهَا أَضْيَعُ ، فَشِمِلَ الضِّيَاعُ .
 والزكاةُ أختها الحبيبة ، وَلِدَتْهَا القَرِيبَةُ ، مفتاح السعادة بِالْعَرَضِ الزَائِلِ ،
 وشكران المسئولِ عَلَى الضِدِّ مِنْ دَرَجَةِ السَّائِلِ ، وَحَقَّ اللهُ تَعَالَى فِي مَالٍ مِنْ
 أَغْنَاهُ ، لِمَنْ أَجْهَدَهُ فِي المَعِاشِ وَعَنَاهُ ^(٣) ، مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقِ مَلَأَ يَدَهُ وَإِخْلَاءِ يَدِ
 أُخِيهِ ، وَلَا عِلَّةَ إِلَّا القَدْرَ الَّذِي يُخْفِيهِ ، وَمَا لَمْ يَنْلَهُ حَظَّ اللهُ تَعَالَى فَلَا خَيْرَ فِيهِ ،
 فَاسْمَحُوا بِتَفْرِيقِهَا لِلْحَاضِرِ لِإِخْرَاجِهَا ، فِي اخْتِيَارِ عَرَضِهَا وَتِاجِهَا ، وَاسْتَحْيُوا
 مِنْ اللهُ تَعَالَى أَنْ تَبْخَلُوا عَلَيْهِ بِبَعْضِ مَا بَدَّلَ ، وَخَالَفُوا الشَّيْطَانَ كَمَا عَدَلَ ،
 وَاذْكُرُوا خُرُوجَكُمْ إِلَى الوجودِ لَا تَمْلِكُونَ ، وَلَا تَدْرُونَ أَيْنَ تَسْلُكُونَ ،
 فَوَهَبْ وَأَقْدِرْ ، وَأُورِدْ بِفَضْلِهِ وَأُصْدِرْ ، لِيَرْتَبَ بِكْرَمِهِ الوَسَائِلَ ، أَوْ يَقيِمَ
 الحُجْبِجَ وَالدَّلَائِلَ ، فَابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ بِمَالِهِ ، وَاعْتَمَمُوا رِضَاهُ بِبَعْضِ نَوَالِهِ .
 وَصِيَامَ رَمَضَانَ عِبَادَةَ السَّرِّ المَقْرَبَةِ إِلَى اللهِ زُلْفَى ، المَحْوُضَةَ ^(٤) لِمَنْ يَعْلَمُ السَّرَّ
 وَأَخْفَى ، مُؤَكَّدَةَ بَصِيَامِ الجَوَارِحِ عَنِ الآثَامِ ، وَالقِيَامِ بِيَرِّ القِيَامِ ، وَالاجْتِهَادِ
 وَإِثَارِ الشَّهَادِ ، عَلَى المِهَادِ ، وَإِنْ وَسِعَ الاعْتِكَافُ فَهُوَ مِنْ سُنَنِ المَرَعِيَّةِ ، وَلِوَاخِقِهِ
 الشَّرْعِيَّةِ ، فَبِذَلِكَ تَحَسَّنَ الوجوهُ ، وَتَحَصَّلَ مِنَ الرِّقَّةِ عَلَى مَا تَرَجَّوهُ ، وَتَذَهَبَ
 قَسْوَةُ الطَّبَاعِ ، وَيَمْتَدُّ فِي مَيْدَانِ الوَسَائِلِ البَاعِ ، وَالحُجْبِجِ مَعَ الاستِطَاعَةِ الرُّكْنِ
 الوَاجِبِ ، وَالفَرَضِ عَلَى العَيْنِ لَا يَحْجِبُهُ الحَاجِبُ ، وَقَدْ بَيْنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْرَهُ فِيمَا فَرَضَ عَنْ رَبِّهِ وَسَمَّاهُ ، وَقَالَ : « لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ عِنْدَ اللهِ إِلَّا

[١] صواب العبارة « واستعاض بصدئه صقالا » يقال : استبدل الشيء بغيره إذا أخذته مكانه (ومنه ترى أن الباء داخلة على المتروك) واعتاضه منه واستعاضه (والباء كمن) .
 [٢] قهقر وثقهقر : رجع القهقرى . [٣] أتمبه . [٤] الخالصة .

الجنة» ويلحق بذلك الجهاد في سبيل الله تعالى إن كانت لكم قوة عليه ، وغنى لديه ، فكونوا ممن يسمع نفيـره ويطيعه ، وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه . هذه عُمدُ الاسلام وفروضه ، وتقود مهـره وعـرُوضه ، خافِظوا عليها تعيشوا مبرورين ، وعلى من يُذوئكم ^(١) ظاهرين ، وتَلَقُّوا الله لامبـدلين ولا مغيـين ، ولا تضيعوا حقوق الله فتمهلكوا مع الخاسرين .

واعلموا أن بالعلم تستعمل وظائف هذه الألقاب ، وتَجَلَّى محاسنها من بعد الانتقاب ^(٢) ، فعليكم بالعلم النافع دليلا بين يدي السامع ، فالعلم مفتاح هذا الباب ، والموصِّل إلى اللباب ، والله عزوجل يقول : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ » والعلم وسيلة النفوس الشريفة ، إلى المطالب المنيفة ، وشرطه الخشية لله تعالى والخيفة ، وخاصة الملائ الأعلى ، وصفة الله في كتبه التي تتلَّى ، والسبيل في الآخرة إلى السعادة ، وفي الدنيا إلى النحلة ^(٣) عادة ، والذخر الذي قليله يشفع ، وكثيره ينفع ، لا يغلبه الغاصب ، ولا يسلبه العدو المناصب ، ولا يبتزه الدهر إذا نال ، ولا يستأثر به البحر إذا هال ، من لم ينلّه فهو ذليل ، وإن كثرت آماله ، وقليل ، وإن جمَّ ماله ، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم ، وتخطى حسابكم ، فالتسوه لبنيتكم ، واستدرِكوا منه ما خرج عن أيديكم ، واحملوهم على جمعه ودَرْسه ، واجعلوا طباعهم تُرَى لغرسه ، واستسهلوا ما ينالهم من تعبٍ من جرّاه ^(٤) ، وسهِّروا يهجر له الجفن كراه ، تعقدوا لهم ولاية عز لا تعزل ، وثملوهم مثابة رفعة لا يُحطّ فارغها ولا يُستنزَل ، واختاروا العلوم التي يتعقبها الوقت ، فلا ينالها

[١] يذوئكم ، وظاهرين : فالبين . [٢] أي بعد الاختفاء ، من انتقبت المرأة لبست النقاب .

[٣] نحلة : أعطاه ، والاسم النحلة . [٤] يقال : فعلت ذلك من جرّاه ومن جرّاه بالشديد

ويخففان ، ومن جريرته : أي من أجله ، والكرى : النوم .

في غيرَه^(١) المقت ، وخير العلوم علوم الشريعة ، وما نجمَ مِنَّا بتها المريعة^(٢) ، من علوم لسان لا تستغرق الأعمارَ فصولها ، ولا يضايق ثمراتِ المعاد حصولها ، فإنها هي آلاتٍ لغير ، وأسباب إلى خير منها وخير ، فمن كَانَ قابلاً للازدياد ، وألنى فهمه ذا انقياد ، فليخصَّ تجويد القرآن بتقديمه ، ثم حفظ الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه ، ثم الشروع في أصول الفقه فهو العلم العظيم المنَّة ، المهدي كنوز الكتاب والسنة ، ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجلالة ، والتدرج في طرق النظر بصحيح الأدلة ، وهذه هي الغاية القصوى في الملة ، ومن قصر إدراكه عن هذا المرعى ، وتقاعدَ عن التي هي أسمى ، فليرَوِ الحديثَ بعد تجويد الكتاب وإحكامه ، وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه ، وإياكم والعلوم القديمة ، والفنون المهجورة الذميمة ، فأكثرها لا يفيد إلا تشكيكاً ، ورأياً ركيكاً ، ولا يثمر في العاجلة إلا اقتحام العيون ، وتطريق الظنون ، وتطويق الاحتقار ، وسمّة الصغار ، وخمول الأقدار ، والخسْف من بعد الإبدار ، وجادة الشريعة أعرق في الاعتدال ، وأوفق من قطع العمر في الجدال ، هذا ابن رُشد^(٣) قاضي المصر ومفتيه ، وهلمسُ الرشد وموليه ، عادت عليه بالسخطة

[١] غير الدهر : أحداثه المتيرة ، والضمير فيه يعود على الوقت . [٢] المخصصة .

[٣] هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ، أعظم فلاسفة الأندلس وأطبائها ، ولد سنة ٥٢٠ هـ ودرس علوم الدين والفلسفة والطب ، واتصل بيوسف بن عبد المؤمن زعيم الموحدين ، وشرح له فلسفة أرسطو ، وقد ولاء قضاء إشبيلية ، ثم استدعاه إلى مراکش ، وجعله طبيبه الخاص ، ثم جعله قاضي القضاة بقرطبة ، ولما ولي بعده ابنه المنصور بالله علت مكانة ابن رشد عنده ، فأثار ذلك حسد خصومه ، فكادوا له عند السلطان واتهموه أنه يجحد القرآن ، وينشط الفلسفة وعلوم الأوائل بدلا من علوم الدين ، وينصر مذهب القدماء في القول بالوهمية بعض الكواكب ، فنزله المنصور من قضاء قرطبة ، ثم عفا عنه ، واستدعاه إلى مراکش ، ولم يطل مقامه بها ، فمات سنة ٥٩٥ هـ ، وقد ترجم أكثر كتبه إلى اللغات الأجنبية ، وعليها عول الأوروبيون في نهضتهم الحديثة .

الشيعة ، وهو إمام الشريعة ، فلا سبيل إلى اقتحامها ، والتورط في ازدحامها ، ولا تَخْلَطُوا جَمْعَكُمْ ^(١) بِجَامِهَا ، إلا ما كَانَ من حساب ومِسَاحَةٍ ، وما يعود بِجِدْوَى فَلَاحَةٍ ، وعلاج يرجع على النفس والجسم براحة ، وما سوى ذلك فَحَجُورٌ ، وَضَرَمٌ ^(٢) مَسْجُورٌ ، وممقوت مهجور ، وَأُمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ أَمْرًا رَافِقًا ، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ نَهْيًا حَرِيًّا بِالْإِعْتِدَالِ حَقِيقًا ، وَأَغْبِطُوا مَنْ كَانَ مِنْ سِنَةِ الْغَفْلَةِ مُفِيقًا ، وَاجْتَنِبُوا مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ حَتَّى لَا تَسْأَلُوا مِنْهُ طَرِيقًا ، وَأَطِيعُوا أَمْرَ مَنْ وُلَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أُمُورِكُمْ أَمْرًا ، وَلَا تَقْرَبُوا مِنَ الْفِتْنَةِ جَمْرًا ، وَلَا تَدْخُلُوا فِي الْخِلَافِ زَيْدًا وَلَا عَمْرًا ، وَعَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَهُوَ شِعَارُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَهْمٌ مَا أَضْرَى ^(٣) عَلَيْهِ الْآبَاءُ أَلْسِنَةَ الْبَنِينَ ، وَأَكْرَمٌ مَنْسُوبٌ إِلَى مَذْهَبِهِ ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ ، فَهُوَ الْعَوْرَةُ الَّتِي لَا تُوَارَى ، وَالسَّوْءَةَ الَّتِي لَا يُرْتَابُ فِي عَارِهَا وَلَا يُتَمَارَى ، وَأَقْلَ عَقُوبَاتِ الْكَذَابِ ، بَيْنَ يَدَيْ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ ، أَنْ لَا يُقْبَلَ صِدْقُهُ إِذَا صَدَقَ ، وَلَا يِعْمَلَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ بِالْحَقِّ نَاطِقًا ، وَعَلَيْكُمْ بِالْأَمَانَةِ فَالْحَيَاةُ لَوْمٌ ، وَفِي وَجْهِ الدِّيَانَةِ كَلُومٌ ^(٤) ، وَمِنْ الشَّرِيعَةِ الَّتِي لَا يُعْذَرُ بِجَهْلِهَا ، أَدَاءُ الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَحَافِظُوا عَلَى الْحِشْمَةِ وَالصِّيَانَةِ ، وَلَا تَجْزُوا مَنْ أَقْرَضَكُمْ دِينَ الْخِيَانَةِ ، وَلَا تَوْجِدُوا لِلْعَدْرِ قَبُولًا ، وَلَا تُقْرُوا عَلَيْهِ طَبْعًا مَجْبُولًا ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنْ الْعَهْدُ كَانَ مَسْئُولًا ، وَلَا تَسْتَأْثِرُوا بِكَنْزٍ وَلَا خَزْنٍ ، وَلَا تَذْهَبُوا لِغَيْرِ مَنَاصِحَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي سَهْلٍ وَلَا حَزْنٍ ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ فِي كَيْلٍ أَوْ وَزْنٍ ، وَاللَّهُ اللَّهُ أَنْ تُعِينُوا فِي سَفْكِ الدَّمَاءِ

[١] الجام : إناء من فضة . [٢] جمع ضربة بالتحريك وهي الجرة والنار ، وسجر التنور : أحماء

[٣] ضرى بالشئ كتعب : اعتاده وأولع به ، ويعدى بالهزم والتضعيف ، فيقال : أضربته وضربته :

أى أغربته به . [٤] الكلوم جمع كلم بالفتح وهو الجرح .

ولو بالإشارة أو الكلام ، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام ، واعموا أن الإنسان في
فُسْحَةٍ ممتدَّة ، وَسُبُلِ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرِ مُنْسَدَّة ، ما لم يَنْبِذِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِأَمَانِهِ ،
وَيَمَسَّ الدَّمَ الحَرَامَ بِيَدِهِ أَوْ لِسَانِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ : الَّذِي هَدَى بِهِ
سَنَدًا قَوِيمًا ، وَجَلَّى مِنَ الجَهْلِ والضَّلَالِ لَيْلًا بَهِيمًا : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا
فَجَزَاءُوهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا » ،
واجتناب الزنا وما تعلق به ، مِنْ أَخْلَاقٍ مَنْ كَرُمَتْ طِبَاعُهُ ، وامتد في سبيل
السعادة بأعنه ، لو لم تلتق نورَ الله الذي لم يهد شعاعه ، فالحلّال لم تضيق عن
الشهوات أنواعه ، ولا عُدِمَ إقناعه ، ومن غلبت غرائزُ جهله ، فليُنظَرُ : هل
يجب أن يُزَنَى بأهله ؟ والله قد أعدَّ للزاني عذابًا وويلًا ، وقال : « وَلَا تَقْرَبُوا
الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا » ، والحرام الكبار ، ومفتاح الجرائم
والجرائر ^(١) ، والله لم يجعله الله في الحياة شرطًا ، والمحرم قد أغنى عنه بالحلّال
الذي سوَّغ وأعطى ، وقد تركها في الجاهلية أقوامٌ لم يرضوا لعقولهم بالفساد ،
ولا لنفوسهم بالضرّة في مرَضَاةِ الأجساد ، والله تعالى قد جعلها رجسًا محرّمًا
على العباد ، وَقَرَنَهَا بِالْأَنْصَابِ والأزلام في مُبَايَنَةِ السَّدَادِ ^(٢) ، ولا
تَقْرَبُوا الرِّبَا ، فإنه من مَنَاهِي الدين ، والله تعالى يقول : « وَذَرُوا مَا بَقِيَ
مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » . وقال : « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ » في الكتاب المبين ، ولا تأكلوا مالَ أحدٍ بغير حقٍّ يُبيحه ، وانزعوا

[١] الجرائر جمع جريرة : وهي الجريمة .

[٢] يشير إلى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الحَرْمُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ

رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

الطَّعْمُ^(١) عن ذلك حتى تذهب ريحُه ، و التمسوا الحلال يسئفى فيه أحدكم على قدمه ، ولا يكبلُ خياره إلا للثقة من خدمه ، ولا تلمجئوا إلى المتشابه إلا عند عدمه ، فهو فى السُّلوك إلى الله تعالى أصلٌ مشروط ، والمحافظ عليه مغبوط ، وإياكم والظلم ، فالظالم ممقوت بكل لسان ، مجاهر الله تعالى بصريح العُصيان ، « وَالظُّلْم ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » كما ورد فى الصَّحاح الحِسان ، والنميمة فسادٌ وشَتَاتٌ ، لا يبقى عليه مُتَاتٌ^(٢) ، وفى الحديث : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ^(٣) » واطرِحوا الحسدَ ، فما ساد حَسود ، وإياكم الغيبة : فباب الخير معها مسدود ، والبخل ، فارئى البخيل وهو مودود ، وإياكم وما يُعتذر منه ، فمواقع الخزى لا تُستقال عثراتها ، ومَظَنِّاتِ الفُضائِح لا تؤمنُ غمراتها ، وتفقدوا أنفسكم مع الساعات ، وأفسوا السلام فى الطُّرُقَات والجماعات ، ورفقوا على ذوى الزَّمانات^(٤) والمعاهات ، وتاجروا مع الله بالصَّدقة يُربِّحكم فى البضاعات ، وعلولوا عليه وحده فى الشدائد ، واذكروا المساكينَ إذا نصَّبتم الموائد ، وتقرَّبوا إليه باليسير من ماله ، واعلموا أن الخلق عيالُ الله ، وأحبُّ الخلق إليه المحتاط لعياله ، وارعوا حقوق الجار ، واذكروا ما ورد فى ذلك من الآثار ، وتماهدوا أولى الأرحام ، والوشائج^(٥) البادية الانتحام ، واحذروا شهادة الزور : فإنها تقطع الظهر ، وتُفسد السِّرَّ والجهر ، والرِّشا ، فإنها تحطُّ الأقدار ، وتستدعى المذلة والصَّغار ، ولا تسأحوا فى نُعبَةٍ قَمَرٌ^(٦) ، ولا تشارِكوا أهل البطالة فى أمر ، وصونوا المواعيد من الإخلاف ، والأيمانَ من حنث الأوغاد والأجلاف ، وحقوق الله تعالى من الازدراء

[١] الطعم : الشهوة . [٢] المتات : ما يمت به أى يتوسل . [٣] القتات : النمام .

[٤] الزمانه : العاهة .

[٥] الوشائج جمع وشيجة : وهى اشتباك القرابة . [٦] قره : غلبه فى لعب القمار .

والاعتساف، ولا تلهجُوا بالآمالِ العِجافِ^(١) ولا تكلفُوا بالكهانة والإرجاف،
 واجعلوا العمر بين معاشٍ ومعاد ، وخصوصيةً وابتعاد ، واعلموا أن الله سبحانه
 بالمرصاد ، وأن الخلق بين زرع وحصاد ، وأقلوا بغير الحالة الباقية المهموم ، واحذروا
 القواطع عن السعادة كما تحذر السموم ، واعلموا أن الخير أو الشر في الدنيا محالٌ
 أن يدوم ، وقابلوا بالصبر أذية المؤذنين ، ولا تعارضوا مقالات الظالمين ، فإِنَّهُ لَمَنْ
 بُغِيَ عَلَيْهِ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ، ولا تستعظموا حوادث الأيام كما نزلت ، ولا تضيحوا
 للأمراض إذا أعضلت ، فكلُّ مُنْقَرِضٍ حَقِيرٍ ، وكلُّ مُنْقَضٍ وَإِنْ طَالَ قَصِيرٌ ،
 وانتظروا الفرج ، وانتشقوا من جناب الله تعالى الأرج^(٢) ، وأوسعوا بالرجاء
 الجوانح ، واجنحوا إلى الخوف من الله تعالى فَطُوبَى لِعَبْدٍ إِلَيْهِ جَانِحٌ ، وتضرعوا
 إلى الله تعالى بالدعاء ، وأجئوا إليه في البأساء والضراء ، وقابلوا نعم الله تعالى
 بالشكر الذي يقيده به الشارد ، وَيَعْتَذِبُ الْوَارِدِ ، وَأَسْهَمُوا^(٣) منها للمساكين
 وأفضلوا عليهم ، وعينوا الحُطُوظَ منها لديهم ؛ فن الآثار: « يا عائشة أحسنى جوار
 نعم الله ، فإنها قلما زالت عن قوم فعادت إليهم » ، ولا تطغوا في النعم وتقصروا
 عن شكرها ، وتغلبكم^(٤) الجهالة بسكرها ، وتتوهوا أن سعيكم جلبها ، وجدكم
 حلبها ، فالله خير الرازقين ، والعاقبة للمتقين ، ولا فعل إلا لله إذا نُظِرَ بَيْنَ
 اليقين ، والله الله لا تنسوا الفضل بينكم ، ولا تُذهبا بذهابه زينكم ، وليلتزم
 كل منكم لأخيه ، ما يشتد به توأخيه ، بما أمكنه من إخلاص وبر ، ومراعاة
 في علانية وسر ، وللإنسان مزية لا تُجْهَلُ ، وحق لا يُهْمَلُ ، وأظهروا التعاضد

[١] العجاف جمع عجناء : وهي المهزولة . [٢] الأرج : توهج ريح الطيب .

[٣] أسهم له : أعطاه سهماً . [٤] في الأصل : « وتغلبكم » ، وأراء محرفاً عن « وتغلبكم » .

والتناصر ، وَصَلُوا التَّعَاهِدَ وَالتَّزَاوَرَ ، تُرْغِمُوا بِذَلِكَ الأَعْدَاءَ ، وَتَسْتَكْثِرُوا الأَوْدَاءَ ،
 وَلَا تَتَنَافَسُوا فِي الحِظُوظِ السَّخِيفَةِ ، وَلَا تَتَهَارَشُوا تَهَارُشَ السَّبَاعِ عَلَى الحِيقَةِ ،
 وَاعْمُوا أَنَّ المَعْرُوفَ يَكْتَدِرُ بِالأَمْتِنَانِ ، وَطَاعَةُ النِّسَاءِ شَرٌّ مَا أَفْسَدَ بَيْنَ الإِخْوَانِ ،
 فَإِذَا أَسَدَيْتُمْ مَعْرُوفًا فَلَا تَذْكُرُوهُ ، وَإِذَا بَرَزْتُمْ قَبِيحًا فَاسْتُرُوهُ ، وَإِذَا أَعْظَمَ النِّسَاءُ
 أَمْرًا فَاحْقِرُوهُ ، وَاللَّهُ اللهُ لَا تَنْسُوا مُقَارَضَةَ سَجَلِي (١) ، وَبَرُّوا أَهْلَ مَوَدَّتِي مِنْ
 أَجْلِي ، وَمَنْ رُزِقَ مِنْكُمْ مَا لَبَّاهُ الوَطْنَ القَلْبَ المَهَادِ ، الَّذِي لَا يَصْلِحُ لغيرِ الجِهَادِ ،
 فَلَا يَسْتَهْلِكُهُ أَجْمَعُ فِي العَمَّارِ ، فيصْبِحُ عُرْضَةً لِمَذَاةٍ وَالاِحْتِقَارِ ، وَسَاعِيًا لِنَفْسِهِ
 - إِنْ تَغَلَّبَ العَدُوُّ عَلَى بَلَدِهِ - فِي الاِفْتِضَاحِ وَالاِفْتِقَارِ ، وَمَعْوِقًا عَنِ الاِنْتِقَالِ ،
 أَمَامَ النُّوبِ الثَّقَالِ ، وَإِذَا كَانَ رِزْقُ العَبْدِ عَلَى المَوْلَى ، فَلَا جَمَالَ فِي الطَّلَبِ أَوْلَى ،
 وَازْهَدُوا جَهْدَكُمْ فِي مَصَاحِبَةِ أَهْلِ الدُّنْيَا ، نَحِيرُهَا لَا يَقُومُ بِشَرِّهَا ، وَنَفْعُهَا لَا يَقُومُ
 بِضَرِّهَا ، وَأَعْقَابُ مَنْ تَقَدَّمَ شَاهِدَةً ، وَالتَّوَارِيخُ لِهَذِهِ الدَّعْوَى عَاصِدَةٌ ، وَمَنْ
 بُلِيَ بِهَا مِنْكُمْ فَلَيْسَتْ تُظْهِرُ بِسَعَةِ الاحْتِمَالِ ، وَالتَّقَلُّلُ مِنَ المَالِ ، وَلا يَحْذَرُ مُعَادَاةَ
 الرِّجَالِ ، وَنَزَلَتْ الأَدْلَالُ ، وَفَسَادُ الخِيَالِ ، وَمَدَاخِلَةُ الأَعْيَالِ ، وَإِفْشَاءُ السَّرِّ ،
 وَسُكْرُ الاِغْتِرَارِ ، فَإِنَّهُ دَابُّ الغَرِّ ، وَلَيْمِصُنِ الدِّيَانَةَ ، وَيُؤَثِّرُ الصَّمْتَ وَيَلْزِمُ
 الأَمَانَةَ ، وَيَمِيرُ مِنَ رِضَا اللهِ عَلَى أَوْضَاحِ الطَّرِيقِ ، وَمَهْمَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ أَمْرَانِ قَصَدَ
 أَقْرَبَهُمَا إِلَى الحَقِّ ، وَلَيَقِفُ فِي التَّمَاسِ أَسْبَابَ الجَلَالِ دُونَ الكَمَالِ غيرِ النَقْصَانِ ،
 وَالزَّعَازِعُ تَسَالَمَ اللَّدْنَ (٢) اللطيف من الأغصان ، وَإِيَاكُمْ وَطَلَبَ الوَلَايَاتِ رَغْبَةً
 وَاسْتِجْلَابًا ، وَاسْتِظْهَارًا عَلَى الخُطُوبِ وَغِلَابًا ، فَذَلِكَ ضَرَرُ المُرُوءَاتِ وَالأَقْدَارِ ،
 دَاخِعٌ إِلَى الفُضِيحَةِ وَالعَارِ ، وَمَنْ أَمْتَحَنَ بِهَا مِنْكُمْ اخْتِيَارًا ، أَوْ جُبِرَ عَلَيْهِ إِكْرَاهًا

[١] السجل : النصيب . والمعنى : إنكم مدينون لي بما قدمت لكم من معروف ، فلا تنسوا أن تردوه لي بأكرام من أودت . [٢] اللدن اللبن .

وإيثاراً ، فليتلق وظائفها بسمة صدره ، ويبذل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره ، فالولايات فتنة وحننة ، وأسروا حنة ، وهي بين إخطاء سعادة ، وإخلال بعبادة ، وتوقع عزل ، وإدالة^(١) بإزاء بيع جدّ بهزل ، ومنزلة قدم ، واستنباع ندم ، ومآل العمر كله موت ومعاد ، واقتراب من الله وابتعاد ، جعلكم الله ممن نفعه بالتبصير والتنبيه ، وممن لا ينقطع بسببه عمل أبيه ، هذه - أسعدكم الله - وصيتي التي أصدرتها ، وتجارتني التي لربكم أدزتها ، فنلقوها بالقبول لنصحها ، والاهتداء بضوء صباحها ، وبقدر ما أمضيت من فروعها ، واستغشيت من دروعها ، اقتنيت من المناقب الفاخرة ، وحصلت على سعادة الدنيا والآخرة ، وبقدر ما أضعت لآلها النفيسة القيم ، استكثرت من بواغث الندم ، ومهما سئمت إطالتها ، واستغزرت مقالمتها ، فاعلموا أن تقوى الله فذآكة^(٢) الحساب ، وضابط هذا الباب ، كأن الله خليفتي عليكم في كل حال ، فالدنيا منأخ ارتحال ، وتأميل الإقامة فرض محال ، فالموعد للالتقاء ، دار البقاء ، جعل الله من وراء خطته النجاة ، ونفق بضائمتها المزجاة^(٣) ، بلطائفه المرتجاة ، والسلام عليكم من حبيكم المودع ، والله سبحانه يُلئم^(٤) حيث شاء من شمل متصدع ، والدكم محمد بن عبد الله بن الخطيب ورحمة الله وبركاته . (نوح الطيب ٤ : ٤١٩)

١٨ - خطبة وعظية له

وصدر عنه على لسان واعظ :

« الحمد لله الولي الحميد ، المبدئ المعيد ، البعيد في قربه من العبيد ، القريب

[١] الإدالة : الغلبة . [٢] فذلك حسابه كدحرج : أبناء وفرغ منه ، مختزعة من قوله إذا أجل حسابه : فذلك كذا وكذا . [٣] بضاعة مزجاة : رديئة أو قليلة يردما ويدفعها من رآها رغبة عنها ، وثق السلعة تنقياً : روجها . [٤] لأم الجرح والصدع كقطع وألوه : سدّه .

في بعده وهو أقرب من حَبَلِ الْوَرِيدِ ^(١) ، مُخَيَّرَ رُبُوعِ الْعَارِفِينَ بِتَحِيَّاتِ حَيَاةِ التَّوْحِيدِ ، وَمُفْنِي نَفُوسِ الزَّاهِدِينَ بِكُنُوزِ احْتِقَارِ الْاِفْتِقَارِ إِلَى الْعَرَضِ الزَّهِيدِ ، وَمُخَلِّصِ خَوَاطِرِ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ سَجُونِ دُجُونِ ^(٢) التَّقْيِيدِ ، إِلَى فُسْحِ التَّجْرِيدِ ، نَحْمَدُهُ وَلَهُ الْحَمْدُ الْمُنْتَزِمَةُ دُرَرُهُ فِي سُلُوكِ الدَّوَامِ ، وَسُمُوطِ ^(٣) التَّأْيِيدِ ، حَمْدًا مِنْ تَرَرِهِ أَحْكَامَ وَحَدَانِيَّتِهِ ، وَأَعْلَامَ فَرْدَانِيَّتِهِ ، عَنْ مَرَابِطِ التَّقْيِيدِ ، وَمَخَابِطِ الطَّيْعِ الْبَلِيدِ ، وَنَشْكُرُهُ شُكْرًا مِنْ افْتِتَاحِ بِشْكُرِهِ أَبْوَابِ الْمَزِيدِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ شَهَادَةً تَتَخَطَّى بِهَا مَعَالِمَ الْخَلْقِ ، إِلَى حَضْرَةِ الْحَقِّ ، عَلَى كَبَدِ التَّفَرِيدِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ قِلَادَةَ الْجِيدِ الْمَجِيدِ ، وَهَلَالِ الْعَمِيدِ ، وَفَذَلِكَ الْحِسَابِ وَبَيْتِ الْقَصِيدِ ، الْمَخْصُوصِ بِمَنْشُورِ الْإِدْلَالِ ^(٤) ، وَإِقْطَاعِ الْكَمَالِ ، بَيْنَ مَقَامِ الْمُرَادِ وَمَقَامِ الْمُرِيدِ ، الَّذِي جَعَلَهُ السَّبَبَ الْأَوْصَلَ فِي نَجَاةِ النَّاجِي وَسَعَادَةِ السَّعِيدِ ، وَخَاطِبِ الْخَلَائِقِ عَلَى لِسَانِهِ الصَّادِقِ بِمُحَجَّتِي الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، فَكَانَ مِمَّا أَوْحَى بِهِ إِلَيْهِ ، وَأَنْزَلَ الْمَلَكُ بِهِ عَلَيْهِ ، مِنَ الذِّكْرِ الْحَمِيدِ ، لِيَأْخُذَ بِالْحُجَزِ ^(٥) وَالْأَطْوَاقِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تَوْسُوسُ بِهِ نَفْسَهُ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ، إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ، وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ، وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ، لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا

[١] عرق في العنق. [٢] أى ظلام التقيد ، والدجون جمع دحن بالفتح : وهو لباس الغيم الأرض وأقطار السماء. [٣] سموط جمع سبط بالكسر : وهو خيط النظم. [٤] أدل عليه : وثق بمحبته. [٥] الحجز جمع حجرة كفرصة : وهى معقد الإزار ، ومن السراويل موضع التكة .

فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَ كَفَبَصْرِكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» ، صلى الله عليه وعلى آله صلاة
تقوم ببعض حقه الأکید ، وَتَسْرَى إِلَى تَرْبَتِهِ الزُّكِيَّةِ مِنْ ظُهُورِ الْمَوَاجِدِ الْجَائِيَةِ
عَلَى الْبَرِيدِ :

قعدتُ لتذكير ، ولو كنتُ منصفاً لذكرتُ نفسي فهي أحوجُ للذكري
إذا لم يكن مني لنفسِي واعظُ فيا ليت شعري كيف أفعل في الأخرى ؟
آه ، أئى وعظ بعد وعظ الله تعالى يا أحببنا يُسْمَعُ ، وفي ماذا - وقد تبين الرُّشْدُ
من النِّغْيِ - يُطْمَعُ ؟ يا من يُعْطَى وَيَمْنَعُ ، إذا لم تُقِمِ الصَّنِيعَةَ فإِذَا نَصَنَعَ ؟ أَجْمَعْنَا
بقلوبنا يا من يُفَرِّقُ وَيَجْمَعُ ، وَآيِنَ حَدِيدَهَا بِنَارِ خَشْيَتِكَ ، فقد استعاذ نبيك
صلى الله عليه وسلم من قلب لا يَخْشَعُ ، ومن عين لا تَدْمَعُ : اعلموا رحمكم الله أن
الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من الأقوال والأحوال ، ومن الجماد والحيوان ، وما
أملاه المَلَوَانُ (١) ، فإن الحق نور لا يضره أن صدر من الحامل ، ولا يقصر
بمحموله احتقار الحامل ، وأنتم تدرّون أنكم في أطوار سقر لا تستقر لها دون
الغاية رحلة ، ولا تتأني معها إقامة ولا مهلة ، من الأصلاب إلى الأرحام إلى
الوجود ، إلى القبور إلى النشور إلى إحدى دارى البقاء ، أفى الله شك ؟ فلو
أبصرتم مسافراً في البرية يبنى وَيَفْرِشُ ، وَيُمَهِّدُ وَيَعْرِشُ ، ألم تكونوا تضحكون
من جهله ، وتَعْجَبُونَ مِنْ رَكَاكَةِ عَقْلِهِ ؟ ووالله ما أموالكم ولا أولادكم ،
وشواغلكم عن الله ، التي فيها اجتهادكم ، إلا بقاء سقر (٢) في قفر ، أو إعراس في
ليلة نمر (٣) ، كأنكم بها مطرحةً تَعْبُرُ فِيهَا الْمَوَاشِي ، وتنبو العيون عن خبرها

[١] الملوآن : الليل والنهار .

[٢] السفر : جماعة المسافرين . [٣] أعرس القوم وعرسوا : نزلوا في آخر الليل للاستراحة ،

ونمر الحاج من منى كضرب نمرأ ونفورا . انظر ج ٣ ص ١٢١ .

المتلاشى « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » ما بعد
 المَقِيلِ إِلَّا الرَّحِيلَ ، ولا بعد الرحيل إِلَّا المنزلُ الكريمِ ، أو المنزل الوبيل ، وإِنكم
 تَسْتَقْبِلُونَ أَهْوَالًا ، سَكَرَاتُ الْمَوْتِ بَوَاكِرُ حَسَابِهَا ، وَعَتَبُ أَبْوَابِهَا ، فلو
 كَشَفَ الْغَطَاءَ عَنِ ذَرَّةٍ مِنْهَا ، لَدَهَلَّتِ الْعُقُولُ وَطَاشَتِ الْأَبْيَابُ ، وما كلُّ
 حَقِيقَةٍ يَشْرَحُهَا الْكَلَامُ ، « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ
 الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ » ، أفلا أعددتُم لهذه الوِرْطَةِ حِيَلَةً ، وأظْهَرْتُم
 للاهْتِمَامَ بِهَا نَحِيْلَةً ^(١) ؟ أتعويلا على عفوه مع المقاطعة ؟ وهو القائل في مقام
 التهديد : « إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » ، أأمنًا من مكره مع المنازعة ؟ « وَلَا يَأْمَنُ
 مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » أطمعًا في رحمته مع المخالفة ؟ وهو يقول :
 « فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » ، أَمْشَاقَةً وَمَعَانِدَةً ؟ « وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ
 شَدِيدُ الْعِقَابِ » ، أشكًا في الله ؟ فتمالوا نُعيِد الحِسابَ ، وَنُقَرِّر العَقْدَ ، وَتَنْصِفُ
 بدعوة الحقِّ (أَوْ غَيْرَهَا) من اليوم ، يَفْقَدُ عَقْدُ الْعُقَايِدِ عِنْدَ التَّسَاهُلِ بِالْوَعِيدِ ^(٢) ،
 فالعاصي يُذْمَى الْأَصْبَعُ الْوَجِعةً ، والعارف يَضْمَدُ لَهَا مَبْدَأَ الْعَصَبِ .

هكذا هكذا يكون التعمى هكذا هكذا يكون الغرور

« يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » وما عدا
 مما بدا ، ورسولكم الحريص عليكم الرءوف الرحيم يقول لكم : « الْكَيْسُ
 مِنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ؛ وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى
 عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي » ، فَعَلَامَ بَعْدَ هَذَا الْمَعْوَلِ ، وماذا يتأوَّل ؟ اتقوا الله تعالى في

[١] الخيلة الظن . [٢] أى أن المرء إذا لم يحسب لوعيد الله حساباً ، واسترسل في اقتراف المعاصي
 والموبقات ، أفضى به ذلك إلى زلزلة العقيدة ، ولو أنه كان خالص الإيمان لارعوى عما نهى عنه .

نفوسكم وَأَنْصَحُوهَا ، واغتنموا فُرْصَ الحَيَاةِ وارتجوها ، « أَنْ تَقُولَ نَفْسُ
يَا حَسْرَتًا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ، وَإِنْ كُنْتُ مِنَ السَّاخِرِينَ » ، وتنادى
أخرى : « هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ؟ » ، وتستغيث أخرى : « يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ
فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » ، وتقول أخرى : « رَبُّ أَرْجَمُونِ » ، فَرَحِمَ
الله من نظر لنفسه ، قبل غُرُوبِ شمسهِ ، وَقَدَّمَ لِنَفْسِهِ مِنْ أَمْسِهِ ، وَعَلِمَ أَنَّ الحَيَاةَ
تَجْرُؤُ إِلَى المَوْتِ ، والغفلة تقود إلى الفَوْتِ ، والصحة مَرَكَبُ الأَمِّ ، والشبيبة
سفينة تَقَطَّعُ إِلَى سَاحِلِ المَرَمِ .

وإن شاء قال بعد الخطبة :

« إخواني ، ما هذا التواني ؟ وَالْكَلْفُ بِالوَجُودِ الفَانِي ، عن الدائم الباقي ،
والدهر يقطع الأماني ، وَهَادِمُ اللذات قد شرع في تقض المباني ، أَلَا معتبر في
عالم هذه المعاني ، أَلَا مرتحل عن مغايب هذه المعاني (١) ؟

أَلَا أُذُنٌ تُصْنَعِي إِلَى سَمِيعَةٍ أَحَدَّثَهَا بِالصِّدْقِ مَا صَنَعَ المَوْتُ
مددت لكم صوتي فأواه حسرةً على ما بدا منكم فلم يُسْمَعِ الصوتُ
هو القَدَرُ الآتِي على كل أُمَّةٍ فتوبوا سِرَاعًا قبل أن يقع الفَوْتُ

يَا كَلِيفًا بما لا يدوم ، يا مفتونًا بغيرور الوجود المهدوم ، يا صَرِيحَ جِدَارِ الأجل
المهدوم ، يا مُشْتَغِلًا بينان الطُّرُقِ قد ظهر المُنَاخُ وَقَرَّبَ القُدُومَ ، يا غريقًا في
في بحار الأمل ما عساک تعوم ! يا مُعْتَلِّ الطعام والشراب ، وَلَمَعَ السَّرَابِ (٢) ،
لا بد أن تهجر المشروب وتترك المطعوم ، دَخَلَ سَارِقُ الأجل بيتَ عمرك ،
فَسَلَبَ النشاطَ وَأَنْتَ تنظر ، وَطَوَى البساطَ وَأَنْتَ تُكْرَبُ (٣) ، واقتلع جواهر

[١] المعاني جمع مغنى وهو المنزل .

[٢] السراب : ما يرى وسط النهار كأنه ماء . [٣] كربه الغم كنعصر : اشتد عليه .

الجوارح ، وقد وقع بك النَّهْبُ ، ولم يَبْقَ إلا أن يجعل الوسادة على أنفك ويقعد .

لو خُفِّفَ الوجدُ عني دعوتُ طالبِ ثارى

« كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا » ، كيف التَّراخى والفوتُ مع الأنفاس يُنتظر ، كيف الأمان وهاجِمِ الموت لا يُبْقَى ولا يَدَّر ، كيف الركون إلى الطمع الفاضح وقد صَحَّ الخبر ؟ من فكر في كَرْبِ الحُمار^(١) تنغصت عنده لذة النبيذ ، من أحسَّ بِلَقْظِ^(٢) الحريق فوق جِدَارِهِ ، لم يُصنَعِ بصوته لِنعمة العود ، من تيقنَ بذلَّ العزلة ، هان عليه ترك الولاية .

ما قامَ خيرُك يا زمانُ بشرِّه أولى لنا ما قلَّ منك وما كفى

أوحى الله سبحانه إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه: أن ضع يدك على متن ثور ، فبعدد ما حادثته من شعره تعيش سنين ، فقال : يارب وبعد ذلك ؟ قال : تموت ، قال : يارب فالآن .

رأى الأمرَ يُفضى إلى آخرٍ ففسرَ آخره أو لا

إذا شعرت نفسك بالليل إلى شيء فأعرض عليها غصة فراقه « لِيَمْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ يَمِينَةٍ ، وَيَحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَنْ يَمِينَةٍ » فلمفروح به هو المحزون عليه ، أين الأحباب مرؤا ؟ فياليت شعري أين استقروا ؟ استكانوا والله واضطروا ، واستغاثوا من سبقتك^(٣) بأولياهم ففرؤا ، وليتهم إذ لم ينفعوا ما ضرؤا ، فالمنازل من بعدهم خالية خاوية ، والعروش ذابلة زاوية ، والعظام من بعد التفاصيل متشابهة متساوية ، والمساكن تندب في أطلالها الذئاب العاوية .

[١] الحمار : صداع الخمر وأذاها . [٢] أى برميهِ . [٣] هكذا في الأصل ، وكان يمكن أن يقول : « واستغاث من سبقتك بأولياهم » إلا أن يخرج على أن « من » مبتدأ مؤخر كما في قوله تعالى : « ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ » وقوله : « وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » أو « من » بدل من واو الجملة .

صَحْتُ بِالرَّبْعِ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَيْتَ شِعْرِي أَيْنَ يَمْضِي الْغَرِيبُ؟
 وَيَجَنَّبُ الدَّارَ قَبْرًا جَدِيدًا مِنْهُ يَسْتَسْقِي الْمَكَانُ الْجَدِيدُ
 غَاضَ قَلْبِي فِيهِ عِنْدَ التَّاجِحِي قُلْتُ : هَذَا الْقَبْرِ فِيهِ الْحَيْبُ (١)
 لِأَنْسَلَ عَنْ رَجْعَتِي كَيْفَ كَانَتْ إِنَّ يَوْمَ الْيَوْمِ يَوْمَ عَصِيبُ
 بِاقْتِرَابِ الْمَوْتِ عَلَّمْتُ نَفْسِي بَعْدَ الْيَوْمِ ، كُلُّ آتٍ قَرِيبُ

أين الممّر الخالد ، أين الولد أين الوالد ، أين الطارف أين التالد ، أين المجادل أين المُجَالِدُ؟ هَلْ تَحْسِبُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرَاءً؟^(٢) وجوه علاهْنِ الثرى ، وصحائف تفض ، وأعمال على الله تُعرض ، بَحَثَ الزُّهَادِ وَالْعِبَادِ ، والعارفون والأوتاد ، والأنبياء الذين يُهْدَى بهم العباد ، عن سبب الشقاء الذى لا سعادة بعده ، فلم يجدوا إلا البُعْدَ عن الله تعالى ، وسببه حُبُّ الدنيا ، « لن تجتمع أمتي على ضلالة » .

هَجَرْتُ حَبَائِي مِنْ أَجْلِ لَيْلِي فَمَا لِي بَعْدَ لَيْلِي مِنْ حَيْبٍ
 وَمَاذَا أُرْتَجَى مِنْ وَصْلِ لَيْلِي سَتَجْزِي بِالْقَطِيعَةِ عَنْ قَرِيبٍ

وقالوا : ما أوردَ النفسَ المواردِ ، وَفَتَحَ عَلَيْهَا بَابَ الْحَتْفِ إِلَّا الْأَمَلَ ، كلما قَوَّمتُهَا مَثَاقِفُ الْحُدُودِ ، فَتَحَ لَهَا أَرْكَانَ الرُّخْصِ . كلما عَقَدَتِ صَوْمَ الْعَزِيمَةِ ، أَهْدَاهَا طُرْفَ الْغُرُورِ فِي أَطْبَاقِ « حَتَّى وَإِذَا وَلَكِنْ وَرُبَّمَا » فَأَفْرَطَ الْقَلْبُ فِي تَقْلِيْبِهَا حَتَّى أَفْطَرَ :

مَا أَوْبَقَ الْأَنْفَسَ إِلَّا الْأَمَلُ وَهُوَ غُرُورٌ مَا عَلَيْهِ عَمَلُ
 يَفْرَضُ مِنْهُ الشَّخْصُ وَهَمَّامَاةُ حَالٌ ، وَلَا مَاضٍ ، وَلَا مُسْتَقْبَلُ

[١] لجه وألحه والتمعه : إذا أبصره بنظر خفيف . [٢] الرکز : الصوت الحقي .

ما فوق وَجِهِ الْأَرْضِ نَفْسٌ حَيَّةٌ
 لَوْ أَنَّهُمْ مِنْ غَيْرِهَا قَدْ كُونُوا
 مَا تَمَّ إِلَّا لَقَمَهُمْ قَدْ هَيَّيْتُمْ
 وَالْوَعْدَ حَقٌّ، وَالْوَرَى فِي غَفْلَةٍ
 أَيْنَ الَّذِينَ شَيَّدُوا وَاغْتَرَسُوا
 أَيْنَ ذُوو الرِّاحَاتِ زَادَتْ حَسْرَةً
 لَمْ تَدْفَعْ الْأَحْبَابُ عَنْهُمْ غَيْرَ أَنَّ
 اللَّهُ فِي نَفْسِكَ أَوْلَى مِنْ لَه
 لَا تَتْرَكْنَهَا فِي عَمَى وَحَيْرَةٍ
 حَقَّرْهَا الْفَانِي، وَحَاوَلْ زُهْدَهَا
 وَفِدْ إِلَى اللَّهِ بِهَا مَضْطَرَةً
 هُوَ الْفَنَاءُ، وَالْبَقَاءُ بَعْدَهُ
 يَا قُرَّةَ الْعَيْنِ وَيَا حَسْرَتَهَا
 إِنْ لَقِدْ أَنْقَضَ عَلَيْهَا الْأَجَلَ
 لَا مَتَلًا السَّهْلُ بِهِمُ وَالْجَبَلُ
 لَلْمَوْتِ، وَهُوَ الْأَكْلُ الْمُسْتَعَجِلِ
 قَدْ خُوِدِعُوا بِعَاجِلٍ وَضَلُّوا
 وَمَهَّدُوا وَاقْتَرَسُوا وَظَلُّوا؟
 إِذْ جُنِبُوا إِلَى الثَّرَى وَانْتَقَلُوا^(١)
 بَكَوْا عَلَى فِرَاقِهِمْ وَأَعْوَلُوا
 ذَخِرَتْ نُصْحًا وَعِتَابًا يُقْبَلُ^(٢)
 عَنْ هَوْلٍ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا تَغْفُلُ
 وَشَوْقَهَا إِلَى الَّذِي تَسْتَقْبِلُ
 حَتَّى تَرَى السَّيْرَ عَلَيْهَا يَسْهَلُ^(٣)
 وَاللَّهُ عَنْ حِكْمَتِهِ لَا يُسْأَلُ
 يَوْمَ يُؤَوِّفِي النَّاسُ مَا قَدِ عَمِلُوا

يَا طُرْدُ^(٤) المخالفة، أنكم مُدْرَكُونَ فاستبشروا باب التوبة، فَإِنَّ رَبَّ تِلْكَ الدَّارِ يُجِيرُ وَلَا
 يُجَارُ عَلَيْهِ « فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا هَدَاكُمْ »، يَا طُفَيْلِيَّةَ الْهَمَّةَ، دُسُّوا
 أَنْفُسَكُمْ بِزُورِ التَّائِبِينَ، وَقَدْ دُعُوا إِلَى اللَّهِ دَعْوَةَ الْحَبِيبِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَكْمَلُ فَلَا
 أَقْلُ مِنْ طَيْبِ الْوَلِيمَةِ، قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: إِذَا عَقَدَ التَّائِبُونَ الصَّلْحَ مَعَ اللَّهِ
 تَعَالَى، انْتَشَرَتْ رَعَايَا الطَّاعَةِ فِي عِمَالَةِ الْأَعْمَالِ، « وَأَشَقَّتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا

[١] جنبه: دفعه. [٢] أى اتق الله فى نفسك التى هى أولى . . . الخ .

[٣] فد: أسر من وفد أى اقدم . [٤] الطريدة: ما طردت من صيد أو غيره .

وَوَضِعَ الْكِتَابُ « معانى هذا المجلس والله نَسِيمٌ سَحَرٍ ، إِذَا أَسْتَشَقَّهُ نَحْمُورُ
 الْعَفْلَةِ أَفَاقٌ ، سَعُوطٌ ^(١) هذا الوعظ يَنْقُضُ ^(٢) إِنْ شَاءَ اللَّهُ زَكَمَةَ الْبَطَالَةِ ، إِنْ
 الَّذِي أَنْزَلَ الدَّاءَ أَنْزَلَ الدَّوَاءَ ، إِكْسِيرٌ ^(٣) هذا الكتاب يلقب بحكمة جابر ^(٤) ،
 الْقُلُوبَ الْمُنْكَسِرَةَ عَيْنٍ مِنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ « إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى
 يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ » إلهي ذُلْنَا مِنْ حَيْرَةٍ يَضِلُّ فِيهَا - إِلَّا إِنْ هَدَيْتَ - الدليلُ ،
 وَأَجْرِنَا مِنْ غَمْرَةٍ ^(٥) وكيف - إِلَّا بِإِغَائِثِكَ - السبيلُ ، نفوسُ صَدَيْءٍ مِنْ مَرٍّ
 الْأَزْمَانِ مِنْهَا الصَّقِيلُ ، وَنَبَأًا بِمُجْنُوبِهَا عَنِ الْحَقِّ الْمَقِيلُ ، وَأَذَانٌ أَنْهَضَهَا الْقَوْلُ
 الثَّقِيلُ ، وَعَثْرَاتٌ لَا يَقْبَلُهَا إِلَّا أَنْتَ يَا مُقِيلَ الْعَثْرَاتِ يَا مُقِيلَ ، أَنْتَ حَسْبُنَا
 ونعم ^(٦) الوكيل . (نفع الطيب ٤ : ٨٥)

١٩ - وَصِيَّةُ مُوسَى بْنِ سَعِيدِ الْعَنْسِيِّ ^(٧) لِابْنِهِ

قال أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي :

لما أردت النهوض من ثغر الإسكندرية إلى القاهرة ، أول وصولي إلى

[١] في الأصل « سوط » وأراه محرفاً عن « سعوط » كما يدل عليه سياق الكلام ، والسعوط : الدواء
 يصب في الأنف . [٢] في الأصل « يبغض » وأراه « ينقض » أى يذهب .

[٣] الإكسير : الكيمياء .

[٤] يريد جابر بن حيان . قال ابن الفظفي في تاريخ الحكماء في ترجمته : « هو جابر بن حيان الصوفي
 الكوفي ، وكان متقدماً في العلوم الطبيعية ، وفي صناعة الكيمياء . . الخ » وذكره ابن زيدون في
 رسالته الهزلية ، فقال : « وأظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء » قال ابن نباتة في سرح العيون :
 « وأما جابر بن حيان المذكور فلا أعرف له ترجمة صحيحة في كتاب يعتمد عليه ، وهذا دليل على قول
 أكثر الناس إنه اسم موضوع وضعه المصنفون في هذا الفن ، وزعموا أنه كان في زمن جعفر الصادق ،
 وأنه إذا قال في كتابه : قال لي سيدي ، وسمعت من سيدي ، فإنه يعنى به جعفر الصادق » وقد قدمنا لك
 أن جعفر الصادق توفي سنة ١٤٨ هـ .

[٥] الغمرة : الشدة . [٦] أورد المقرئ في نفع الطيب للسان الدين عقب ذلك كلاماً آخر في الوعظ
 وهو على نمط ما أوردناه لك فانظره هناك إن شئت .

[٧] هو الكاتب الشهير أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي ، من سلالة
 عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه ، وقد نوه به ابن هود ملك الأندلس ، وولاه الجزيرة الخضراء ، وهو

الإسكندرية ، رأى أبي أن يكتب لى وصية أجعلها إماماً فى الغربية ، فبقي فيها أياماً إلى أن كتبها عنه ، وهى هذه :

أودعك الرحمن فى غرْبَتِكَ مُرْتَقِباً رُمَحَاهُ فى أَوْبَتِكَ
وما اختيرارى كان طَوْعَ النَّوَى لكننى أجرى على بُعَيْتِكَ^(١)
فلا تُطِلْ حَبْلَ النَّوَى ، إبنى واللهِ أَشْتاقُ إلى طَلْعَتِكَ
من كان مفتوناً بأبْنائِهِ فإننى أَمَعَنْتُ فى خَبْرَتِكَ
فاختصرِ التوديعَ أَخْذاً ، فما لى ناظرٍ يُقَوِّى على فُرْقَتِكَ
واجعل وَصَاتِي نُصْبَ عَيْنِ ، ولا تَبْرَحْ مَدَى الأيامِ من فِكْرَتِكَ
خُلَاصَةَ العَمْرِ التى حُنَّكَتْ فى ساعةٍ زُفَّتْ إلى فِطْنَتِكَ^(٢)
فللتجارِيبِ أمـورٌ إذا طالعتها تَشَجَّدُ من غفلتك
فلا تَنَمَّ عن وَغِيها ساعةً فإنها عَوْنٌ إلى يَقْظَتِكَ^(٣)
وكلَّ ما كابدته فى النَّوَى إياك أن يكسِرَ من هِمَّتِكَ
فليس يُدْرِى أصلُ ذى غُرْبَةٍ وإنما تُعْرِفُ من شِيَمَتِكَ

من رحل من علماء الأندلس إلى المشرق ، وتوفى بالإسكندرية سنة ٦٤٠ هـ عن ٦٧ عاماً . وكان أبوه محمد وزيراً جليلاً بعيد الصيت ، على الذكر ، رفيع الهممة ، كثير الأموال ، وكان ذا حظوة لدى الموحدين ، وولى لهم أعمالاً كثيرة بمراكش وإشبيلية وغرناطة ، واتصل ولايته على أعمال غرناطة ، وكان من شيوخها وأعيانها .

وكان جده عبد الملك بن سعيد صاحب قلعة بنى سعيد تحت طاعة على بن يوسف بن تاشفين ملك البربر ، إلى أن استبَدَّ بها سنة ٥٣٩ هـ .

وابنه أبو الحسن على هو . تتم كتاب : « المغرب فى أخبار المغرب » ، وكان السبب فى تأليفه هو جده عبد الملك بن سعيد ، ثم عمه ابنه محمد بن عبد الملك ، ثم تم ما بقى منه ابنه موسى بن محمد ، ثم أربى على الجميع فى إتمامه على بن موسى ، وقد ذكر فى خطبته أنه بدى فيه من سنة ٥٣٠ هـ ، ومنتها إلى غرة سنة ٦٤١ هـ ، وكان مولد أبي الحسن بقرناطة سنة ٦١٠ هـ ، ووفاته بتونس سنة ٦٨٥ هـ [١٩] النوى : البعد . [٢] حنكت : أحكمت . [٣] اليفظة بالتحريك وسكنه للشعر .

وكل ما يُفْضَى لِمَذْرٍ فلا تجعله في الغربة من إزبتك^(١)
 ولا تجالس من فشا جهله وأقصد لمن يرغب في صنعك
 ولا تجادل أبداً حاسداً فإنه أدعى إلى هيبك
 وامش الهوينى مظهرأ عفةً وأبع رضا العين عن هيبك
 أفس التحيات إلى أهلها ونبه الناس على رببتك
 وأنطق بحيث العي مستقبح واصمت بحيث الخير في سكتك
 ولا تزل مجتمعا طالبا من دهرك الفرصة في وثبتك
 وكلما أبصرتها أمكنت وب واثقا بالله في مكتك^(٢)
 وارج على رزقك من بابي وأقصد له ما عشت في بكرتك
 وأياس من الود لدى حاسد ضد ، ونافسه على خطتك^(٣)
 ووفر الجهد ، فمن قصده قصدك لا تعبه في بغضك
 ووف كلاً حقه ، وتكن تكسر عند الفخر من حدتك
 ولا تكن تحقر ذا رتبة فإنه أنفع في عزبتك
 وحيما خيمت فاقصد إلى صوبة من تجوه في نصرتك
 وللرزايا وثبة ، مالهما إلا الذي تذخر من عدتك
 ولا تقل : (أسلم لي وحدتي) فقد تقاسي الذل في وحدتك
 والتزم الأحوال وزناً ولا ترجع إلى ما قام في شهوتك
 ولتجعل العقل محكماً ، وخذ كلاً بما يظهر في نقدتك
 واعتبر الناس بأفاظهم وأصحب أخا يرغب في صوبتك

[١] الإربة : الحاجة . [٢] المكنة بفتح فسكسر : التمكن والقدرة ، وسكنه للشعر

[٣] في الأصل « وأس من الود . . . » وقد أصلحته « وأياس » وبه يستقيم المعنى

بعد اختبارٍ منك يَقْضِي بما
 كم من صَدِيقٍ مُظْهِرٍ نُصْحَهُ
 إياك أن تَقْرَبَهُ ، إنه
 وَأَقْنَعُ إذا ما لم تجد مَطْمَعًا
 وَأَنْمُ نَمُو النَّبْتِ قد زارُهُ
 وإن نَبَا دهره فَوَطَّنْ له
 فكل ذى أمرٍ له دولةٌ
 ولا تُضَيِّعْ زَمَنًا مُمَكِّنًا
 والشَّرَّ مَهْمَا أَسْطَعْتَ لا تَأْتِهِ
 يَحْسُنُ في الآخِذِ من خِلْطَتِكَ (١)
 وَفِكْرُهُ وَقَفَّ على عَثْرَتِكَ
 عَوْنٌ مع الدهر على كَرْبَتِكَ
 وَأَطْمَعُ إذا أُنْعِشْتَ من عُسْرَتِكَ
 غَيْبُ النَّدَى ، واسمُ إلى قَدْرَتِكَ
 جَأَشَكَ ، وانظرهُ إلى مَدَّتِكَ
 فَوَفَّ ما وافاك في دولتِكَ
 تَذَكَرُهُ يَدٌ كِي لَطَى حَسْرَتِكَ
 فَإِنَّهُ حَوَزَ على مُهْجَتِكَ (٢)

* * *

يا بُنَيَّ الذي لا ناصح له مثلى ، ولا منصوح لى مثله ، قد قدمت لك في هذا
 النظم ما إن أخطرتَه بخاطرك في كل أوان ، رجوتُ لك حسن العاقبة إن شاء
 الله تعالى ، وإن أخفَّ منه للحفظ ، وأعلقَ بالفكر ، وأحقَّ بالتقدم قول الأول :

يَرِينُ الغريبَ إذا ما اغتربَ ثلاثٌ ، فنهن : حُسْنُ الأدبِ
 وثانِيَةٌ : حُسْنُ أخلاقِهِ وثالثَةٌ : إجتِئابُ الرِّيبِ

وإذا اعتبرت هذه الثلاثة ، ولزمتها في العربة ، رأيتها جامعة نافعة ، لا يَلْحَقُكُ
 إن شاء الله مع استعمالها نَدَمٌ ، ولا يفارقك برٌّ ولا كَرَمٌ ، والله دَرُّ القائل :
 يُعَدُّ رَفِيعَ القومِ مَنْ كَانَ عَاقِلًا وإن لم يكن في قومه بحسيبٍ

[١] الحلطة مثل العشرة وزنا ومعنى ، والحلطة بالضم : اسم من الاختلاط ، مثل الفرقة من الافتراق .

[٢] حازه حوزا : جمعه وضحه وامتلكه كاحتازه احتيازاً ، والمعنى : أنك إن أتيت الشرر استحوذ على

نفسك وتملكك .

إِذَا حَلَّ أَرْضًا عَاشَ فِيهَا بِعَقْلِهِ وَمَا عَاقِلٌ فِي بَلَدَةٍ بِغَرِيبٍ
وَمَا قَصَّرَ الْقَائِلُ حَيْثُ قَالَ :

وَاصْبِرْ عَلَى خُلُقٍ مِنْ تَعَاشِرُهُ وَدَارِهِ ، فَالْلَيْبُ مَنْ دَارَى
وَاتَّخَذَ النَّاسَ كُلَّهُمْ سَكَنًا وَمَثَلَ الْأَرْضَ كُلَّهَا دَارًا

وَأَصْغَرَ يَا بُنَيَّ إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ يَتِيمَةُ الدَّهْرِ^(١) ، وَسَلَّمَ الْكِرْمَ وَالصَّبْرَ :

وَلَوْ أَنَّ أَوْطَانَ الدِّيَارِ نَبَتَ بِكُمْ لَسَكَّتُمْ الْأَخْلَاقَ وَالْآدَابَ^(٢)

إِذْ حُسْنُ الْخُلُقِ أَكْرَمُ نَزِيلٍ ، وَالْأَدَبُ أَرْحَبُ مَنْزِلٍ ، وَلِتَكُنْ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ
فِي أَدِيبٍ مُتَغَرَّبٍ : « وَكَانَ كَلِمًا طَرَأَ^(٣) عَلَى مَلِكٍ ، فَكَأَنَّهُ مَعَهُ وُلْدٌ ، وَإِلَيْهِ قَصَدَ ،

غَيْرَ مُسْتَتْرِبٍ بِدَهْرِهِ ، وَلَا مُنْكَرٍ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ » ، وَإِذَا دَعَاكَ قَلْبُكَ إِلَى

صِحْبَةٍ مَنْ أَخَذَ بِجَمَاعِعِ هَوَاهُ^(٤) ، فَاجْعَلِ التَّكْلِفَ لَهُ سَأْمًا ، وَهُبَّ فِي رَوْضِ

أَخْلَاقِهِ هَبُوبَ النَّسِيمِ ، وَحُلَّ بِطَرْفِهِ حُلُولَ الْوَسَنِ^(٥) ، وَانزَلْ بِقَلْبِهِ نَزُولَ الْمَسْرَةِ ،

حَتَّى يَتِمَّكَ لَكَ وَدَادُهُ ، وَيَخْلُصَ فَيْكَ اعْتِقَادُهُ ، وَطَهَّرَ مِنَ الْوُقُوعِ فِيهِ لِسَانَكَ ،

وَأَغْلِقْ سَمْعَكَ ، وَلَا تُرَخِّصْ فِي جَانِبِهِ لِحْسُودٍ لَكَ مِنْهُ ، يَرِيدُ إِبْعَادَكَ عَنْهُ لِمَنْفَعَتِهِ ،

أَوْ حِسُودٍ لَهُ يَغَارُ لِتَجْمَلُهُ بِصَحْبَتِكَ ، وَمَعَ هَذَا فَلَا تَغْتَرَّ بِطُولِ صِحْبَتِهِ ، وَلَا تَتَمَهَّدْ

بِدَوَامِ رَقْدَتِهِ ، فَقَدْ يَنْبِئُهُ الزَّمَانُ ، وَيُغَيِّرُ مِنْهُ الْقَلْبَ وَاللِّسَانَ ، وَلِذَا قِيلَ : « إِذَا

أَحْبَبْتَ فَأَحْبِبْ هُوَ نَأْمًا ، فِي الْمُمْكِنِ أَنْ يَنْقَلِبَ الصَّدِيقُ عَدُوًّا ، وَالْعَدُوُّ صَدِيقًا »

وَإِنَّمَا الْعَاقِلُ مَنْ جَعَلَ عَقْلَهُ مَعْيَارًا ، وَكَانَ كَالْمِرَاةِ يَلْمِئُ كُلَّ وَجْهِ بِمِثَالِهِ ، وَجَعَلَ

نُصْبَ نَازِرِهِ قَوْلَ أَبِي الطَّيِّبِ :

[١] يقال : درة يقيمة : أى لانظير لها ، وكل شىء مفرد يعز نظيره فهو يتيم .

[٢] نبا به منزله : إذا لم يوافق . [٣] طرأ عليهم كنعج : أتاهم من مكان ، أو خرج عليهم منه فجأة .

[٤] الضمير فيه يعود على « قلبك » . [٥] الوسن : النعاس

ولما صار ودّ الناس خيباً جزيتُ على ابتسام بابتسام^(١)

وفي أمثال العامة : « من سبقك بيوم فقد سبقك بعقل » ، فاختدّ بأمثلة من جرّب ، واستمع إلى ما خلد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الأقوال ، فإنها خلاصة عمرهم ، وزبدة تجاربهم ، ولا تتكلّ على عقلك ، فإن النظر فيما تعب فيه الناس طول أعمارهم ، وابتاعوه غالباً بتجاربهم ، يُرهِّبك ويقع عليك رخيصاً ، وإن رأيت مَنْ له مروءة وعقل وتجربة ، فاستفد منه ، ولا تضيع قوله ولا فعله ، فإن فيما تلقاه تلقيحاً لعقلك ، وحثاً لك واهتداء .

وإياك أن تعمل بهذا البيت في كلّ موضع : وَالْحُرُّ يُخَدِّعُ بِالْكَلَامِ الطَّيِّبِ :
فقد قال أحدهم : ما قيل أضرّ من هذا البيت على أهل التجمل ، وليس كل ما تسمع من أقوال الشعراء يحسنُ بك أن تتبعه حتى تتدبره ، فإن كان موافقاً لعقلك ، مُصلِحاً لحالك ، فراع ذلك عندك ، وإلا فأنبذْه نَبَذَ النَوَاةَ ، فليس اكل أحد يُتَبَسَّمُ ، ولا كل شخص يُكَلِّمُ ، ولا الجود مما يُعَمُّ به ، ولا حُسنُ الظن وطيب النفس مما يعامل به كل أحد ، والله درّ القائل :

ومالٍ لا أوفى البرية قسطها على قدر ما يعطى وعقلي ميزانُ

وإياك أن تُعطى من نفسك إلا بقدر ، فلا تعامل الدون بمعاملة الكفء ، ولا الكفء بمعاملة الأعلى ، ولا تضيع عمرك فيمن يعاملك بالمطامع ، وَيُثْبِيكَ على مصلحة حاضرة عاجلة ، بغائبة آجلة ، واسمع قول الأول :

وَبِعْ آجِلاً مِنْكَ بِالْعَاجِلِ : وَأَقْلِلْ مِنْ زِيَارَةِ النَّاسِ مَا اسْتَطَعْتَ ، وَلَا تَجْفُهُمْ بِالْجَمَلَةِ ، وَلَكِنْ يَكُونُ ذَلِكَ بَحِيثٍ لَا يَلْحَقُ مِنْهُ مَلَلٌ وَلَا ضَجْرٌ وَلَا جَفَاءٌ ،

ولا تقل أيضاً: أقمُدُ في كِسْرِيَّتِي ، ولا أرى أحداً ، وأستريح من الناس ، فإن ذلك كسل داغ إلى الذل والمهانة ، وإذا علم عدوك أو صديق منك ذلك ، حاملاًك بحسبه ، فازدراك الصديق ، وجَسَرَ عليك العدو ، وإياك أن يَغْرُكَ صاحب عن أن تدَّخر غيره للزمان ، وتطيعه في عداوة سواه ، ففي الممكن أن يتغير عليك ، فتطلب إعانة غيره عليه ، أو استغناء عنه ، فلا تجد ذخيرة قدَّمتها ، وكان هو في أوسع حال ، وأعلى رأي ، بما دبره بحيلته في انقطاعك عن غيره ، فلواتفق لك أن تصحَبَ من كل صناعة وكل رياسة ، مَنْ يكون لك عُدَّةً ، لكان ذلك أولى وأصوب ، وسَلَنِي فَإِنِّي خبير ، طال - والله - ما صحَّبتُ الشخص أكثرَ عمرى ، لأعتمد على سواه ، ولأعتدَّ لإيابه ، منخدعاً بسمِّ رابه ، موثوقاً في حبائل خطابه ، إلى أن لا يحصل لي منه غير العَضِّ على البَنَانِ ، وقول : لو كان ولو كان ! ولا يحملُك أيضاً هذا القول أن تظنه في كلِّ أحد ، وتعجِّلُ المكافأة ، وليكن حسن الظن بمقدار ما ، واصبر بمقدار ما ، وَالْفِطْنِ لا تخفى عليه تخاييلُ الأحوال ، وفي الوجوه دلالات وعلامات ، وأصغر إلى القائل :

ليس ذا وجهٍ مَنْ يَضِيفُ ولا يَقُ - رِي ولا يدفع الأذى عن حرِّم^(١)
 فمن يكن له وجه مثل هذا الوجه فَوَلَّ وَجْهَكَ عَنْهُ قِبَلَةَ تَرْضَاهَا ، ولتحرصْ جُهْدَكَ على أن لا تصحَبَ أو تخدمَ إِلَّا رَبَّ حِشْمَةٍ ونعمة ، وَمَنْ نشأ في رفاهية ومروءة ، فإنك تنام معه في مهاد العافية ، وإن الجياد على أعراقها^(٢) تجرى ، وأهل الأحساب والمروءات يتركون منافعهم متى كانت عليهم فيها

[١] ضافه يضيفه : نزل به ضيفاً ، وقرى الضيف كرمى : أحسن إليه .

[٢] الأعراق جمع عرق بالكسر وهو الأصل .

وَصَمَّةٌ ، وقد قيل في مجلس عبد الملك بن مروان : أَشْرِبَ مُصْعَبُ الْحَمْرَ ؟ فقال عبد الملك - وهو عدو له محارب له على الملك - : لو عِلِمَ مُصْعَبُ أَنْ الْمَاءَ يُفْسَدُ مُرْوَتُهُ مَا شَرِبَهُ ؛ وَالْفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ .

يابني ، وقد علمت أن الدنيا دار مفارقة وتغير ، وقد قيل : «أُصْحَبُ مِنْ شِئْتِ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ» ، فمتى فارقت أحداً فعلى حُسْنِي فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي : هَلْ أَنْتَ رَاجِعٌ إِلَيْهِ ؟ فَلِذَلِكَ قَالَ الْأَوَّلُ :

« ولما مضى سلمٌ بكيتُ على سلمٍ » ، وإياك والبيتَ السائر :

وَكُنْتَ إِذَا حَلَلْتَ بَدَارَ قَوْمٍ رَحَلْتَ بِخِزْيَةٍ وَتَرَكْتَ عَارَا

واحرص على ما جمع قول القائل : « ثلاثة تُبْقِي لَكَ الْوَدَّ فِي صَدْرِ أَخِيكَ : أَنْ تَبْدَأَهُ بِالسَّلَامِ ، وَتَوْسِعَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ ، وَتَدْعُوهُ بِأَحَبِّ الْأَسْمَاءِ إِلَيْهِ » ، واحذر كل ما بينه لك القائل : « كل ما تفرسه تجنيه إلا ابن آدم ، فإنك إذا غرسته يقلمك » وقول الآخر : « ابن آدم يتمسكن حتى يتمكن » وقول الآخر : « ابن آدم ذئب مع الضعف ، أسد مع القوة » .

وإياك أن تثبت على صُحْبَةِ أَحَدٍ قَبْلَ أَنْ تُطِيلَ اخْتِبَارَهُ ، فَيَحْكِي أَنَّ ابْنَ الْمُقْفَعِ خَطَبَ مِنَ الْخَلِيلِ مُحْبَبَتَهُ ، فجاوبه : « إن الصُّحْبَةَ رِقٌّ ، وَلَا أَضْعُ رِقِّي فِي يَدِكَ حَتَّى أَعْرِفَ كَيْفَ مَلَكَتُكَ (١) » ، وَأَسْتَمَلِ (٢) مِنْ عَيْنِ مَنْ تَعَاشَرَهُ ، وَتَفْقَدُ فِي فَلَتَاتِ الْأَلْسُنِ وَصَفَحَاتِ الْأَوْجِهَةِ ، وَلَا يَحْمِلُكَ الْحِيَاءُ عَلَى السَّكُوتِ عَمَّا

[١] ملكة ملكة بالتحريك ، وملكاً مثلث الميم ، ومملكة مثلث اللام . احتواه قادراً على الاستبداد به .

[٢] من استمليت الكتاب : سألته أن يمايه عليّ ، والمعنى : استرشد وتبين من نظرات عينه ، أحيب

يضرِك أن لا تبيِّنَه ، فإن الكلام سِلاح السِّلْم ، وبالأنين يُعزِف ألم الجرح ،
واجعل لكل أمر أخذت فيه غاية تجعلها نهاية لك .

وَآكَدُ ما أوصيك به أن تطرح الأفكار ، وتسلم للأقدار .

واقبل من الدهر ما أتاك به مَنْ قرَّ عيناً بعيشه نفعه

إذ الأفكار تجلبُ الهموم ، وتضاعفُ الغموم ، وملازمة القطوب ، عنوان
المصائب والخطوب ، يستريب به الصاحب ، ويشمت العدو المجانب ، ولا
تضء بالوساوس إلا نفسك ، لأنك تنصر بها الدهر عليك ، ولله درُّ القائل :

إذا ما كنتَ للأحزان عَوْنًا عليك مع الزمان فمن تلوم ؟

مع أنه لا يردُّ عليك الفاتية الحزنُ ، ولا يرعوى بطول عتبك الزمنُ ، ولقد
شاهدتُ بغيرِ ناطة شخصاً قد ألفتَه الهموم ، وعشقتَه الغموم ، من صغره إلى
كبره ، لا تراه أبداً خليفاً من فكره ، حتى لُقِّبَ بصدر الهم ، ومن أعجب ما
رأيتُه منه أنه يتنكَّد في الشدة ، ولا يتعلل بأن يكون بعدها فرج ، ويتنكَّد في
الرخاء خوفاً من أن لا يدوم .

وَيُنشِدُ : تَوَقَّعْ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمَّ ، وَيُنشِدُ : وعند التناهي يَقْصُرُ الْمُتَطَوَّلُ .

وله من الحكايات في هذا الشأن عجائب ، ومثل هذا عُمره مُخسورٌ يرضى بها .

ومتى رفعت الزمان إلى قوم يذمُّون من العلم ما تُحسِنُه حسداً لك ، وَقَصِداً

لتصغيرِ قدرِكَ عندكَ ، وتزهِيداً لك فيه ، فلا يَحْمِلُكَ ذلك على أن ترهَدَ في علمِكَ ،

وَتَرَكَنَّ إلى العلم الذي مدحوه ، فتكون مثلَ الغراب الذي أعجبه مَشَى الحَجَلَةَ^(١)

[١] الحجل بالتحريك : طائر على قدر الحمام كالقطة أحمر المنقار والرجلين ، والواحدة حجلة ، واسم جمه

حجلى بكسر فسكون ففتح ولا نظير له سوى ظربى (ومفرده ظربان بفتح فسكون وهو دوية منقنة الزبيح)

فرا م أن يتعلمه فَصَّعُبَ عليه ، ثم أراد أن يرجع إلى مشيه فنَسِيَهُ ، فبَقِيَ مُخْبَلٌ المشى ، كما قيل :

إن الغراب (وكان يمشى مَشِيَّةً فيما مضى من سالف الأجيال)^(١)
حَسَدَ الْقَطَا ، وأراد يمشى مشيها فأصابه ضَرْبٌ من الْعُقَالِ^(٢)
فَأَضَلَّ مَشِيَّتَهُ ، وأخطأ مشيها فلذلك سَمَّوْهُ أبا بَرِّقَالِ^(٣)

ولا يُفْسِدُ خَاطِرَكَ مَنْ جَعَلَ يَدُومَ الزَّمانِ وأهله ، ويقول : « ما بَقِيَ في الدنيا كريم ولا فاضل ، ولا مكان يُرْتاحُ فيه » ، فإن الذين تراهم على هذه الصفة ، أكثر ما يكونون ممن صَحِبَهُ الجُرْمان ، واستحقت طلعتة للهوان ، وَأَبْرَمُوا^(٤) على الناس بالسؤال فمقتوم ، وعجزوا عن طلب الأمور من وجوهها ، فاستراحوا إلى الوقوع في الناس ، وإقامة الأعذار لأنفسهم بقطع أسبابهم ، وتعذير أمورهم ، ولا تُزَلُّ هذين البيتين من فكرك :

لِنْ إِذَا ما نِلْتَ عِزًّا فَأخو العزَّ يلينُ
فإِذَا نابك دهرُ فَمَا كُنْتَ تَكُونُ

وقول الآخر :

تِهْ وارْتَفِعْ إِنْ قِيلَ أَقْتَرُ ، وانْخَفِضْ إِنْ قِيلَ أَثْرَى^(٥)
كَلْعَصَنِ يَسْفُلُ ما أكتسى مَمَرًا ، ويعلو ما تعرَّى

[١] هذا البيت ليس مثبتاً في الأصل ، وقد أورده الهميري مع البيتين بعده في حياة الحيوان الكبرى ٢ : ٢٤٤ . [٢] العقال : داء في رجل الدابة إذا مشى ظلع ساعة ثم انبسط . [٣] من أرقات الدابة إذا أسرع . [٤] أورد الفعل لازماً وهو متعد ، جاء في كتب اللغة : « أبرمه فبرم كفرح وتبرم : أوله فل » . [٥] أقتر : افتقر .

ولا قول الآخر :

الخير يَبْقَى وإن طال الزمانُ به والشَّرُّ أَخْبَثُ ما أوعيتَ مِنْ زاد
واعتمد في الناس ما قاله القائل :

وَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَنْوِي لَا يَعْدَمُ عَلَى النَّعْيِ لِأُمَّتِهِ
وقريب منه قول القائل :

بقدر الصَّعُودِ يَكُونُ الهَبْوَطُ فإِيَّاكَ وَالرَّثَبَ العَالِيَهُ
وكن في مكانٍ إذا ما سَقَطَتْ تقوِّمُ ورجلاك في عافيه
وَمُحَفِّظًا بما تَضَمَّنَهُ قول الآخر :

ومن دعا الناسَ إلى ذمِّه ذمُّوه بِالْحَقِّ وبالباطلِ
ولله درَّ القائل :

ما كلُّ ما فوق البسيطة كافيًا فإذا قَنَعْتَ فكلُّ شيءٍ كافي
والأمثال يَضْرِبُهَا لَدَى اللَّبِّ الحَكِيمِ ، وذو البَصْرِ يمشي على الصراط المستقيم ،
والفطن يقنع بالقليل ، ويستدل باليسير ، والله سبحانه خليفتي عليك ،
لَا رَبَّ سِوَاهُ . (نوح الطيب ١ : ٤٩٣)

٢٠ - خطبة ابن الزيات المنزوعة الألف (توفي سنة ٧٢٨ هـ)

وخطب أحمد بن الحسن بن علي بن الزيات ^(١) خطبة ألفت من
حروفها على كثرة تردها في الكلام ، وهي :

[١] هو أحمد بن الحسن بن علي بن الزيات الخطيب المتصوف ، من أهل بلش مالقة ولد سنة ٦٤٩ هـ ،
وتوفى سنة ٧٢٨ هـ . قال فيه لسان الدين بن الخطيب : « كان يفتح مجالسه أكثر الأحيان بخطب غريبة ،
يطبق بها مفاصل الأغراض التي يشرع فيها ، وينظم الشعر دائماً في مراجعته ومخاطبته وإجازته من غير
تأن ولا روية ، حتى اعتاده ملكة ، واستعمل في السفارات بين الملوك لدحض السخائم ، وإصلاح الأور ،
فكانوا يوجبون حقه ، ويلتسون بركته ودعاه » وله تصانيف كثيرة ذكرها ابن الخطيب .

« حَمِدْتُ رَبِّي جَلًّا مِنْ كَرِيمٍ مَحْمُودٍ ، وَشَكَرْتُهُ عَزًّا مِنْ عَظِيمٍ مَعْبُودٍ ، وَنَزَّهْتُهُ عَنْ جَهْلٍ كُلِّ مُلْحَدٍ كَافُورٍ ، وَقَدَّسْتُهُ عَنْ قَوْلِ كُلِّ مُفْسِدٍ غَرُورٍ . كَبِيرٌ لَوْ تَقَوَّمَ فِي فَهْمٍ لِحَدٍّ (١) ، قَدِيرٌ لَوْ تَصَوَّرَ فِي رَسْمٍ لِحَدٍّ (٢) ، لَوْ عَرَّتَهُ (٣) فِكْرُهُ تَصَوُّرًا لِتَصَوُّرٍ ، وَلَوْ حَدَّثَتْهُ فِكْرُهُ لَتَقَدَّرَ (٤) ، وَلَوْ فَهَمَّتْ لَهُ كَيْفِيَّةٌ لِبَطَالِ قَدَمِهِ ، وَلَوْ عَلِمَتْ لَهُ كَيْفِيَّةٌ لِحَصَلِ عَدَمِهِ ، وَلَوْ حُصِرَ فِي ظَرْفٍ لَقُطِعَ بِتَجَسُّمِهِ ، وَلَوْ قَهَرَ وَصَفَ لَصُدِعَ (٥) بِتَقَسُّمِهِ ، وَلَوْ فُرِضَ لَهُ شَبَحٌ لَرَهِقَهُ (٦) كَيْفٌ . عَظِيمٌ مِنْ غَيْرِ تَرْكِيْبٍ قُطِرَ ، عَلِيمٌ مِنْ غَيْرِ تَرْتِيْبٍ فِكْرٌ ، مَوْجُودٌ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ يُمَسِّكُهُ ، مَعْبُودٌ مِنْ غَيْرِ وَهْمٍ يُدْرِكُهُ ، كَرِيمٌ مِنْ غَيْرِ عَوَاضٍ يَلْحَقُهُ ، حَكِيمٌ مِنْ غَيْرِ عَرَضٍ يَلْحَقُهُ (٧) ، قَوِيٌّ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ يَجْمَعُهُ ، عَلِيٌّ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ يَرْفَعُهُ ، لَوْ وُجِدَ لَهُ جِنْسٌ لِعُورِضٍ فِي قِيَوْمِيَّتِهِ (٨) ، وَلَوْ ثَبَتَ لَهُ حِسٌّ لِنُوزَعٍ فِي دِيْمُومِيَّتِهِ (٩) .

ومنها : تقدّس وعزّ فعله ، وتنزه عزّ اسمه وفضله ، جلّ قاهرٌ قدرته ، وعزّ باهرٌ عزّته ، وعظمت صِفَتُهُ ، وكثرت مننّه ، فتنقّ ورتق ، وصوّر وخلق ، وقطع ووصل ، وانصر وخذل ، حمدته حمد من عرف ربه ، ورهب ذنبه ، وصفت حقيقة يقينه قلبه ، وزكّت (١٠) بصيرة دينه لبّه ، ربّط سلك سلوكه

[١] أى لعرف ، من الحد : وهو التعريف . [٢] من التحديد ، أى لصارت له ذات محدودة ، ولوأنه قال : « قديم » بدل « قدير » لناسب أن يقول بعده : « لجدّ » بالجيم المفتوحة أى لصار جديداً حادثاً . [٣] عرته : أى اعترته وتناولته ، وفى الأصل « عدته » بالدال وأراه محرفاً ، وتصوّر أى تمثل فى صورة ، يقال : صورته فتصور . [٤] التقدر : أى صار له قدر مجتم ، وفى الأصل « لتقدر » وأراه محرفاً . [٥] صدع به : جهر . [٦] رهقه : غشيه ولحقه .

[٧] يلحقه الأول : أى يناله ويأخذه ، ويلحقه الثانى بمعنى يتصف به .

[٨] القيوم : من أسمائه تعالى ، أى الذى لا يند له . [٩] الديمومة : الدوام .

[١٠] زكّت : طهرت .

وَسَدِّ^(١)، وَهَدَمَ صَرَحَ عُنُوهُ وَهَدَّ ، وَحَرَسَ مَعْقِلَ عَقْلِهِ وَحَدَّ ، وَطَرَدَ غُرُورَ غِرَّتِهِ^(٢) وَرَذَلَهُ ،^(٣) عِلْمَ عِلْمٍ تَحْقِيقَ فَنَحَا نَحْوَهُ ، نُقِرَّ لَهُ عِزٌّ وَجَلَّ بَثْبُوتُ رَبِّهِ بَيْتَهُ وَقَدَمَهُ ، وَنَعْتَدُ صُدُورَ كُلِّ جَوْهَرٍ وَعَرَضٍ عَنِ جُودِهِ وَكَرَمِهِ ، وَنَشْهَدُ بِتَبْلِيغِ مُحَمَّدٍ صَلَّى رَبُّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، رَسُولَهُ وَخَيْرِ خَلْقِهِ ، وَنُعَلِّمُنِ بِنَهْضِهِ فِي تَبْيِينِ فَرَضِهِ ، وَتَبْلِيغِ شَرَعِهِ ، ضَرْبَ قُبَّةِ شَرَعِهِ فَنَسَخَتْ كُلَّ شَرَعٍ ، وَجَدَّدَ عِزِّمَتَهُ فَفَقَعَ عَدُوَّهُ خَيْرَ قَمْعٍ ، قَوْمَ كُلِّ مَقَوْمٍ بِقَوِيمِ سُنَّتِهِ ، وَكَرِيمِ هَدْيِهِ ، وَبَيْنَ اقْوَمِهِ كَيْفَ يَرْكَنُونَ^(٤) ، فَفَازُوا بِقَصْدِهِ وَسَدِيدِ سَعْيِهِ ، بِشَرِّ مُطِيعِهِ فَظْفَرِ بُرْجَمَتِهِ ، وَحَذَرِ عَاصِيَتِهِ فَشَقَى بِنِقْمَتِهِ .

وبعد : فقد نصحتكم لو كنتم تعقلون ، وهديتكم لو كنتم تعلمون ، بصرتكم لو كنتم تبصرون ، وذكركم لو كنتم تذكرون ، ظهرت لكم حقيقة شريككم ، وبرزت لكم حقيقة حشركم ، فكم تركضون في طلق^(٥) غفلتكم ، وتغفلون عن يوم بعثكم ، وللموت عليكم سيف مسلول ، وحكم عزم غير معلول ، فكيف بكم يوم يؤخذ كل بذنبه ، ويُخبر بجميع كسبه ، ويفرق بينه وبين صحبه ، ويعدم نصره حزبه ، ويشغل بهمه وكرمه ، عن صديقه وتربه ، وتشر له رقعة ، وتعين له بقعة ؟ فربح عبد نظر وهو في مهل لنفسه ، وترسل في رضى عمل جنه للول رمنه^(٦) ، وكسرتهم شهوته ، ليقر في مجبوحه^(٧) قدسه .

[١] في الأصل « وشيد » وأراه محرفاً عن « شد » إذ هي التي تلام قوله قبلها « وربط » .

[٢] الغرة : الفلاة . [٣] رذله وأرذله : عدّه رذلاً .

[٤] ركن إلى الشيء ركونا : مال إليه واطمأن ، أى بين لهم كيف يركنون إلى الحق والصواب ،

وقد كانوا من قبله يعمهون في ضلالهم ويخبطون .

[٥] يقال : جرى الفرس طلقاً أو طلقين : أى شوطاً أو شوطين . [٦] الرمس : القبر .

[٧] مجبوحه المكان : وسطه .

ومنها : فَنَنْبَةَ - وَيَحْك - من سِنَتِكَ ونومك ، وتفكَّرَ فيمن هَلَكَ من مُحَبِّبِكَ وقومك ، هَتَفَ بهم مَنْ تَعَلَّمُ ، وَشَبَّ عَلَيْهِمْ مِنْهُ حَرَقٌ (١) مُظْلِمٌ ، نَخَرَبَتْ بِصَيْحَتِهِ رِبْعُهُمْ ، وتفرقت لهولهُ جُوعُهُمْ ، وذلَّ عَزِيمُهُمْ ، وَخَسِيَ رَفِيعُهُمْ ، وَصَمَّ سَمِيعُهُمْ ، نَجَرَ كُلَّ مَنْهُمْ عَن قَصْرِهِ ، وَرُمِيَ غَيْرَ مُوسَدٍ فِي قَبْرِهِ ، فَهُمْ بَيْنَ سَعِيدٍ فِي رَوْضَةٍ مُتَقَرَّبٍ ، وَبَيْنَ شَقِيٍّ فِي حُفْرَةٍ مَعَذِّبٍ ، فَتَسْتَوْهَبُ مِنْهُ عَزٌّ وَجَلٌّ عِصْمَةٌ مِنْ كُلِّ خَطِيئَةٍ ، وَخُصُوصِيَّةٌ تَبْقَى مِنْ كُلِّ نَفْسٍ جَرِيئَةٍ .

(الإحاطة ، في أخبار غرناطة ١ : ١٥٤)

٢١ - خطبة القاضي عياض التي ضمنها سور القرآن

وخطب القاضي أبو الفضل عياض (٢) خطبة ضمنها سور القرآن ، فقال :
« الحمد لله الذي افْتَتَحَ بِالْحَمْدِ كَلَامَهُ ، وَبَيَّنَّ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ أَحْكَامَهُ ، وَمَدَّ فِي آلِ عِمْرَانَ وَالنِّسَاءِ مَائِدَةَ الْأَنْعَامِ لِيُتِمَّ إِنْعَامَهُ ، وَجَعَلَ فِي الْأَعْرَافِ أَنْفَالَ تَوْبَةِ يُونُسَ وَالرَّ كِتَابَ أَحْكَمَتِ آيَاتِهِ ، بِمَجَاوِرَةِ يُوسُفَ الصَّدِيقِ فِي دَارِ الْكِرَامَةِ ، وَسَبَّحَ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ، وَجَعَلَ النَّارَ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، لِيُؤْمِنَ أَهْلُ الْحِجْرِ (٣) أَنَّهُ إِذَا أَتَى أَمْرُ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ فَلَا كَهْفَ وَلَا مَلْجَأَ إِلَّا إِلَيْهِ ، وَلَا يُظَامُونَ قَوْلَامَهُ ، وَجَعَلَ فِي حُرُوفِ كَهَيْئِصَ سِرًّا مَكْنُونًا ، قَدَّمَ بِسَبَبِهِ طَهَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ ، لِيُظَهَرَ إِجْلَالُهُ وَإِعْظَامُهُ ، وَأَوْضَحَ الْأَمْرَ حَتَّى حَبَّ الْمُؤْمِنُونَ

[١] الحرق : النار ولهبا .

[٢] هو القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض ولد سنة ٤٧٦ هـ ، بسبته - بلد بمراكش على الساحل الشمالي - ودخل الأندلس طالباً للعلم ، فأخذ بقرطبة عن جماعة ، وجمع من الحديث كثيراً ، وكان له به كبير عناية ، وكان إمام وقته فيه ، وفي النحو واللغة ، واستقضى ببده سبته ، ثم نقل منها إلى قضاء غرناطة ، وتوفي بمراكش سنة ٥٤٤ هـ ، قال المقرئ بعد أن أورد هذه الخطبة : « وفي نفسه من نسبتها له شيء ، لأن نفس القاضي في البلاغة أعلى من هذه الخطبة ، والله تعالى أعلم » .

[٣] واد بين المدينة والشام ، وهو منازل ثمود .

بُنُورِ الْفُرْقَانِ ، والشعراء صاروا كآئيل ذُلًّا وَصَعَارًا لِعَظَمَتِهِ ، وظهرت قَصَصُ
 العنكبوت فآمن به الروم ، وأيقنوا أنه كلام الحى القيوم ، نزل به الروح الأمين
 على زَيْنِ مَنْ وَافَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وأوضح لقمان الحكمة بالأمر بالسجود لربِّ
 الأحزاب ، فسبأ فاطرُ السموات أهلَ الطاغوت ، وأكسبهم ذلًا وخزيًا وحسرة
 وندامة ، وأمدَّ يس صلى الله عليه وسلم بتأييد الصَّافَّاتِ (١) ، فصاد الزمَّ يوم
 بَدْرِهِ ، وأوقع بهم ما أوقع سناديدهم فى القليب (٢) مكدوس ومكبوب ، حين
 شآلت بهم النعمة (٣) ، وغفر غافرُ الذنب وقابلُ التَّوْبِ للبدرين رضى الله عنهم
 ما تقدم وما تأخر حين فُصِّلَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ، فذلَّ من حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ
 وَأَيْسَ مِنَ السَّلَامَةِ ، ذلك بآن أمرهم سُورَى بينهم ، وشغلهم زُخْرُفِ الْآخِرَةِ
 عن دُخَانِ الدُّنْيَا ، جثوا أمام الأَحْقَافِ (٤) لقتال أعداء محمد صلى الله عليه وسلم يمينه
 وَشِمَالَهُ وخلفه وأمامه ، فأعطوا الفتح وَبُوتُوا حُجْرَاتِ الْجِنَانِ ، وحين تَلَّوْا :
 قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ، وتذبُّروا جوابَ قَسَمِ الذَّارِيَاتِ (٥) والطور ، لاح لهم نجم
 الحقيقة ، وانشق لهم قريقين ، فنافروا السامة ، ذلك بأنهم آمنهم الرحمن
 إذا وقعت الواقعة ، واعترف بالضعف لهم الحديد ، وهُزِمَ المجدلون ، وأُخْرِجُوا
 مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ ، حين
 نافروا السلامة .

أحمدَه حمدًا من امتحنته صفوفُ الجموع فى نَفَقِ التَّنَابُئِ ، فطلَّقَ الحُرْمَاتِ
 حين اعتبرَ المَلِكُ وعامه ، وقد سمع صَرِيْفَ القلم وكأنه بالحاقَّةِ (٦) والمعارج يمينه

[١] الملائكة تصف نفوسها للعبادة . [٢] القليب : البئر .

[٣] شآلت نابتهم : خفت منازلهم منهم ، أو تفرقت كلمتهم ، أو ذهب عزم .

[٤] واد باليمن به منازل عاد . [٥] الذاريات : الرياح تذر التراب وغيره .

[٦] الحاقَّة : الفيامة التي فيها يحق ما أنكروا من البعث والجزاء .

وَسَمَّاهُ وَخَلَفَهُ وَأَمَامَهُ ، وَقَدْ نَاحَ نُوْحُ الْجِنِّ فَتَزَمَّلَ ^(١) وَتَدَثَّرَ فَرَقًا مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَأَنْسَ بِمُرْسَلَاتِ النَّبَأِ ، فَزَرَعَ الْعُبُوسَ مِنْ تَحْتِ كُورِ الْعِمَامَةِ ، وَظَهَرَ لَهُ بِالْإِنْفِطَارِ التَّطْفِيفُ ، فَانْشَقَّتْ بُرُوجُ الطَّارِقِ بِتَسْبِيحِ الْمَلِكِ الْأَعْلَى وَغَشِيَتْهُ الشَّهَامَةُ ، فَوْرَبُّ الْفَجْرِ وَالْبَلَدِ وَالشَّمْسِ وَاللَّيْلِ وَالضُّحَى ، لَقَدْ انْشَرَحَتْ صُدُورُ الْمُتَّقِينَ ، حِينَ تَلَوْا سُورَةَ التِّينِ ، وَعَلِقَ الْإِيمَانَ بِقُلُوبِهِمْ ، فَكَلَّ عَلَى قَدْرِ مَقَامِهِ يُبِينُ ، وَلَمْ يَكُونُوا بِمَنْفَكَيْنِ دَهْرَهُمْ ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ وَصِيَامَهُ وَقِيَامَهُ ، إِذَا ذَكَرُوا الزَّلْزَلَةَ رَكَبُوا الْعَادِيَاتِ ^(٢) لِيَطْفِئُوا نُورَ الْقَارِعَةِ ، وَلَمْ يُلْهِمِهِمُ التَّكَاثُرَ حِينَ تَلَوْا سُورَةَ الْعَصْرِ وَالْهُمَزَةَ ، وَتَمَثَّلُوا بِأَصْحَابِ الْفِيلِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ ، وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ، أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ جَعَلُوا عَلَى رِءُوسِهِمْ مِنَ الْكُورِ عِمَامَةً ؟ فَالْكُوْثِرُ ^(٣) مَكْتُوبٌ لَهُمْ ، وَالْكَافِرُونَ خُذِلُوا ، وَهُمْ نُصِرُوا ؛ وَعُدِلَ بِهِمْ عَنِ لَهَبِ الطَّامَةِ ، وَبِسُورَةِ الْإِخْلَاصِ قَرَأُوا وَسَعِدُوا ، وَبِرَبِّ الْفَلَقِ ^(٤) وَالنَّاسِ ، اسْتَعَاذُوا فَأَعْيَدُوا مِنْ كُلِّ حُزْنٍ وَهُمْ وَغَمٍّ وَنَدَامَةٍ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، شَهَادَةٌ تُنَالُ بِهَا مَنَازِلُ الْكِرَامَةِ ، صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ مَا غَرَّدَتْ فِي الْأَيْكِ حَمَامَةٌ . (نَفْحُ الطَّيْبِ ٤ : ٣٩١)

٢٢ - خطبة سعيد بن أحمد المقرئ التي ضمنها سور القرآن

وخطب سعيد بن أحمد المقرئ ^(٥) خطبة على هذا النمط نصها :

« الحمد لله الذي افتتح بفاتحة الكتاب سورة البقرة، ليصطفي من آل عمران

[١] تزمّل بثيابه : تلفف بها ، وكذا تدثر .

[٢] الخيل تعدو في الغزو ، والفارسة التي تفرع القلوب بأموالها .

[٣] الكوثر : نهر في الجنة . [٤] الفلق : الصبح .

[٥] هو سعيد بن أحمد المقرئ عم أحمد المقرئ صاحب نفع الطيب .

رجالاً ونساءً، وفضلهم تفضيلاً، ومَدَّ مائدةً إنعامه ورزقه، ليعرف أعراف أنقال كرمه وحقه على أهل التوبة، وجعل ليونس في بطن الحوت سبيلاً، ونجى هوداً من كربه وحزنه، كما خلص يوسف من جبه وسجنه، وسبج الرعد بحمده ومينه، واتخذ الله إبراهيم خليلاً، الذي جعل في حجر الحجر من النحل شراباً نوع باختلاف ألوانه، وأوحى إليه بخفي لطفه سبحانه، واتخذ منه كهفاً قد شيّد بنيانه، وأرسل روجه إلى مريم فتمثل لها تمثيلاً، وفضل طه على جميع الأنبياء، فأتى بالحج والكتاب المكنون، حيث دعا إلى الإسلام قد أفلح المؤمنون، إذ جعل نور الفرقان دليلاً، وصدق محمداً صلى الله عليه وسلم الذي عجزت الشعراء في صدق نعته، وشهدت النمل بصدق بعته، وبين قصص الأنبياء في مدة مكثه، ونسج العنكبوت عليه في النار سترًا مسدولاً، ومثلت قلوب الروم رعباً من هيئته، وتعلم لقمان الحكمة من حكيمته، وهدى أهل السجدة للإيمان بدعوته، وهزم الأحزاب وسبأهم وأخذهم أخذاً ويلاً، فلقبه فاطر السموات والأرض بيس، كما نفذ حكمه في الصافات، وبين ص صدقه بإظهار المعجزات، وفرق زمر المشركين، وصبر على أقوالهم وهجرهم هجراً جميلاً، فغفر له غافر الذنب ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وفصلت رقاب المشركين إذ لم يكن أمرهم شورى بينهم، وزخرف منار الإسلام، وخفي دخان الشرك، وخرت المشركون جاثيةً، كما أنذر أهل الأحقاف فلا يهتدون سبيلاً، وأذل الذين كفروا بشدة القتال، وجاء الفتح للمؤمنين والنصر العزيز، وحجر الحجرات الحريز، وبق القدرة قتل الخراصون^(١) تقتيلاً، كلم موسى على جبل

الطُّور، فارتقى نجم محمد صلى الله عليه وسلم، فاقتربت بطاعته مبادئ السرور، وأوقع الرحمن واقعة الصبح على بساط النور، فتعجب الحديد من قوته، وكثرة المجادلة في أمته، إلى أن أُعيد في الحشر بأحسن مقيلا، امتحنه في صفّ الأنبياء وصلّى بهم إماماً، وفي تلك الجمعة مُلئت قلوبُ المنافقين من التغابن خُسراً وإرغاماً، فطلّق وحرّم، تبارك الذي أعطاه الملك، وعلم بالقلم، ورتّل القرآن ترتيلاً، وعن علم الحاقّة كم سأل سائل فسأل الإيمان، ودعا به نوح فنجاه الله تعالى من الطوفان، وأنت إليه طائفة الجن يستمعون القرآن، فأنزل عليه: « يَا أَيُّهَا الْمُرْسَلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا »، فكم من مُدَثِّر يوم القيامة شفقةً على الإنسان إذا أرسل مُرسّلات الدمع، فعمّ يتساءلون أهل الكتاب، وما تقبل من نازعات المشركين إذا عبس عليهم مالك وتولّاهم بالعذاب، وَكُوِّرَتِ الشَّمْسُ وانفطرت السماء، وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً، فَوَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ إذا انشقت السماء بالنعمام، وَطُوِيَتِ ذَاتُ الْبُرُوجِ، وَطَرَقَ طَارِقُ الصُّورِ بالنفخ للقيام، وعزّ اسم ربك الأعلى لغاشية الفجر، فيومئذ لا بلد ولا شمس ولا ليل طويلا، فَطُوبَى لِّلْمُصَلِّينَ الضحى عند انشراح صدورهم، إذا عاينوا التين والزيتون وأشجار الجنة، فسجدوا بِأَقْرَأِ اسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ هَذَا النِّعِيمَ الأكبر لأهل هذه الدار ما أحيوا ليلة القدر، وتبتّلوا بتيلا، ولم يكن للذين كفروا من أهل الكتاب من أهل الزلزلة من صديق ولا حميم، وتسوقهم كالعاديات إلى سواء^(١) الجحيم، وزلزلت بهم قارعة العقاب، وقيل لهم: أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ، هذا عصر العقاب الأيم، وَخُشِرَ الْهَمْزَةُ وَأَصْحَابُ الْفِيلِ إِلَى النَّارِ فلا يظلمون قتيلا، وقالت قريش ما أمتم من

هول الحشر، رأيت الذي يكذبُ بالدين كيف طُرد عن الكوثر؟ وسيق الكافرون إلى النار، وجاء نصر الله والفتح، فثبتت يدًا أبي لهب: إذ لا يجد إلى سورة الإخلاص سبيلا، فنعوذُ ربَّ الفلقِ من شرِّ ما خلق، ونعوذُ ربَّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الذي فسق، وتوب إليه وتوكل عليه وكفى بالله وكيلا». (فتح الطيب ٤: ٣٩٢)

٢٣ — خطبة الكفعمي التي ضمنها سور القرآن أيضا

وخطب الكفعمي^(١) خطبة على هذا النمط أيضا نصها:

« الحمد لله الذي شرف النبي العربي بالسبع المثاني وخواتيم البقرة، من بين الأنام، وفضل آل عمران على الرجال والنساء، بما وهب لهم من مائدة الأنعام، ومنحهم بأعراف الأنفال، وكتب لهم براءةً من الآنام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الذي نجى يونس وهودا ويوسف من قومهم، برعد الانتقام، وغذى إبراهيم في الحجر بلعاب النحل ذات الإسرار، فضاهى كهف مريم عليها السلام، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي هو طه الأنبياء، وحج المؤمنين، ونور فرقان الملك العلام، فاشعراء والنمل بفضلته تُخبر، ولقصص المنكوبت الروم تذكر، ولقمان في سجدته يشكر، والأحزاب كأيدى سبأ تُقهر، وفاطريس لصافاته يُنصر، وصاد مقلّة زمره تنظر الأعلام، فآل حم يقتال فتحه في حُجرات قافه قد ظهّرت، وذاريات طوره ونجمه وقره قد عطرت، وبالرحمن واقعة حديده يوم المجادلة قد نُصرت، وأبصار معانديه في الحشر يوم

[١] قال صاحب فتح الطيب في ترجمته: «هو إبراهيم بن علي بن حسن بن محمد بن صالح نسبة إلى كافر عما قرية من قرى أعمال صفد كما نقول في النسبة إلى بني عبدالدار عبدي، وإلى حصن كيفا: حصكي».

الامتحان حَسَرَتْ^(١) ، وَصَفَّ جَمَعْتَهُ فَأَثَرُ إِذْ أَجْسَادُ الْمُنَافِقِينَ بِالتَّغَابُنِ اسْتَعْرَتْ ،
وله الطلاق والتحرير وَمَقَامُ الْمَلِكِ وَالْقَلَمِ ، فزاهيك به من مقام ، وفي الحاقّة ،
أَعْلَى اللَّهِ لَهُ الْمَعَارِجُ نوح المطهر ، وخصه من بين الإنس والجن بِبَيِّئَاتِهَا الْمُزْمَلُ ،
وَبَيِّئَاتِهَا الْمُدَّتُّ ، وَشَفَعَهُ فِي الْقِيَامَةِ إِذَا دَمَوْعُ الْإِنْسَانِ مُرْسَلَاتُ كَلِمَاءِ الْمُتَفَجِّرِ ،
ووجهُهُ عِنْدَ نَبِيِّ النَّازِعَاتِ وَقَدْ عَبَسَ الْوَجْهَ كَالْهَلَالِ الْمُتَنَوِّرِ ، وَيَوْمَ التَّكْوِيرِ
وَالانْفِطَارِ وَهَلَاكِ الْمُطْفِئِينَ وَانْشِقَاقِ ذَاتِ الْبُرُوجِ بِشَفَاعَتِهِ غَيْرِ مُتَضَجِّرِ ، وَقَدْ
حُرِسَتْ لِمَوْلَاهِ السَّمَاءُ بِالطَّارِقِ الْأَعْلَى ، وَتَمَّتْ غَاشِيَةُ الْعَذَابِ إِلَى الْفَجْرِ عَلَى الْمُرْدَةِ
اللثام ، فَهُوَ الْبَلَدُ الْأَمِينُ وَشَمْسُ اللَّيْلِ وَالضُّحَى الْمَخْصُوصُ بِانْشِرَاحِ الصِّدْرِ ،
وَالْمَفْضَلُ بِالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ، الْمُسْتَخْرَجُ مِنْ أَمْشَاجِ^(٢) الْعَلَقِ ، الطَّاهِرُ الْعَلِيُّ الْقَدْرُ ،
شَجَاعُ الْبَرِيَّةِ يَوْمَ الزَّلْزَالِ ، إِذْ عَادِيَاتُ الْقَارِعَةِ تَدُوسُ أَهْلَ التَّكَاثُرِ وَمَشْرُكِي الْعَصْرِ ،
أَهْلَكَ اللَّهُ بِهِ الْهَمُزَةَ وَأَصْحَابَ الْفِيلِ إِذْ مَكَرُوا بِقُرَيْشٍ وَلَمْ يَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَلَمْ
يَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ، الْمَخْصُوصُ بِالدِّينِ الْحَنِيفِيِّ وَالْكَوْثَرِ السَّلْسَالِ ، وَالْمَوْئِدِ عَلَى أَهْلِ
الْجَحْدِ بِالنَّصْرِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ مَا تَبَّتْ يَدَا مُعَاذِيهِ ، وَنَعِمَ بِالتَّوْحِيدِ
مُؤَالِيهِ ، وَمَا أَفْصَحَ فَلَقُ الصَّبْحِ بَيْنَ النَّاسِ وَامْتَدَّ الظَّلَامُ » .

(نفع الطيب ٤ : ٣٩٥)



[١] حسر البصر كضرب: كلّ فهو حسير . [٢] مشج بينهما كضرب: خلط ، والشيء مشيج ،
وألجمع أمشاج كيتيم وأيتام .

الباب الثاني

في

خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها

١ - خطبة أبي بكر بن عبد الله بالمدينة

لما ولى أبو بكر بن عبد الله المدينة^(١) وطال مكثه عليها ، كان يبلغه عن قوم من أهلها أنهم ينالون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإسعاف من آخرين لهم على ذلك ، فأمر أهل البيوتات ووجوه الناس في يوم جمعة أن يقرؤوا من المنبر ، فاما فرغ من خطبة الجمعة قال :

« أيها الناس : إني قائلٌ قولاً ، فمن وعاه وأداه فعلى الله جزاؤه ، ومن لم

[١] لا أعرف صاحب هذا الاسم والياً على المدينة ، وإنما الذي قرأته في تاريخ الطبري أن أبا بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم الأنصاري ولى المدينة من سنة ٩٦ إلى سنة ١٠٠ في خلافة سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز « انظر تاريخ الطبري ، الجزء الثامن ، حوادث السنين من ٩٦ إلى ١٠٠ » وذكر أيضاً القاقشندي في صبح الأعشى « ج ٤ : ص ٢٩٦ » أن أبا بكر بن محمد هذا ولى المدينة أيام سليمان بن عبد الملك ، والظاهر أنه صاحب هذه الخطبة ، وإني لأستأنس في ذلك بقوله : « وطال مكثه عليها » فقد تولاهما خمس سنين ، وبالغرض الذي قلت فيه الخطبة ، وأنت تذكر ما كان في العهد الأموي من اتساع دائرة الاختلاف الحزبي ، والنضال السياسي البعيد المدى ، وربما كان « عبد الله » اسماً آخر لأبيه محمد ، تسمى به تواضعاً ، وكان ذلك من عادة السلف الصالح رضوان الله عليهم كثيراً ، انظر مثلاً كتاب عمر في صلح أهل إيليا « هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان » . (الطبري ٤ : ١٥٩) .

يَعَهُ فَلَا يَعُدُّ مِنْ ذِمَامِهَا ^(١) إِنْ قَصَّرْتُمْ عَنْ تَفْصِيلِهِ ، فَلَنْ تَعَجَّزُوا عَنْ تَحْصِيلِهِ ،
فَأَرْعَوْهُ أَبْصَارَكُمْ ، وَأَوْعَوْهُ أَسْمَاعَكُمْ ، وَأَشْمِرُوهُ ^(٢) قُلُوبَكُمْ ، فَاَلْمَوْعِظَةُ حَيَاةٌ ،
وَالْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ « وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ ^(٣) السَّبِيلِ » ، « وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ »
فَاتُوا الْهَدَى تَهْتَدُوا ، وَاجْتَنِبُوا الْغَى تَرْشُدُوا ، « وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا
الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ، وَاللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، أَمْرُكُمْ
بِالْجَمَاعَةِ ، وَرَضِيهَا لَكُمْ ، وَنَهَاكُمْ عَنِ الْفُرْقَةِ ، وَسَخَطَهَا مِنْكُمْ ، فِ « أَاتَّقُوا اللَّهَ
حَقَّ تَقَاتِهِ ^(٤) وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا
تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ،
فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا ^(٥) حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ
مِنْهَا » ، جَعَلْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ مِمَّن تَتَّبِعُ رِضْوَانَهُ ، وَتَجَنَّبُ سُخْطَهُ ، فَإِنَّمَا
نُحْنُ بِهِ وَلَهُ .

وَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالدِّينِ ، وَاخْتَارَهُ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَاخْتَارَ
لَهُ أَصْحَابًا عَلَى الْحَقِّ ، وَوَزَّرَهُ دُونَ الْخَلْقِ ، اخْتَصَمَهُمْ بِهِ ، وَاتَّخَبَهُمْ لَهُ ، فَصَدَّقُوهُ
وَنَصَرُوهُ ، وَعَزَّرُوهُ ^(٦) وَوَقَّرُوهُ ، فَلَمْ يُقَدِّمُوا إِلَّا بِأَمْرِهِ ، وَلَمْ يُحْجِمُوا إِلَّا عَن رَأْيِهِ ،
وَكَانُوا أَعْوَانَهُ بِمَهْدِهِ ، وَخُلَفَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، فَوَصَفَهُمْ فَأَحْسَنَ صِفَتِهِمْ ، وَذَكَرَهُمْ
فَأَثْنَى عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ - وَقَوْلُهُ الْحَقُّ - : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ
عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ، يَلْتَمِعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ

[١] أى فلا يخرج عن ذمامها ، وتأنيث الضمير في « ذمامها » باعتبار الموعظة أو المقالة .

[٢] أى الزقوه به . [٣] القصد : استقامة الطريق ، أى بيان الطريق المستقيم الموصل إلى الحق .

[٤] النفاة : التقوى ، وجمعها تقى كرتبة ورتب ، وأصلها وقية قلبت واوها المضومة تاء كما في تودة وتخمّة ، والياء ألفاً . [٥] الشفا : حرف كل شيء .

[٦] التنزير : التفتيح والتعظيم « وهو أيضاً أشدّ الضرب . ضد » .

وَرِضْوَانًا ، سَيِّئَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ،
 وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ ^(١) ، كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ ، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى
 عَلَى سَوْقِهِ ، يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ ، لِيَعْبِطَ بِهِمْ الْكُفَّارَ ، وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ
 آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ، فن غاظه كفر
 وخاب ، وَجَرَ وَخَسِرَ ، وقال الله عز وجل : « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ
 أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، وَيَنْصُرُونَ
 اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ، وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْتِرُونَ
 عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ^(٢) ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الْمُفْلِحُونَ ، وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ
 سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ
 رَحِيمٌ » فمن خالف شريطة الله عليه لهم ، وأمره إياه فيهم ، فلا حَقَّ له في النَّفْسِ
 ولا سَهْمٍ له في الاسلام ، في آي كثيرة من القرآن .

فَرَقَتْ مَارِقَةً مِنَ الدِّينِ ، وفارقوا المسامين ، وجعلوهم عِضِينَ ^(٣) ، وتشعبوا
 أحزابا ، أشاباتٍ وأوشابًا ^(٤) ، فخالفوا كتاب الله فيهم ، وثناءه عليهم ، وأذوا
 رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ، فخابوا وخسروا الدنيا والآخرة « ذَلِكَ هُوَ
 الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » . « أَمْ مَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ

[١] أى ذلك . مثلهم في الكتاب ، والشطاء : فراخ الزرع ، فأزره أى فقواه ، فاستوى على ساقه :
 أى فاستقام على أصوله وسيقانه . [٢] يؤثرون : يفضلون ويقدمون ، والخصاصة : الحاجة والفقير .
 [٣] جمع عضة كعدة : وهى الفرقة والقطعة . [٤] أشابات جمع أشابة : وهى الأخلاط ، وأشبه
 كضربه : خلطه ، والأوشاب جمع وشب كحمل ، والأوباش جمع وبش كسبب : الأخلاط والسفلة .

وَاتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ؟» مالى أرى عيوننا خُزراً^(١) ، ورقابنا صُغراً^(٢) ، وبطوننا
يُجْزاً^(٣) ، شَجَاً لا يُسِيغُهُ الْمَاءُ^(٤) ، وداء لا يُشْرَبُ فِيهِ الدَّوَاءُ ، « أَفَنَضْرِبُ
عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُتِبْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ؟ » كلا والله ، بل هو الْهِنَاءُ^(٥)
وَالطَّلَاءُ ، حتى يظهر العُذْرُ ، وَيَبُوحُ السَّرُّ ، وَيَضِجُ الْغَيْبُ ، وَيُسْوَسُ الْجُنُبُ^(٦) ،
فإنكم لم تُخْلَقُوا عَبَثًا ، ولم تُتْرَكُوا سُدًى ، وَيُنْحَكُمُ إِنْ لَسْتُ أَنْوِيًّا^(٧) أَعْلَمُ ،
ولا بدويًّا أَفْهَمُ ، قد حَلَبْتُمْ أَشْطَرًا^(٨) ، وَقَلْبَتُمْ أَبْطَنًا وَأَظْهَرًا ، فعرفت
أنحاءكم وأهواءكم ، وعلمت أن قوماً أظهروا الإسلام بالسننهم ، وأسروا الكفر
في قلوبهم ، فضربوا بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض ، وولّدوا
الروايات فيهم ، وَضَرَبُوا الْأَمْثَالَ ، ووجدوا على ذلك من أهل الجهل من أبنائهم
أَعْوَانًا يَأْذُنُونَ^(٩) لهم ، وَيَضْعُونُ إِلَيْهِمْ ، مَهَلًا مَهَلًا قَبْلَ وَقُوعِ الْقَوَارِعِ^(١٠) ،
وطولِ الرَوَائِعِ ، هذا لهذا ومع هذا^(١١) ، فلست أعتنِش^(١٢) آئِبًا ولا تَائِبًا ،
« عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ » ،

- [١] جمع خزر مؤنث أخزر وصف من الخزر بالتحريك ، وهو النظر في أحد الشقين .
[٢] الصعر بالتحريك ميل في الوجه ، أو في أحد الشقين ، أو داء في البعير يلوى عنقه منه ، صعر
كفرح فهو أصعر . [٣] بحر بظنه كفرح أيضاً فهو أبجر : عظم ، والجمع بحر كحمر .
[٤] الشجا : ما اعترض في الخلق من عظم ونحوه ، لا يسيغه : أى لا يجعله سائفاً سهل المدخل في الخلق .
[٥] الهناء : الفطران ، يريد أنه يمالجهم كما تظلي الإبل الحربي بالفطران لمدواتها .
[٦] باح السرّ : ظهر ، وباح بسره : أظهره ، ووضج يضج واتضح واحد ، ويسوس : أى يروض
ويذل ، مضجف ساسه يسوسه . يقال : سوتت له أمراً إذا روتته وذلته ، والجنب : الصعب الذى
لا يتقاد . [٧] الأثاوى : الغريب عن القوم . [٨] اقتبسه من النمل المشهور : « حلب الدهر
أشطره » وللأقة شطران ، قادمان وآخران ، فكل خلفين شطر بفتح الشين - والحلف للنافة كالضرع
للبقرة - وأشطره منصوب على البدل ، فكأنه قال : حلب أشطر الدهر ، والمعنى : اختبر الدهر وعرف
خيريه وشره . [٩] أذن له وإليه كفرح : استمع . [١٠] القوارع جمع قارعة : وهى الداهية
الفاجئة ، والروائع جمع رائعة ، وهى الفرعة . [١١] أى هذا الذى أتهددكم به من القوارع والروائع ،
لهذا الذى تخوضون فيه ، ومفرون به . [١٢] اعتنشه : ظله .

فَأَسْرُوا خَيْرًا وَأَظْهَرُوا ، وَأَجْهَرُوا بِهِ وَأَخْلَصُواهُ ، فَطالما مَشَيْتُمْ التَّهْقَرَى
 نَا كِصِينَ ، وَلَيْعَلَّ مِنْ أَدْبُرٍ وَأَصْرٍ أَنَّهَا مَوْعِظَةٌ بَيْنَ يَدَيِ نِقْمَةٍ ، وَلست أدعوكم
 إِلَى أَهْوَاءٍ تُتَّبَعُ ، وَلَا إِلَى رَأْيٍ يُبْتَدَعُ ، إِنَّمَا أدعوكم إِلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى ، الَّتِي
 فِيهَا خَيْرُ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ، فَمَنْ أَجَابَ فِي رِشْدِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَمَنْ قَصَدَهُ ، فَهَلُمَّ
 إِلَى الشَّرَائِعِ الْجَدَائِعِ (١) ، وَلَا تَوَلَّوْا عَنْ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا تَسْتَبَدِّلُوا الَّذِي هُوَ
 أَدْنَى (٢) بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ « بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا » .

إِيَّاكُمْ وَبُنْيَاتِ (٣) الطَّرِيقِ ، فَعِنْدَهَا التَّرْنِيقُ وَالرَّهَقُ (٤) ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَادَةِ ،
 فَهِيَ أَسَدٌ (٥) وَأَوْرَدٌ ، وَدَعَا الْأَمَانِيَّ فَقَدْ أَرَدَتْ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ
 إِلَّا مَسَعَى ، وَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ، وَ« لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَتِكُمْ » (٦)
 بَعْدَ ذَآبٍ ، وَقَدْ خَابَ مِنْ أَفْتَرِي . « رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ،
 وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٥٦ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٢٠)

[١] الذى فى كتب اللغة : « جداء كسحاب وقطام : السنة الشديدة تجدد بالمال وتذهب به » وهذه
 الكلمة هى التى يسوغ أن تجمع على جدائع ، ولكنها لا تناسب المقام هنا ، فعمل الأصل « الجوادع »
 جمع جادعة : وهى الفاطمة ، يريد الشرائع الصحيحة الحقة لأنها تقطع الباطل وترهقه كأنه يقول : اتبعوا
 الحظوة الماسمة ، أو الجدائع جمع جدوع كجوز صيغة مبالغة من جادعة ، وفى التعليق على نهاية الأرب
 « ولعله الجوامع : أى التى تجمع الناس على اتباعها ، كما يدلّ عليه ما بعده » .

[٢] أى أخسّ وأدون قدرا ، وأصل الدنو : القرب فى المكان استمير للخسة كما استمير البعد للشرف
 والرفعة ، أو هو مسهل عن أدنا من الدناءة ، وقد قرئ فى الآية الكريمة : « أَسْتَبَدِّلُونَ الَّذِي
 هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ » . [٣] بنيات الطريق : الترهات (جمع ترهة كقبرة وهى الطريق

الصغيرة المنشعبة من الجادة ، أى اسلكوا الطريق العام طريق الجماعة ، ولا تفرجوا فى سواه .

[٤] الترنيق : الضعف فى الأمر « وفى البصر والبدن أيضاً » ، والرهق : السفه والحق والحفة ؛
 وركوب السرّ والظلم ، وغشيان المحارم . [٥] أفعال ، من السداد . [٦] أسحته : استأصله

٢ - وصية أعمى من الأزدي لشاب يقوده

عن هشام بن محمد بن السائب عن أبيه قال : رأيت ببيشة^(١) رجلاً من أزد السمراتِ أعمى ، يقوده شاب جميل ، وهو يقول له : « يا سُمَيَّ ، لا يُفْرَنْكَ أَنْ فَسَّحَ الشَّبَابُ خَطْوَكَ ، وَخَلَّى سَرَّ بَكَ ، وَأَرْفَعَهُ وَرَدَّكَ^(٢) ، فَكَأَنَّكَ بِالْكَبَرِ قَدْ أَرَبَ ظَوْفَكَ ، وَأَثَقَلَ أَوْقَاكَ ، وَأَوْهَنَ طَوْقَكَ^(٣) ، وَأَتَمَبَ سَوْقَكَ ، فَهَدَجْتَ بَعْدَ الْمَهْمَلِجَةِ ، وَدَجَجْتَ بَعْدَ الدَّعْلِجَةِ^(٤) ، نَخَذَ مِنْ أَيَّامِ التَّرْفِيهِ لِأَيَّامِ الْإِنْزَعَاكِ ، وَمِنْ سَاعَاتِ الْمُهْمَلَةِ لِسَاعَةِ الْإِعْجَالِ^(٥) ، يَا بْنَ أَخِي : إِنْ اغْتَرَاكَ بِالشَّبَابِ ، كَأَلْتَذَاكَ بِسَمَادِيرِ^(٦) الْأَحْلَامِ ، ثُمَّ تَنْقَشِعْ ، فَلَا تَتَمَسَّكَ مِنْهَا إِلَّا بِالْحَسْرَةِ عَلَيْهَا ، ثُمَّ تُعْرَى رَاكِحَةُ الصَّبَا ، وَتَشْرَبُ سَلْوَةً^(٧) عَنِ الْهُوَى ، وَاعْلَمْ أَنَّ أَغْنَى النَّاسِ يَوْمَ الْفَقْرِ مِنْ قَدَمِ ذَخِيرَةٍ ، وَأَشَدَّهُمْ اغْتِبَاطًا يَوْمَ الْحَسْرَةِ مِنْ أَحْسَنُ سَرِيرَةٍ .

(الأملی ٢ : ٣١٦)

٣ - وصية رجل لآخر وقد أراد سفراً

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت رجلاً يوصي آخر وأراد سفراً ، فقال :

[١] بيشة : واد بطريق اليمامة . [٢] السرب : الطريق والوجه ، ورفهت الإبل كنع : وردت الماء متى شاءت ، وقد أرفهتها ورفهتها بالتشديد . [٣] أرب المقد : شدته ، والأربة بالضم : العقدة ، وظاف البعير يظوفه : إذا دأب بين قبيله ، والفينان بفتح الفاق موضعاً القيد من الوظيف ، والأوق : الثقل ، والظوق : الوسع والطاقة . [٤] الهدجان كخفقان وغراب : مشية الشيخ ، هج كضرب ، والهملجة : سرعة في المشي ، ودج كضرب دجيجاً ، مر صراً ضعيفاً ، والدعلجة : ضرب من المشي ، والتردد في الذهاب والجيء ، والدرجة . [٥] رفه عيشه ككرم فهو رفيه ورافه : مستريح متنعم ، وأرفه الله ورفهه ترفيحاً ، ومن ساعات المهملة أى الدنيا المهملة : أى التى ستهملها وتقادرها ، وربما كانت « المهملة » [٦] السهادير : ما يترأى للإنسان فى نومه من الأباطيل ، وما يترأى السكران فى سكره . [٧] السلوة : اسم بمعنى السلوان . قال الأصمى : يقول الرجل لصاحبه : « قيتنى سلوة (بالفتح) وسلوانا (بالضم) » أى طيبت نفسى عنك ، وذكروا أيضاً أن السلوة والسلوانة : خريزة شفاقة تدفن فى الرمل فتسود فيبحث عنها ، ويسقاها الإنسان فتسليه .

« آثِرْ بِعَمَلِكَ مَعَادَكَ ، وَلَا تَدَعِ اِشْهَوَاتِكَ رَشَادَكَ ، وَلِيَكُنْ عَقْلُكَ وَزِيرَكَ
الَّذِي يَدْعُوكَ إِلَى الْهُدَى ، وَيَعْصِمُكَ مِنَ الرَّدَى ، أَلْجِمِ هَوَاكَ عَنِ الْفَوَاحِشِ ،
وَأَطْلِقْهُ فِي الْمَكَارِمِ ، فَإِنَّكَ تَبْرُّ بِذَلِكَ سَلْفَكَ ، وَتَشِيدُ شَرَفَكَ .
(الأملی ١ : ٢٠٠)

٤ - وصية رجل لابنه وقد أراد الزواج

وقال بعضهم لولده وقد أراد الزواج :
« يَا بَنِي : لَا تَتَّخِذْهَا حَتَانَةً ، وَلَا أَثَانَةً ، وَلَا مَنَانَةً ^(١) ، وَلَا عُشْبَةَ الدَّارِ ^(٢) ،
وَلَا كِبَةَ الْقَفَا ^(٣) .
(الأملی ٢ : ٢٦٠)

٥ - وصية بعض العلماء لابنه

وأوصى بعض العلماء ابنه فقال :
« أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَلِيَسْمَعْكَ بَيْتُكَ ، وَأَمْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانُكَ ، وَابْكْ
عَلَى خَطِيئَتِكَ » .
(البيان والتبيين ٢ : ١٦١)

٦ - وصية لبعض الحكماء

وقال بعض الحكماء :
« لَا يَكُونَنَّ مِنْكُمْ الْمَحْدَثُ وَلَا يُنْصَتُ لَهُ ، وَالِدَاخِلُ فِي سِرِّ اثْنَيْنِ لَمْ يُدْخِلَاهُ ،

[١] الحنانة : التي لها ولد من سواها فهي تحنّ عليهم ، والأثانة : التي مات عنها زوجها ، فهي إذا
رأت الزوج الثاني أتت ، وقالت : رحم الله فلانا ، لزوجها الأول ، والمنانة : التي لها مال ، فهي تمنّ
على زوجها ، كلما أهوى إلى شيء من ماله . [٢] عشبة الدار : بريد الهجينة ، وعشبة الدار : التي
تنبت في دمنة الدار ، وحوها عشب في يياض الأرض ، فهي أغخم منه وأضخم ، لأنها غدتها الدمعة ، وذلك
(أي العشب) أطيب للأكل رطباً وبيساً ، لأنه نبت في أرض طيبة ، وهذه نبتت في دمنة ، فهي منتنة
ورطبة ، وإذا يبست صارت حتاناً (بالضم) وذهب قهها في الدمعة فلم يمكن جمعه ، وذلك يجمع قفه لأنه في
أرض طيبة (والقف بالضم : ما يبس من البقل ، وسقط على الأرض في موضع نباته) .
[٣] كبة القفا : هي التي يأتي زوجها أو ابنها القوم ، فإذا انصرف من عندهم ، قال رجل من جنابه
القوم : قد والله كان بيني وبين امرأة هذا المولى أو أمه أمر .

ولا آتَى الدعوةَ لم يُدْعَ إليها، ولا الجالسُ المجلسَ لا يستحقُّه، ولا الطالبُ الفضلَ من أيدي اللّثام، ولا المتعرِّضُ للخير من عند عدوّه، ولا المتحمِّقُ في الدّالة^(١) .
(البيان والتبيين ٢ : ٥٨)

٧ - وصية أخرى

وقال بعض الحكماء :

« إياك والعجلة ، فإنّ العرب كانت تَكْنِيها « أمّ الندامة » لأنّ صاحبها يقول قبل أن يَعْلَمَ ، وَيُجِيبُ قبل أن يَفْهَمَ ، وَيَعَزِمُ قبل أن يَفْكُرَ ، وَيَقْطَعُ قبل أن يُقَدِّرَ ، وَيَحْمَدُ قبل أن يُحَرِّبَ ، وَيَذُمَّ قبل أن يُخْبِرَ ، ولن يصحب هذه الصّفّةَ أحدٌ إلا صَحِبَ الندامة ، واعتزل السلامة » . (زهر الآداب ٣ : ١٩٧)

٨ - وصية أخرى

وقال ابن دُرَيْدٍ : أوصى بعض الحكماء رجلاً ، فقال :

« آمرك بمجاهدة هواك ، فإنه يقال : إن الهوى مفتاح السيئات ، وخصيم الحسنات ، وكل أهوائك لك عدو ، وأهواها^(٢) هوى يكتُمك في نفسه ، وأعداها هوى يمثّل لك الإثم في صورة التقوى ، ولن تفصل بين هذه الخصوم إذا تناظرت لديك إلا بحزم لا يشوبه وهنٌ ، وصدق لا يطمَعُ فيه تكذيبٌ ، ومضاء لا يقاربه التثبُّط^(٣) ، وصبر لا يغتاله جزعٌ ، ونية لا يتقسمها التضييع »
(زهر الآداب ٣ : ١٢٩)

[١] الدالة : ما تدلّ به على جميعك .

[٢] أي وأشدّها . [٣] التوقف والإبطاء .

٩ - عظة لبعض الحكماء

عن الأصمعي قال : بلغني أن بعض الحكماء كان يقول :

« إني لأعظكم ، وإني لكثير الذنوب مُسْرِفٍ على نفسي ، غيرُ حامد لها ، ولا حاملها على المكروه في طاعة الله عز وجل ، قد بَلَوْتَهَا فلم أجد لها شِكرًا في الرِّخاء ، ولا صَبْرًا على البلاء ، ولو أن المرءَ لَا يَعْظُ أخاه حتى يُحْكِمَ أمرَ نفسه ، لَتَرَكَ الأمرُ بِالخَيْرِ والنهي عن المنكر ، ولكن محادثة الإخوان حياة للقلوب ، وجلاء للنفوس ، وتذكيرٌ من النسيان ، واعلموا أن الدنيا سرورها أحزان ، وإقبالها إدبار ، وآخر حياتها الموت ، فكم من مستقبلٍ يوماً لَا يَسْتَكْمِلُهُ ، ومُنْتَظِرٍ غدًا لَا يَبْلُغُهُ ، ولو تنظرون إلى الأجلِ ومسيره ، لأبغضتم الأملَ وَغُرُورَهُ . »

(الأمل : ٢ : ٥٧)

١٠ - نصيحة لبعض الحكماء

وحدّر بعض الحكماء صديقًا له صحبه رجل فقال :

« اخذر فلانًا ، فإنه كثير المسألة ، حسن البحث ، لطيف الاستدراج ، يحفظ أول كلامك على آخره ، ويعتبر ما أخرت بما قدمت ، فلا تُظهِرَنَّ له الخافة ، فيرى أنك قد تحررت ، واعلم أن من يقظة الفطنة إظهار الغفلة مع شدة الحذر ، فبائه مبانة الآمن ، وتحفظ منه تحفظ الخائف ، فإن البحث يُظهر الخفي الباطن ، وَيُبْدِي المستكن الكامن . » (زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

١١ - كلمات شتى لبعض الحكماء

عن الأصمعي قال : قال بعض الحكماء :

« من كانت فيه سبع خصال لم يقدم سبعا : من كان جوادًا لم يقدم الشرف ،

ومن كان ذا وفاء لم يعدم المِقة ، ومن كان صدوقاً لم يعدم القبول ، ومن كان شكوراً لم يعدم الزيادة ، ومن كان ذارِعاً للحقوق لم يعدم الشؤد ، ومن كان منصفاً لم يعدم العافية ، ومن كان متواضعاً لم يعدم الكرامة .

(الأمل ٢ : ٣٩)

وقيل لبعض الحكماء : كيف ترى الدهر ؟ قال : يُخلق الأبدان ، ويُحدّد الآمال ، ويُقرّب الآجال ، قيل له : فما حال أهله ؟ قال : من ظفر به نصيب ، ومن فاته حزن ، قيل : فأى الأصحاب أبرُّ ؟ قال : العمل الصالح ، قيل : فأيهم أضرُّ ؟ قال : النفس والهوى ، قيل : فقيم المخرج ، قال : في قطع الراحة وبذل المجهود .

(الأمل ٢ : ٥٩)

وأخبر عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت رجلاً يقول :

« الحسد ماحقُ الحسَنات ، والزَّهْوُ جالبُ لِمَقْتِ اللَّهِ ومقت الصالحين ، والمُعْجَبُ صَارِفٌ عن الازدياد من العلم ، داعٍ إلى التخمط^(١) والجهل ، والبخلُ أذمُّ الأخلاق ، وأجلبها لسوء الأُحدوثِة » .

(الأمل ١ : ٢٠٠)

وقال : قال بعض العرب :

« أولى الناس بالفضل أَعْوَدُهُم بفضله ، وأعونُ الأشياءِ على تذكِية العقل

التعلم ، وأدلُّ الأشياءِ على عقل العاقل حسن التدبير » .

(الأمل ١ : ٢١٧)

وقال الأصمعي : العرب تقول :

« لا ثناء مع الكبر ، ولا صديق لذي الحسد ، ولا شرف لسيئ الأدب .

قال : وكان يقال : « شرُّ خِصال الملوك الجبن عن الأعداء ، والقسوة على

(الأمل ١ : ٢٠١)

الضعفاء ، والبخلُ عند الإِطاء » .

وقال أبو عليّ القالى : وأملى علينا أبو عبد الله قال : من كلام العرب ووصاهاها :
« جالس أهل العلم ، فإن جهلت علموك ، وإن زللت قوموك ، وإن أخطأت
لم يُفندوك ^(١) ، وإن صحبت زانوك ، وإن غبت تفقدوك ، ولا تجالس أهل
الجهل ، فإنك إن جهلت عفتوك ، وإن زللت لم يقوموك ، وإن أخطأت لم
يثبتوك » . (الأمال : ٢ : ٧٢)

١٢ — رجل من العرب والحجاج

سأل الحجاج رجلا من العرب عن عشيرته قال : أى عشيرتك أفضل ؟
قال : أتقاهم لله ، بالرغبة فى الآخرة ، والزهد فى الدنيا ، قال : فأيهم أسود ؟
قال : أرزئهم حِلماً حين يُستجهل ، وأسخام حين يُسأل ، قال : فأيهم أدهى ؟
قال : من كتم سرّه ممن أحبّ ، مخافة أن يُشاره يوماً ، قال : فأيهم أكيس ؟
قال : من يُصلح ماله ويقتصد فى معيشته ، قال : فأيهم أرفق ، قال : من يعطى
بشر وجهه أصدقاءه ، ويتلطّف فى مسأله ، ويتعاهد حقوق إخوانه ، فى إجابة
دعواتهم ، وعبادة مرّضاهم ، والتسليم عليهم ، والمشى مع جنائزهم ، والنصح لهم
بالغيّب ، قال : فأيهم أفطن ؟ قال : من عرّف ما يوافق الرجال من الحديث
حين يجالسهم ، قال : فأيهم أصلب ؟ قال : من اشتدت عارضته ^(٢) فى اليقين ،
وحزم فى التوكل ، ومنع جاره من الظلم . (مجمع الأمثال : ٢ : ١٧٨)

١٣ — أحد الوافدين على عمر بن عبد العزيز

ووفد وافد على عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فقال له : كيف تركت

الناس ؟ قال :

[١] فنده : ضعف رأيه وخطأه . [٢] العارضة : المجد والصرامة واللسن .

« تركت غنيهم موفوراً ، وفقيرهم محبوراً ، وظالمهم مقهوراً ، ومظلومهم منصوراً » ، فقال : « الحمد لله ، لو لم تتم واحدة من هذه الخصال إلا بعض من أعضائي ، لكان يسيراً » . (الأمل ٢ : ٣٩)

١٤ - كاتب وأمير

ودخل بعض الكتاب على أمير بعد نكبة نابتة ، فرأى من الأمير بعض الازدراء ، فقال له :

« لا يَصْنَعُ عندك نُجْمُولُ النَّبْوةِ ، وزوالُ الثروة ، فإنَّ السيفَ العتيق إذا مَسَّه كثيرُ الصِّدَأِ استغنى بقليلِ الجِلاءِ ، حتى يعودَ حَدُّه ، ويظهرَ فِرْنَدُهُ ، ولم أصف نفسي مُعْجِبًا ، لكن شكرًا ، قال صلى الله عليه وسلم : « أنا أشرف ولد آدم ولا نخر » . فجهَرَ بالشكر ، وترك الاستطالة بالكبر » . (زهر الآداب ٣ : ٩١)

١٥ - وصف الهلباجة

من أمثال العرب : « أعجز من هلباجة » وهو النُّوم الكسلان العُطل^(١) الجافي ، وقد سار في وصف الهلباجة فصل لبعض الأعراب المتفصِّحين ، وفصل آخر لبعض الحَضْرِيِّين ، فأما وصف الأعرابي ، فقد سئل ابن أبي كبشَةَ بن أَلْبَعَثَرِي عنه فقال : « الهلباجة : الضعيف الماجز ، الأخرق الأحمق ، الجلف^(٢) الكسلان ، الساقط لا معنى فيه ، ولا غناء^(٣) عنده ، ولا كفاية معه ، ولا عمل لديه » .

[١] عطل كنفح : عظم بدنه ، ومن المال والأدب : خلا فهو عطل كقفل وعنى .

[٢] الجافي . [٣] لاغناء : لا كفاية .

وأما وصف الحضري فإن بعض بلغاء الأمصار سئل عن الهلابة فقال :

« هو الذي لا يَرَعَوِي لِعَذْلِ الماذل ، ولا يُصْنَعِي إلى وعظ الواعظ ، ينظر بعين حَسُود ، وَيُعْرِضُ إِعْرَاضَ حَقُود ، إِنْ سَأَلَ الحَفَّ (١) ، وَإِنْ سُئِلَ سوْف ، وَإِنْ حَدَّثَ حَلْف ، وَإِنْ وَعَدَ أَخْلَف ، وَإِنْ زَجَرَ عَنَّف ، وَإِنْ قَدَرَ عَسَف (٢) ، وَإِنْ احْتَمَلَ أَسَف (٣) ، وَإِنْ اسْتَعْنَى بَطِر ، وَإِنْ افْتَقَرَ قَنِط ، وَإِنْ فَرِحَ أُشِر (٤) ، وَإِنْ حَزَنَ يَثِس ، وَإِنْ ضَحِكَ زَأر ، وَإِنْ بَكَى جَأر (٥) ، وَإِنْ حَكَمَ جَار ، وَإِنْ قَدَّمْتَهُ تَأخَّر ، وَإِنْ أَخَّرْتَهُ تَقَدَّمَ ، وَإِنْ أَعْطَاكَ مَنْ عَلَيْكَ ، وَإِنْ أَعْطَيْتَهُ لَمْ يَشْكُرْكَ ، وَإِنْ أَسْرَرْتَ إِلَيْهِ خَانَكَ ، وَإِنْ أَسْرَرَ إِلَيْكَ اتَّهَمَكَ ، وَإِنْ صَارَ فَوْقَكَ قَهَرَكَ ، وَإِنْ صَارَ دُونَكَ حَسَدَكَ ، وَإِنْ وَثِقْتَ بِهِ خَانَكَ ، وَإِنْ انْبَسَطَتْ إِلَيْهِ شَانِكَ ، وَإِنْ أَكْرَمْتَهُ أَمَانَكَ ، وَإِنْ غَابَ عَنْهُ الصَّدِيقَ سَلَاهُ ، وَإِنْ حَضَرَه قَلَاهُ (٦) ، وَإِنْ فَاتَحَهُ لَمْ يُجِبه ، وَإِنْ أَمْسَكَ عَنْهُ لَمْ يَبْدَأْهُ ، وَإِنْ بَدَأَ بِالوَدِّ هَجَرَ ، وَإِنْ بَدَأَ بِالبرِّ جَفَا ، وَإِنْ تَكَلَّمَ فَضَحَّهُ العِيْ ، وَإِنْ عَمِلَ قَصَرَ به الجهل ، وَإِنْ أَوْثَمِنَ غَدَرَ ، وَإِنْ أَجَارَ أَخْفَرَ (٧) ، وَإِنْ عَاهَدَ نَكَثَ ، وَإِنْ حَلَفَ حَنَثَ ، لَا يَصْدُرُ عَنْهُ الأَمَلُ إِلَّا بِخَيْبَةٍ ، وَلَا يَضْطُرُّ إِلَيْهِ حُرٌّ إِلَّا بِعَيْحَةٍ . »

قال خلف الأحمر : سألت أعرابياً عن الهلابة ، فقال : « هو الأحمق

الضخيم القدم (٨) الأكل الذي والذي . . . ثم جعل يلقاني بعد ذلك ، ويزيد

[١] ألح . [٢] ظلم . [٣] من أسف الطائر : دنا من الأرض في طيرانه ، أى لم يستطع النهوض بما حمل . [٤] أشر : مرح . [٥] صاح واستغاث . [٦] أبغضه وكرهه فآية الكراهة . [٧] أخفزه وخفر به : تفض هدهه وغدره . [٨] القدم : العي عن الكلام في ثقل ورخاوة ، وقلة فهم ، والغليظ : الأحمق الجاني .

في التفسير كل مرة شيئاً، ثم قال لي بعد حين - وأراد الخروج - هو الذي جمع كل شرّ .
(مجم الامثال ١ : ٢٣٦)

١٦ - بعض البلغاء يصف رجلاً

ووصف بعض البلغاء رجلاً فقال :

« إنه بَسِيطٌ^(١) الكف ، رَحْبُ الصدر ، مُوَطَّأُ الأَكناف ، سَهْلُ الخلق ، كَرِيمُ الطَّبَاع ، غَيْثٌ مُغَوِّثٌ^(٢) ، وَبِحَرْمِ زَخُور ، ضُحُوكُ السن ، بِشِيرِ الوجه ، بَادِي القَبُول^(٣) غير عبوس ، يَسْتَقْبَلُكَ بِطَلَاةٍ ، وَيُحْيِيكَ بِبِشْرِ ، وَيَسْتَدْبِرُكَ بِكْرَمِ غَيْثٍ ، وَجَمِيلِ بِشْرِ ، تُبْهَجُكَ طَلَاقَتُهُ ، وَيَرْضِيكَ بِشْرُهُ ، ضَحَّاكٌ عَلَى مَا نَدَتْهُ ، عَبْدٌ لَضَيْفَانِهِ ، غَيْرٌ مَلَا حِظَّ لِأَكِيلِهِ ، بَاطِنٌ^(٤) مِنَ العَقْلِ ، خَمِيصٌ^(٥) مِنَ الجَهْلِ ، رَاجِحُ الحِلْمِ ، ثَاقِبُ الرَأْيِ ، طَيِّبُ الخَلْقِ ، مُخَصَّنُ الضَّرِيبةِ^(٦) ، مِعْطَاءٌ غَيْرُ سَآلٍ ، كَاسٍ^(٧) مِنْ كُلِّ مَكْرُمَةٍ ، عَارٍ مِنْ كُلِّ مَلَأَمَةٍ ، إِنْ سئِلَ بِذَلِّ ، وَإِنْ قَالِ فَعَلَ .
(زهر الآداب ٢ : ٢٠٥)

١٧ - خمس جوار من العرب يصفن خيل آبائهن

عن ابن الكلبي عن أبيه قال :

اجتمع خمسُ جَوَارٍ مِنَ العَرَبِ ، فَقُلْنَ : هَلُمَّنَّ نَصِيفَ خَيْلِ آبَائِنَا .
فَقَالَتِ الأُولَى :

« فَرَسٌ أُبَى وَرَدَّةٌ ، وَمَا وَرَدَةٌ ؟ ذَاتُ كَفَلٍ مُزَخَلَقٌ ، وَمَتْنٌ أَخْلَقٌ ،

[١] أى مبسوط الكف سخى . [٢] غوث تقريباً : قال واغوثاه .

[٣] القبول بالفتح وقد يضم : الحسن . [٤] أى ممتلئ وأصله : عظيم البطن .

[٥] خميص : خال ، وأصله : الجائع . [٦] الضريبة : الطبيعة ، ومحصن : عفت .

[٧] أى مكسو .

وَجَوْفُ أَخْوَقٍ^(١) ، وَنَفْسُ مَرُوحٍ ، وَعَيْنُ طَرُوحٍ ، وَرَجْلِي ضَرُوحٍ ، وَيَدِي سَبُوحٍ^(٢) ، بُدَاهَتُهَا إِهْدَابٌ ، وَعَقَبُهَا غِلَابٌ^(٣) .

وقالت الثانية :

« فرسُ أبي اللَّعَابِ ، وما اللَّعَابُ ؟ غَبِيَّةٌ سَحَابٌ ، واضطرامُّ غَابٍ ، مُتْرَضٌ الأوصالِ ، أَسْمُ القَذَالِ ، مُلَا حَكُّ المَحَالِ^(٤) ، فَارِسُهُ مُجِيدٌ ، وَصَيْدُهُ عَتِيدٌ ، إِنْ أَقْبَلَ فِظْبِي مَعَّاجٌ ، وَإِنْ أَدْبَرَ فِظْلِيمٌ هَدَّاجٌ ، وَإِنْ أَحْضَرَ فَعَلِجٌ هَرَّاجٌ^(٥) . »

وقالت الثالثة :

« فرسُ أبي حُدَمَةَ ، وما حُدَمَةَ ؟ إِنْ أَقْبَلَتْ فِقَنَاءَةٌ مُقَوِّمَةٌ ، وَإِنْ أَدْبَرَتْ فَاقْتَفِيَّةٌ مُمَلِّمَةٌ ، وَإِنْ أَعْرَصَتْ فَذَبِيَّةٌ مُعْجِرِمَةٌ^(٦) ، أَرْسَاغُهَا مُتْرَصَةٌ ، وَفُصُوصُهَا مُمَحْصَةٌ ، جَرِيئُهَا أَنْثِرَارٌ ، وَتَقَرِّيئُهَا انكِدَارٌ^(٧) . »

[١] الزحلق : الملس الذي كأنه زحلوفة (بالضم) وهي آثار تزلج الصبيان من فوق إلى أسفل ، والأخلق : الأملس ، وأخوق : واسع . [٢] مروح : كثيرة المرح ، طروح بعيدة موقع النظر ، ضروح : دفوع ، يريد أنها تضرح الحجارة برجليها إذا عدت ، سبوح : كأنها تسبح في عدوها من سرعتها . [٣] بداهتها : لجأتها ، والبداهة والبديهة واحد ، والإهداب : السرعة ، والعقب : جرى بعد جرى ، وغلاب مصدر ، غالبته مغالبة وغلابا ، كأنها تعالاب الجري .

[٤] الغيبة : الدفعة من المطر ، والعباب جمع غابة وهي الأجمة ، مترص : محكم ، أترصت الشيء : أحكمته أفهم : مرتفع ، القذال : معقد العذار (والعذار من اللجام ككتاب : مسائل على خد الفرس) ، ملاحك مداخل (بفتح الحاء) كأنه دوخل بعضه في بعض ، والحال جمع محالة : وهي فقار الظهر (كسحاب جمع فقارة) وذكر الأصمعي أنه رأى فقار فرس ميت ، فإذا ثلاث فقر من عظم واحد ، وكذا تكون العراب فيما ذكروا . [٥] مجيد : صاحب جواد ، عتيد : حاضر ، معج في سيره وعمج : إذا أسرع ، والهدج كشمس : المشى الزويد ويكون السريع ، والعلج : حمار الوحش السمين القوي ، وهرج الفرس كضرب : إذا كان كثير الجري . [٦] حذمة : فمالة من الحذم وهو السرعة أو القطع ، فقناة مقومة تريد أنها دقيقة اللقمة ، وهو مدح في الإثبات ، والأثنية : الحجر توضع عليه القدر ، مللمة : مجتمعة ، تريد أنها مدورة المؤخر ، لأن الأثني تختار مدورة ، معجرفة بكسر الراء اسم فاعل من المعجرفة ، وهي لإسراع في مقاربة خطو . قال الشاعر :

أَمَّا إِذَا يَهُدُو فَتَعْلَبُ جَرِيَّةٌ أَوْ ذُئِبٌ عَادِيَةٌ يَعْجِرِمُ عَجْرِمَةٌ

ويقال ناقة معجرفة بفتح الراء : أي شديدة . [٧] محصة : قليلة اللحم قليلة الشعر ، محى الجلد

وقالت الرابعة :

« فرسُ أبي خَيْفَق ، وما خَيْفَق ؟ ذاتُ ناهِقٍ مُعَرِّق ، وَشِدْقُ أَشْدَق ،
وأديمٌ مُمَلَّق ^(١) ، لها خلقٌ أَشْدَف ، وَدَسِيعٌ مُنْفَنَف ، وتَلِيلٌ مُسَيْف ^(٢) ،
وَأَبَاةٌ زُلُوج ، خَيْفَانَةٌ رَهُوج ، تقْرِيبُهَا إِهْمَاج ، وَخُضْرُهَا ارْتِمَاج ^(٣) . »

وقالت الخامسة :

« فرسُ أبي هُنْدُول ، وما هُنْدُول ؟ طَرِيدُهُ مَحْبُول ، وَطَالِبُهُ مَشْكُول ،
رقيقُ المَلَاغِم ، أمينُ المَعَاقِم ^(٤) ، عَيْلُ المَحْزَم ، مَخْدُومٌ رَجَم ^(٥) ، مُنِيفُ الحَارِك ،
أشْمُ السَّنَابِك ، مَجْدُولُ الخِصَائِل ، سَبْطُ الفَلَائِل ^(٦) ، غَوْجُ التَّلِيل ، صَلْصَالُ
الصَّهِيل ، أديمُهُ صَافٍ ، وَسَبْيِيئُهُ ضَافٍ ^(٧) ، وَعَفْوُهُ كَافٍ . (الأملئ : ١ : ١٩٠)

كفرح ، إذا سقط شعره واملأ ، انثزار : انصباب ، كأنه يثرثر ، والتقريب : ضرب من العدو
أو أن يرفع يديه معاً ويضعهما معاً ، وانكدر : أسرع وانقص ، وانكدر عليه القوم : انصبوا .

[١] خيفق : فيعل من الخفق كشمس : وهو السرعة ، الناهقان : العظمان الشاخصان في خدي الفرس
معرق : قليل اللحم ، أشدق : واسع الشدق ، مملق : ممس . [٢] الأشدف : العظيم الشخص ،
والشدف محركة : الشخص ، الدسيع . مغرز العنق في الكاهل ، منفنف : واسع ، من النغنف كجعفر :
وهو الهواء بين السماء والأرض ، التليل : العنق ، مسيف : كأنه سيف .

[٣] زلوج : سريعة ، الزليج والزليجان بالتحريك : السرعة ، الحيفانة : الجرادة التي فيها نقط سود
تخالف سائر لونها ، وإنما قيل للفرس : خيفانة لسرعتها لأن الجرادة إذا ظهر فيها تلك النقط كان أسرع
لطيرانها ، رهوج : كثيرة الريح ، (والرهج بالتحريك : الفبار) أهمج الفرس إهماجاً : إذا اجتهد في
عدوه ، والحضر : ارتفاع الفرس في عدوه ، الارتماج : كثرة البرق وتتابعه .

[٤] محبول : في حباله ، مشكول : موثق في شكال (الشكال ككتاب : الحبل تشد به قوائم الدابة)
الملاغم من الإنسان : ماحول الفهم ، أرادت هاهنا الجحافل (والجحافل جمع جحفة بالفتح بمنزلة الشفة للخيول
والبغال والحمير) والمعاقم : المفاصل . [٥] عيل : غليظ ، والمحزم موضع الحزام ، مخد : يخذ الأرض
أى يجعل فيها أخاديد (والأخاديد : الشقوق جمع أخدود) ، مرجم : يرحم الحجر بالحجر ، أو يرحم
الأرض بجوافره . [٦] منيف : مرتفع ، والحارك : منبت أدنى العرف إلى الظهر الذي يأخذ به من
يركبه ، والسناكب : أطراف الحوافر جمع سبك كقنفذ ، مجدول : مفتول ، الخصائل جمع خصيلة : وهي
كل قطعة من اللحم مستطيلة أو مجتمعة ، الفليل : الشعر المجتمع ، ويقال للقطعة من الشعر : الفليلة ،
سبط : مسترسل . [٧] الفوج : اللين المعطف ، والصلصلة صوت الحديد ، وكل صوت حاد ،
والسبيب : شعر الناصية ، ضاف : سابع .

١٨ - رجل من العرب يصف مطراً

عن عبد الرحمن عن عمه قال :

سئل رجل من العرب عن مطر كان بعد جذب فقال :

«نشأ حملاً^(١) سُدًّا متقاذِفِ الأحضان ، مُحْمَوِيَّ الأركان ، لَمَاعِ الأقراب ،
مُكْفَهَرِ الرِّباب ، تَحِنِّ رُعودِهِ حينَ اضطراب ، وَتُرْجِرُ زَجْرَةَ اللُّيُوثِ الفِضَاب ،
لبوارِقِهِ التَّهابُ ، وَلِرِوَاعِدِهِ اضطراب ، فِجَاحَتِ^(٢) صَدورِهِ الشَّعَاف ، وَرَكِبَتِ
أعْجَازُهُ القِفافَ ، ثم ألقى أعباءَهُ ، وَحَطَّ أثقالَهُ ، فتألق وأصعق^(٣) ، وَأَنْبَجَسَ
وَأَنْبَعَقَ ، ثم أُنْجِمَ فأنطلق ، فغادر النِّهَاءَ^(٤) مُتْرَعَةً ، وَالنَّيْطَانَ مُمْرَعَةً ، حِبَاءً
للبلاد ، وَرِزْقاً للعباد . (بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٠)



[١] الحمل : السحاب الكثير الماء ، والسد : الذي قد سدَّ الأذق ، اجرمي : اسودَّ ، والأقراب جمع قرب كقفل وعتق وهو الخاصرة ، والرباب : السحاب الأبيض . [٢] جاحفه : زاحه وداناه ، والشعاف جمع شفة كرقبة : وهي رأس الجبل ، والقفاف جمع قفّ بالضم وهو ماغلظ من الأرض وارتفع لم يبلغ أن يكون جبلاً . [٣] صعقتهم السماء وأصعقتهم : ألقى عليهم صاعقة ، وانبجس : انفجر بالماء وانبعق السحاب : انبعج بالمطر واندفع ، والانباق : أن يندفع عليك الشيء فجأة وأنت لاتشعر ، وأنجمت السماء : أسرع مطرها . [٤] النهاء جمع نهى بالكسر والفتح : الغدير ، ومترعة : مملوءة ، والنيطان جمع فائط : وهو المطنن الواسع من الأرض ، ممرعة : مخصبة ، حباء : عطاء .

الباب الثالث

في

نثر الأعراب

قولهم في الوعظ والتوصية

١ - مقام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك

قام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك ، فقال :

« إني مُكَلِّمك يا أمير المؤمنين بكلامٍ فيه بعض الغِلْظَةِ ، فاحتِمْله إن كَرِهْتَه ، فَإِنَّ وِرَاءَهُ مَا تُحِبُّهُ إِنْ قَبِلْتَه » ، قال : هاتِ يا أعرابي : إنا نجد بِسَعَةِ الاحْتِمَالِ على من لا نرجو نُصْحَه ، ولا نأمنُ غِشَّه ، وأرجو أن تكون الناصِحَ جَيِّبًا ، المأمونَ غَيِّبًا ، قال : « يا أمير المؤمنين أما إذ أمنت بِأدِرَةِ غضبك ، فَإِنِّي سَأَطْلِقُ لِسَانِي بما خَرَسَتْ عنه الألسُنُ من عِظَتِكَ ، تَأْدِيَةً لِحَقِّ اللَّهِ وحقِّ أَمَامَتِكَ . إنه قد اكتَنَفَكَ رِجَالُهُ أَسَاءُوا الاختيارَ لأنفسهم ، فابتاعوا دُنْيَاكَ بِدِينِهِمْ ، ورضاك بِسُخْطِ رَبِّهِمْ ، خافوك في الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فهم حربٌ للأخرة ، سَلِمَ للدنيا ، فلا تأمنهم على ما أئتمنك الله عليه ، فإنهم

لا يألونك^(١) خَبَالًا ، والأمانة تضييعًا ، والأمة عَسْفًا وَخَسْفًا^(٢) ، وأنت
مستول عما اجترحوا^(٣) ، وليسوا مسئولين عما اجترحتَ ، فلا تُصلح دنياهم
بفساد آخرتك ، فإن أخسر الناس صَفْقَةً يوم القيامة ، وأعظمهم غَبْنًا من باع
آخرته بدنياه غيره « قال سليمان : « أمّا أنت يا أعرابي ، فقد سلّمت لسانك ،
وهو أقطع سيفيك » ، فقال : « أجل يا أمير المؤمنين لك لا عليك » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٧ ، والعقد الفريد ١ : ٣٠٧ ، ومروج الذهب ٢ : ١٦٤ ،
وزهر الآداب ١ : ٢٧٧)

٢ - أعرابي يعظ هشام بن عبد الملك

ودخل أعرابي على هشام بن عبد الملك ، فقال له : عِظْنِي يا أعرابي ، فقال :
« كفى بالقرآن واعظًا ، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ،
بسم الله الرحمن الرحيم : « وَيَلِّ لِّلْمُطَفِّفِينَ^(٤) الَّذِينَ إِذَا أُكْتَلُوا عَلَى النَّاسِ
يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ
لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » ، ثم قال : « يا أمير المؤمنين ،
هذا جزاء من يُطَفِّف في الكيل والميزان ، فما ظنك بمن أخذه كله^(٥) ؟ » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٤)

٣ - خطبة أعرابي^(٦)

وولّى جعفر بن سليمان^(٧) أعرابياً بعضَ مياهمهم^(٨) فخطبهم يوم الجمعة فقال :

[١] ألا يأتو : قصر وأبطأ ، والخبال : المساء . [٢] العسف : الظلم ، والחסف : الذل .

[٣] اكتسبوا ، وفي رواية : « اجترموا » .

[٤] طفف : نفس الكيال . [٥] وروى صاحب العقد أيضاً هذه العظة (ج ١ ص ٣٠٦)

وذكر أنها لابن السماك وعط بها الرشيد .

[٦] قدمنا في الجزء الثاني ص ٤٦٣ أن هذه الخطبة متنازع فيها ، فهي تعزى تارة إلى الإمام علي

كرم الله وجهه ، وأخرى إلى سحبان وائل ، وثالثة إلى أعرابي . [٧] هو ابن عم أبي جعفر

النصور ، وكان والياً له على المدينة سنة ١٤٦ - ١٥٠ هـ . [٨] في مجمع الأمثال : « عن الأصمى

قال : حدثني شيخ من أهل العلم قال : شهدت الجمعة بالضرية « ضرية كغنية : قرية بين البصرة ومكة »

« الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، أما بعد : فإن الدنيا دارٌ بَلاغٌ ^(١) ، والآخرة دار قرار ، نخذوا لِمَقَرِّكُمْ من مَمَرِّكُمْ ، ولا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عند من لا تَخْفَى عليه أسراركم ، وأُخْرِجُوا من الدنيا قلوبكم ، قبل أن تَخْرُجَ منها أبدانكم ، ففيها حَيَاتِكُمْ ، ولنغيرها خُلُقَتِكُمْ ، اليوم عملٌ بلا حساب ، وغداً حسابٌ بلا عمل ، إن الرجل إذا هَلَكَ ، قال الناس ما ترك ؟ وقالت الملائكة : ما قَدَّم ؟ فليله آباؤكم ! قَدَّمُوا بعضاً ، يكون لكم قَرَضاً ، ولا تَخَفُوا كُفْلاً ، يكون عليكم كُفْلاً ^(٢) ، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لى ولكم ، والحمد لله ، والمصلّى عليه محمد ، والمدعو له الخليفة ، ثم إمامكم جعفر بن سليمان ، قُومُوا إلى صلاتكم » .

(الأملال ١ : ٢٤٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٦٤ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢٨ ،
ومجمع الأمثال ١ : ٣١٨ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٣ وزهر الآداب ٢ : ٤)

٤ - خطبة أخرى

وخطب أعرابي فقال :

« الحمد لله الحميد المستحمد ، وصلى الله على النبي محمد . أما بعد : فإن التعمق في ارتجال الخطب لممكن ، والكلام لا يثنى حتى يُثْنَى عنه ، والله تبارك وتعالى لا يُذْرِكُ واصفٌ كُنْهَ صِفَتِهِ ، ولا يَبْلُغُ خَطِيبٌ مُنْتَهَى مِدْحَتِهِ ، له الحمد كما مدح نفسه ، فانهمضوا إلى صلاتكم » ثم نزل فصلي . (العقد الفريد ٢ : ١٦٤)

وأيرما رجل من الأعراب ، شرج وخطب ، ولفّ ثيابه على رأسه ، ويده قوس فقال وأورد هذه الخطبة « ، وفي الكامل للبرد : « قال الأصمى فيما بلغني خطبنا أعرابي بالبادية حمد الله . . . » .
[١] وفي رواية الميداني ، وعيون الأخبار « بلاه » وفي رواية العقد « دار ممرّ والآخرة دار مقرّ »
[٢] الكل : النقل .

٥ - خطبة أخرى

وخطب أعرابي قومه فقال :

« الحمد لله ، وصلى الله على النبي المصطفى وعلى جميع الأنبياء ، ما أقبح بمثلي أن ينهى عن أمرٍ ويرتكبه ، ويأمر بشيءٍ ويحْتَنِبُه ، وقد قال الأول :

وَدَعَّ مَا لُمْتَ صَاحِبَهُ عَلَيْهِ فَذَمُّ أَنْ يَلُومَكَ مَنْ تَلُومُ

أَلْهَمْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ تَقْوَاهُ ، وَالْعَمَلَ بَرِّضَاهُ . (العقد الفريد ٢ : ١٦٤)

٦ - أعرابية توصي ابنها وقد أراد السفر

قال أَبَانُ بْنُ تَعْلِبٍ - وَكَانَ عَابِدًا مِنْ عُبَادِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ تُوْفِيَ سَنَةَ ١٤١ هـ -

شَهِدْتُ أَعْرَابِيَةً وَهِيَ تُوصِي وَلَدًا لَهَا يَرِيدُ سَفْرًا وَهِيَ تَقُولُ لَهُ :

« أَيُّ مُبْنَى اجْلِسْ أَمْنَحْكَ وَصِيَّتِي ، وَبِاللَّهِ تَوْفِيقُكَ ، فَإِنَّ الْوَصِيَّةَ أَجْدَى ^(١)

عَلَيْكَ مِنْ كَثِيرِ عَقْلِكَ ، أَيُّ مُبْنَى : إِيَّاكَ وَالنَّمِيمَةَ فَإِنَّهَا تَرْرِعُ الضَّعِيفَةَ ، وَتَفَرِّقُ

بَيْنَ الْمُحِبِّينَ ، وَإِيَّاكَ وَالتَّعْرُضَ لِلْعِيُوبِ فَتُتَّخَذَ غَرَضًا ^(٢) ، وَخَلِيقٌ أَنْ لَا يَثْبُتَ

الغرضُ على كثرة السَّهَامِ ، وَقَلَمًا اعْتَوْرَتْ ^(٣) السَّهَامُ غَرَضًا إِلَّا كَلِمَتُهُ ^(٤) حَتَّى

يَهَيَّ ^(٥) مَا اشْتَدَّ مِنْ قُوَّتِهِ ، وَإِيَّاكَ وَالْجُودَ بِدِينِكَ ، وَالبخلَ بِمَالِكَ ، وَإِذَا هَزَزْتَ

فَاهْزُزْ كَرِيمًا يَلِينُ لَهْزَتِكَ ، وَلَا تَهْزُزْ اللَّيِّمَ فَإِنَّهُ صَخْرَةٌ لَا يَنْفَجِرُ مَأْوَاهَا ، وَمَثَلٌ

لِنَفْسِكَ مِثَالٌ مَا اسْتَحْسَنْتَ مِنْ غَيْرِكَ فَاعْمَلْ بِهِ ، وَمَا اسْتَقْبَحْتَ مِنْ غَيْرِكَ

فاجْتَنِبْهُ ، فَإِنَّ الْمَرْءَ لَا يَرَى عَيْبَ نَفْسِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ مَوَدَّتُهُ بِشَرِّهِ ، وَخَالَفَ ذَلِكَ

مَنْهُ فَعَلَهُ ، كَانَ صَدِيقُهُ مِنْهُ عَلَى مِثْلِ الرِّيحِ فِي تَصَرُّفِهَا » ثُمَّ أَمْسَكَتْ ، فَذَنُوتُ

[١] أنفع [٢] هدفا . [٣] تداولت . [٤] جرحته وحطته .

[٥] وهي يهي : ضعف .

منها ، فقلت : بالله يا أعرابية ، إلا زِدْتِه في الوصية ، فقالت : أو قد أعجبك كلام العرب يا عراقي ؟ قلت : نعم ، قالت : والغدرُ أقيح ما تعامل به الناس بينهم ، ومن جمع الحِلْمَ والسَّخَاءَ فقد أجاد الحِلَّةَ ^(١) : رِيظَتِهَا وَسِرِّبَالُهَا .
(الأمل ٢ : ٨١ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٥ ، وبلاغات النساء ص ٥٧ ، والبيان والنبين ٣ : ٢٢١)

٧ - أعرابية توصي ابنها

وقالت أعرابية لابنها :

« يَا بُنَيَّ ، إِنْ سَوَّالِكَ النَّاسَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ أَشَدِّ الْاِفْتِقَارِ إِلَيْهِمْ ، وَمَنْ اِفْتَقَرْتَ إِلَيْهِ هُنَّتَ عَلَيْهِ ، وَلَا تَزَالُ تُحْفَظُ وَتُكْرَمُ ، حَتَّى تَسْأَلَ وَتَرْغَبُ ، فَإِذَا أَلَحَّتْ عَلَيْكَ الْحَاجَةُ ، وَلِزِمَكَ سُوءُ الْحَالِ ، فَاجْعَلْ سَوَّالَكَ إِلَى مَنْ إِلَيْهِ حَاجَةُ السَّائِلِ وَالْمَسْئُولِ ، فَإِنَّهُ يُعْطَى السَّائِلَ » . (العقد الفريد ٢ : ٨٥)

٨ - أعرابي يوصي ابنه .

ووصى أعرابي ابنه فقال :

« ابْدُلِ الْمَوَدَّةَ الصَّادِقَةَ تَسْتَفِدُّ إِخْوَانًا ، وَتَتَّخِذُ أَعْوَانًا ، فَإِنَّ الْعِدَاوَةَ مَوْجُودَةٌ عَتِيدَةٌ ، وَالصَّدَاقَةَ مُسْتَعْرِزَةً ^(٢) بَعِيدَةٌ ، جَنِّبْ كِرَامَتَكَ اللَّثَامَ ، فَإِنَّهُمْ إِنْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِمْ لَمْ يَشْكُرُوا ، وَإِنْ نَزَلَتْ شَدِيدَةٌ لَمْ يَصْبِرُوا » . (الأمل ١ : ٢٠١)

٩ - أعرابي ينصح لابنه

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يقول لابنه :

« لَا يَغْرُبُ نَكُّ مَا تَرَى مِنْ خَفْضِ الْعَيْشِ ، وَلِيْنِ الرِّيشِ ^(٣) ، وَلَكِنْ فَانظُرْ

إِلَى سُوءِ الظُّعْنِ ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ » . (الأمل ٢ : ٥٩)

[١] الحلة لا تكون إلا من ثوبين إزار ورداء ، والريظة : الملاة كلها نسج واحد وقطعة واحدة ، والربال : القبيص . [٢] مستعززة : مخفضة شديدة : [٣] المصب والمعاش .

١٠ - أعرابي ينصح لابنه

وقال : سمعت أعرابياً يقول لابنه :

« كن للعاقل المذبر أرجى منك للأحمق المقبل » ، ثم أنشد :

عَدُوُّكَ ذُو الْحِلْمِ أَبْقَى عَلَيْكَ وَأَرْعَى مِنَ الْوَامِقِ الْأَحْمَقِ^(١)

(ذيل الأمالي ص ٣٤)

١١ - أعرابي ينصح لأخيه

ونصح أعرابي لأخيه ، فقال :

« اعلم أن الناصح لك ، المشفق عليك ، مَنْ طالع لك ما وراء العواقب
برؤيته ونظره ، وَتَمَثَّلُ لك الأحوال المَخُوفَةُ عليك ، وَخَلَطَ الوَعْرَ بالسَّهْلَ من
كلامه ومَشُورته ، ليكون خوفك كِفَاءً^(٢) رجائك ، وشكرك إزاء النعمة عليك ،
وأن الناشئ لك ، والحاطب^(٣) عليك ، مَنْ مَدَّ لك في الاغترار ، ووطأ لك مهاد^(٤)
الظلم ، تابعا لمرضاتك ، منقاداً لهواك » . (الأمالي ١ : ١٩٨)

١٢ - أعرابي يعظ أخاه

ووعظ أعرابي أخاه له أفسد ماله في الشراب ، فقال :

« لا الدهرُ يَمْظِكُ ، ولا الأيامُ تُنذِرُك ، ولا الشَّيْبُ يَزْجُرُك ، والساعاتُ
تَحْصِي عليك ، والأَنْفاسُ تُعَدُّ منك ، والمنايا تُقَادُ إليك ، أَحَبُّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ
أَعْوَدُهَا بِالْمَضْرَةِ عَلَيْكَ » .

(القند الفريد ٢ : ٨٥ ، والأمالي ١ : ١٩٨ ، وزهر الآداب ٣ : ١١٥)

[١] إوامق : الحب . [٢] مكافئاً

[٣] هو حاطب ليل : أى مخلط في كلامه . [٤] المهاد : الفراش

١٣ - أعرابي يعظ صاحبه

وقال أعرابي لصاحبه :

« والله لئن هَمَلَجْتَ ^(١) إلى الباطل ، إنك لَتَقُطُوفٌ ^(٢) عن الحق ، ولئن أبطأتَ لَيُسْرَعَنَّ بك ، وقد خسر أقوام وهم يظنون أنهم راجحون ، فلا تفرِّك الدنيا ، فإن الآخرة من ورائك » . (البيان والتبيين ٢ : ١٥٨ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٦)

١٤ - أعرابي يعظ أخاه

وقال أعرابي لأخيه :

« يا أخى : أنت طالب ومطلوب ، يَطْلُبُكَ ما لا تَقْوُوه ، وتطلب ما قد كُفِيَتْه ، فكأن ما غاب عنك ، قد كُشِفَ لك ، وما أنت فيه قد نُقِلَتْ عنه ، فامهِّد ^(٣) لنفسك ، وأعدِّ ذلك ، وخذ في جهازك » . (العقد الفريد ٢ : ٨٤)

١٥ - أعرابي يعظ رجلا

وقال أعرابي لرجل :

« أى أخى : إن يَسَّارَ النفسِ أفضلُ من يسار المال ، فإن لم تُرْزَقْ غِنَى فلا تُحْرِمَ تقوى ، فَرُبَّ شَبَعَانَ من النعم ، عُرِيَانٌ من الكرم ، واعلم أن المؤمن على خيرٍ : تُرْحَبُ به الأرض ، وتستبشر به السماء ، ولن يُسَاءَ إليه في بطنها وقد أحسنَ على ظهرها » . (العقد الفريد ٢ : ٨٥)

[١] من هملج البرذون : مشى مشية سهلة في سرعة .

[٢] من قطفت الدابة كنصر وضرب : ضاق مشيها ، فهي قطوف

[٣] أى مهد وأعدد .

١٦ - أعرابي يعظ رجلا

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يعظ رجلا وهو يقول :

« وَيُنْحِك ! إِنْ فَلَانًا وَإِنْ ضِحِكْ إِلَيْكَ ، فَإِنَّهُ يَضْحَكُ مِنْكَ ، وَلَئِنْ أَظْهَرَ
الشفقة عليك ، إِنْ عَقَّارَبَهُ لَتَسْرِي إِلَيْكَ ، فَإِنْ لَمْ تَتَّخِذْهُ عَدُوًّا فِي عِلَانِيَتِكَ ، فَلَا
تَجْمَلُهُ صَدِيقًا فِي سِرِّيَتِكَ » . (زمر الآداب ٣ : ١٦٤)

١٧ - أعرابي يعظ رجلا

وسمع أعرابي رجلا يقع في السلطان ، فقال :

« إِنْكَ غُفْلٌ لَمْ تَسْمَعْ التَّجَارِبُ ، وَفِي النَّصِيحِ لَسَعُ الْعُقَارِبُ ، كَأَنِّي
بِالضَّاحِكِ إِلَيْكَ ، وَهُوَ بَاكِ عَلَيْكَ » . (زمر الآداب ٣ : ١٦٤)

١٨ - كلام أعرابي لابن عمه

وشاور أعرابي ابن عمِّ له ، فأشار عليه برأى ، فقال :

« قَدْ قَاتَ بِمَا يَقُولُ بِهِ النَّاصِحُ الشَّفِيقُ الَّذِي يَخْلُطُ حُلُوْ كَلَامِهِ بِمُرَّةٍ ،
وَحَزَنَتَهُ بِسَهْلِهِ ، وَيَجْرُكُ الْإِشْفَاقُ مِنْهُ مَا هُوَ سَاكِنٌ مِنْ غَيْرِهِ ، وَقَدْ وَعَيْتُ
النَّصِيحَ مِنْهُ وَقَبِلْتَهُ ، إِذْ كَانَ مَصْدَرُهُ مِنْ عِنْدِ مَنْ لَا شَكَّ فِي مَوَدَّتِهِ ، وَصَافِي
غَيْبِهِ ، وَمَا زَلَّتْ بِحَمْدِ اللَّهِ إِلَى الْخَيْرِ مَتَّهَجًا وَاضِحًا ، وَطَرِيقًا مَهِيمًا ^(١) » .

(الأملی ٢ : ٨٢)



١٩ - كلمات حكيمة للأعراب

قيل لأعرابي : مَالِكَ لَا تَشْرَبِ النَّبِيذَ ؟ قَالَ : « لثَلَاثِ خِلَالٍ فِيهِ : لِأَنَّهُ مُتَلِفٌ لِلْمَالِ ، مُذْهَبٌ لِلْعَقْلِ ، مُسْتَقِطٌ لِلْمَرْوَةِ » .

وقال أعرابي : « الدَّرَاهِمُ مِيَّاسِيمٌ ^(١) ، تَسِيمٌ حَمْدًا وَذَمًّا ، فَمَنْ حَبَسَهَا كَانَ لَهَا ، وَمَنْ أَنْفَقَهَا كَانَتْ لَهُ ، وَمَا كُلُّ مَنْ أُعْطِيَ مَا لَمْ يُعْطِ حَمْدًا ، وَلَا كَلَّ عَدِيمٌ ذَمِيمٌ » .
وقال أعرابي لأخ له : « يَا أَخِي إِنَّ مَالِكَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ كُنْتَ لَهُ ، وَإِنْ لَمْ تُفْنِهِ أَفْنَاكَ ، فَكُلُّهُ قَبْلَ أَنْ يَأْكُلَكَ » .

وقال أعرابي : « إِنْ الْمَوْفُوقُ مَنْ تَرَكَ أَرْفَقَ الْحَالَاتِ بِهِ ، لِأَصْلَاحِهَا لِدِينِهِ ، نَظَرًا لِنَفْسِهِ ، إِذَا لَمْ تَنْظُرْ نَفْسَهُ لَهَا » .

وقال أعرابي : « إِنْ اللَّهُ مُخْلِيفٌ مَا أَتَلَفَ النَّاسُ ، وَالذَّهْرُ مُتَلِفٌ مَا أَخْلَفُوا ، وَكَمْ مِنْ مَيِّتَةٍ عَلَيْهَا طَلَبَ الْحَيَاةَ ، وَكَمْ مِنْ حَيَاةٍ سَبَبُهَا التَّعَرُّضُ لِلْمَوْتِ » .
وقال أعرابي : « إِنْ الْآمَالَ قَطَعْتَ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ ، كَالسَّرَابِ غَرَّ مَنْ رَأَاهُ ، وَأَخْلَفَ مَنْ رَجَاهُ » .

وقال أعرابي لصاحب له : « أَصْحَبٌ مِنْ يَتَنَاسَى مَعْرُوفَهُ عَلَيْكَ ، وَيَتَذَكَّرُ حَقُوقَكَ عَلَيْهِ » .

وقال أعرابي : « لَا تَسْأَلْ مَنْ يَفِرُّ مِنْ أَنْ تَسْأَلَهُ ، وَلَكِنْ سَلْ مَنْ أَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ ، وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى » .

[١] مياسم جمع ميسم بالكسر : وهو المسكواة .

وقال أعرابي : « ما بقاء عُمرٍ تقطعهُ الساعاتُ ، وسلامةُ بدنٍ مُعرَّضٍ للآفاتِ ؟ ولقد عجبتُ من المؤمنِ ! كيف يكره الموتَ ؟ وهو ينقله إلى الثواب الذي أحيا له ليله ، وأظمأ له نهاره . »

وذكر أهلُ السلطان عند أعرابي فقال : « أَمَا والله لئن عَزُوا في الدنيا بالجورِ ، لقد ذَلُّوا في الآخرةِ بالعدلِ ، ولقد رضوا بقليلٍ فانِ ، عَوْضًا عن كثيرٍ باقٍ ، وإنما نزلَ القدمُ حيث لا ينفَعُ الندمُ . »

وقال أعرابي : « من كانت مطيتهُ الليل والنهار ، سارا به وإن لم يسِرْ ، وبلغا به وإن لم يبلغ . »

وقال أعرابي : « الزهادة في الدنيا مفتاح الرغبة في الآخرة ، والزهادة في الآخرة مفتاح الرغبة في الدنيا . »

وقيل لأعرابي وقد مرض : إنك تموت ! قال : « وإذا مُتُ فإلى أين يذهبُ بي ؟ » قالوا : « إلى الله تعالى » ، قال : « فما كراهتي أن يذهبَ بي إلى من لم أرَ الخيرَ إلا منه ؟ »

وقال أعرابي : « من خاف الموتَ بادر الموتَ ، ومن لم يُنحِ النفسَ عن الشهواتِ ، أسرعَ به إلى الهلكاتِ ، والجنة والنار أمامك »

وقال أعرابي : « خيرٌ لك من الحياة ما إذا فقدته أبغضتَ له الحياة ، وشرٌّ من الموت ما إذا نزل بك أحببتَ له الموتَ . »

وقيل لأعرابي : من أحقُّ الناس بالرحمة ؟ قال : « الكريمُ يُسلطُ عليه اللئيمُ ، والعاقِلُ يُسلطُ عليه الجاهلُ . »

وقيل له : أيُّ الداعين أحقُّ بالإجابة ؟ قال : المظلوم ، وقيل له : فأى الناس أغنى عن الناس ؟ قال : « من أفرد الله بحاجته » .

وقال الأصمى : سمعت أعرابياً يقول : « إذا أشكل عليك أمران ، فانظر أيهما أقرب من هوائك فخالفه ، فإن أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى » .
وقال أعرابي : « الشرُّ عاجله لذيد ، وآجله وخيم » .

وقال أعرابي : « من ولد الخير أُنجم له فِراخاً تطير بأجنحة السرور ، ومن غرس الشر أنبت له نباتاً مُراً مذاقه ، وقُضبانُه الغيظُ ، وثمرته الندم » .

وقال أعرابي : « من كساه الحياء ثوبه ، خفي على الناس عيبه » وقال : « بسّ الزاد، التمدى على العباد » ، وقال : « التلطف بالحيلة ، أنفع من الوسيلة » ، وقال :
من ثقل على صديقه ، خف على عدوه ، ومن أسرع إلى الناس بما يكرهون ، قالوا فيه ما لا يعلمون » .

وقال أعرابي : « أعجزُ الناس مَنْ قَصَرَ في طلب الإخوان ، وأعجز منه من ضيَّع من ظفر به منهم » .

وقال أعرابي لابنه : « لا يسرك أن تغلب بالشرِّ ، فإن الغالب بالشرِّ هو المغلوب » .

وقال أعرابي لأخ له : « قد نهيتك أن تُريق ماء وجهك عند من لاماء في وجهه ، فإن حطَّك من عطيتِه السؤالُ » .

وقال أعرابي : « إن حبَّ الخير خير وإن عجزتُ عنه المقدرة ، وبنفض الشرِّ بخير وإن فعلت أكثره » .

وقال أعرابي : « والله لولا أن المروءة تَقِيلُ مَحْمِلَهَا ^(١) ، شديدة مؤنتها ، ماترك اللثام للكرام شيئا » .

واحتَضِرَ أعرابي ، فقال له بنوه : عِظْنَا يَا أَبَتِ ، فقال : « عاشروا الناس معاشرةً ، إن غبتم حَنُّوا إليكم ، وإن متمم بَكُوا عليكم » .

ودخل أعرابي على بعض الملوك في شَمْلَةٍ ^(٢) شعر ، فلما رآه أعرض عنه ، فقال له : « إن الشَّمْلَةَ لا تكلمك ، وإنما يكلمك مَنْ هو فيها » .

وقال أعرابي : « رُبَّ رجل سِرُّه منشور على لسانه ، وآخر قد التحف عليه قلبه التحافَ الجَنَاحِ على الخَوَافِ » .

وقيل لأعرابي : كيف كتمانك للسرِّ؟ قال : « ما جوفى له إلا قَبْرٌ » .

ومرَّ أعرابيان برجل صلبه بعض الخلفاء ، فقال أحدهما : أُنْبِتَتْهُ الطاعةُ ، وَحَصَدَتْهُ المعصيةُ ، وقال الآخر : « من طَلَّقَ الدنيا فالآخرة صاحِبته ، ومن فارق الحق فَالْجِدْعُ راحلته » .

وقال أعرابي : « إذا أردت أن تعرف وفاءَ الرجل ، ودوامَ عهده ، فانظر إلى حينه إلى أوطانه ، وشوقه إلى إخوانه ، وبكائه على ما مضى من زمانه » .

وقال أعرابي : « إذا كان الرأى عند من لا يُقْبَلُ منه ، والسلاح عند من لا يستعمله ، والمال عند من لا ينفقه ، ضاعت الأمور » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٥ - ٨٧)

وقال أعرابي : « إن الدنيا تنطق بغير لسان ، فتخبر عما يكون بما قد كان » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٠)

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : « غَفَلْنَا ولم يغفل الدهر عنا ، فلم

[١] الحمل في الأصل : شقان على البعير يحمل فيها العديلان . [٢] كساء دون انقطيفة يشتمل به .

تَعِظُ بغيرنا ، حتى وُعِظَ غيرُنَا بنا ، فقد أدركت السعادة مَنْ تَنَبَّهَ ، وأدركت الشقاوة من غَفَلَ ، وكفى بالتجربة واعظاً . (زهر الآداب ٢ : ٥)

وقال أعرابي لرجل : « اشكرُ للمنعِمِ عليك ، وأنعمِ على الشاكر لك ، تستوجبُ من ربك زيادته ، ومن أخيك مُناصحتَه » . (زهر الآداب ٢ : ٦)
وتذاكر قوم صِلَةَ الرَّحِمِ ، وأعرابيٌّ جالس ، فقال : « مَنْسَأَةٌ ^(١) في العمر ، مَرَضَاتٌ للربِّ ، حِبَّةٌ في الأهل » . (الأملأ ١ : ٢١٧)

وقال أعرابي : « لا أعرفُ ضُرًّا أَوْصَلَ إلى نِيَابِ القلبِ ، من الحاجة إلى من لم تَثِقْ بِإسعافه ، ولا تأمَنَ رَدَّهُ ، وَأَكَلَمُ المصائبِ فَقَدُ خَلِيلٍ لا عِوَضَ منه » .
وقيل لأعرابي : أى شىء أمتع ؟ فقال : « مُمازحة المُحِبِّ ، ومحادثة الصديق ، وأمانى تقطع بها أيامك » .

وقال أعرابي : « من لم يرضَ عن صديقه إلا بإيثاره على نفسه ، دام سَخَطُه ، ومن عاتب على كل ذنبٍ كَثُرَ عدوّه ، ومن لم يواخِ من الإخوان إلا مَنْ لا عيبَ فيه قَلَّ صَدِيقُه » . (الأملأ ١ : ٢١٨)

عن عبدالرحمن عن عمه قال : قلت لأعرابي ماتقول في المراء ؟ قال : « ما عسى أن أقول في شىء يُفْسِدُ الصداقة القديمة ، وَيَحُلُّ العُقْدَةَ الوثيقة ، أقلُّ ما فيه أن يكون دُرْبَةً للمغالبة ، والمغالبةُ من أمتنِ أسبابِ الفتنة » . (الأملأ ١ : ٢٥٨)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يقول : « لا يوجدُ العَجُولُ محموداً ، ولا العُضُوبُ مَسْرُوراً ، ولا المُلُولُ ذا إخوان ، ولا الحُرُّ حريصاً ، ولا الشرُّ غنياً » .

وقال : سمعت أعرابياً يقول : « صُنْ عقلك بالحلم ، ومُرْ وءتكَ بالعَفاف ،
ونجِدْ تكَ بمجانبة الخِيَلَاء ، وخَلِّ تَكَ ^(١) بالإجمال في الطلب » . (الأمل ٢ : ٣٢)

وقال : سمعت أعرابياً يقول : « أَقْبِحُ أعمال المقتدرين الانتقام ، وما اسْتَنْبَطَ
الصوابُ بمثل المشاورة ، ولا حُصِّلَتِ النعم بمثل المواساة ، ولا ا كْتَسِبَتِ
البغضاء بِمِثْلِ الكِبَرِ » . (الأمل ٢ : ٣٢ ، وزهر الآداب ٢ : ٣)

وقال أعرابي : « خير الإخوان من يُنِيلُ عُرْفًا ، أو يدفع ضُرًّا » .
(الأمل ٢ : ٤١)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يقول : « العاقل حقيقٌ أن
يُسَخِّيَ بنفسه عن الدنيا ، لعله أن لا ينال أحد فيها شيئاً إلا قَلَّ إِمْتَاعُهُ به ، أو
كثُرَ عَنَاؤُهُ فيه ، واشتدت مرزئته ^(٢) عليه عند فراقه ، وَعَظُمَتِ التَّبِعَةُ
فيه بعده » . (الأمل ٢ : ٤١)

وقال أعرابي : « خَصَّصْتان من الكرم : إنصاف الناس من نفسك ،
وموآساة الإخوان » . (الأمل ٢ : ٧٣)

وقال أعرابي : « ما غُبِئْتُ قَطُّ حتى يُعْبَنَ قومي » ، قيل : وكيف ذلك ؟
قال : « لا أفعل شيئاً حتى أشاورهم » . (البيان والتبيين ٢ : ١٦١)

وقال أعرابي لرجل مَطَّلَه في حاجة : « إن مثل الظفر بالحاجة تعجيل الأَس منها ،
إذا عَمِرَ قضاؤها ، وإن الطلب وإن قَلَّ ، أعظمُ قدراً من الحاجة وإن عَظُمَتْ ،
والمطلُّ من غير عُسْرِ آفةُ الجود » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٢١)

وقال أعرابي : « وعد الكريمِ نَقْدٌ وتعجيل ، ووعد اللئيمِ مَطْلٌ وتعليل »
(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١)

وقال أعرابي : « اعتذارٌ من منَع ، أنجلُ من وَعَدِ مَمَطُول » .

(الأمل ٢ : ١٩٨)

وقال أعرابي : « عَوْدُ لسانِكَ الخَيْرَ ، تسلمُ من أهلِ الشرِّ » .

(ذيل الأمل ص ٢٩)

وقال أعرابي : « خرجت ليلة حين انحدرت أيدي النجوم ، وشالت ^(١)

أرجلها ، فما زلت أصدع الليل حتى انصدع الفجر ، فإذا بجارية كأنها علم فجلت أغازلها ، فقالت : يا هذا ، أمالك ناهٍ من كرم ، إن لم يكن لك زاجرٌ من عقل ؟ قال : والله ما يراني إلا الكواكب ! قالت : فأين مكوكبها ؟ » .

(العقد الفريد ٢ : ٩٤ ، والبيان والتبيين ٢ : ٥١ ، وزهر الآداب ٢ : ٦)

أجوبة الأعراب

٢٠ - مجاوبة أعرابي للحجاج

خرج الحجاج ذات يوم فأصحّر ^(٢) ، وحضر غداؤه ، فقال : اطلبوا من

يتغدّى معي ، فطلبوا ، فإذا أعرابي في شملة : فأتي به ، فقال السلام عليكم ،

قال : هلّم أيها الأعرابي ، قال : قد دعاني من هو أكرم منك فأجبتُه ، قال :

ومن هو ؟ قال : دعاني الله ربّي إلى الصوم ، فأنا صائم ، قال : وصومٌ في مثل هذا

اليوم الحارّ ؟ قال : صمت ليومٍ هو أحرُّ منه ، قال : فأفطر اليوم وصم غداً ،

قال : وَيَضْمَنَ لي الأمير أني أعيش إلى غد ؟ قال : ليس ذلك إليه ، قال : فكيف

تسألني عاجلاً بأجلٍ ، ليس إليه سبيل ؟ قال : إنه طعام طيب ، قال : والله

[١] ارتفعت : من شالت الناقة بذنبا وأشالته : رفعته ، نшал هو .

[٢] أصحر : برز في الصحراء .

ما طيبه خبازك ولا طبأخك ، قال : فَمَنْ طَيَّبَهُ ؟ قال : العافية ، قال الحجاج :
تالله إن رأيت كاليوم ! أخرجوه عنى . (البيان والتبيين ٣ : ٢٣٤ ، والمقداد/نفر يد ٢ : ٨٧)

٢١ - مساءلة الحجاج أعرابيا فصيحاً

وقال الحجاج لأعرابي كلمه فوجده فصيحاً: كيف تركت الناس وراءك؟ فقال:
« تركتهم - أصلح الله الأمير - حين تفرقوا في الغيطان ، وأخذوا النيران ،
وتشكّت النساء ، وعرض الشاء ، ومات الكلبُ » ، فقال الحجاج لجلسائه :
أخِصَبًا نَعَتَ أم جَدَبًا ؟ قالوا : بل جدبًا ، قال : بل خِصَبًا ، قوله : تفرقوا في
الغيطان^(١) ، معناه: أنها أعشبت ، فأبلمهم وغنمهم ترعى ، وأخذوا النيران ، معناه:
استغنوا باللبن عن أن يشتووا لحوم إبلهم وغنمهم ويأكلوها ، وتشكّت النساء
أعضادهن ، من كثرة ما يَمَخَضُن^(٢) الألبان ، وعرض الشاء : استن^(٣) من كثرة
العُشب والمرعى ، ومات الكلب : لم تمت أغنامهم وإبلهم فإكل جيفها .
(ذيل الأملى ص ٨٧)

٢٢ - مجاوبة أعرابي لعبد الملك بن مروان

ودخل أعرابي على عبد الملك بن مروان ، فقال له : يا أعرابي صف الخمر ، فقال:
شُمُولٌ إِذَا شُجَّتْ ، وفي الكأس مُزَّةٌ لها في عظام الشارين ديبٌ^(٤)
تُريك القَدَى من دونها وهي دُونَه لوجه أخيها في الإناء قُطوبٌ^(٥)

[١] جمع فائط : وهو المطهّن الواسع من الأرض . [٢] مخض اللبن من بؤ قطع ونصر وضرب
أخذ زبده . [٣] استن : سمن ، سن الإبل كنصر : إذا رماها فأستمنها .

[٤] الشمول : الخمر أو الباردة منها ، لأنها تشعل بريحها الناس ، أو لأن لها عصفة كعصفة الشمال ،
وشج الشراب : مزجه . [٥] القدى : ما يقع في الشراب ، قطب كضرب قطباً وقطوبا : زوى ما بين
عينيه وكبح ، وأخوها : هو نبيذ الزبيب ، والمعنى : أن الشارين يفضلونها عليه فيشربونها دونه ، فهو
يقطب من أجل ذلك ، وفي أخيها يقول الشاعر :

فقال : ويحك يا أعرابي ! لقد اتهمك عندي حُسْنُ صفتك لها ، قال : « يا أمير المؤمنين ، واتهمك عندي معرفتك بحسن صفتي لها » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢١٥)

٢٣ - مجاوبة أعرابي لخالد بن عبد الله القسري

وخطب خالد بن عبد الله القسري فقال :

« يا أهل البادية : ما أخشن بلدكم ، وأغلظ معاشكم ، وأجنى أخلاقكم ، لا تشهدون الجمعة ، ولا تجالسون عالماً » ، فقام إليه رجل منهم دميم ، فقال : « أمّا ما ذكرت من خشونة بلدنا ، وغلظ طعامنا ، فهو كذلك ، ولكنكم معشر أهل الحضر ، فيكم ثلاث خصال ، هي شرُّ من كلِّ ما ذكرت » ، قال له خالد : وما هي ؟ قال : « تنقبون الدور ، وتنبشون القبور ، وتنكحون الذكور » ، قال : « قبّحك الله ، وقبّح ما جمّت به » . (العقد الفريد ٢ : ١٢٧)

٢٤ - أجوبة شتى

وقدّم أعرابي إلى السلطان ، فقال له : قل الحق ، وإلا أوجعتك ضرباً ، قال له : « وأنت فأعمل به ، فوالله ما أوعدك الله على تركه ، أعظم مما تُوعِدُنِي به » .

ونظر عثمان إلى أعرابي في شملة ، غائر العينين ، مُشرفِ الحاجبين ، نائياً الجبهة ، فقال له : أين ربك ؟ قال : بألرصاد !

وقيل لأعرابي : إنك تُحسِنُ الشّارة (١) ، قال : « ذلك عُنوان نعمة

الله عندي » .

دع الخمر يفسر بها الفواة فإنني رأيت أخاها مغبياً بكانها

فإلا يكنها أو تكنه فإنه أخوها غذته أمه بلبانها

[١] الشارة : اللباس والهيئة والزينة .

وقيل لأعرابي : « كيف أنت في دينك ؟ قال : أخرقه بالمعاصي ، وأرغمه بالاستغفار » .

وسئل أعرابي عن القَدَر فقال : « الناظر في قدر الله كالناظر في عين الشمس ، يعرف ضوءها ، ولا يقف على حدودها » .

وسئل آخر عن القدر ، فقال : « علم اختصت فيه العقول ، وتناول فيه المختلفون ، وحقّ علينا أن يرد إلينا ما التبس علينا من حكمه ، إلى ما سبق علينا من علمه » . (العقد الفريد ٢ : ٨٦ - ٨٧)

وقيل لأعرابي : من أباغ الناس ؟ قال : « أحسنهم لفظاً وأسرعهم بديهة » .
وقيل لأعرابي : مالك لا تطيل الهجاء ؟ قال : « يكفيك من القلادة ما أحاط بالعتق » .

وقال معاوية لأعرابية : هل من قرى ؟ قالت : نعم ، قال : وما هو ؟ قالت : « خبز خمير ، ولبن فطير ، وماء نَمير ^(١) » .

وقيل لأعرابي : فيم كنتم ؟ قال : « كنا بين قدر تفور ، وكأس تدور »
وحدث لا يحور ^(٢) .

وقيل لأعرابي : ما أعددت للبرد ؟ قال : « شدة الرعدة ، وقرفصاء القعدة ، وذرب المعدة ^(٣) » .

وقيل لأعرابي : « مالك من الولد ؟ قال : قليل خبيث ، قيل له : ما معناه ؟

[١] الخمير : الذي اختر ، وماء نَمير : ناجع ، عذبان أو غير عذب .

[٢] أى لا يتقص ، وربما كان لا يحور بالجم . [٣] القرفصاء : أن يجلس على أليته ، ويلصق مخذيته ببطنه ، ويمتطي يديه يضعهما على ساقيه ، أو يجلس على ركبتيه منكباً ، ويلصق بطنه بفخذيه ، ويتأبط كفيه ، والذرب : الحدة ، والمعدة ككلمة وكسرة

قال : « إنه لا أقل من واحد ، ولا أخبث من أنثى »

وقيل لأعرابي - وقد أدخل ناقته في السوق ليبيعهما - صف لنا ناقتك ، قال :
ما طلبت عليها قطُّ إلا أدركتُ ، ولا طلبتُ إلا فُتُّ ، قيل له : فلم تبعهما ؟
قال : لقول الشاعر :

وقد تُخْرِجِ الحَاجَاتُ يَا أُمَّ عَامِرٍ كِرَائِمَ مِنْ رَبِّ بَهَنٍ ضَنِينِ

وقيل لأعرابي : ما عندكم في البادية طيب ؟ قال : « مُحْرُ الوَحْشِ لا تَحْتَاجُ
إِلَى يَيْطَارِ » .

وقيل لِشَرِيحِ القَاضِي : هل كلك أحد قطُّ فلم تُطِقْ له جواباً ؟ قال : ما أَعْلَمُه
إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَعْرَابِيًّا ، خَاصِمٌ عِنْدِي وَهُوَ يَشِيرُ بِيَدَيْهِ ، فَقُلْتُ لَهُ : أَمْسِكْ ، فَإِنَّ
لِسَانَكَ أَطْوَلُ مِنْ يَدِكَ ، قَالَ : « أَسَامِرِيٌّ أَنْتَ لَا تُمَسُّ ؟ ^(١) »

(العقد الفريد ٢ : ٩٧)

وقيل لأعرابي : أى الألوان أحسن ؟ قال : « قَصُورٌ بِيضٌ ، فِي
حَدَائِقِ خُضْرٍ » .

[١] يشير إلى قوله تعالى : « قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ، قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ،
فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنَ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ، وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ، قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ
فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَأَمْسَأَنَّ » .

والسامري : هو موسى بن ظفر السامري نسبة إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها : السامرة ، وكان
من قوم يعبدون البقر ، وقع في مصر ، فدخل في بني إسرائيل ، وآمن بعبودية ، وكان منافقاً لا يزال في قلبه
عبادة البقر ، فلما ذهب موسى لمناجاة ربه ففتن بني إسرائيل ، وكانوا حين خرجوا من مصر حملوا معهم من
حلي القبط التي أخذوها منهم رهائن على ما يقرضونهم من المال - فاتخذ لهم منها عجلاً جسداً له خوار . . .
إلى آخر ما هو معروف في القصة ، من أثر الرسول : أى من أثر حافر الرسول وهو جبريل ، والأثر :
التراب الذي تحت حافره ، والمساس مصدر مس ، وهو نقي أريد به النهي ، أى لا تمسني ولا أمسك .

وقيل لآخر : أى الإلوانُ أحسنُ ؟ قال : « بَيْضَةُ (١) ، فى رَوْضَةِ ، غنِ
غِيبِ سَأْرِيَّةِ ، وَالشَّمْسِ مُكَبَّدَةِ » . (العقد الفريد ٢ : ٩٦)

وخطب أعرابى إلى قوم فقالوا : ما تبذل من الصداق ؟ وارتفع السَّجْفُ (٢)
فرأى شيئاً كرهه فقال : « والله ما عندى نقد ، وإنى لأكره أن يكون
على دين » . (عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٠٠)

وقيل لأعرابية مات ابنها : « ما أحسن عزاءك عن ابنك ! » ، قالت :
« إن مصيبتى آمنتنى من المصائب بعده » .

وقال محمد بن حرب الهلالى : قلت لأعرابى : « إني لك لَوَادٌّ » ، قال :
« وإن لك من قلبى لرأنداً » . (البيان والتبيين ١ : ١٤٦ ، والبيان والتبيين ٢ : ٩٢)
وقال الأصمى : رأيت أعرابياً أمامه شاةٌ ، فقالت : لمن هذه الشاة ؟ قال :
« هى لله عندى » . (العقد الفريد ٢ : ٨٦ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٠٩)

قولهم فى الاستمناح والاستجداء

٢٥ - أعرابى يجتدى عتبة بن أبى سفيان

اعترض أعرابى لعتبة بن أبى سفيان ، وهو على مكة ، فقال : أيها الخليفة ،
فقال : لستُ به ، ولم تُبْعِدْ ، قال : يا أخاه ، قال : أَسْمَعْتَ فَقُلْ ، قال :

« شيخ من بنى عامر يتقرَّب إليك بالعمومة ، ويختص بالحمولة ، ويشكو
إليك كثرة العيال ، ووَطْأَةَ الزمان ، وشدة فقر ، وترادفُ ضُرِّ ، وعندك ما يسعه

[١] البيضة : ساحة القوم ومجتمعهم ، والسارية : السحابة تسرى ليلاً ، وكبدت الشمس السماء : صارت
فى كبدها أى وسطها ، وفى الأصل « مكبدة » بالياء وهو تصحيف .
[٢] السجف بالفتح والكسر : الستر

وَيَصْرِفُ عَنْهُ بؤسه » ، قال : « أستغفر الله منك ، وأستعينه عليك ، قد أمرت لك بِغِنَاكَ ، فليت إسرَاعِنَا إِلَيْكَ ، يقوم بِإِطَائِنَا عَنْكَ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٠ ، والعقد الفريد ٢ : ٨١)

٢٦ — أعرابي يجتدى عمر بن عبد العزيز

وأتى أعرابي عمر بن عبد العزيز ، فقال :

« رجل من أهل البادية ، ساقته إليك الحاجة ، وبلغت به الغاية ، والله سائلُك عن مقامي غداً » ، فقال عمر : « والله ما سمعتُ كلمة أبليغ من قائل ، ولا أوعظ لمقولٍ له منها » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٣ ، والأمل ٢ : ١٧٤ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣١)

٢٧ — خطبة أعرابي بين يدي هشام بن عبد الملك

وكانت الأعراب تنتجع هشام بن عبد الملك بالخطب كل عام ، فتقدم إليهم الحاجب يأمرهم بالإيجاز ، فقام أعرابي ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أمير المؤمنين ، إن الله تبارك وتعالى جعل العطاء محبةً ، والمنع مَبْغُضَةً ، فَلَآنَ نَحْبُكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ نُبْغِضَكَ ^(١) » ، فأعطاه وأجزل له . (العقد الفريد ٢ : ٨٣)

٢٨ — مقام أعرابي بين يدي هشام

وقام أعرابي بين يدي هشام فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أتت على الناس ثلاث سنين ، أمّا الأولى : فَلَحَّتِ ^(٢) اللحم ، وأمّا الثانية : فأكلت الشَّحْمَ ، وأمّا الثالثة : فهاضت ^(٣) العظم ، وعندكم

[١] يروي هذا محمد بن أبي الجهم المدوي ، قاله في حضرة هشام أيضاً . انظر الجزء الثاني ص ٤٠٦ .

[٢] من لحا الشجرة : أخذ لحاءها (بالكسر) وهو قشرها . [٣] هاض العظم : كسره بعد

الجبور فهو مبيض ، وفي رواية : « وعام أتى العظم » أي وصل إلى نقيه (بالكسر) وهو منح العظم .

فُضُولُ أَمْوَالٍ ، فَإِنْ كَانَتْ لِلَّهِ فَاقْسِمُوها بَيْنَ عِبَادِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ فَقِيمٌ - تُحْظَرُ (١) عَنْهُمْ ؟ وَإِنْ كَانَتْ لَكُمْ فَتَصَدَّقُوا عَلَيْهِمْ بِهَا ، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ » ، قَالَ هِشَامُ : هَلْ مِنْ حَاجَةٍ غَيْرِ هَذِهِ يَا أَعْرَابِي ؟ قَالَ : « مَا ضَرَبْتُ إِلَيْكَ أُكْبَادَ الْإِبِلِ ، أَدْرِعُ الْهَجِيرَ ، وَأُخْوِضُ الدُّجَى لِحَاصٍ دُونَ عَامٍ » ، فَأَمَرَ هِشَامُ بِمَالِ ، فَقَسَّمْ بَيْنَ النَّاسِ ، وَأَمَرَ لِلأَعْرَابِي بِمَالِ ، فَقَالَ : « أَكَلُ الْمُسْلِمِينَ لَهُ مِثْلُ هَذَا ؟ » قَالُوا : « لَا ، وَلَا يَقُومُ بِذَلِكَ بَيْتُ مَالِ الْمُسْلِمِينَ » ، قَالَ : « فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهَا يَبْعَثُ لِأَمَّةِ النَّاسِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٨ والعقد الفريد ٢ : ٨٢)

٢٩ - أعرابي يستجدي عبيد الله بن زياد

وقال العُتْبِيُّ : وقف أعرابي بباب عبيد الله بن زياد فقال :

« يَا أَهْلَ الْغَضَارَةِ (٢) ، حَقَبَ (٣) السَّحَابُ ، وَانْقَشَعَ الرَّبَابُ ، وَاسْتَأْسَدَتِ الذَّنَابُ ، وَرَدِمَ التَّمَدُّ (٤) ، وَقَلَّ الحَفْدُ (٥) ، وَمَاتَ الْوَلْدُ ، وَكُنْتُ كَثِيرَ العُقَاةِ (٦) ، صَخِبَ (٧) السَّقَاةُ ، عَظِيمَ الدَّلَاةِ (٨) لَا تَتَّصِلُ الزَّمَانُ ، وَغَفَلَ (٩) الحَدِثَانُ ، حَتَّى حَلَلَّ (١٠) ، وَعَدَدَ وَمَالَ ، فَتَفَرَّقْنَا أَيْدِي سَبَا (١١) ، بَيْنَ فَقْدِ الأَبْنَاءِ والأَبَاءِ ،

[١] تحجب وتمنع . [٢] الغضارة : السمعة والسمة والحصب ، وفي الأصل : « الغضاضة » وهو تحريف - والغضاضة الذلّة والمقصية - . [٣] حقب المطر وغيره : احتبس ، والرباب : السحاب الأبيض . [٤] التمد كشمس وسبب : الماء القليل لامادة له . [٥] الحفد : الأعوان جمع حافد . [٦] العقاة جمع عاف : وهو الوارد والضيف ، وكل طالب فضل أو رزق . [٧] وصف من الصخب بالتحريك وهو شدة الصوت ، والسقاة جمع ساق كقاض ، وفي الأصل « صخب السقاء » وأراه محرفاً . [٨] في الأصل : « عظيم الزلات » وأراه محرفاً عن « الدلاة » ، والدلاة كفضاة جمع دال كقاض ، وهو النازع في الدلو المستقي به الماء من البئر . يقال : أدليت الدلو ودليتها : إذا أرسلتها في البئر . ودلوها أدلوما فأنا دال : إذا أخرجتها . [٩] الغفل بالتحريك : الغفلة ، والحديثان : نوب الدهر وحوادثه ، وفي الأصل : « ولا أعقل الحديثان » وأراه محرفاً ، وربما كان الأصل « ولا يغفل الحديثان » بتكرير لام الجر . [١٠] الحلة بالكسر : القوم النازلون ، والجمع - حلال وحلل ككتاب وعنب ، وتطلق الحلة على البيوت مجازاً تسمية للحل باسم الحلال ، وهي مائة بيت فما فوقها . [١١] يقال : ذهبوا أيدي سبا ، وتفرقوا أيدي سبا ، وأيادي سبا : أي تبددوا ، شبهوا بأهل سبأ لما

وكنت حَسَنَ الشَّارَةِ ^(١) ، خَصِيبَ الدَّارَةِ ^(٢) ، سليم الجارة ^(٣) ، وَكَانَ مَحَلِّيً
 حَمِيً ، وقومى أُسَى ^(٤) ، وعزى جَدًّا ^(٥) ، قَضَى اللهُ - ولأرجعَانِ لما قَضَى - بِسَوَافٍ ^(٦)
 المال ، وَشَتَاتِ الرجال ، وتغيّر الحال ، فأعينوا مَنْ شَخَّصَهُ شَاهِدُهُ ، وإِسَانَهُ
 وَاْفِدُهُ ، وقره سَائِقُهُ وَقَائِدُهُ . (زهر الآداب ٣ : ٣٠٧)

٣٠ - أعرابية تستجدي عبد الله بن أبي بكره

ودخلت أعرابية على عبد الله بن أبي بكره بالبصرة ، فوقفت بين
 السَّمَاطِينَ ^(٧) فقالت :

« أصلح الله الأمير وأمتع به ، حَدَرْتُنَا إِلَيْكَ سَنَةً أَشْتَدَّ بِلَاؤُهَا ، وانكشف
 غِطَاؤُهَا ، أَقْوَدُ صَبِيئَةً صَغَارًا ، وآخرين كبارًا ، في بلدة شاسعة ، تَحْفِضُنَا خَافِضَةً ،
 وترفعنا رافعة ، لِمِائَاتٍ مِنَ الدَّهْرِ ، بَرَّيْنٍ عَظْمِي ، وَأَذْهَبُنِي لِحْمِي ، وتركبتني
 وَالِهَةً ، أَدُورُ بِالْحَضِيضِ ، وقد ضاق بي البلدُ العَرِيضُ ، فسألت في أحياءِ
 العرب : مَنْ الكَامِلَةُ فِضَائِلُهُ ، الْمُعْطَى سَائِلُهُ ، الْمَكْنِي نَائِلُهُ ؟ فَذَلَّلْتَ عَلَيْكَ
 - أصلحك الله تعالى - وأنا امرأة من هَوَازِنَ ، قد مات الوالد ، وغاب الرافد ،

مزقهم الله في الأرض كل مزق ، فأخذ كل طائفة منهم طريقاً على حدة ، واليد : الطريق . يقال : أخذ
 القوم يد بحر ، فقيل للقوم إذا تفرقوا في جهات مختلفة : ذهبوا أيدي سبأ : أي فرقهم طرقهم التي
 سلكوها كما تفرق أهل سبأ في مذاهب شتى ، والعرب لا تهمز سبأ في هذا الموضع ، لأنه كثر في كلامهم
 فاستنقلوا فيه الهمزة ، وإن كان أصله مهموزا ، وقد بنوا أيدي سبأ ، وأيادي سبأ على السكون لكونه
 مركباً تركيب خمسة عشر .

[١] الشارة : الهيئة واللباس والزينة والجمال . [٢] الدارة : الدار .

[٣] الجارة : من معانيها : الزوجة . [٤] الأسي جمع أسوة : وهي القدوة .

[٥] الجدا : العطية ، والمطر الذي لا يعرف أقصاه . [٦] السواف بالضم وفتح : مرض الإبل ،

سواف الابل يسوف ويساف : هلك ، أو وقع فيه السواف .

[٧] السماطين من الناس : الجلبان .

وأنت بعد الله غيائي ، وَمُنْتَهَى أَمَلِي ، فافعل بي إحدى ثلاث خِصال : إما أن تَرُدَّنِي إلى بلدي ، أو تُحْسِنَ صَفَدِي ^(١) ، أو تَقِيمَ أَوْدِي ، فقال : بل أجمعهن لك ، فلم يزل يجزى عليها كما يجزى على عياله حتى ماتت .

(زهر الآداب ٣ : ٣٠٦)

* * *

وروى صاحب العقد قال :

قال الأصمعي : وقفت أعرابية على عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضى

الله تعالى عنهما فقالت :

« إني أتيت من أرضٍ شاسعة ، تَحْفِضُنِي خافضة ، وترفعني رافعة ، في بَوَادِي بَرِّينَ لَحْمِي ، وَهِيضُنَ ^(٢) عَظْمِي ، وتركنني وَالهَةَ ، قد ضاق بي البلد ، بعد الأهل والولد ، وكثرة من العمد ، لآقْرَابَةَ تُؤْوِينِي ، ولا عشيرة تَحْمِينِي ، فسألت أحياء العرب ، مَنْ المَرْتَجِي سَيِّبُهُ ^(٣) ، المأمون عَيْبُهُ ، الكثيرُ نَائِلُهُ ، المَكْنِي سَائِلُهُ ، فَدَلَلْتُ عَلَيْكَ ، وأنا امرأة من هوازِن ، فقدت الولد والوالد ، فاصنع في أمرى واحدة من ثلاث : إما أن تُحْسِنَ صَفَدِي ، وإما أن تَقِيمَ أَوْدِي ، وإما أن تَرُدَّنِي إلى بلدي » ، قال : بل أجمعهن لك ، ففعل ذلك بها .

(العقد الفريد ٢ : ٨٢)

٣١ - أعرابي يستجدي خالد بن عبد الله القسري

ودخل أعرابي على خالد بن عبد الله القسري ، فقال :

« أصلح الله الأمير : شيخٌ كبير ، حَدَّثَهُ إِلَيْكَ بَارِيَةُ الْعِظَامِ ^(٤) ، وَمُورَثَةٌ

[١] الصغد : العطاء . [٢] هاض العظم : كسره بعد الجبور . [٣] السيب العطاء .

[٤] حدته : ساقته ، وبارية العظام : أمى النكبات التي تبرى العظام ، مؤرثة : مبيجة ، من التارث ،

وهو إيقاد النار .

الأسقام ، ومُطوَّلة الأعوام ، فذهبتُ أمواله ، وذُعدتُ^(١) آباله ، وتغيَّرتُ أحواله ، فإن رأى الأمير أن يجبره بفضله ، وينعشه بسجله^(٢) ، ويرده إلى أهله ! » فقال : كل ذلك ، وأمر له بعشرة آلاف درهم . (الأمل ٢ : ٤٩)

٣٢ — أعرابي يستجدي معن بن زائدة

وقدم أعرابي من بني كِنانة على معن بن زائدة وهو باليمن فقال :
« إني والله ما أعرف سبباً بعد الإسلام والرحم ، أقوى من رحلة مثلي من أهل السن والحسب إليك من بلاده ، بلا سبب ولا وسيلة ، إلا دعاءك إلى المكارم ، ورغبتك في المعروف ، فإن رأيت أن تضعني من نفسك بحيث وضعتُ نفسي من رجائك فافعل » فوصله وأحسن إليه . (المقدم الفرد ٢ : ٨٠)

٣٣ — خطبة الأعرابي السائل في المسجد الحرام

عن أبي زيد قال : بينا أنا في المسجد الحرام إذ وقف علينا أعرابي فقال :
« يا مسلمون ، إن الحمد لله ، والصلاة على نبيه ، إني امرؤ من أهل هذا المِلطاطِ الشَّرقيِّ المِواصيِ أسيافِ تِهامة^(٣) ، عكفتُ على سنونٍ مُحشٍ^(٤) ، فاجتبتُ الدرِي ، وهشمتُ العُرى^(٥) ، وجشمتُ النِّجمَ ، وأعجتُ البهَمَ^(٦) ،

[١] ذعدت : فرقت ، وآبال جمع ابل . [٢] السجل في الأصل : الدلو العظيمة مملوءة .

[٣] المِلطاط : كل شفير نهر أو واد ، والمواصي والمواصل واحد ، يقال : تواصى النبت : إداصل بعضه ببعض ، وأسياف جمع سيف بالكسر : وهو ساحل البحر . [٤] عكفت : أقامت ، والسنون الجدوب ، ومحش جمع محوش كصبور ، وهي التي تمحش (بضم الحاء) الكلاً أي تحرقه .

[٥] اجتبت : قطعت واستأصلت ، وهشمت : كسرت ، والدرى جمع عرودة ، والعرودة : القطعة من الشجر لايزال باقياً على الجذب ترماه أموالهم . [٦] جشمت : احتلفت ، والنجم : ما نجم ولم يستقل على ساق ، وأعجت : أي جعلتها عجائباً ، والهجى : السبي الذناء المهزول .

وَهَمَّتِ الشَّحْمَ ، وَالتَّجَبَّتِ اللَّحْمَ ، وَأَحْجَنَتِ الْعَظْمَ ^(١) ، وَغَادَرَتِ التَّرَابَ مَوْرَأً ،
وَالْمَاءَ غَوْرًا ، وَالنَّاسَ أَوْزَاعًا ^(٢) ، وَالنَّبْطَ قُمَاعًا ، وَالضَّهْلَ جُرَاعًا ، وَالْمَقَامَ
جَمْعًا ^(٣) ، يُصَبِّحُنَا الْهَاوِي ، وَيَطْرُقُنَا الْعَاوِي ^(٤) ، نَخْرَجْتُ لَا أَتَلَقَّ بِوَصِيدَةٍ ،
وَلَا أَتَقَوِّتُ هَبِيدَةً ^(٥) ، فَالْبَخَصَاتُ وَقِعَةٌ ، وَالرُّكْبَاتُ زَاعَةٌ ، وَالْأَطْرَافُ
قَفْعَةٌ ^(٦) ، وَالْجِسْمُ مُسْلَمٌ ، وَالنَّظَرُ مُدْرَهَمٌ ^(٧) ، أَعْشَوُ فَأَغَطَّشُ ، وَأَضْحَى
فَأَخْفَشُ ^(٨) ، أَسْهَلُ ظَالِمًا ، وَأُحْزِنُ رَاكِمًا ^(٩) فَهَلْ مِنْ أَمْرِ يَمِيرُ ^(١٠) ، أَوْ دَاعٍ
بِخَيْرٍ ؟ وَقَاكُمُ اللَّهُ سَطْوَةَ الْقَادِرِ ، وَمَلَكَهَ الْكَاهِرِ ^(١١) ، وَسُوءَ الْمَوَارِدِ ، وَفُضُوحَ
الْمَصَادِرِ ، قَالَ : فَأَعْطَيْتُهُ دِينَارًا وَكَتَبْتُ كَلَامَهُ ، وَاسْتَفْسَرْتَهُ مَا لَمْ أَعْرِفْهُ .

(الأمالي ١ : ١١٣)

٣٤ — خطبة الأعرابي السائل في المسجد الجامع بالبصرة

وروى الجاحظ قائل :

قال أبو الحسن : سمعت أعرابياً في المسجد الجامع بالبصرة بعد العصر سنة

- [١] همت : أذبت ، والعرب تقول : « همك ما همك » أي أذابك ما أذكرك ، والتجبت اللحم : أوى
عرقته عن العظام ، وأحجنت العظم : أوى عوده فصيرته كالحجن . [٢] مار موراً : اضطرب وماج ،
والغور : الغائر ، أوزاع : فرق . [٣] النبط : الماء الذي يستخرج من البئر أول ما تخفر ، والقناع
الماء الملح المر : والضهل : القليل من الماء ، والجراع : أشد المياه مرارة ، والجمعاع : المكان الذي
لا يطمئن من قدم عليه . [٤] الهاوي : الجراد ، والعاوي : الذئب .
[٥] التلقح : الاشتباك ، والوصيدة : كل نسيجة ، والهبيد : حب الحنظل يعالج حتى يطيب فيعتبز .
[٦] البخصات جمع بخص ، وهي لحم باطن القدم ، ووقعة : من قولهم : وقع الرجل كفروح إذا اشتكى
لحم باطن قدمه ، وزاعة : متشققة ، وقفعة ومقفعة واحد : وهي التي قد تقبضت ويبست .
[٧] المسلم : الضائر المتخير ، والمدرم : الضعيف البصر الذي قد ضعف بصره من جوع أو مرض .
[٨] أعشو : أنظر : فأغطش : أصير غطشاً (بكسر الطاء) والغطش محركة : ضعف في البصر ، وضحي
للشمس كفروح وسعى : برز لها ، والحفش بالتحريك : ضعف البصر خلقة ، أو فساد في الجفون بلا وجع
أو أن يبصر بالليل دون النهار . [٩] أسهل ظالماً : أي إذا مشيت في السهول ظلت ، وطلع كنعن :
عمر في مشيه ، وأحزن راكماً : أي إذا علوت الحزن ركعت أي كبوت لوجهي .
[١٠] المير : العطية ، من قولهم : مارم يبرم ميراً . [١١] الكاهر والقاهر : واحد ، وقد قرأ
بعضهم : « فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَكْهَرْ »

ثلاث وخمسين ومائة ، وهو يقول :

« أما بعد : فإننا أبناء سبيل ، وأنضاء^(١) طريق ، وفل^(٢) سنّة ، تصدّقوا علينا ، فإنه لا قليل من الأجر ، ولا غنى عن الله ، ولا عمل بعد الموت ، أما والله إننا لتقوم هذا المقام ، وفي الصدر حَزَازَةٌ^(٣) ، وفي القلب غُصَّةٌ .

(البيان والنبين ٢ : ٤٦)

٣٥ - صورة أخرى

وروى أبو عليّ القالي هذه الخطبة بصورة أخرى ، وهما كما :

عن يُونُسَ قال : وقف أعرابيّ في المسجد الجامع في البصرة فقال :

« قَلَّ الثَّمِيلُ ، وَتَقَصَّ الكَيْلُ ، وَتَحَجَّفتُ^(٤) الخيل ، والله ما أصبحنا ننفخ في وَضَحٍ^(٥) ، وما لنا في الديوان وَشْمَةٌ^(٦) ، وإنا لِمِئَالٍ جَرَبَةٌ^(٧) ، فهل من مُعِينٍ ، أعانه الله ، يُعِينُ ابنَ سبيلٍ ، وَنِضْوَ طريق ، وفلَّ سنّة ؟ فلا قليل من الأجر ، ولا غنى عن الله ، ولا عمل بعد الموت . » (الأمل ٢ : ١٩٧)

٣٦ - صورة أخرى

ورواها صاحب العقدة فقال : وقف أعرابيّ على حلقة يُونُسَ فقال :

« الحمد لله ، وأعوذ بالله ، أن أذكر به وأنساه ، إنا أناس قَدِمْنَا المدينة ثلاثون رجلاً لا ندفن ميتاً ولا نتحول من منزل وإن كرهناه ، فرحم الله عبداً

[١] أنضاء جمع نضو كقرد وهو المهزول ، أي قد هزلنا وأضنانا سلوك الطريق .

[٢] السنّة : الجذب والفتح ، وقوم فلّ : منهزمون ، والجمع فلول وأفلال ، أي هزلنا الفتحة .

[٣] الحزازة : وجع في القلب من غيظ ونحوه . [٤] حجلت : هزلت . [٥] الوضع : اللبن ، سمي

وضحاً لبياضه . [٦] الوشمة : مثل الوشم في الذراع ، يريد الخطّ .

[٧] الجربة : الكثير ، أو الميال يأكلون ولا ينفمون .

تصدق على ابن سبيل ، ونضو طريق ، وفلّ سنة ، فإنه لا قليل من الأجر ، ولا غنى عن الله ، ولا عمل بعد الموت ، يقول الله عز وجل : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » إن الله لا يستقرض من عوز ، ولكن ليبلو خيار عباده .
(العقد الفريد ٢ : ٨٢)

٣٧ - أعرابي يستجدي

وقال المدائني : سمعت أعرابياً يسأل وهو يقول :
«رحم الله امرأ لم تَمُجْ أَذُنَاهُ كَلَامِي ، وَقَدَّمَ لِنَفْسِهِ مَعَاذَةً^(١) مِنْ سَوْءِ مَقَامِي ،
فَإِنَّ الْبِلَادَ مُجْدِبَةٌ ، وَالدَّارَ مُضَيِّعَةٌ ، وَالْحَالَ سَيِّئَةٌ^(٢) ، وَالْحَيَاءَ زَاجِرٌ يَنْهَى عَنِ
كَلَامِكُمْ ، وَالْعُدْمَ عَازِرٌ يَحْمَلُنِي عَلَى إِخْبَارِكُمْ ، وَالِدَعَاءَ إِحْدَى الصَّدَقَتَيْنِ ، فَرَحِمَ
اللَّهُ امْرَأً أَمَرَ بِمَيْرٍ^(٣) ، أَوْ دَعَا بِخَيْرٍ » ، فقال له بعض القوم : مِمَّنَ الرَّجُلُ ؟
فقال : « مِمَّنَ لَا تَنْفَعُكُمْ مَعْرِفَتُهُ ، وَلَا تَضُرُّكُمْ جَهَالَتُهُ ، ذَلِكَ لِأَكْتِسَابِ ، يَمْنَعُ
مِنْ عَزِّ الْاِنْتِسَابِ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢١٧ ، والعقد الفريد ٢ : ٨١ ، والأمالى ١ : ١٣٨)

٣٨ - أعرابي يستجدي

وقال الأصمعي : أصابت الأعراب أعوام جَدْبَةٌ وَشِدَّةٌ وَجَهْدٌ ، فَدَخَلَتْ
طَائِفَةٌ مِنْهُمْ الْبَصْرَةَ وَبَيْنَ يَدَيْهِمْ أَعْرَابِيٌّ وَهُوَ يَقُولُ :
« أَيُّهَا النَّاسُ ، إِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ ، وَشُرَكَائُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ ، عَابِرُ وَسَبِيلٍ ،
وَأَفْلالُ بُؤْسٍ ، وَصَرَعى جَدْبٍ ، تَتَابَعَتْ عَلَيْنَا سِنُونَ ثَلَاثَةٌ ، غَبَّرَتْ^(٤) النَّعْمَ ،

[١] المعاذة والمعاذ والعياذ : الالتجاء . [٢] وفي الأمالى « والحان مسغبة » أى مجيعة .

[٣] مار عياله ميراً : جلب لهم الميرة (بالكسر) وهى الطعام ، وفى العقد : « فرحم الله امرأ يعير ،

وداعياً يجير » . [٤] غبّره لطحه بالفبار ، أو هى « غيرت » بالياء .

وأهلكث النَّمَمَ ، فأكلنا ما بقى من جلودها فوق عظامها ، فلم نزل نعلل بذلك أنفسنا ، ونمنى بالغيث قلوبنا ، حتى عاد مُخْنَا عِظَامًا ، وعاد إشراقنا ظلامًا ، وأقبلنا إليكم يَصْرَعنا الوَعْرُ ، وَيَكِنُّنا ^(١) السهل ، وهذه آثار مصائبنا لأئحة في سماتنا ، فرحم الله متصدقًا من كثير ، وموأسياً من قليل ، فلقد عظمت الحاجة ، وكسف البال ، وبلغ المجهود ، والله يَمْجِزِي المتصدقين .

٣٩ - أعرابي يستجدي

وقال الأصمعي : كنت في حلقة بالبصرة إذ وقف علينا أعرابي سائلاً ، فقال : « أيها الناس ، إن الفقر يهتك الحجاب ، وميزز الكعاب ^(٢) ، وقد حملتنا سنو المصائب ، ونكبات الدهور ، على مَرَكِبِهَا الوَعْرُ ، فواسوا أبا أيتام ، ونضو زمان ، وطريد فاقية ، وطريح هلكة ، رحمكم الله »

٤٠ - أعرابي يستجدي

وقال الأصمعي : وقف أعرابي علينا فقال :

« يا قوم : تابعت علينا سنون بتغير واتقاص ، فاتركت لنا هُبُعًا ولا رُبُعًا ^(٣) ، ولا عافطة ولا نافطة ^(٤) ، ولا ناعية ولا راغية ، فأماتت الزرع ، وقتلت الضرع ، وعندكم من مال الله فضلُ نعمة ، فأعينوني من عطية ما آتاكم الله ، وارحموا أبا أيتام ، ونضو زمان ، فلقد خلقت أقوامًا يمرضون ولا يكفنون

[١] أى يسترنا . [٢] جارية كعاب : نهد ثديها .

[٣] الهبج : الفصيل ينتج في آخر التاج ، والربع : الفصيل ينتج في الربيع ، وهو أول الناج .

[٤] العافطة : النعجة ، من العطف : وهو الضرب ، عفت كضرب : ضطت فهي عافطة ، والعطف

أيضاً : تثير الضأن تنثر بأنوفها كما ينثر الحمار ، والنافطة : العنز ، من النفض ، نفضت العنز كضرب : نثرت بأنفها أو عطست فهي نافطة ، أو لأنها تنفض بيولها : أى تدفعه دفعاً ، أو اللافطة لإنباع للعافطة ، أو

العافطة : الأمة الراعية ، والنافطة : الشاة .

ميتهم ، ولا ينتقلون من منزل وإن كَرِهوه ، ولقد مشيتُ حتى انتعلتُ الدَّماءَ ،
وَجُعْتُ حتى أَكَلْتُ التُّرَى .

٤١ - أعرابية تستجدي

وقال الأصمعي : وقفت أعرابية فقالت :

« يا قوم سَنَّةٌ جَرَدَتْ ، وأيدٍ جُمِدَتْ ، وحالٌ جَهَدَتْ ^(١) ، فهل من فاعلٍ

لخير ، وأميرٍ بِمَيْرٍ؟ رَحِمَ اللهُ من رَحِمَ ، فأقرَضَ من لا يظلم » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٠ - ٨٤)

٤٢ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي بقوم فقال :

« أشكو إليكم أيها المَلَأَ زمانًا ، كَلَحَ في وجهه ، وأناخَ على بَكَلِكَله ، بعد

نعمة من المال ، وثروة من المَالِ ، وَغِبْطَةَ من الحال ، اعتورتني جَدَاثُهُ ^(٢) ، بِنَبْلِ

مصائبه ، عن قِصِيٍّ نوابه ، فما تركألى ناغية ^(٣) أجتدي ضرعها ، ولا رَاغِيَةَ

ارتجى نفعها ، فهل فيكم من مُمِينٍ على صَرْفه ، أو مُعَدِّ ^(٤) على حَتْفه ؟ » ، فرد

القوم عليه ، ولم يُدِيلوه شيئًا ، فأنشأ يقول :

قد ضاع من يأكل من أمثالكم جودًا ، وليس الجودُ من فِعالكم

لا بَارِكَ اللهُ لكم في مالكم ولا أزاح السوء عن عِيَالِكُمْ

فالفقر خيرٌ من صلاح حالكم

[١] جهده المرض كنع : هزله .

[٢] سنة جداء : عملة مجدبة ، والجداء من كل حلوبة : الزاهبة اللبن عن عيب ، والجدودة :

انقلبية اللبن من غير عيب ، والجمع جدائد وجداد . [٣] الناغية : الشاة من الثغاء بالضم ، وهي صوت الغنم ، والراغية : الناقة ، من الرفاء ، وهو صوت الإبل

[٤] معين ، أعداه عليه : نصره وأطانه وقواه .

٤٣ - أعرابي يستجدي

وَسَمِعَ عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ وَهُوَ يَقُولُ :

« يَا قَوْمَ تَصَدَّقُوا عَلَيَّ شَيْخَ مُعِيلٍ ، وَعَابِرَ سَبِيلٍ ، شَهِدَ لَهُ ظَاهِرُهُ ، وَسَمِعَ
شِكْوَاهُ خَالِقُهُ ، بَدَنُهُ مَطْلُوبٌ ، وَثَوْبُهُ مَسْلُوبٌ » ، فَقَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ :
رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَعْدِ فِي دِيَّةٍ لَزِمْتَنِي ، قَالَ : فَكَمْ هِيَ ؟ قَالَ : مِائَةٌ بَعِيرٍ ، قَالَ :
ذُونُكُمَا فِي بَطْنِ الْوَادِي . (العقد الفرید ٢ : ٨٢ - ٨٣)

٤٤ - أعرابي يستجدي

وَوَقَفَ أَعْرَابِي عَلَى قَوْمٍ فَقَالَ :

« إِنَّا - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - أَبْنَاءُ سَبِيلٍ ، وَأَنْضَاءُ طَرِيقٍ وَقَاسِيَةٌ (١) ، رَحِمَ اللَّهُ
امْرَأً أَعْطَى مِنْ سَعَةٍ ، وَوَأَسَى مِنْ كَفَافٍ .
فَأَعْطَاهُ رَجُلٌ دَرَاهِمًا فَقَالَ : « آجَرَكَ اللَّهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَبْتَلِيكَ » .

٤٥ - أعرابي يستجدي

وَوَقَفَ أَعْرَابِي بِقَوْمٍ فَقَالَ :

« يَا قَوْمَ : تَتَابَعْتَ عَلَيْنَا سِنُونَ جَمَادٍ (٢) شِدَادًا ، لَمْ يَكُنْ لِلسَّمَاءِ فِيهَا رَجْعٌ (٣) ،
وَلَا لِلْأَرْضِ فِيهَا صَدْعٌ (٤) ، فَنَضَبَ الْعِدُّ (٥) ، وَنَشَفَ الْوَشْلُ ، وَأَمْحَلَّ الْخِضْبُ ،

[١] أى وحال قاسية ، وربما كان الأصل « وغل سنة » . [٢] الجماد : السنة التي لامطر فيها .

[٣] الرجوع : المطر ، لعوده كل حين . [٤] أى انشقاق عن النبات ، اقتبسه من الآية الكريمة :

« وَالسَّمَاءُ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضُ ذَاتِ الصَّدْعِ » .

[٥] العد : الماء الجاري الذي له مادة لا تنقطع كما العين ، ونضب الماء : غار ، والوشل : الماء القليل

يتحلب من جبل أو صخرة ، ولا يتصل قطره ، ونشف الماء في الأرض : ذهب « ونشف الخوض الماء شربة » وأعمل : أجذب .

وَكَلَّحَ الْجَدْبَ ، وَشَفَّ^(١) الْمَالَ ، وَكَسَفَ الْبَالَ ، وَشَظَفَ الْمَعَاشَ ، وَذَهَبَ
الرِّيَاشُ ، وَطَرَحَتْنِي الْأَيَّامُ إِلَيْكُمْ غَرِيبَ الدَّارِ ، نَائِيَّ الْمَحَلِّ ، لَيْسَ لِي مَالٌ أَرْجِعُ
إِلَيْهِ ، وَلَا عَشِيرَةَ الْحَقِّ بِهَا ، فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأَ رَحِمَ اغْتَرَابِي ، وَجَعَلَ الْمَعْرُوفَ
جَوَابِي . (العقد الفريد ٢ : ٨٠)

٤٦ — أعرابية تستجدي

وخرج المهدي يطوف بعد هدأة^(٢) من الليل ، فَسَمِعَ أعرابية من جانب
المسجد ، وهي تقول :

« قوم متظلمون ، نَبَتَ^(٣) عنهم العيونُ ، وَفَدَحَتَهُمُ الدُّيُونُ ، وَعَصَّتَهُمُ
السَّنُونُ ، بادت رجالهم ، وذهبت أموالهم ، وكثر عيالهم ، أبناء سبيل ، وأنضاء
طريق ، وصية الله وَوَصِيَّةُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فهل من امرئٍ يجير؟
كَأَلَّهَ اللَّهُ فِي سَفَرِهِ ، وَخَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ .
فَأمر نَصِيرًا الخادم ، فدفع إليها خمسمائة درهم .

(العقد الفريد ٢ : ٨٠ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٤٤)

٤٧ — أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي في شهر رمضان على قوم فقال :

« يا قوم : لقد خَتَمَتْ هذه الفريضةُ على أفواهنا من صُبْحِ أَمْسٍ ، ومعى
بنتان لي ، والله ما علمتهما تحللتا بِجَلَالِ ، فهل رجل كريم يَرَحِمُ اليومَ مَقَامَنَا ،
ويرد حُشَاشَتَنَا^(٤) ؟ مَنْعَهُ اللَّهُ أَنْ يَقُومَ مَقَامَهُ ، فَإِنَّهُ مَقَامُ ذُلِّ وَعَارٍ وَصَغَارٍ .

[١] شَفَّ : رَقَّ ، والشظف بالتحريك : يبس العيش وشدته ، والرياش : المال والخصب والمعاش

[٢] أى حين هدأ الليل ، أو هو أول الليل إلى نلته .

[٣] اقتحمتهم وازدرتهم ، وفدحتهم : أثقلتهم .

[٤] الحشاشة : بقية الروح في المريض ، والصغار : الذل .

فاقترق القوم ولم يعطوه شيئاً ، فالتفت إليهم حتى تأملهم جميعاً ، ثم قال :
« أَشَدُّ وَاللَّهِ عَلَيَّ مِنْ سُوءِ حَالِي وَفَاتِي ، تَوَهَّيْ فِيكُمْ الْمَوَاسَاةَ ، اُنْتَعِلُوا الطَّرِيقَ ،
لَا صَجِبِكُمْ اللَّهُ ! » . (القدر الفريد ٢ : ٨٢)

٤٨ - أعرابي يستجدي

وقام أعرابي ليسأل فقال :

« أَيْنَ الْوَجْهُ الصُّبْحُ ^(١) ، وَالْعُقُولُ الصُّبْحُ ، وَالْأَلْسُنُ الْفِصْحُ
وَالْأَنْسَابُ الصُّرْحُ ^(٢) ، وَالْمَكَارِمُ الرِّبَاحُ ، وَالصُّدُورُ الْفِصْحُ ؟ تُعِيذُنِي مِنْ
مَقَامِي هَذَا » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٣٢)

٤٩ - أعرابي يستجدي

ودعا أعرابي في طريق مكة ، فقال :

« هَلْ مِنْ عَائِدٍ بِفَضْلٍ ، أَوْ مُوَاسٍ مِنْ كِفَافٍ ؟ ^(٣) » ، فَأَمْسِكَ عَنْهُ
فَقَالَ : « اللَّهُمَّ لَا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا فَنَعْجِزَ ، وَلَا إِلَى النَّاسِ فَنَضِيعَ » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٤)

٥٠ - أعرابي يستجدي

وقف أعرابي فسأل قوماً فقالوا له : عليك بالصَّيَارِفَةَ ، قَالَ : هُنَاكَ وَاللَّهِ
قَرَارَةُ اللَّوْمِ ! (البيان والتبيين ٢ : ٤٨)

٥١ - أعرابي يستجدي

وسأل أعرابي ناساً فقال : « جَعَلَ اللَّهُ حَظَّكُمْ فِي الْخَيْرِ ، وَلَا جَعَلَ حَظَّ
السَّائِلِ مِنْكُمْ عِذْرَةَ ^(٤) صَادِقَةً » . (البيان والتبيين ١ : ٢١٥)

[١] جمع صبيحة وهي الجميلة من الصبحة كفضاحة أي الجمال . [٢] جمع صريحة وهي الخضة الخالصة
[٣] الكفاف من الرزق : ما كف عن الناس وأغنى . [٤] العذرة : اسم من العذر

٥٢ - أعرابي يستجدي

وسأل أعرابي ، فقال له صبي من جوف الدار : « بُورِكَ فيكَ ، فقال : قَبَّحَ اللهُ هذا القَمَمَ ، لقد تعلم الشرَّ صغيراً » . (البيان والتبيين ٣ : ١٣٦)

٥٣ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي على قوم فنعوه ، فقال :

« اللهم اشغَلْنَا بِذِكْرِكَ ، وأَعِدْنَا مِنْ سُخْطِكَ ، وأولِجْنَا إِلَى عَفْوِكَ ، فقد ضَنَّ خَلْقَكَ بِرِزْقِكَ ، فلا تَشغَلْنَا بِمَا عِنْدَهُمْ عَنْ طَلْبِ مَا عِنْدَكَ ، وآتِنَا مِنَ الدُّنْيَا القُنُوعَانَ ^(١) ، وإن كَانَ كَثِيرَهَا يُسْخِطُكَ ، فلا خَيْرَ فِيمَا يُسْخِطُكَ » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٤)

٥٤ - أعرابي يستجدي

وقال أبو الحسن : وقف علينا أعرابي فقال :

« أخ في كتاب الله ، وجار في بلاد الله ، وطالبٌ خيرٍ من رزق الله ، فهل فيكم من مؤاسٍ في الله ؟ » .
وسأل أعرابي رجلاً ، فاعتلَّ عليه فقال : « إن كنت كاذباً ، فجعلك الله صادقاً » . (العقد الفريد ٢ : ٨٤)

٥٥ - أعرابي يسأل رجلاً حاجة له

أتى أعرابي رجلاً (لم تكن بينه وبينه حُرْمَةٌ) في حاجة له ، فقال :

« إني امتطيتُ إليك الرجاءَ ، وَسِرَّتْ عَلَى الأملِ ، ووفَدتُ بالشكرِ ، وتوسَّلْتُ بحسن الظنِّ ، فحَقَّقَ الأملُ ، وَأَحْسِنِ المَثُوبَةَ ، وأَكْرِمِ القَصْدَ ، وأتِمِّمِ الوَدَّ ، وَعَجِّلِ المُرَادَ » . (العقد الفريد ٢ : ٨٢ ، وزهر الآداب ٣ : ١٦٥)

قولهم في بكاء الموتي

٥٦ - أعرابية تبكي ابنها

وَحَجَّتْ أَعْرَابِيَّةٌ وَمَعَهَا ابْنٌ لَهَا فَأُصِيبَتْ بِهِ ، فَلَمَّا دُفِنَ قَامَتْ عَلَى قَبْرِهِ وَهِيَ

وَجَعَةٌ فَقَالَتْ :

« وَاللَّهِ يَا بُنَيَّ لَقَدْ غَدَوْتُكَ رَضِيْعًا ، وَفَقَدْتُكَ سَرِيْعًا ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَالِيْنَ مَدَّةٌ أَلْتَدُّ بِعَيْشِكَ فِيهَا ، فَأَصْبَحْتَ بَعْدَ النَّضَارَةِ وَالنَّضَارَةِ ^(١) ، وَرَوْنُقِ الْحَيَاةِ ، وَالتَّنَشُّمِ فِي طَيْبِ رَوَائِحِهَا ، تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَّرَى جَسَدًا هَامِدًا ، وَرُفَاتًا مَسْحِيْقًا ، وَصَعِيْدًا جُرْمًا ^(٢) .

أَيُّ بَنِي لَقَدْ سَحَبْتَ الدُّنْيَا عَلَيْكَ أَذْيَالَ الْفَنَاءِ ، وَأَسْكَنْتَكَ دَارَ الْبَلِيِّ ، وَرَمَتْنِي بِعَدِكَ نَكْبَةَ الرَّدَى ، أَيُّ بَنِي لَقَدْ أَسْفَرَ لِي عَنْ وَجْهِ الدُّنْيَا صَبَاحُ دَاجٍ ظَلَامُهُ ^(٣) ، ثُمَّ قَالَتْ :

أَيُّ رَبِّ ، وَمِنْكَ الْعَدْلُ ، وَمِنْ خَلْقِكَ الْجَوْرُ ، وَهَبْتَهُ لِي قُرَّةَ عَيْنٍ ، فَلَمْ تَمْتَعْنِي بِهِ كَثِيرًا ، بَلْ سَلَبْتَنِيهِ وَشِيكًا ^(٤) ، ثُمَّ أَمَرْتَنِي بِالصَّبْرِ ، وَوَعَدْتَنِي عَلَيْهِ الْأَجْرَ ، فَصَدَّقْتُ وَعْدَكَ ، وَرَضِيْتُ قَضَاءَكَ ، فَارْحَمِ اللَّهَ مِنْ تَرْحَمِ عَلَيَّ مِنْ أَسْتَوْدَعْتَهُ الرَّذْمَ ^(٥) ، وَوَسَّدْتُهُ الثَّرَى ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ غُرْبَتَهُ ، وَآسِنِ وَحْشَتَهُ ، وَأَسْتُرْ عَوْرَتَهُ ، يَوْمَ تَنْكَشِفُ الْهَنَاتُ ^(٦) وَالسُّوْءَاتُ .

[١] النضارة : النعمة والحسن والنفى ، والنضارة أيضاً : النعمة والسعة والخصب :

[٢] أطباق جمع طبق : وهو وجه الأرض ، والرفات : الحطام ، وسحيقاً : مسحوقاً ، والصعيد : التراب ، أو وجه الأرض ، وأرض جزز : لانتبت ، أو أكل نباتها ، أو لم يصبها مطر .

[٣] أسفر الصبح وسفر كضرب : أضاء وأشرق ، داج : قال الأصمعي : دجا الليل ، لأنما هو ألبس

كل شيء ، وليس هو من الظلمة ، قال : ومه قولهم : دجا الإسلام أي قوى ، وألبس كل شيء .

[٤] سريعاً . [٥] الردم : السد ، وما يسقط من الجدار المتهدم . [٦] السيئات .

فلما أرادت الرجوع إلى أهلها وقفت على قبره فقالت :
 أى بنى : إني قد تروّدت لسفري ، فليت شعري ، ماذا لك لبعد طريقك ،
 ويوم معادك ! اللهم إني أسألك له الرضا برضاي عنه ، ثم قالت :
 استودعتك من استودعنيك في أحشائي جنيناً ، وأكّل الوالدات !
 ما أمض^(١) حرارة قلوبهن ، وأقلق مضاجعهن ، وأطول ليلهن ، وأقصر
 نهارهن ، وأقل أنسهن ، وأشدّ وحشتهن ، وأبعدهن من السرور ، وأقربهن
 من الأحزان .

فلم تزل تقول هذا ونحوه ، حتى أبكت كل من سمعها ، وحمدت الله عزّ
 وجل ، واسترجعت وصلت ركعات عند قبره وانطلقت . (زهر الآداب ٢ : ٧)

٥٧ — حديث امرأة سكنت البادية قريباً من قبور أهلها

وروى أبو علي القالي : عن عبد الرحمن عن عمه قال :

« دَقَمْتُ يوماً في تلهشي بالبادية إلى وادٍ خلاء لا أنيس به إلا بيتٌ مُعْتَنَزٌ^(٢) ،
 بفنائها أعزُّ ، وقد ظممت فيمّمته ، فسأمت فإذا عجوزٌ قد برزت ، كأنها نعامَةٌ
 راحِمٌ^(٣) ، فقلت : هل من ماء ؟ فقالت : أو لبن ، فقلت : ما كانت بُغيتي إلا
 الماء ، فإذا يسّر الله اللبن فإني إليه فقير ، فقامت إلى قعب^(٤) فأفرغت فيه ماءً ،
 ونظّفت غسله ، ثم جاءت إلى الأعز ، فتغبرّتهن^(٥) حتى احتلبت قراب^(٦) »

[١] مضه الشيء : بلغ من قلبه الحزن به كآمضه .

[٢] منفرد . [٣] الراحم : التي تحضن بيضها ، أو جبة على بيضها ورخته ، ورخت عليه

فهو مرخم وراخم . [٤] القعب : قذح إلى الصغر ، ويشبه به المانر .

[٥] أي احتلبت الغبر (كقفل) : وهي بقية اللبن في الفرع ، وجمعه أغبار .

[٦] قراب وقريب واحد ، مثل كبار وكبير وجسام وجسيم

مِلءِ القَعْبِ ، ثم أفرغت عليه ماء حتى رغا وطففت مُمَالَتَهُ (١) ، كأنها غمامة
بيضاء ، ثم ناولتني إياه ، فشربت حتى تحببت (٢) رِيًّا واطمأنتت ، فقلت :
إني أراك معتزةً في هذا الوادي الموحش ، والحلَّةُ (٣) منك قريب ، فلو
انضمت إلى جنابهم فأنست بهم ! فقالت :

« يابن أخى ، إني لآنسُ بالوَحْشَةِ ، وأستريح إلى الوَحْدَةِ ، ويطمئن قلبي
إلى هذا الوادي الموحش ، فأتذكر مَنْ عَهَدْتُ ، فكأنى أخاطب أعيانهم ،
وَأَتَرَاءِى أشباحهم (٤) ، وَتَتَخَيَّلُ لى أُنْدِيَّةُ رجالهم ، وَمَلَاعِبُ وَلَدَانِهِمْ ،
وَمُنْدَى (٥) أموالهم ، والله يابن أخى لقد رأيت هذا الوادي بِشِعِ اللِّدَيْنِ (٦)
بأهل أدواح وقياب ، وَنَعَمِ كَالهَضَابِ ، وخيل كالذئاب ، وفتيان كالرماح ،
يبارون الرياح ، وَيَحْمُونَ الصَّبَاحَ (٧) ، فأحال عليهم الجلاء قَمًّا بِغَرْفَةِ (٨) ،
فأصبحت الآثارُ دَارِسَةً ، وَالْمَحَالُ طَامِسَةً ، وكذلك سيرة الدهر فيمن وثق به »
ثم قالت : ازم بعينك في هذا الملا المتباطن (٩) ، فنظرت فإذا قبورٌ نحو
أربعين أو خمسين ، فقالت : ألا ترى تلك الأجدات ؟ قلت نعم ، قالت :
ما انطوت إلا على أخٍ أو ابن أخٍ ، أو عمٍّ أو ابن عمٍّ ، فأصبحوا قد ألمأت (١٠)
عليهم الأرضُ ، وأنا أترب ما غالهم ، انصرف راشداً رَحِمَكَ اللهُ . (الأمل ٢: ٧)

[١] الثمالة : الرغوة « وهي مثلثة الراء » . [٢] امتلأت . [٣] الحلة : جماعة بيوت الناس
والجمع حلال ككتاب . [٤] أشخاصهم جمع شبح كشمس وسبب .
[٥] التندية : أن يورد الرجل لابه ، ثم يرحاها ، ثم يوردها ، ثم يرحاها ، والندى : المكان الذى
يندى فيه المال . [٦] بشع : ملائ ، اللديان : الجانبان ، والدوحة : الشجرة العظيمة .
[٧] الصباح جمع صبيحة : وهي الجميلة من الصباحة كسحابة : الجمال .
[٨] قم البيت قما : كفسه « والقمة : المكنسة ، والقمامة : الكاسية » والغرفة الواحدة من
المغرف : وهي ضرب من الشجر . [٩] الملا : الفضاء ، والمتباطن : المتطامن .
[١٠] أى احتوت عليهم ، وغالهم : أهلكهم .

٥٨ - حديث امرأة مات ابنها بين يديها

عن عبد الرحمن عن عمه قال : دخلتُ على امرأة من العرب بأعلى الأرض في خِباء لها ، وبين يديها مِئْتَةٌ لها ، قد نزل به الموت ، فقامت إليه فأغمضته وَعَصَبْتَهُ وَسَجَّته (١) ، ثم قالت :

« يابن أخى ، قلت : ماتشائين ؟ قالت : ما أحقُّ من ألبسِ النعمة ، وأطيلت له النَّظْرَةَ (٢) ، أن لا يدَعَ التوثُق من نفسه ، قبل حلِّ عُقْدته (٣) ، والحُلُولِ بِعَقْوته (٤) ، وَالْمَحَالَةِ بينه وبين نفسه » ، قال : وما يَقْطُر من عينها قطرةٌ صبراً واحتساباً ، ثم نظرت إليه فقالت : والله ما كَانَ مَالِكٍ لِبَطْنِكَ ، ولا أَمْرِكَ لِعَرْسِكَ (٥) ، ثم أنشدت تقول :

رَحِيبُ الذَّرَاعِ بِالنِّى لا تَشِينُهُ
وَإِنْ كَانَتْ الْفَحْشَاءُ ضَاقَ بِهَا ذَرَعًا (٦)

(الأملأ ٢ : ٢٨٢ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣١)

قولهم فى الشكوى

٥٩ - أعرابى يشكو حاله

عن عبد الرحمن عن عمه قال :

« قَدِمَ علينا البصرة رجل من أهل البادية شيخ كبير ، فقصدته فوجدته يَخْضِبُ لِحْتَهُ ، فقال : ما حاجتك ؟ فقلت : بلغنى ما خَصَّكَ الله به ، فجتتك أقتبس من علمك ، فقال : أتيتنى وأنا أخضِبُ ، وإن الخِضَابَ لمن علامات الكِبَرِ ، وطال والله ما غَدَوْتُ على صيد الوحوش ، ومشيتُ أمامَ الجيوش

[١] تسجية الميت : تعطينته . [٢] النظرة : الإمهال . [٣] كناية عن الموت .

[٤] العقوة : الحلة ، أى بقره . [٥] العرس : امرأة الرجل .

[٦] ضاق بالأمر ذرعا : ضمت طاقته ، ولم يجد من المكروه فيه مخلصاً .

واختَلتُ بِالرِّدَاءِ ، وَهُوتُ^(١) بالنِّسَاءِ ، وَقَرَّيْتُ الضَّيْفَ ، وَأُرْوَيْتُ السَّيْفَ ،
وَشَرَبْتُ الرِّيحَ ، وَنَادَمْتُ الْجَحْجَاحَ^(٢) ، فَالْيَوْمَ قَدْ حَنَانِي الْكَبِيرَ ، وَضَعُفُ
مَنِي الْبَصْرِ ، وَجَاءَ بَعْدَ الصَّفْوِ الْكَدْرُ ، ثُمَّ قَبِضَ عَلَى لِحْيَتِهِ ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

شَيْبٌ تُغَيِّبُهُ كَيْمَا تَغْرُّ بِهِ كَبِيمِكِ الثَّوْبَ مَطْوِيًّا عَلَى حَرَقِ

قَد كُنْتُ كَالْمُغْضَنِ تَرْتَاحُ الرِّيحُ لَهُ فَصِرْتُ عُوْدًا بِلَامَاءِ وَلَا وَرَقِ

صَبْرًا عَلَى الدَّهْرِ ، إِنَّ الدَّهْرَ ذُو غَيْرٍ وَأَهْلُهُ مِنْهُ بَيْنَ الصَّفْوِ وَالرَّاقِ^(٣)

(الأمل : ٢ : ٩٤)

٦٠ - كلمات شتى في الشكوى

قيل لأعرابية أصيبت بابنها : ما أحسنَ عَزَاءِكَ ! قالت : « إن فَقَدِي إِيَاهُ
أَمَّنِّي كُلَّ فَقْدٍ سِوَاهُ ، وَإِنْ مَصِيبَتِي بِهِ هَوَّاتِ عَلَيَّ الْمَصَائِبَ بَعْدَهُ » ، ثُمَّ
أَنْشَأَتْ تَقُولُ :

مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ فَلْيَمُتْ فَعَلَيْكَ كُنْتُ أَحَازِرُ

لَيْتَ الْمَنَازِلَ وَالذِّيَا رَ حَقَّائِرُهُ وَمَقَابِرُهُ



وقيل لأعرابي : كيف حزنك على ولدك ؟ قال : « ما تركَ هَمُّ الْغَدَاءِ وَالْعِشَاءِ

لِي حُزْنًا » .



وقيل لأعرابي : ما أنحلَّ جِسْمُكَ ؟ قال : « سِوَى الْغَدَاءِ ، وَجُدُوبَةِ الْمَرْعَى ،

وَإِخْتِلَافِ الْهَمُومِ فِي صَدْرِي » ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

الهمُّ ما لم تُتَمَّضِهُ لسبيله داله تَضَمَّنَه الضلوعُ عَظِيمُ
ولربما استيأستُ ثم أقول : لا إن الذي ضَمِنَ النجاحَ كريمُ

❖❖

وقيل لأعرابي قد أخذ به السنُّ : كيف أصبحتَ ؟ قال : « أصبحتُ
تقيَّدني الشَّعْرَةُ ، وَأَعْتُرني البُعْرَةُ ، قد أقام الدهر صَعْرِي ، بعد أن أقتُ صَعْرَه » .

❖❖

وقال أعرابي : « لقد كنتُ أنكرُ البيضاء ، فصيرتُ أنكرِ السوداء ،
فياخير مبدول ، وياشرَّ بدَل ! » .

❖❖

وذكر أعرابي منزلاً بادَ أهله فقال : « منزلُ اللهِ رحلت عنه رباتُ
الخدُّور ، وأقامت فيه رَواحِلُ^(١) القدُّور ، وقد اكتسى بالنبات كأنما البس
الحُمَّل ، وكان أهله يَمَقُون^(٢) فيه آثارَ الرياح ، وأصبحت الريح تَعْفُو آثارهم ،
فالمهد قريب ، والملتقى بعيد » .

❖❖

وذكر أعرابي قوما تغيرت أحوالهم فقال : « أعينُ اللهِ كحلت بالعبرة
بعد الحَبْرَة^(٣) ، وَأَنْفُسُ لَبِسَتِ الحزن بعد السرور » .

❖❖

وذكر أعرابي قوما تغيرت حالهم فقال : « كانوا والله في عيشٍ رقيق
الحواشي ، فطواه الدهر بعد سعة ، حتى لبسوا أيديهم من القُرِّ^(٤) ، ولم أرَ صاحباً

[١] الرواحل جمع راحلة : وهي في الأصل : الناقة الصالحة لأن ترحل ، والمراد هنا الحوامل التي تحمل
القدور ، أي الأثافي . [٢] عفا المنزلة : درس ، وعفته الريح ، يتعدى ويلزم ، وبإيهما عدا ،
ودفته الريح أيضاً بالتشديد للبالغة . [٣] الحبرة : السرور . [٤] القرّ مثلث القاف : البرد .

أغرَّ من الدنيا ، ولا ظالماً أغشم^(١) من الموت ، ومن عصَّف عليه الليل والنهار
أزدياه^(٢) ، ومَنْ وَكَلَّ به الموتُ أفناه .



ووقف أعرابي على دار قد باد أهلها فقال : « دارٌ واللهِ مُتَصِرَةٌ للدهوع ،
حطَّت بها السحابُ أثقالها ، وجرتُ بها الرياحُ أذيالها » .



وذكر أعرابي رجلاً تغيرت حاله فقال : « طُوِيَتْ صحيفته ، وذهب رزقه ،
فالبلاء مُسرِعٌ إليه ، وَالْعَيْشُ عنه قابضٌ كَفَيْهِ » .



وذكر أعرابي رجلاً ضاق عيشه بعد سعة فقال : « كَانَ وَاللهِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ
ممدود ، فَقُدِحَتْ عليه من الدهر زَنْدٌ غيرُ كَابِيَةٍ^(٣) » .

(المقد الفريد ٢ : ٧٩ - ٨٠)



وذكر أعرابي مصيبة نالته ، فقال : « مُصِيبَةٌ وَاللهِ تَرَكْتُ سُودَ الرءوسِ
بييضاً ، وَبِيضَ الوجوهِ سُوداً ، وَهُوَ نَتِ المصائبِ بعدها » .

(المقد الفريد ٢ : ٧٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٥)



وذكر أعرابي قَطِيعَةً بعض إخوانه فقال : « صَفَرْتُ عِيَابُ^(٤) الود بيني
وبينه بعد امتلائها ، وَأَفْقَرْتُ وجوهُ كَانَتْ بِمَاءِهَا ، فَأَذْبَرْتُ مَا كَانَ مُقْبِلاً ،
وأقبل ما كَانَ مدبراً » .

(المقد الفريد ٢ : ٧٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٤)

[١] أظلم . [٢] أهلكاه . [٣] الزند : العود الذي يقدح به النار ، وكبا الزند : لم يخرج
ناره ، وفي الأصل « زند عين كابية » وهو تحريف .
[٤] صفرت : خلت ، وعياب جمع عيبة بالفتح : ما يجعل فيه الثياب .



وقيل لأعرابي : ما أذهبَ شبابك ؟ قال : « من طال أمدُّه ، وكثر ولَدُه ،
وَدَفَّ عَدَدُه ، وَذَهَبَ جَلَدُه ، ذهبَ شبابهُ » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ ، والبيان والتبيين ٢ : ٥٧)



وسئل أعرابي عن سَفَرٍ أَكْدَى^(١) فيه ، فقال : « ما غَنِمنا إلا ما قَصَرنا في
صلاتنا ، فأما ما أكلته الهواجر^(٢) ، وَلَقِيته منا الأباغر ، فَأَمْرٌ اسْتَخَفناهِ لِمَا
أَمَلناهُ » .



وقالت امرأة من الأعراب : « أصبحنا ما يرقد لنا فرَس ، وما ينام لنا حَرَس » .

(البيان والتبيين ٢ : ٨٢)



وقال أعرابي : « مضى لنا سَلَفٌ أهل تَوَاصُل ، اعتقدوا^(٣) مِننا ، واتخذوا
الأيادي ذخيرةً لمن بعدهم ، يَرَوْنَ اصطناع المعروف عليهم فرَضاً لازماً ، وإظهارَ
البرِّ واجباً ، ثم جاء الزمان بينينَ ، اتخذوا مِنهم بضاعة ، وَبَرَّهم مُرَابَحةً^(٤) ، وأيادِيهم
تجارة ، واصطناعَ المعروف مُقارَضةً ، كَنَقْدٍ ، خُذْ مني وهاتِ » .



وقيل لأعرابي في مرضه : ما تشكى ؟ قال : « تمام العِدَّة ، وانقضاء المدة » .



ونظر أعرابي إلى رجل يشكو ما هو فيه من الضيق والضرِّ فقال : « يا هذا :

أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ؟ » . (العقد الفريد ٢ : ٨٥)

[١] أصله من « حفر فأكدى » أى صادف الكدية - والكدية كفرصة : الأرض الغليظة ،
والصفاة العظيمة الشديدة . [٢] الهواجر جمع هاجرة ، وهى شدة الحرِّ .
[٣] من اعتقد مالا : اقتناه . [٤] رابحه على السلعة : أعطاه ربحاً .



ووصف أعرابي الدنيا فقال : « هي رَنَقَةٌ ^(١) المشارب ، حَمَّةُ المصائب ، لا تُتَمَعُّكَ الدهرَ بصاحب » .



وقال أعرابي : « حَسْبُكَ من فساد الدنيا أنك ترى أَسْنِمَةً ^(٢) تُؤْضَعُ ، وأخفافاً تُرْفَعُ ، والخير يُطَلَّبُ عند غير أهله ، والفقير قد حلَّ غير محلِّه » .
(القمد الفريد ٢ : ٨٦)



وقيل لأعرابي : كيف ابْتُك - وكان به عاقاً - قال : « عذابٌ لا يقاومه الصَّبْرُ ، وفائدة لا يجب فيها الشكر ، فليتني قد استودعته القبر » .
(القمد الفريد ٢ : ٩٧)



عن الأصمعي قال : قيل لأعرابي قَدِمَ الحَضْرَةَ ^(٣) ، ما أقدَمَكَ ؟ قال :
« الحَيْنُ ^(٤) ، الذي يُغَطِّي العَيْنَ » . (الأمل ١ : ٢٠٢)



وأصيب أعرابي بآبن له ، فقال وقد قيل له أصبر : « أعلَى الله أتمجِّدُ ، أم في مصيبتى أتبلِّدُ ؟ والله للجزع من أمره أحبُّ إلىَّ الآن من الصبر ، لأن الجزع استكانة ، والصبر قساوة ، ولئن لم أجزع من النقص لم أفرح بالمزيد » .
(زمر الآداب ٣ : ١٦٤)



وقيل لأعرابي : لمَ لا تَضْرِبُ في الأرض ؟ فقال : « ينعني من ذلك ، طفلُ بارِكُ ، وإصِّ سافِكُ ، ثم إنى لست بعد ذلك واثقاً بِنُجْحِ طَلْبَتِي ، ولا معتقداً

[١] كدرة . [٢] جمع سنام ، والمراد ما كان طالِباً .

[٣] الحضرة : خلاف البادية كالحفر بالتحريك . [٤] الهلاك .

قضاء حاجتي ، ولا راجياً عطف قرابتي ، لأنني أقدم على قوم أطغام الشيطان ،
واستألمهم السلطان ، وساعدم الزمان ، وأسكركم حدائمة الأسنان .

(زهر الآداب ٣ : ٢٤٤)

وقال بعض الأعراب : « نالنا وشي^(١) ، وخلفه ولي^(٢) ، فالأرض كأنها
وشي^(٣) عبقرى^(٤) ، ثم أتتنا غيوم جراد^(٥) ، بمناجل حواد^(٦) ، فخربت البلاد ،
وأهلك العباد ، فسبحان من يهلك القوى الأكل^(٧) ، بالضعيف المأكول .»

(زهر الآداب ٣ : ٣٤٦)

٦١ - قولهم في العتاب والاعتذار

عاب أعرابي أباه فقال : « يا أبت ، إن عظيم حقدك علي لا يذهب صغير
حقي عليك ، والذي تمت به^(١) إلى ، أمت بئله إليك ، ولست أزعم أنا سواي ،
ولكني أقول : لا يحل لك الاعتداء .»

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، وزهر الآداب ٣ : ١٠٠)

وقال أعرابي لصديق استبطأه فلأمه : « كانت بي إليك زلة^(١) يمنعني من
ذكرها ما أمّلت من تجاوزك عنها ، وليس أعتذر^(٢) إليك منها إلا بالاقلاع عنها .»

وقال آخر لابن عم له : « والله ما أعرف تقصيراً فأقلع ، ولا ذنباً فأعتب ،
ولست أقول إنك كذبت ، ولا إنني أذنبت .» (زهر الآداب ٣ : ١٦٢)

[١] الوسمى : مطر الربيع الأول ، والولى : المطر الذى يأتي بعد المطر .

[٢] الوشى : نقش الثوب ، والعبقرى : المنقطع النظير ، نسبة إلى عبقر ، موضع تزعم العرب أنه من

أرض الجن ، ثم نسبوا إليه كل شيء تعجبوا من خلقه ، أو جودة صنعه .

[٣] المناجل جمع منجل كبير : حديدة يقضب بها الزرع ، وحواد جمع حادة : أى قاطعة ، وفي الأصل

« حراد » وأراه محرفاً . [٤] تنوسل .



وقال آخر لابن عمّ له : « سأتحطّي ذنبك إلى عُذرك ، وإن كنتُ من أحدهما على يقين ، ومن الآخر على شكّ ، ولكن ليتمّ المعروف مني إليك ، وتقوم الحجة لي عليك » . (زهر الآداب ٣ : ١٦٤ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٥)



وَعَدَلتُ أعرابية أباهما في الجُود وإتلاف ماله ، فقالت : « حبسُ المال ، أنفع للعِيال ، مِنْ بَدَلِ الوجه في السؤال ، فقد قلَّ النوال ، وكثر البُخَال ، وقد أتلفتَ الطارف والتلاد ، وبقيت تطلبُ ما في أيدي العباد ، ومن لم يحفظ ما ينفعه ، أو شك أن يسعى فيما يضرّه » . (زهر الآداب ٣ : ٣٤٦)

٦٢ - قولهم في المدح

دخل أعرابي على بعض الملوك فقال : « رأيتني فيما أتعاطى من مدحك ، كالأخبر عن ضوء النهار الباهر ، والقمر الزاهر ، الذي لا يخفى على الناظر ، وأيقنت أني حيثُ انتهى بن القول ، منسوبٌ إلى العجز ، مُقَصَّر عن الغاية ، فانصرفت عن الثناء عليك ، إلى الدعاء لك ، ووَكَلتُ الإخبار عنك ، إلى علم الناس بك » . (الأمل ٢ : ٧٣)



وأثنى أعرابي على رجل فقال : « إن خيرك لَسَرِيحٌ ^(١) ، وإن منعك لمريح ، وإن رفدك لرييح » . (البيان والتبيين ٢ : ١٠٥)



عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً من بني كلاب يذكر رجلاً

[١] أي عطاء بلا مطل ولا إبطاء ، ومرح : أي من كدة الطلب .

فقال : « كَانَ وَاللَّهِ الْفَهْمُ مِنْهُ ذَا أَذْنَيْنِ ، وَالْجَوَابُ ذَا لِسَانَيْنِ ، لَمْ أَرَأِ أَحَدًا كَانَ أَرْثَقَ لِحْلَلٍ رَأَى مِنْهُ ، وَلَا أَبْعَدَ مَسَافَةَ رَوِيَّةٍ ، وَمُرَادٌ ^(١) طَرْفٌ ، إِنَّمَا يَرْمِي بِهِمْتَهُ حَيْثُ أَشَارَ إِلَيْهِ الْكِرْمُ ، وَمَا زَالَ وَاللَّهِ يَتَحَسَّى مَرَارَةَ أَخْلَاقِ الْإِخْوَانِ ، وَيُسْقِيهِمْ عُذُوبَةَ أَخْلَاقِهِ » . (الأمل : ١٦ : ٢ ، والعقد الفريد : ٨٩ : ٢ ، وزهر الآداب : ٣ : ٢)



وقال : سمعت أعرابياً ذكر رجلاً فقال : « كَانَ وَاللَّهِ لِلْإِخَاءِ وَصُولًا ، وَلِلْمَالِ بَدُولًا ، وَكَانَ الْوَفَاءَ بِهِمَا عَلَيْهِ كَفِيلًا ، وَمَنْ فَاصَلَّهُ كَانَ مَفْضُولًا » .

(الأمل : ١ : ١١٦ ، والعقد الفريد : ٨٩ : ٢)



ووصف أعرابي رجلاً فقال : « ذَاكَ وَاللَّهِ مِمَّنْ يَنْفَعُ سَلْمَهُ ، وَيَتَوَاصَفُ حِمْلُهُ ، وَلَا يُسْتَمَرُّ ^(٢) ظَلْمُهُ ، إِنْ قَالَ فَعَلْ ، وَإِنْ وَلِيَ عَدْلٌ » .

(البيان والتبيين : ٢ : ١٥٨ ، والعقد الفريد : ٨٩ : ٢ ، وزهر الآداب : ٣ : ٢)



وذكر أعرابي قومًا فقال : « أَدَّبْتَهُمُ الْحِكْمَةُ ، وَأَحْكَمْتَهُمُ التَّجَارِبُ ، وَلَمْ تَغْرُرْهُمُ السَّلَامَةُ الْمَنْطُويَّةُ عَلَى الْهَلَكَةِ ، وَجَانِبُوا التَّسْوِيفَ الَّذِي بِهِ قَطَعَ النَّاسُ مَسَافَةَ آجَالِهِمْ ، فَذَلَّتْ أَلْسِنَتُهُمْ بِالْوَعْدِ ، وَانْبَسَطَتْ أَيْدِيهِمْ بِالْإِنْجَازِ ، فَأَحْسَنُوا الْمَقَالَ ، وَشَفَعُوهُ بِالْفِعَالِ » .

(الأمل : ٢ : ٢٣ ، والبيان والتبيين : ٣ : ٢٢١ ، والعقد الفريد : ٨٨ : ٢)



عن عبد الرحمن عن عمه قال : وصفت أعرابية زوجها بمكارم الأخلاق عند أمها ، فقالت : « يَا أُمَّةٌ ، مِنْ نَشَرَ ثَوْبَ الثَّنَاءِ ، فَقَدْ أَدَّى وَاجِبَ الْجَزَاءِ ، وَفِي

[١] زياد الإبل : اختلافها في الرعي مقبلة ومدبرة ، والموضع مراد ومستراد .

[٢] لا يستطاب ، من استمرأ الطعام : وجده مرثياً أى هنيئاً حميد الغبة .

كِتْمَانِ الشُّكْرِ جُحُودٌ لِمَا وَجِبَ مِنَ الْحَقِّ ، وَدُخُولٌ فِي كُفْرِ النَّعْمِ » ، فَقَالَتْ لَهَا أُمُّهَا : « أَيُّ بُنْيَاةٍ : أَطَبَّتِ الثَّنَاءَ ، وَقَتَّ بِالْجُزْءِ ، وَلَمْ تَدْعِي لِلذَّمِّ مَوْضِعًا ، إِنِّي وَجَدْتُ مَنْ عَقَلَ ، لَمْ يَعْجَلْ بِذَمِّ وَلَا ثَنَاءٍ إِلَّا بَعْدَ اخْتِبَارٍ » ، فَقَالَتْ : « يَا أُمَّهُ ، مَا مَدَحْتُ حَتَّى اخْتَبَرْتُ ، وَلَا وَصَفْتُ حَتَّى عَرَفْتُ » .
(الأملی ١ : ٢٢٥)



ووصف بعض الأعراب أميراً فقال : « إذا أوعد آخر ، وإذا وعدَ عجَّل ، وَعَيْدُهُ عَفْوٌ ، وَوَعْدُهُ إِنْجَازٌ » . (البيان والتبيين ٣ : ٢١٧)



ونعت أعرابي رجلاً فقال : « كَانَ الْأَلْسُنَ وَالْقُلُوبَ رِيضَتْ لَهُ ، فَسَا تَنْعِدُ إِلَّا عَلَى وَدِّهِ ، وَلَا تَنْطِقُ إِلَّا بِحَمْدِهِ » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، والمقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٣)



وذکر رجل عند أعرابي فوقع فيه قوم فقال : « أَمَا وَاللَّهِ إِنَّهُ لَا كَلْمَ لَكُمْ فَلَمَّا دُومَ ، وَأَعْطَاكُمْ لِلْمَغْرُومِ (١) ، وَأَكْسَبَكُمْ لِلْمَعْدُومِ ، وَأَعْطَفَكُمْ عَلَى الْمَحْرُومِ » .
(الأملی ٢ : ١٦ ، والبيان والتبيين ١ : ١٦٣)



وأعطى رجل أعرابياً فأكثر له ، فقال له الأعرابي : « إِنْ كُنْتَ جَاوَزْتَ قَدْرِي عِنْدَ نَفْسِي ، فَقَدْ بَلَغْتَ أَمَلِي فِيكَ » . (الأملی ٢ : ٥٠)



ومدح أعرابي رجلاً فقال : « كَانَ وَاللَّهِ يُعْنَى (٢) فِي طَلَبِ الْمَسْكَارِمِ ، غَيْرَ ضَالٍّ فِي مَعَارِجِ طَرَفِهَا ، وَلَا مَشَاغِلَ عَنْهَا بِزَيْرِهَا » .
(الأملی ٢ : ٥٠ ، والمقد الفريد ٢ : ٨٩)

[١] أي للمال المغرور ، فن لزمه غرم حمله عنه . [٢] أي يتعب وينصب .

ودخل أعرابي على رجل من الولاة فقال : « أصلح الله الأمير : اجعلني زماماً من أزممتك يُجربها الأعداء ، فإنني مسعر حرب^(١) ، وركاب نُجيب ، شديد على الأعداء ، لئن على الأصدقاء ، منطوى الحصىلة^(٢) ، قليل الثميلة ، غرار النوم ، قد غذتني الحرب بأفاويقها^(٣) ، وحلبت الدهر أشطره ، ولا تمنعك مني الدمامة^(٤) ، فإن من تحتها شهامة » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٣ : ١٨٠)



ومدح أعرابي رجلاً فقال : « ذك والله فسيح الأدب ، مستحكم السبب ، من أي أقطاره أتيتّه ، تثنى عليه بكرم فعال ، وحسن مقال » .

(زهر الآداب ٢ : ٦ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٩)



ومدح أعرابي رجلاً فقال « كان والله يعسيل من العار وجوهاً مسوودة ، ويفتح من الرأي عيوناً منسدة » . (العقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٣ : ١٦٥)



وذكر أعرابي قوماً عباداً فقال : « تركوا والله النعيم ليتنعموا ، لهم عبرات متدافقة ، وزقرات متتابعة ، لا تراهم إلا في وجهه وجهه عند الله » .



وذكر أعرابي قوماً فقال : « ما رأيت أسرع إلى دافع بليل ، على فرس حسيب ، وجمل نجيب^(٥) ، ثم لا ينتظر الأول السابق ، الآخر اللاحق » .

[١] أي موقدها ، والنجب جمع نجيب . [٢] حصل الشيء تحصيلاً : جمعه ، والاسم الحصىلة ، والمعنى مكتم السر ، والثميلة في الأصل : ما يبقى في بطن الدابة من العلف والماء ، وما يدخره الإنسان من طعام أو غيره ، وفي حديث عبد الملك قال الحجاج : « أما بعد فقد وليتك العرايين ، فسر إليها منطوى الثميلة » والمعنى فسر لهاها مخفاً ، والغرار : القليل من النوم . [٣] الأفاويق جمع أفواق ، وهو جمع فيقة بالكسر ، والفيقة : اسم اللبن يجتمع في الضرع بين الحلبتين . [٤] الدمامة : فيح النظر . [٥] النجيب : الجمل السريع الخفيف في السير .

وذكر أعرابي قوماً فقال : « جعلوا أموالهم مناديلَ أعراضهم ، فالخير بهم
أشد ، والمعروف لهم شاهد ، يُعْطُونَهَا بِطِيْبَةِ أَنْفُسِهِمْ إِذَا طُلِبَتْ إِلَيْهِمْ ،
ريباشرون المعروف بإشراق الوجوه إذا بُغِيَ لَدَيْهِمْ .

وذكر أعرابي قوماً فقال : « والله ما أنالوا شيئاً بأطراف أناملهم إلا وطمّناه
بأخماس^(١) أقدامنا ، وإن أقصى هَمِّهِمْ لَأَذَنِي فِعَالِنَا »

وذكر أعرابي أميراً فقال : « إِذَا وَلِيَ لَمْ يُطَابِقْ بَيْنَ جُفُونِهِ^(٢) ، وأرسل
الْعَيُونِ عَلَى عِيُونِهِ ، فهو غائب عنهم ، شاهد معهم ، فالمحسن راجح ، والمسيء وخائف » .

وذكر أعرابي رجلاً بيرة المنطق فقال : « كان والله بارع المنطق ، جزل
الألفاظ ، عربي اللسان ، فصيح البيان ، رقيق حواشي الكلام ، بليغ الرّيق ،
قليل الحركات ، ساكن الإشارات »

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « رأيت له حملاً وأناةً ، يُحَدِّثُكَ الْحَدِيثَ عَلَى
مَقَاتِعِهِ ، وَيُنْشِدُ الشَّعْرَ عَلَى مَدَارِجِهِ^(٣) ، فلا تسمع له لحناً ولا إحالة^(٤) » .

وذكر أعرابي قوماً فقال : « آلت^(٥) سيوفهم ألا تقضي ديننا عليهم ، ولا
تضيّع حقنا لهم ، فما أخذ منهم مردود إليهم ، وما أخذوا متروك لهم » .

[١] جمع أخمس كأجر ، وهو من باطن القدم ما لم يصب الأرض .

[٢] أي لم ينم عن شئون رعيته ، والعيون : الجواسيس .

[٣] مدارج جمع مدرج ومدرجة : المذهب والمسلك . [٤] أحل الكلام إحالة : إذا أفسده ، والحال

من الكلام : ما عدل به عن وجهه ، وأحال : أتى بالحال وتكلم به . [٥] حلفت .



ومدح أعرابي رجلا فقال : « مارأيت عينا قَطُّ أُخْرِقَ لِظُلْمَةِ اللَّيْلِ مِنْ عَيْنِهِ ،
وَلِحَظَّةِ أَشْبَهَ بِلَهَيْبِ النَّارِ مِنْ لِحَظَّتِهِ ، لَهُ هَزِيَّةٌ كَهَزِيَّةِ السَّيْفِ إِذَا طَرَبَ ، وَجُرْأَةٌ
كَجُرْأَةِ اللَّيْثِ إِذَا غَضِبَ » .



ومدح أعرابي رجلا فقال : « كَانَتْ ظُلْمَةٌ لَيْلَهُ كَضَوْءِ نَهَارِهِ ، أَمْرًا بَارْتِيَادَ ،
وَنَاهِيًا عَنِ فِسَادِ ، لِحَيْبِ السُّوءِ غَيْرِ مَنْقَادِ » .



وذكر أعرابي رجلا فقال : « اشترى والله عرضَه من الأذى ، فلو كانت
الدنيا له فأنفقها ، لَرَأَى بِمَدِّهَا عَلَيْهِ حُقُوقًا ، وَكَانَ مِنْهَا جَأً لِلْأُمُورِ الْمُشْكَلَةِ إِذَا
تَنَاجَزَ النَّاسُ بِاللَّامَةِ » .



وذكر أعرابي رجلا فقال : « يُفَوِّقُ ^(١) الْكَلِمَةَ عَلَى الْمَعْنَى ، فْتَمْرُقُ مُرُوقَ
السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، فَمَا أَصَابَ قَتَلَ ، وَمَا أَخْطَأَ أَشْوَى ^(٢) ، وَمَا غَطَّطَ ^(٣) لَهُ
سَهْمٌ مِّنْذَ تَحْرُكِ لِسَانِهِ فِي فِيهِ » .



وذكر أعرابي أخاه فقال : « كَانَ وَاللَّهِ رَكُوبًا لِلْأَهْوَالِ ، غَيْرَ أَلُوفٍ
لِّلْحِجَالِ ^(٤) ، إِذَا أَرْعَدَ ^(٥) لِقَوْمٍ مِنْ غَيْرِ قُرٍّ ، يَهِينُ نَفْسًا كَرِيمَةً عَلَى قَوْمِهَا ، غَيْرِ
مُبْتَقِيَةٍ لَعْدِي مَا فِي يَوْمِهَا » .

[١] يسدّد ويصوب ، والرمية : ما يرمى . [٢] أشواه أصاب شواه ، والشوى كمصا : اليدان
والرجلان والأطراف وقحف الرأس وما كان غير مقتل . [٣] الغططة : حكاية صوت القدر في الغليان
وما أشبهها وقد يكون الأصل « وما غطط » أي ما اضطرب من الغططة وهي اضطراب موج البحر .
[٤] الحجال جمع حجلة بالتحريك : القبة وموضع يزين بالثياب والستور للعروس ، والمراد النساء .
[٥] أرعد : أخذته رعدة



ومدح أعرابي رجلا فقال : « كَانَ وَاللَّهِ مِنْ شَجَرَ لَا يُخْلِفُ ثَمَرَهُ ، وَمَنْ
بَحَرَ لَا يُخَافُ كَدْرَهُ »



وذكر أعرابي رجلا فقال : « ذَاكَ وَاللَّهِ فَتَى رَمَاهُ اللَّهُ بِأَخْيَرِ نَاشِئًا ، فَأَحْسَنَ
لُبْسَهُ ، وَزَيَّنَ بِهِ نَفْسَهُ »



ومدح أعرابي رجلا فقال : « يُصِمُّ أذنيه عن استماع الخنا ، وَيُخْرِسُ
لسانه عن التكلم به ، فهو الماء الشَّريِبُ ^(١) ، وَالْمِصْقَعُ الخَطِيبُ » .



وذكر أعرابي رجلا فقال : « ذَاكَ رَجُلٌ سَبَقَ إِلَى مَهْرٍ وَفُهُ قَبْلَ طَلْبِي إِلَيْهِ ،
فَالعَرِضُ وافرٌ ، وَالوَجْهُ بمائه ، وَمَا أُسْتَقِيلَ ^(٢) نِعْمَةً إِلَّا أَقْفَلَنِي بِأُخْرَى » .



وذكر أعرابي رجلا فقال : « ذَاكَ رَضِيعُ الجُودِ وَالْمَفْطُومُ بِهِ ، عَقِيمٌ عَنِ
الفحشاء ، مُعْتَصِمٌ بالتقوى ، إِذَا حَذَفَتْ ^(٣) الألسن عن الرأى ، حَذَفَ
بالصواب ، كَمَا يَحْذِفُ الأرنب ، فَإِنْ طَالَتِ الغَايَةُ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ دُونِهَا نِهَايَةً ،
تَهَلَّلَ أَمَامَ القَوْمِ سَابِقًا » .



وذكر أعرابي رجلا فقال : « إِنْ جَلِيسُهُ لِطِيبِ عِشْرَتِهِ أَطْرَبُ مِنَ الإِبْلِ
عَلَى الحُدَاءِ ، وَالِئْمَلُ عَلَى الغِنَاءِ »

[١] الشرب والشراب : ما يشرب ، المصقع : البليغ أو العالى الصوت أو من لا يرتج عليه فى كلامه ولا يتمتع . [٢] أى وما أحمل ، وأنفلنى : أرجمى وردنى . [٣] حذفت : رمت .

❖❖
وذكر أعرابي رجلا فقال : « كَانَ لَهُ عِلْمٌ لَا يَخَالِطُهُ جَهْلٌ ، وَصَدَقَ لَا يَشُوبُهُ
كُذْبٌ ، كَأَنَّهُ الْوَيْلُ عِنْدَ الْمَحَلِّ (١) » .

❖❖
وذكر أعرابي رجلا فقال : « مَا رَأَيْتُ أُعْشِقَ لِلْمَعْرُوفِ مِنْهُ ، وَمَا رَأَيْتُ
الْمُنْكَرَ أَبْضَ لِأَحَدٍ بَعْضَهُ لَهُ » .

❖❖
وقدم أعرابي البادية وقد نال من بنى بَرَمَك ، فقبل له كيف رأيتهم ؟ قال :
« رَأَيْتَهُمْ وَقَدْ أَنْسَتَ بِهِمُ النِّعْمَةُ ، كَأَنَّهَا مِنْ ثِيَابِهِمْ » .

❖❖
وذكر أعرابي رجلا فقال : « مَا زَالَ يَبْنِي الْمَجْدَ ، وَيَشْتَرِي الْحَمْدَ ، حَتَّى
بَلَغَ مِنْهُ الْجَهْدُ » .

❖❖
ودخل أعرابي على بعض الملوك فقال : « إِنْ جَهَلًا أَنْ يَقُولَ الْمَادِحَ بِخِلَافِ
مَا يَعْرِفُ مِنَ الْمَدُوحِ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أُعْشِقَ لِلْمَكَارِمِ فِي زَمَانِ اللَّؤْمِ
مِنْكَ ، وَأَنْشُدُ :

مَالِي أَرَى أَبْوَابَهُمْ مَهْجُورَةً ؟ وَكَأَنَّ بَابَكَ تَجْمَعُ الْأَسْوَاقِ
حَابُوكَ أَمْ هَابُوكَ أَمْ شَامُوا النَّدَى بِيَدِيكَ فَاجْتَمَعُوا مِنَ الْآفَاقِ
إِنِّي رَأَيْتُكَ لِلْمَكَارِمِ عَاشِقًا وَالْمَكْرُمَاتِ قَلِيلَةً الْعُشَّاقِ

(القمد الفريد ٢ : ٨٨ - ٩٠)



وضل أعرابي الطريق ليلا ، فلما طلع القمر اهتدى ، فرفع رأسه إليه فقال :
 ما أدري ما أقول ؟ أ أقول : رَفَعَكَ اللهُ ؟ فقد رَفَعَكَ اللهُ ، أم أقول : نَوَّرَكَ اللهُ ؟ فقد
 نَوَّرَكَ اللهُ ، أم أقول : حَسَّنَكَ اللهُ ؟ فقد حَسَّنَكَ اللهُ ، أم أقول : عَمَّرَكَ اللهُ ؟ فقد
 عَمَّرَكَ اللهُ ، ولكني أقول : جعلني اللهُ فِدَاكَ . (العقد الفريد ٢ : ٩٧)



وذكر أعرابي قومه فقال : « كَانُوا وَاللَّهِ إِذَا اصْطَفَوْا تَحْتَ الْقَتَامِ ^(١) ،
 خَطَرَتْ بَيْنَهُمُ السَّهَامُ ، بُوْفُودِ الْحِمَامِ ، وَإِذَا تَصَاخَفُوا بِالسِّيُوفِ فَفَرَّتْ ^(٢) الْمَنَايَا
 أَفْوَاهَهَا ، قَرُبَ يَوْمِ عَارِمٍ ^(٣) قَدْ أَحْسَنُوا أَدَبَهُ ، وَحَرَبِ عَبُوسٍ قَدْ صَاحَحَكُنَّهَا
 أَسِنَّتُهُمْ ، وَخَطْبِ شَنْزٍ ^(٤) قَدْ ذَلُّوا مَنَاكِبَهُ ، وَيَوْمِ عَمَّاسٍ ^(٥) قَدْ كَشَفُوا ظُلْمَتَهُ
 بِالصَّبْرِ حَتَّى يَنْجَلِي ، إِنَّمَا كَانُوا الْبَحْرَ الَّذِي لَا يُنْكَشُ ^(٦) غِمَارُهُ ، وَلَا يُنْهِنُهُ
 تِيَّارُهُ » . (الأمالى ١ : ١٣٩ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٨ ، وزهر الآداب ٢ : ٤)



ووصف أعرابي رجلا فقال : « هُوَ أَطْهَرُ مِنَ الْمَاءِ ، وَأَرْقُ طَبَاعًا مِنَ الْهَوَاءِ ،
 وَأَمْضَى مِنَ السَّيْلِ ، وَأَهْدَى مِنَ النَّجْمِ » . (زهر الآداب ٢ : ٣)

[١] القتام : الغبار ، والحمام : الموت ، ورواية العقد : « كَانُوا إِذَا اصْطَفَوْا سَفَرَتْ بَيْنَهُمُ السَّهَامُ »
 — سفر بين القوم كضرب ونصر : أصلح — . [٢] ففرت : فتحت .
 [٣] العرامة بالفتح والعرام بالضم : الشراسة والأذى ، هرم كنصر وضرب وكرم وعلم .
 [٤] شنز : شديد . قاقى . [٥] العماس من الليالى : المظلم الشديد ، وأسر لايقام له ولا يتدى لوجهه
 [٦] لاينكش : لاينزح ، والغمار جمع غمر كشمس : وهو الماء الكثير ، ونهيه : كفه وزجره . وف
 رواية العقد : « إِنَّمَا قَرَى الْبَحْرَ مَا أَلْفَمْتَهُ التَّمَمِ » ، ورواية زهر الآداب : « إِذَا اصْطَفَوْا سَفَرَتْ بَيْنَهُمُ
 السَّهَامُ ، وَإِذَا تَصَاخَفُوا بِالسِّيُوفِ فَفَرَّ فِيهِ الْحِمَامُ » .



ووصف أعرابي قومه فقال : لِيُوثُ حَرْبٌ ، وَغِيُوثٌ جَدْبٌ ، إِنْ قَاتَلُوا
أَبْلَوْا ، وَإِنْ بَدَلُوا أَعْنَوْا . (زهر الآداب ٢ : ٤)



وقال الأعمى : سمعت أعرابياً يقول : « إذا ثبتت الأصول في القلوب ،
نطقت الألسنة بالفروع ، والله يعلم أن قلبي لك شاكر ، ولساني ذاكر ، ومُحَالٌّ
أن يظهر الودّ المستقيم ، من الفؤاد السّقيم » . (زهر الآداب ٣ : ١٦٥)



وسئل أعرابي عن قومه فقال : « يقتلون الفقير ، عند شدة القُرِّ^(١) ،
وأرواح^(٢) الشتاء ، وهبوبِ الجُرِّيِّاء^(٣) ، بأسنمة الجزور ، ومترعات^(٤)
القدور ، تحسن وجوههم عند طابّ المعروف ، وتعبس عند لمعان السيوف » .



ووصف أعرابي قوماً فقال : « لهم جُودٌ كرامٍ اتسعت أحوالها ، وبأسُ
ليوثٍ تَدْبَعُهَا أشبالها ، وَهَمَمٌ ملوكٍ انفسحت آمالها ، ونخزُ صميمِ آباءٍ
شَرُفَتْ أحوالها » . (زهر الآداب ٣ : ١٦٧)



[١] القُرّ بتثنية القاف : البرد . [٢] جمع دبح كرياح . [٣] دبح الضمّال أو بردما .
[٤] جمع مترعة : وهي المملوءة .

٦٣ - قولهم في الذم

وذكر أعرابي قوماً فقال : « أولئك سلخَت أبقاؤهم بالهجاء ، ودُبغت وجوههم باللؤم ، لبأسهم في الدنيا الملامة ، وزادهم إلى الآخرة الندامة » .



وذكر أعرابي قوماً فقال : « لهم بيوتٌ تُدخَلُ حبّواً ، إلى غير نمارق^(١) ولا وسائد ، فُصِحُّ الألسن برذِّ السائل ، جِعَادُ الأَكْفِ عن النَّائِل^(٢) » .



وقال أعرابي : « لقد صَغَّرَ فلاناً في عيني عِظَمَ الدنيا في عينه ، وكأنا يرى السائل إذا أتاه ، ملك الموت إذا رآه » .



وسئل أعرابي عن رجل فقال : « ما ظنُّكم بِسِكِّيرٍ لا يُفِيق ، يَتَّهَمُ الصديق ، وَيَعْصِي الشفيق ، لا يكون في موضع الإحْرَمَتِ فيه الصلاة ، ولو أفلتت كلمةً سوءٍ لم تَصِرْ إلا إليه ، ولو نزلت لعنةٌ من السماء لم تقع إلا عليه » .



وذكر أعرابي رجلاً فقال : « إن فلاناً لِيُعَدِي بِأَيْمِهِ ، مَنْ تَسَمَى بِأَسْمِهِ ، ولئن خيَّبني فلربَّ باقيةٍ قد ضاعت في طلب رجل كريم »



وذكر أعرابي رجلاً فقال : « تَعُدُّوْا إليه مَرَاكِبُ الضلالة ، فترجع من

[١] النمارق جمع نمرقة (بالضم) : وهي الوسادة الصغيرة . [٢] النائل : العطاء ، وهو جمع اليدين أو الأناامل (كشمس) : أي بخيل ، وقد جمعوا جمع الشعر على جعاد ككتاب كذا في اللسان ، فليكن هذا مثله ، وقد جاء في الأصل « جعد » بدون ألف ، وأراه محرفاً ، إذ لا يجمع جعد (بالفتح) على جعد بضم فسكون ، ولا على جعد بضمين .

عنده يذور الآثام ، مُعَدِّمٌ مما تحب ، مُكَثِّرٌ مما تكرهه ، وصاحب السوء
قطعة من النار .



وقال أعرابي لرجل : « أنت والله ممن إذا سأل ألحف ، وإذا سُئِلَ سوِّف ،
وإذا حَدَّثَ حَلَف ، وإذا وعد أخلف ، تنظر نظر حَسُود ، وتعرض
إعراضَ حَقُود » .



وسافر أعرابي إلى رجل فخرمه ، فقال لِمَا سئِلَ عن سفره : « مارَبِحْنَا فِي
سَفَرِنَا إِلَّا مَا قَصَرْنَا مِنْ صَلَاتِنَا ، فَأَمَّا الَّذِي لَقِينَا مِنَ الْهَوَاجِرِ (١) ، وَلَقِيْتِ مِنَّا
مِنَ الْأَبَاعِرِ ، فَعُقُوبَةٌ لَنَا فِيمَا أَفْسَدْنَا مِنْ حَسَنِ ظَنْنِنَا » ، ثم أنشأ يقول :
رَجَعْنَا سَالِمِينَ كَمَا خَرَجْنَا وَمَا خَابَتْ سَرِيَّةُ سَالِمِينَا



وذكر أعرابي رجلا فقال : « كَانَ إِذَا رَأَى قَرَبًا مِنْ حَاجِبٍ حَاجِبًا ،
فَأَقُولُ لَهُ : لَا تَقْبَحْ وَجْهَكَ إِلَى قَبْحِهِ ، فَوَاللَّهِ مَا أَتَيْتَكَ لَطْمِيعِ رَاغِبًا ،
وَلَا خَلُوفِ رَاهِبًا » .



وذم أعرابي رجلا فقال : « عَمَدُ الْفَعَالِ ، حُرُّ الْمَقَالِ ، عَظِيمُ الرِّوَاقِ ،
دَنِيءُ الْأَخْلَاقِ ، الدَّهْرُ يَرْفَعُهُ ، وَنَفْسُهُ تَضَعُهُ » .



وقال أعرابي : « دَخَلْتُ الْبَصْرَةَ ، فَرَأَيْتُ ثِيَابَ أَحْرَارٍ عَلَى أَجْسَادِ عَبِيدٍ ،

[١] الهواجر جمع هاجرة : ومى شدة الحر .

إِقْبَالُ حَظِّهِمْ إِدْبَارُ حَظِّ الْكِرَامِ ، شَجَرُهُ أَصُولُهُ عِنْدَ فُرُوعِهِ ، شَغْلُهُمْ عَنِ الْمَعْرُوفِ
رَغْبَتُهُمْ فِي الْمُنْكَرِ .



وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا فَقَالَ : « ذَاكَ سُمُّ الْمَجَالِسِ ، أَعْيَا مَا يَكُونُ عِنْدَ جُلُوسَاتِهِ ،
' أَبْلَغُ مَا يَكُونُ عِنْدَ نَفْسِهِ » .



وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا فَقَالَ : « ذَلِكَ إِلَى مَنْ يَدَاوِي عَقْلَهُ مِنَ الْجَهْلِ ، أَحْوَجُ
مَنْهُ إِلَى مَنْ يَدَاوِي عَقْلَهُ مِنَ الْمَرَضِ ، إِنَّهُ لَا مَرَضَ أَوْجَعُ مِنْ قِلَّةِ عَقْلِ » .



وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا يَدْرِكُ بَثْرَهُ فَقَالَ : « كَيْفَ يُدْرِكُ بَثْرَهُ مَنْ فِي صَدْرِهِ
مِنَ الْبَلْغَمِ حَسَنُ مُرْقَعَةٍ ، لَوْ ذُقْتُ بِوَجْهِهِ الْحِجَارَةُ لَرَضْتُهَا ^(١) ، وَلَوْ خَلَا
بِالْكَعْبَةِ لَسَرَقَهَا » .



وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا فَقَالَ : « تَسَهَّرَ وَاللَّهِ زَوْجَتَهُ جُوعًا إِذَا سَهَرَ النَّاسَ
شِبَعًا ، ثُمَّ لَا يَخَافُ مَعَ ذَلِكَ عَاجِلَ عَارٍ ، وَلَا آجِلَ نَارٍ ، كَالْبَهِيمَةِ أَكَلَتْ
مَا جَمَعَتْ ، وَنَكَحَتْ مَا وَجَدَتْ » .



وَسَمِعَ أَعْرَابِي رَجُلًا يَزْعَقُ فَقَالَ : « وَيْحَكَ ! إِنَّمَا يَسْتَجَابُ لِمُؤْمِنٍ أَوْ
مَظْلُومٍ ، وَلَسْتَ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا ، وَأَرَاكَ يَخْفَى عَلَيْكَ ثِقَلُ الذُّنُوبِ ، فَيَحْسُنُ عِنْدَكَ
مَقَابِحُ الْعُيُوبِ » .



وذكر أعرابي رجلاً بضعف فقال: « سيء الروية ، قليل التقيّة ، كثير السعّاية ، ضعيف الذكّاية » .



وذكر أعرابي رجلاً فقال: « عليه كل يوم من فعله شاهدٌ بفسقه ، وشهاداتُ الأفعال ، أعدل من شهادات الرجال » .



وذكر أعرابي رجلاً بذلّة فقال: « عاش خاملاً ، ومات مؤثوراً » .



وقال أعرابي لرجل شريف البيت ، ذنىء الهمة: « ما أحوجك أن يكون عرضك لمن يصونه ، فتكون فوق ما أنت دونه » .



وذكر أعرابي رجلاً فقال: « إن حدّثته يسأبك إلى ذلك الحديث ، وإن سكّته عنه أخذ في الترهات^(١) » .



وذكر أعرابي رجلاً راكباً هواه فقال: « والله هو أقصدُ إلى ما يهواه ، من الطرُق إلى المياها ، أفقره ذلك أو أغناه » .



وقال أعرابي: « ليت فلاناً أقلاني من حسن ظنيّ به ، فأختم بصواب إذ بدأت بخطأ ، ولكن من لم تُحكّمه التجارب ، أسرع بالمدح إلى من يستوجب الذم ، وبالذم إلى من يستوجب المدح » .

[١] الترهات جمع ترمة: وهي الباطل .

❖❖❖
وقال أعرابي لرجل : « هل أنت إلا أنت لم تَغَيَّرْ ؟ ولو كنت من حديد
مُحْمَى ووُضِعَتْ عَلَى عَيْنٍ لَمْ تَذُبْ » .

❖❖❖
وقال أعرابي لأخيه : « قد كنتُ نَهَيْتَكَ أَنْ تَدْنُسَ عَرِيضَكَ بَعْرَضِ فُلَانٍ ،
وَأَعْلِمَكَ أَنَّهُ سَمِينُ الْمَالِ ، مَهْزُولُ الْمَعْرُوفِ ، مِنَ الْمَرْزُوقِينَ فَجَاءَتْ ، قَصِيرُ عَمْرٍ
الْغَنَى ، طَوِيلُ عَمْرٍ الْفَقْرُ » .

❖❖❖
وقال أعرابي : « لَا تَرِكَ اللَّهُ مُخَاً فِي سُلَامَى ^(١) نَاقَةٍ حَمَلْتَنِي إِلَيْكَ ، وَلَلدَّاعِي
عَلَيْهَا أَحَقُّ بِالدَّعَاءِ عَلَيْهِ ، إِذْ كَلَّفَهَا الْمَسِيرَ إِلَيْكَ » .

❖❖❖
وذكر أعرابي رجلاً فقال : « لَا يُؤْنَسُ جَاراً ، وَلَا يُؤْهَلُ دَاراً ،
وَلَا يَبْعَثُ نَاراً » .

❖❖❖
وذكر أعرابي امرأة قبيحة فقال : « تُرْخِي ذَيْلَهَا عَلَى عُرْقُوبِي نَعَامَةً ،
وَتُسَدِّلُ خِمَارَهَا عَلَى وَجْهِهَا كَالْجُمَالَةِ ^(٢) »

❖❖❖
وقال أعرابي لامرأة : « وَاللَّهِ إِنَّكَ لَمُشْرِفَةُ الْأُذُنِينَ ، جَاحِظَةُ الْعَيْنِينَ ، ذَاتُ
خَلْقٍ مَتَضَائِلٍ ، يُعْجِبُكَ الْبَاطِلُ ، إِنْ شَبِعْتَ بَطْرْتَ ، وَإِنْ جُعْتَ صَخِبْتَ ^(٣) ،
وَإِنْ رَأَيْتَ حَسَنًا دَفَنْتَهُ ، وَإِنْ رَأَيْتَ سَيِّئًا أَدْعَيْتَهُ ، تَكْرَمِينَ مِنْ حَقْرِكَ ،
وَتَحْقِرِينَ مِنْ أَكْرَمِكَ » . (العقد الفريد ٢ : ٩٠ - ٩٣)

[١] السلايمات : عظام الأصابع . [٢] الجمالة : خرقة ينزل بها القدر .
[٣] الصخب : شدة الصوت .

❖❖
وسأل أعرابي رجلا فخرمه ، فقال له أخوه : « نزلتَ واللهِ بوادي غيرِ ممطُورٍ ،
وأُتيتَ رجلا بك غيرِ مسرورٍ ، فلم تُدركِ ما سألتَ ، ولا نلتَ ما أملتَ ،
فارتحلَ بنَدَمٍ ، أو أقيم على عَدَمٍ » . (القمد الفريد ٢ : ٩٢ ، وزهر الآداب ٢ : ٥)

❖❖

ودخلت أعرابية على محمدونة بنت المهدي ، فلما خرجت سئلت فقالت :
« والله لقد رأيتها فإيت طائلا ، كأن بطنها قربة ، كأن نذيتها دبة ، كأن
استها رُقعة^(١) ، كأن وجهها وجهُ ديكٍ قد نفَسَ^(٢) عَفْرِيتَهُ يُقاتل ديكًا » .
(القمد الفريد ٢ : ٩٢ ، والأمالى ٢ : ١٥٦)

❖❖

وذم أعرابي رجلا فقال : « أفسدَ آخرتَه بصلاحِ دنياه ، ففارق ما أصلح
غيرَ راجعٍ إليه ، وقَدِمَ على ما أفسدَ غيرَ منتقلٍ عنه ، ولو صدقَ رجلٌ نفسه
ما كذَّبته ، ولو ألقى زمامه أوطأه راحلته » . (زهر الآداب ٢ : ٦)

❖❖

قال الأصمعي : سمعت أعرابية تقول لرجل تخصمه : « والله لو صوّرَ الجهل
لأظلم معه النهارُ ، ولو صوّرَ العقلُ لأضاء معه الليلُ ، وإنك من أفضلهما لمُعَدِمٍ ،
نَخَفِ اللهُ واعلم أن من ورائك حَكَمٌ لا يحتاج المُدعى عنده إلى إحضارِ بَيِّنَةٍ »
(زهر الآداب ٣ : ١٦٣)

❖❖

وقال أعرابي يعيب قوماً : « هم أقلُّ الناس ذُنُوباً إلى أعدائهم ، وأكثرهم
جُرْماً إلى أصدقائهم ، يَصُومون عن المعروف ، وَيُفْطِرُونَ على الفحشاء » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٠ ، والقمد الفريد ٢ : ٩٠)

[١] شجرة عظيمة . [٢] عفرية الدبك : ريش عنقه .



ووصف أعرابي رجلاً فقال : « صَغِيرُ الْقَدْرِ ، قَصِيرُ الشَّبْرِ ^(١) ، ضَيْقُ الصدر ، لثِيمُ النَّجْرِ ^(٢) ، عَظِيمُ الْكِبَرِ ، كَثِيرُ الْفَخْرِ » .
(البيان والتبيين ١ : ١٥٧ ، والعقد الفريد ٢ : ٩١)



وذكر أعرابي أميراً فقال : « يَقْضِي بِالْعَشْوَةِ ، وَيَطِيلُ النَّشْوَةَ ، وَيَقْبَلُ الرِّشْوَةَ ^(٣) » .
(البيان والتبيين ٢ : ٥٠ ، والعقد الفريد ٢ : ٩١)



وسمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أعرابياً يقول : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَأُمِّ أَوْفَى » ، قال : « وَمَنْ أُمُّ أَوْفَى ؟ » ، قال : « امْرَأَتِي ، وَإِنِّهَا لِحَمَقَاءِ مِرْقَامَةٍ ^(٤) ، أَأْكُولُ لِقَامَةً ^(٥) ، لَا تَبْقَى لَهَا حَامَةٌ ^(٦) ، غَيْرَ أَنَّهَا حَسَمَاءُ فَلَا تُفْرَكُ ^(٧) ، وَأُمُّ غِلْمَانٍ فَلَا تُتْرَكُ » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٧)



عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت امرأة من العرب تخاصم زوجها وهي تقول : « وَاللَّهِ إِنْ شَرِبَكَ لَأَشْتَفَا ^(٨) ، وَإِنْ ضَجَّعْتِكَ لَأَنْجِمَا ^(٩) ، وَإِنْ شِمَلْتِكَ لَأَلْتَفَا ، وَإِنَّكَ لَتَشْبَعُ لَيْلَةَ تُضَافَ ، وَتَنَامُ لَيْلَةَ تَخَافُ » ،

[١] الشبر : القدر . [٢] النجر : الأصل . [٣] العشوة والنشوة والرشوة بتثنية الفاء في الثلاثة ، العشوة : ركوب الأمر على غير بيان ، والنشوة : السكر ، والرشوة : الجبل والبرطيل « بكسر الباء » . [٤] المرغامة : الغضبية لبعلمها . [٥] قامة : اسم فاعل ، من قم : أى أكل ما على الخوان كافتته ، وقه : كنسه : [٦] الحامة : الخاصة . [٧] فرك زوجته وفركته كسمع ، وكنصر شاذ : أبغضته ، ورجل مفرك بالتشديد تبغضه النساء وامرأة مفركة : يبغضها الرجال . [٨] اشتف ما في الإناء : شربه كله . [٩] الانجماف : الانصراف .

فقال لها: «والله إنك لَكَرْوَاءُ السَّاقِينِ^(١)، قَمَوَاءُ الْفَخْذَيْنِ^(٢)، مَقَاءُ الرَّفْعَيْنِ^(٣)، مَفَاضَةُ الْكَشْحَيْنِ^(٤) ضَيْفِكَ جَائِعٌ، وَشَرُّكَ شَائِعٌ». (الأمل ١ : ١٠٤)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : مرَّ أعرابي برجل يكنى أبا النمر - وكان ضخماً جسيماً ، وكان بواباً لبعض الملوك - فقال : أعين الفقير الحسير ، فقال : ما ألحف سائلكم ، وأكث جائعكم ، أراحنا الله منكم ، فقال له الأعرابي : « لو فرَّق قوتُ جسمك في جسوم عشرة منا ، لكفانا طعامك في يومٍ شهراً ، وإنك لعظيم السرطة^(٥) ، شديد الضرطة ، لو ذرَّيَّ بحبقتك بيدر^(٦) ، لكفته ريح الجزبياء^(٦) ». (الأمل ١ : ٢٢٦)

٦٤ - قولهم في الغزل

سئل أعرابي عن امرأة فقال : « هي أرقُّ من الهواء ، وأطيبُ من الماء ، وأحسن من النعماء ، وأبعد من السماء ». (الأمل ١ : ٢٠١ ، والعقد الفريد ٢ : ٩٤)

وذكر أعرابي امرأة فقال : « لها جلدٌ من لؤلؤ ، مع رائحة المسك ، وفي كل عُضْوٍ منها شمسٌ طالعة ».

وذكر أعرابي امرأة فقال : « كاد الغزال أن يكونها ، لولاماتم منها وما نقص منه ».

[١] الكرواء : الدقيقة الساقين .

[٢] العواء : الدقيقة ، أو الدقيقة الفخذين ، وقيل : هي المتباعدة ما بين الفخذين (كلهجواء) .

[٣] الرفع : أصل الفخذ ، والمقاء : الدقيقة الفخذين ، أو الطويلة من المتي بالتحريك وهو الطول .

[٤] المفاضة : المسترخية ، والكشحان : الخاصرتان . [٥] البلعة من سرطه كنصر وفرح : ابتلعه

[٦] الحبة : الضرطة ، والبيدر : الموضع الذي تداس فيه الحبوب ، والجزبياء : ريح الشمال الباردة .

وذكر أعرابي نسوة خرجن متزهاتٍ فقال : « وجوهٌ كالدنانير ، وأعناقٌ كأعناق اليمافير^(١) ، وأوساطٌ كأوساط الزناير ، أقبلن إلبناججُول^(٢) تخفُق ، وأوشحةٌ تُعلَق ، وكم أسيرٍ لهن وكم مُطلقٍ » .



ووصف أعرابي امرأة حسناء فقال : « تبسّم عن نَمَش^(٣) اللثاتِ ، كأقاحي النبات ، فالسعيد من ذافه ، والشقي من راقه » .



وذكر أعرابي امرأة فقال : « هي السُّقْم الذي لا بُرءَ منه ، والبرء الذي لا سقْم معه ، وهي أقرب من الحشا ، وأبعد من السما » .



ووصف أعرابي امرأة فقال : « بيضاء جَعْدَة^(٤) ؛ لا يَمَسُّ الثوبُ منها إلا مُشاشَة^(٥) كتفيتها ، وَحَامَة ثديها ، ورضقَى ركبتيها ، ورائفتي أَيْتِيها ، وأنشد :

أَبْتِ الرَّوَادِفُ وَالثُدَيُّ لِقَمَصِهَا مَسَّ البَطُونُ وَأَنْ تَمَسَّ ظَهوراً
وَإِذَا الرِّيحُ مَعَ العَشِيِّ تَنَاوَحَتْ نَهْنَنَ حَاسِدَةً وَهَجْنَنَ غَيُوراً

[١] اليمافير جمع يعفور : وهو ولد البقرة الوحشية . [٢] المجول جمع حجل بالكسر والفتح : وهو الخلل ، والأوشحة جمع وشاح بالضم والكسر : أديم عريض يرصع بالجواهر ، تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها . [٣] خدش ، والأفاحي جمع أقحوان بالضم : وهو نبت طيب الريح حوالبه ورق أبيض ، ووسطه أصفر ، وراقه : أعجبه .

[٤] الجعد من الشعر خلاف السبط ، أو التقصير منه ، ورجل جعد الشعر والأنتى جمدة ، والجعد أيضاً المدمج الخلق المجتمع يعضه الى بعض ، والجعد اذا ذهب به مذهب المدح فله معنيان مستحبان : أحدهما أن يكون معصوب الجوارح شديد الأسر والخلق خير مسترخ ولا مضطرب ، والثاني أن يكون شعره جمداً غير سبط لأن سبوطه الشعر هي الغالبة على شعور العجم من الروم والفرس ، وجعردة الشعر هي الغالبة على شعور العرب . [٥] المشاشة : رأس العظم ، والرضف : عظام في الركبة كالأصابع المضمومة قد أخذ بعضها بعضاً ، والرائفة : أسفل الألية عند القيام .



وذكر أعرابي امرأة فقال : « تلك شمس باهت بها الأرضُ شمسَ سماءها ،
وليس لي شفيع في اقتضائها ^(١) ، وإن نفسي لكتوم لداؤها ، ولكنها تفيض
عند امتلائها » .



وقال أعرابي في امرأة ودعها للمسير : « والله ما رأيت دمة ترقرق من
عين يأميد ^(٢) على ديباجة خد ، أحسن من عبرة أمطرتها عينها ، فأعشت
بها قلبي » .



وقال أعرابي : « إن لي قلباً مرُوعاً ^(٣) ، وعينا دمُوعاً ، فإذا يصنع كل
واحد منهما بصاحبه ، مع أن داءهما دواؤهما ، وسُقْمهما شفاؤهما ؟ » .



وقال أعرابي : « ما أشدَّ جولةَ الرأي عند الهوى ، وفِطامَ النفس عن الصِّبا !
ولقد تقطعت كبدى ! لومُ العاذلين للعاشقين قرِطَةٌ في آذانهم ، ولَوَاعاتُ الحب
نيرانٌ في أبدانهم ، مع دموع على المغاني ^(٤) ، كغروب السَّوانِي » .



وذكر أعرابي امرأة فقال : « لقد نَعِمَت عَيْنٌ نظرتْ إليها ، وشقِي قلب
تفجعَ عليها ، ولقد كنت أزورها عند أهلها ، فيُرْحَبُ بي طرفُها ، ويتجهمني
لسانُها » قيل له فما بلغ من حُبِّك لها ؟ قال : « إني ذا كِرْ لها وبينى وبينها
عدوة الطائر ، فأجد لذكورها ريحَ المسك » .

[١] اقتضى دينه وتفاضاه بمعنى . [٢] الأمد : الكحل ، والديباجة : الحد . [٣] مفزعا .

[٤] المغاني جمع مغنى : وهو المنزل ، والغروب جمع غرب كشمس : وهو الدلو العظيمة ، والسواني جمع

سانية : وهي الناقة يسقى عليها ، والغرب وأداته .

وقال أعرابي: « الهَوَى هوان ، ولكن غُلِطَ باسمه ، وإنما يعرف من يقول ، من أْبَكْتَهُ الْمَنَازِلُ وَالطُّلُوءُ » .

وذكر أعرابي امرأة فقال : « إن لساني لِدِكْرُهَا لَدَلُولٌ ، وإن حَبَّهَا لِقَلْبِي لِقَتُولٌ ، وإن قَصِيرَ اللَّيْلِ بِهَا لِيَطُولُ » .

ووصف أعرابي نساء ببلاغة وجمال فقال : « كلامهن أَقْتَلُ من النَّبْلِ ، وأَوْقَعُ بالقلب من الوَبْلِ بِالْمَحْلِ ، فروعهن أَحْسَنُ من فروع النخل » .
(العقد الفريد ٢ : ٩٣ - ٩٥)

وقال أعرابي : « دخلت البصرة ، فرأيت أعيناً دُمَجًا ^(١) ، وَحَوَاجِبَ زُجَّآ ، يَسْحَبْنَ الثياب ، وَيَسْلُبْنَ الْأَبَابَ » . (العقد الفريد ٢ : ٩٣ ، وزهر الآداب ٣ : ١٧)

وذكر أعرابي نساء فقال : « ظَعَانٌ ^(٢) في سَوَالِفِهِنَّ طُولٌ ، غير قبيحات الْمُطُول ^(٣) ، إذا مَشَيْنَ أَسْبَلْنَ الذبولَ ، وإن رَكِبْنَ أَثْقَلْنَ الْحُمُولَ ^(٤) » .
(زهر الآداب ٣ : ١٧)

وقال أعرابي : « لقد رأيت بالبصرة بُرُوداً كأنها صُبِغَتْ بِأَنْوَارِ الرَّبِيعِ ، فَهِيَ تَرُوعُ ^(٥) ، وَاللَّابِسُ لَهَا أَرُوعٌ » .
(العقد الفريد ٢ : ٩٦)

[١] دمج جمع دمجاء ، وصف من الدعج بالتحريك : وهو سواد العين مع سعتها . وزجا جمع زجاء من الزجج بالتحريك أيضاً : وهو دقة الحاجبين في طول .
[٢] ظعان جمع ظعينة : والظعينة في الأصل وصف المرأة في هودجها ثم سميت بهذا الاسم وإن كانت في بيتها لأنها تصير مظعونة ، وهي فعيلة بمعنى مفعولة لأن زوجها يظن بها . - السوالف جمع سالفة : وهي ناحية مقدم العنق من لدن معاق القرط الى ثقرة الترقوة . [٣] عطلت المرأة كفرح عطلا بالتحريك وعطولا : إذا لم يكن عليها حلى . [٤] الحمول : الهودج ، أو الإبل عليها الهودج جمع حمل بالكسر ويفتح . [٥] تعجب .

وقال أعرابي : « شَيْعِنَا الْحَيَّ وَفِيهِمْ أَدْوِيَةُ السَّقَامِ ^(١) ، فَفَرَّ أَنْ بِالْحَدَقِ
السَّلَامَ ، وَخَرَسَتْ الْأَلْسُنُ عَنِ السَّكَّامِ » . (الأمالى ٢ : ٥٠)

وسئلت أعرابية عن الهوى فقالت : « لَامُتَّعَ الْهَوَى بِمَلِكِهِ ، وَلَا مُلِّيَ ^(٢)
بِسُلْطَانِهِ ، وَقَبِضَ اللَّهُ يَدَهُ ، وَأَوْهَنَ عَضُدَهُ ، فَإِنَّهُ جَائِرٌ لَا يُنْصِفُ فِي حَكْمٍ ، أَعْمَى
لَا يَنْطِقُ بِعَدْلٍ ، وَلَا يَقْصُرُ فِي ظَلَمٍ ، وَلَا يَرْعَى لِنَدَمٍ ، وَلَا يَنْقَادُ لِحَقِّ ، وَلَا يُبْتِغِي
عَلَى عَقْلِ وَفَهْمٍ ، لَوْ مَلَكَ الْهَوَى وَأَطِيعَ ، لَرَدَّ الْأُمُورَ عَلَى أَدْبَارِهَا ، وَالدُّنْيَا عَلَى أَعْقَابِهَا »

وسئل أعرابي عن الهوى فقال : « هُوَ دَاءٌ تَدَاوَى بِهِ النُّفُوسُ الصَّحَّاحُ ،
وَتَسَلُّ مِنْهُ الْأَرْوَاحُ ، وَهُوَ سَقَمٌ مُكْتَمٌ ، وَحَمِيمٌ ^(٣) مُضْطَرِمٌ ، فَالْقُلُوبُ لَهُ
مُنْضَجَةٌ ، وَالْعَيُونَ سَاكِبَةٌ » . (زهر الآداب ٣ : ١٨)

ووصف أعرابي امرأة يحبها فقال : « هِيَ زِينَةُ الْحُضُورِ ، وَبَابٌ مِنْ أَبْوَابِ
السَّرُورِ ، وَلَدِّ كَرْمِهَا فِي الْمَغِيبِ ، وَالْبَعْدِ عَنِ الرَّقِيبِ ، أَشْهَى إِلَيْنَا مِنْ كُلِّ وَلَدٍ
وَنَسِيبِ ، وَبِهَا عُرِفَ فَضْلُ الْحُورِ الْعَمِينِ ، وَاشْتَقِقَ بِهَا إِلَيْهِنَّ يَوْمَ الدِّينِ » .
(زهر الآداب ٣ : ٢٤٤)

ووصف أعرابي نساء فقال :

« يَلْتَمِسْنَ عَلَى السَّبَائِكِ ^(٤) ، وَيَتَشَحَّنَ عَلَى النَّيَّازِكِ ^(٥) ، وَيَأْتِرْنَ

[١] أى المحبوبات المداوية للسقام .

[٢] ملاء الله حبيبه تلمية : متعه به وأطاشه معه طويلا . [٣] الحميم : الماء الحار . وفى الأصل :
« وحى » وأراه محرفا عن حميم ، ويناسبه قوله بعد : « والعيون ساكبة » .

[٤] اللتام على الفم ، واللغام على طرف الأنف ، تلتمت المرأة وتلفمت ، والسبائك هنا الأسنان شبهها
ليياضها بالسبائك . [٥] النيازك جمع نيزك كجمر : وهو الرمح القصير .

على العوائك^(١) ، وَيَرْتَفِقْنَ على الأرائك^(٢) ، ويتهادين على الدرانيك^(٣) ،
ابتسامهن وميض^(٤) ، عن وليح كالإغريض^(٥) ، وهن إلى الصبا صور^(٦) ، وعن
الخنأ نور^(٧) . (الأملأ : ١ : ٤٤ ، وزهر الآداب ٣ : ١٨)

قولهم فى الوصف

٦٥ - أعرابى يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سئل أعرابى عن مطر فقال :

« استقلُّ سُدُّ مع انتشار الطفل^(١) ، فشَصَا وَأَحْزَالَ^(٢) ، ثم اكْفَهَرَّتْ
أَرْجَاؤُه ، وَاحمومت أَرْحَاؤُه ، وَابذَعَرَّتْ فَوَارِقُه^(٣) ، وَتَضَاخَكَتْ بَوَارِقُه ،
وَاسْتَطَارَ وَاذِقُه ، وَأَرْتَقَّتْ جُوبُه ، وَأَرْتَمَنَ هَيْدُبُه^(٤) ، وَحَشَكَتْ أَخْلَافُه ،
وَاسْتَقَلَّتْ أَرْدَافُه ، وَانْتَشَرَّتْ أَكْنَافُه^(٥) ، فَالرعْدُ مُرْتَجِسٌ ، وَالبَرْقُ مُخْتَلِسٌ ،

[١] العوائك جمع طابك : وهو رمل منعقد يثقى فيه البعير لا يقدر على السير .

[٢] الأرائك جمع أربكة وهى السرر أو الفرش ، وارتفق : اتأ على مرفق يده ، أو على الخدة .

[٣] يتهادين : يمشين مشياً صعباً ، والدرانيك : الطنافس جمع درنوك كعصفور ، ودرنك كزرج .

[٤] الوميض : اللعان الحنى ، والولايح : الطلع ، كأنه نظم اللؤلؤ فى شدة بياضه . قال الشاعر يصف

نفر امرأة : وتبسم عن زير كالولايح ، والإغريض : الطلع حين ينشق عنه كافوره ، والبرد (بتجريك الراء) .

[٥] صور : موائل ، ومنه قيل للعائن العرق أصور ، ونور : نأفات من الريبة جمع نوار كسحاب .

[٦] استقل : ارتفع ، والسد : السحاب الذى يسد الأفق ، والطفل : العشى إلى حد الغرب .

[٧] شصا ارتفع ، واحرأل مثله . [٨] المكهفر من السحاب : الذى يركب بمضه بعضا ،

وأرجاؤه : نواحيه جمع رجا كعصا ، واهومت : اسودت ، وأرحاؤه : أوساطه ، جمع رحا كعصا ، وابدعرت

تفرقت ، والفوارق جمع فارق ، وهو السحاب الذى ينقطع من معظم السحاب ، وأصله فى الإبل ، يقال

ناقة فارق : وهى التى تندعن الإبل عند نتاجها .

[٩] استطار : انتشر ، والودق الذى يكون فيه الودق (كشمس) وهو المطر العظيم القطر ، وارتقت

التأمت ، وجوبه : فرجه ، وارتمن : استرخى ، والهيدب : الذى يتدلى ويدنو من الأرض مثل هذب القطيفة .

[١٠] حشكت : امتلأت ، والأخلاف جمع خلف كحمل ، وهوللناقة كالضرع للبقرة ، أردافه : ما أخيره

والأكناف : الواحى .

والماء مُنْبَجِسٌ ^(١) ، فَاتْرَعَ الْغُدْرَ ، وَاثْبَتَ الْوُجْرَ ^(٢) ، وَخَلَطَ الْأَوْعَالَ
بِالْآجَالِ ، وَقَرَنَ الصَّيْرَانَ بِالرِّثَالِ ^(٣) ، فَلِلْأُودِيَةِ هَدِيرٌ ، وَلِلشَّرَاحِ خَرِيرٌ ، وَلِلتَّلَاعِ
زَفِيرٌ ^(٤) ، وَحَطَّ النَّبْعَ وَالْعَتَمَ ، مِنْ الْقَلَلِ الشَّمَّ ، إِلَى الْقَيْعَانِ الصَّحْمِ ^(٥) ، فَلَمْ
يَبْقَ فِي الْقَلَلِ إِلَّا الْمُعْصِمُ مُجْرَثِيمٌ ، أَوْ دَاخِضٌ مُجْرَجَمٌ ^(٦) ، وَذَلِكَ مِنْ فَضْلِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ، عَلَى عِبَادِهِ الْمَذْنِينِ . (الأملأ : ١ : ١٧٣)

٦٦ - أعرابي يصف مطرا

عن الأصمعي قال: سمعت أعرابياً من غنيّ يذكر مطراً أصاب ^(٧) بلادهم في
غيبٍ جذب فقال :
« تَدَارَكَ رَبُّكَ خَلْقَهُ ، وَقَدْ كَلِمَتِ الْأَنْحَالُ ، وَتَقَاصَرَتِ الْأَمَالُ ، وَعَكُفٌ
الْيَاسِ ، وَكُظِمَتِ الْأَنْفَاسُ ، وَأَصْبَحَ الْمَاشِي مُمْضِراً ^(٨) ، وَالْمُتْرِبُ مُعْدِماً ،

[١] مرتجيس : مصووت من الرجس كحمل وهو الصوت ، مختلس : كأنه يختلس البصر لشدة إمامته ،
منبجس : منفجر .

[٢] أترع : ملأ والغدر جمع غدِير ، والوَجْر جمع وجار ككتاب وسحاب وهو جحر الضبيع والثعلب ،
واثبت : أخرج نبيتها وهو تراب البئر والقبر ، أي أنه لشدة هدم الوجر حتى أخرج ما بداخلها من التراب .
[٣] الأوعال جمع وعل ، (كشمس وكتف ودئل) : التيس الجبلي ، والآجال جمع أجل كحمل وهو
القطيع من البقر أي أنه لشدة جمع بين النوعين - وهي تسكن الجبال - وبين البقر - وهي تسكن القيعان
والرمال ، والصيران جمع صوار كشجاع ، وصيار ككتاب وهو القطيع من البقر ، والرثال جمع رأل كشمس
فرخ النمام ، فالرثال تسكن الجلد (بالتحريك وهي الأرض الصلبة المستوية المنن) والصيران تسكن الرمال
والقيعان ، فقرن بينهما .

[٤] هدير : أي صوت كهدير الابل ، الشراج جمع شرج كشمس وهو ميل الماء من الحرة الى السهل
والتللاع : مسابيل الماء من الجبال حتى ينصب في الوادي . [٥] النبع : شجر يتخذ منه القسي ينبت في
الجبال ، والعتم : الزيتون الجبلي كقفل وعنق ، والقلل : أعالي الجبال جمع قلة كفرصة ، والشم : الرقعة
جمع شماء ، والقيعان جمع قاع : وهي أرض سهلة مطمئة قد انفرجت عنها الجبال والآكام ، والصحم : التي تعلقها
حمره جمع أصحم . [٦] المعصم : الذي قد تمسك بالجبال وامتنع فيها (ويقال للرجل الذي يسك برف فرسه
خوف السقوط : معصم) مجرثيم : متقبض ، الداخض : الذي يفحص برجليه عند الموت ، والمجرجم : المصروع .
[٧] صاب : جاد ، وكلبت : اشتدت ، والأحمال جمع محل كشمس وهو الفحط ، وعكف : أقام .

[٨] الماشي : صاحب المشية ، مشى الرجل وأمشى : كثرت ماشيته ، والمصرم : المقارب المائل القفل ،

وَجُفِيَتْ الحَلَالِيلُ ، وَأُمْتِهِنَتِ العَقَائِلُ ، فَأَنْشَأَ سَحَاباً رُكَّاماً^(١) ، كَنَهَوْرًا سَجَّامًا ،
بُرُوقَهُ مَتَأْتِقَةٌ ، وَرُعُودُهُ مُتَعَقِّمَةٌ ، فَسَحَّ سَاجِيًا^(٢) رَاكِدًا ، ثَلَاثًا غَيْرَ ذِي فُوقٍ ،
ثُمَّ أَمْرَ رَبِّكَ الشَّمَالَ ، فَطَحَّرَتِ^(٣) رُكَّامَهُ ، وَفَرَّقَتِ جَهَامَهُ ، فَاثْقَشَعَ حَمُودًا ،
وَقَدْ أَحْيَا وَأَغْنَى ، وَجَادَ فَأَرْوَى ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا تُكْتَبُ نِعْمَتُهُ ، وَلَا تَنْفَدُ
قِسْمَتُهُ ، وَلَا يَخِيْبُ سَأَلُهُ ، وَلَا يَنْزُرُ^(٤) نَائِلُهُ . (الأملی ١ : ١٧٦)

٦٧ - أعرابي يصف مطرا

عن الأصمعي قال : « سألت أعرابياً من بني عامر بن صعصعة عن مطر
صَابَ بلادهم فقال :

« نَشَأَ عَارِضًا^(٥) ، فَطَلَعَ نَاهِضًا ، ثُمَّ ابْتَسَمَ وَامِضًا ، فَأَعَسَّ فِي الْأَقْطَارِ
فَأَسْجَاهَا ، وَامْتَدَّ فِي الْآفَاقِ فَغَطَّاهَا ، ثُمَّ ارْتَجَزَ^(٦) فَهَمَّهُمْ ، ثُمَّ دَوَى فَأَظْلَمَ ،

وانترب الغي الذي له المال مثل التراب كثرة ، يقال : أترب الرجل إذا كثر ماله (وقل أيضاً . ضد)
وترب كفرح إذا افتقر كأنه لصق بالتراب ، وامتهنت : استخدمت وامتلت ، والعقائل جمع عقيلة ، وأنشأ
أحدث ، والش : السحاب أول ما يخرج .

[١] الركام : التراكم ، والكنهور من السحاب قطع كأنها الجبال ، أو التراكم منه ، واحدته كنهورة ،
وسجّام : صباب ، ومتأتقة : لامعة ، ومتعقمة : مصوتة .

[٢] سح : صب ، ساجياً : ساكناً ، راكداً : ثابتاً ، والفواق : أن يصب صبة ثم يسكن ، ثم يصب
أخرى ثم يسكن مأخوذ من فواق اللاقة وهو ما بين الحلبتين ، كأنه يحلب حلبة ثم يسكن ، ثم يحلب أخرى
ثم يسكن . [٣] طحرت : أذهبت وأبدت ، والجهام : السحاب الذي قد هراق مائه ، تكنت : تحصى .

[٤] ينزر : يقل ، ومنه قيل : امرأة تزور : إذا كانت قليلة الولد .

[٥] العارض : السحاب الممتد في الأفق ، وومض البرق كوعد : لمع خفيفاً ، ولم أجد في كتب اللغة
« أعس » وإنما الذي فيها « ععس السحاب : دنا من الأرض » وأسجهاها : غطاها ، وفي الأصل « أسجهاها »

باء . وهو تصحيف . [٦] ارتجز الرد : صات ، وارتجز السحاب : تحرك بطيئاً لكثرة مائه ،
رههم الرد : إذا سمعت له دوياء ، والهمهمة : كل صوت معه بحج ، وأرك : أتى بلاك (بفتح الراء ويكسر)
وهو المطر اللليل أزهو فوق الدث ، والدث بالفتح : المطر الضعيف ، والبغشة بالفتح : العارة الضعيفة

وقد شئت السماء كعب ، والظش : المطر الضعيف وهو فوق الرداد ، طشت السماء كنصر وضرب .

ارتعاضه ، وأوفدت سِقَابَهُ ^(١) ، وامتدت أطنابُه ، تدارك وَذْقُه ، وتألّق بَرَقُه ،
وَحَفَرَت تَوَالِيه ^(٢) ، وَأَنْسَفَحَت عَزَالِيه ، فغادر الثرى عَمِداً ^(٣) ، وَالْعَزَازَ تَمِداً ،
وَالْحُثَّ عِقِداً ^(٤) ، وَالضَّحَاضِحَ مُتَوَاصِيَةً ، وَالشُّهَابَ مُتَدَاعِيَةً .

وقال الآخر : « تَرَاءَتِ الْمَخَالِيلُ ^(٥) مِنَ الْأَقْطَارِ ، تَحْنُ حَنِينِ الْعِشَارِ ،
وَتَتَرَامِي بِشُهْبِ النَّارِ ، قَوَاعِدُهَا مِتْلَاحِكَةٌ ^(٦) ، وَبَوَاسِقُهَا مُتَضَاحِكَةٌ ، وَأَرْجَاؤُهَا
مِتْقَازِفَةٌ ، وَأَعْجَازُهَا مُتَرَادِفَةٌ ، وَأَرْحَاؤُهَا مُتَرَاصِفَةٌ ، فَوَصَلَتِ الْغَرْبَ بِالشَّرْقِ ،
وَالْوَبْلَ بِالْوُذْقِ ، سَحَّادَرًا كَمَا ^(٧) ، مُتَتَابِعًا لَكَمَا كَمَا ، فَضَحَضَحَتِ الْجَفَاجِفَ ^(٨) ،
وَأَنْهَرَتِ الصِّفَافِصِفَ ، وَحَوَّضَتِ الْأَصَالِفَ ، ثُمَّ أَقْلَعَتِ مَحْمُودَةَ الْآثَارِ ،
مَوْمُوقَةَ الْخِيَارِ » .

فرجه ، وأصله الفرج بين الأثاق والثقب الصغير وكل خلل أو خرق في باب ومنخل وبرقع ونحوه ، وارتعج :
ارتعد ، وارتعص : تلوى وانتفض ، وارتعص الرمح : اشتد اهتزازُه .

[١] أوفدت : أشرفت ، والسقاب جمع سقب كشمس وهو عمود الجباء ، والأطناب جمع طناب كدق وهو
حبل طويل يشد به الوتد . [٢] حفزه كضربه : دفعه من خلفه ، والتوالي : الأجزاء والمآخير ، والعرالي
بكسر اللام وفتحها جمع عزلاء : وهي مصب الماء من الراوية ونحوها ، وانسفحت : انصبت ، من سفع الدم
أراقه . [٣] عمد الثرى كفرح : بلله المطر حتى إذا قبضت عليه تعقد لدوته ، والعزاز : الأرض الصلبة
مكان ثند : ند من الناد بالتحريك وهو الديو . [٤] الحث : اليابس الحشن من الرمل ، والعقد ككف
وجبل : ماتعد من الرمل وتراكم ، والضحضح كجعفر والضحضاح : الماء اليسير ، متواصية : متواصلة ، والشعاب
جمع شعبة كفرصة : وهي المسيل في الرمل ، وماعظم من سواقي الأردنية ، وصدع في الجبل يأوي إليه المطر .
[٥] مخاليل جمع مخيلة « بضم الميم وكسر الخاء » والمخيلة والمخيلة « بتشديد الياء المكسورة » السحابة
التي تمسها مطرة ، والمشار جمع عشاء كنفاء : وهي الناقة التي مضى لفلها عشرة أشهر أرثمانية ،
أو هي كالنفاء من النساء ، والشهب جمع شهاب ككتاب : وهو شعلة من نار ساطعة .

[٦] قواعدها : أسافلها ، وأصله من قواعد البيت : أى أساسه ، متلاحكة : أى قد اشتد التماسها ،
والتلاحكة : الناقة الشديدة الخلق ، وبواسقها : أعاليها جمع باسقة ، من بسق : أى طال وارفع ، ومتضاحكة :
أى يضحك فيها برقتها ، متقازفة : أى يقذف بعضها بعضاً بالمطر ، وأرجاؤها : أوساطها ، متراصفة : متراكمة
قد رصف بعضها فوق بعض . [٧] أى صبا متتابعا ، ولما كانا : تراهما من السكك ككتاب وهو لزحام .
[٨] الجفاجف جمع جفجف كجعفر : وهي الأرض المرتفعة ليست بالغليظة ، وضحضحتها : جهات فيها ضحضاح ،
والصفاصف جمع صفصف كجعفر : وهو المستوى من الأرض ، وأنهر الماء : أساله ، والأصالف والصلفاء :
ما صلب من الأرض ، والجمع أصالف ، وحوضت جعلت فيها حياضاً .

فقال الثالث : والله ما خلته بلغ خمساً ، فقال : هلمَّ الدرهمَ أصفه لك ، فقلت : لا ، أو تقول كما قال ، قال : لا بدُّنَّهما^(١) ووصفاً ، ولأوقفنَّهما رصفاً ، فقلت : هاتِ لله أبوك ، فقال : « بينما الحاضرُ بين الباس والإبلاس ، قد نغمَّهم الإشفاق ، رهبةً الإملاق ، وقد جفَّتْ الأنواء^(٢) ، ورفرف البلاء ، واستولى القنوط على القلوب ، وكثُر الاستغفار من الذنوب ، ارتاح ربك لعباده ، فأنشأ سحاباً مستجبراً^(٣) كنهوراً معنوزكاً محلولكاً ، ثم استقل وأحزألك ، فصار كالسما دون السماء ، وكالأرض المدخوة^(٤) في لوح الهواء ، فأحسبَ الشهور ، وأتأقَّ الهجول ، وأحيا الرجاء ، وأمات الضراء ، وذلك من فضل رب العالمين . »
قال : فملا والله اليقع صدرى ، فأعطيت كل واحدٍ درهماً ، وكتبت كلامهم .
(بوغ الأرب ٣ : ٢٥٢)

٦٩ - أعرابي يصف مطراً

عن الأصمعي قال : سألت أعرابياً عن مطر صابهم بعد جدب فقال :
« ارتاح لنا ربك بعد ما استولى على الظنون ، وخامر القاب القنوط ، فأنشأ بنوء الجبهة^(٥) قرعةً كالفرض من قبل العين ، فاحزألت عند ترجل النهار ،

[١] بدء : فاته وغلبه ، والحاضر : ساكن الحضر ، والباس : العذاب والشدة ، والإبلاس : النحير واليأس ، والاشفاق : الخوف ، والإملاق : الفاقة . [٢] الأنواء جمع نوء : وهو في الأصل سقوط النجم في المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله في ساعته من المشرق ، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحروالبرد إليها . [٣] مستجبراً : لم أجده هذه الكلمة في كتب اللغة ، وربما كان الأصل : « مستنيراً » من استنهر الشيء إذا اتسع ، والمحلولك : الشديد السواد ، وقد تقدم معنى اعتك واستعتك ، واعتونك افوعل من هذه اللادة ، ولم أجده في كتب اللغة . [٤] الميسوطة ، واللوح : الهواء وأحسبها : أروها ، من أحسبه إذا أطعمه وسقاه حتى شبع وروى ، وأتأق : ملا ، والهجول جمع هجل كشمس : وهو المطمئن من الأرض ، واليقع واليافع : الشاب .
[٥] الجبهة : منزل للقمر ، قرعة : قطعة من الحجاب ، والفرض : الترس ، والعين : الفلاة ، وترجل النهار : ارتفع .

لَا زَمِيمَ السِّرَارِ^(١) ، حتى إِذَا نَهَضَتْ فِي الأفقِ طَالِعَةً ، أمرَ مَسْخَرَهَا الجَنُوبَ
فَتَنَسَمَّتْ لَهَا ، فانتشرت أَحْضَانُهَا ، وَأَحْمَوْتِ أركانها ، وَبَسَقَ عَنَانُهَا^(٢) ،
وَكَفَهَرَتْ رَحَاهَا ، وَانْبَعَجَتْ كُلاهَا ، وَذَمَّرَتْ أُخْرَاهَا أَوْلَاهَا ، ثم استطارت
عَقَائِقُهَا ، وَتَقَعَّقَمَتْ صَوَاعِقُهَا ، ثم ارْتَمَعَتْ^(٣) جوانبها ، وَتَدَاعَتْ سَوَا كِبُهَا ،
وَذَرَّتْ حَوَالِيَهَا ، فَكَانَتِ الأَرْضُ طَبَقًا^(٤) ، سَحَّ فَهَضَبَ ، وَعَمَّ فَأَحْسَبَ ،
فَعَلَ القِيَمَانَ ، وَضَحَّضَحَ الغَيْطَانَ ، وَجَوَّخَ الأَضْوَجَ^(٥) ، وَأَتْرَعَ الشَّرَاجَ ،
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ كِفَاءً إِسَاءَتِنَا إِحْسَانًا ، وَجَزَاءَ ظَلَمَانَا غُفْرَانًا .

(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٣)

٧٠ - أعرابي يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً من بني عامر بن لوئى بن
صَعَصَعَةَ يصف مطراً فقال :

« نَشَأَ عِنْدَ القَصْرِ ، بِنَوْءِ الغَفْرِ^(٦) ، حَبِيْبًا عَارِضًا ، ضاحِكًا وَامِضًا ،
فَكَلَّالًا وَلَا^(٧) ، ما كان ، حتى شَجِبَتْ بِهِ أَقْطَارُ الهِواءِ ، واحتجبت به السماء ،

[١] الإزيم : ليلة من ليالي الخاق - والحاق مثنوية : ثلاث ليال من آخر النهر ، والسرار :
آخر ليلة من الشهر ، وأحضانها جمع حضان كحل : وهو جانب الشيء وناحيته ، واحموت : اسودت .
[٢] بسق : ارتفع ، والعنان : السحاب ، رحاها : وسطها ، وانبعج : انشقت ، والكلبة من
السحاب : أسفله - ومن الزادة رقعة مستديرة تخرز عليها تحت العروة ، وذمرت : حضت - والتذامر :
التحاض على العتال ، عقائقها : بروقها المشبهة للعقائق .
[٣] ارتمن المطر : ثبت وجد . [٤] غيث طبق : عام واسع يطبق الأرض ، وهصب كغرب :
مطر . [٥] جَوَّخَ السيل الوادى : إذا كسر جنبه وافتتح أجرافه ، وفي الأصل «خوخ» وهو تصحيف
والأضواج جمع ضوج كشمس : وهو منعطف الوادى ، والشراج جمع شرج كشمس أيضاً : وهو مسيل
الماء من الحرة (بنتج الماء) إلى السهل .

[٦] القصر : العشى ، والغفر : منزل للقمر ، والحبي : السحاب يشرف من الأفق على الأرض ، وألذى
بعضه فوق بعض . [٧] قال في اللسان : « والعرب إذا أرادوا تقليل مدة فعل أو ظهور شيء خفي
قالوا : كان فعله كلا ، وربما كرروا فقالوا كلا ولا ، قال الناصر : يكون نزول القمر فيها كلا ولا : » ،
والشجا : ما اعترض في الخلق من نظم ونحوه ، وقد شجى به كرضى .

ثم أطرق^(١) فاكفهر^(٢) ، وتراكم فأذ لهم^(٣) ، وبسقى فازلام^(٤) ، ثم حدت به الريح ،
فخن^(٥) ، فالبرق مرتبع^(٦) ، والرعد متبوع^(٧) ، والخروج متبعج^(٨) ، فأنجم ثلاثاً ،
متحيراً ههنا^(٩) ، أخلافة حاشكة^(١٠) ، ودفعه متواشكة^(١١) ، وسوامه متعاركة^(١٢) ، ثم
ودع منجماً^(١٣) ، وأقلع متهماً^(١٤) ، محمود البلاء^(١٥) ، مترع النهاء^(١٦) ، مشكور النعماء^(١٧) ،
بطول^(١٨) ذى الكبرياء^(١٩) . (بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٤)

٧١ - أعرابي يصف مطراً

عن أبي عبيدة قال : خرج النعمان في بعض أيامه في عقب سماء ، فلقى
أعرابياً على ناقة ، فأمر فأتى به ، قال : كيف تركت الأرض وراءك ، فقال :
« فيح رحاب^(١) » ، منها السهول ومنها الصعاب ، منشوطة يجبالها ، حاملة
لأثقالها ، قال إنما سألتك عن السماء ! قال :
« مطلة^(٢) مستقلة^(٣) ، على غير سقاب ولا أطناب ، يختلف عصراها ،
ويتعاقب سراجها ، قال : ليس عن هذا أسألك ! قال : فسأل ما بذاك ، قال :
هل صاب الأرض غيث^(٤) ؟ قال :
« نعم : أنمطت^(٥) السماء في أرضنا ثلاثاً رهواً ، فثرت وأرزغت^(٦) ،

[١] هو من أطرقت الإبل : تبع بعضها بعضاً ، وادلهم : اسود .

[٢] التبوع : الصياح ، والخروج : السحاب أول ما ينشأ ، متبعج : متندق .

[٣] الههات : السريح ، حاشكة : كثير الماء ، متواشكة : يسارع بعضها بعضاً ، والسوام : الإبل الراحية .

[٤] أعجم المطر وغيره : أقلع ، ومنهما : أي سائراً نحو تهامة ، والهاء جمع نهي بالكسر والفتح وهو الدير .

[٥] أي بفضله وقدرته .

[٦] فيح جمع فيحاء : راسعة ، وكذا رحاب ، منشوطة : مشدودة ، من نشط الجبل كنصر عقده

(وأشطه : حله) . [٧] مطلة : مرتفعة ، وكذا مستقلة ، والسقاب جمع سقب كشمس : وهو عمود الجباء ،

والعصران : الليل والنهار ، وسراجها : الشمس والقمر . [٨] أي دامت ولازمت ، والرهو : السكون

والثرة من العيون : الغزيرة كالثرارة ، وقد ثرت هي ، والرزغة بالتحريك : الوحل ، وأرزغ المطر الأرض

بها ولم تسبل ، ورسغ المطر : كثر وثرى الأرض حتى تبلغ يد الحافر عنه إلى ارساغه .

وَرَسَّغَتْ ، ثم خرجتُ من أرض قومي أقرؤها ^(١) ، فإذا هي مُتَوَاصِيَةٌ ،
لا خَطِيئَةَ بَيْنَهَا ، حتى هبَّتْ بِمِشَارٍ ، فتداعى السحابُ من الأقطار ، فجاءنا
بالسيل الخرار ، فعفا ^(٢) الآثَارَ ، وملأ الجفارَ ، وقوّرَ عالي الأشجار ، فأججَرَ
الحُضَارَ ، ومنع السُّفَارَ ، ثم أفلعَ عن نفع وإضرار ، فلما اتلأَّت ^(٣) لى القيعانَ ،
ووضحت السُّبُلَ فى العِيظانِ ، وفات العنانُ ، من أقطار الأعنان ، فلم أجد
وَزْرًا إلا الفيران ، ففات وجر الضبُع ، فنادرتُ السهول كالبحار ، تتلاطم
بالتيار ، والحزون متلفعةً بالغماء ^(٤) ، والوحوش مقدوفةً على الأرجاء ، فزالت
أطأ السماء ، وأخوض الماء ، حتى وطئت أرضكم . (بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٧)

٧٢ - أعرابى يصف مطرا

عن أبى عبيدة قال : وقف أعرابى على قوم من الحاجّ فتال :
« يا قومي بداشانى ، والذى أَلْفَجَنِي ^(٥) إلى مسألتكم ، إن النيث كان قد
قوى عنا ، ثم تكره فأ السحاب ، وشصا الرّبابُ ، وأذلهم سيّقه ^(٦) ، فارتجس
ريّقه ، وقلنا : هذا عامٌ باكرٍ الوسمى ^(٧) ، محمود السميّ ، ثم هبت له الشمال ،
فأحزألت طخاريره ^(٨) ، وتقرّع كرفئه متباشراً ، ثم تتابع لمعانُ البرق ، حيث

[١] أتيمها ، والخطيئة : الأرض لم تمطر بين مطورتين ، أو التي مطر بعضها ، وعشار : موضع .
[٢] عفاها وطمسها ، والجفار جمع جفر كشمس : البئر التي لم تطو ، وقورها : قطع من وسطها خرقة
مستديرا ، وأججر ، من أججر الضب : أى أدخله فى ججره ، والحضار جمع حاضر وهو المقيم فى الحضرة ،
والسفار جمع سافر وهو المسافر لافعل له . [٣] استقامت ، والعنان : السحاب ، والأعنان من السماء :
نواحيها ، ولوزر الملجأ ، والفيران جمع غار : وهو الكهف فى الجبل ، والوجار بالكسر والفتح : ججر
الضبغ وغيرها . [٤] الغناء : البالى من ورق الشجر المحالط لزبد السيل .
[٥] ألجأنى ، وقوى المطر : احتبس ، وتكرهأ : تراكم ، وشصا : ارتقع ، والرباب : السحاب الأبيض .
[٦] اذلهم : اسودّ ، والسيق : السحاب لاءما فيه ، والريق : تردّد الماء على وجه الأرض .
[٧] الوسمى : مطر الربيع الأول ، سمي بذلك لأنه يسم الأرض بالنبات ، والسمى جمع سماء : وهو المطر
أو المطرة الجيدة . [٨] الطخارير جمع طخور كصفور بالحاء والحاء : اللطخ من السحاب ، والكرفى :
السحاب المرتفع التراكم ، وتقرّع : تفرّق وانفثع ، وشام البرق : نظر إليه أين يقصد .

تَشِيْمُهُ الْأَبْصَارَ ، وَتَجْدُهُ النَّظَارَ ، وَمَرَّتِ (١) الْجَنُوبُ مَاءً ، فَقَوَّضَ الْحَىُّ مُزْلَمَيْنِ
نَحْوَهُ ، فَسَرَّحْنَا الْمَالَ فِيهِ وَكَانَ وَجْهًا وَخِيَمًا ، فَأَسَافَ الْمَالَ ، وَأَضْفَ الْحَالَ ، فَرَحِمَ
اللَّهُ امْرَأَ جَادٍ بِمَيْرٍ ، أُوْدِلَ عَلَى خَيْرٍ . (بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٨)

٧٣ - أعرابي يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال :

قال أبو حبيب - وكان أعرابياً من بني ربيعة بن مالك - : « لقد رأيتنا في
أرضٍ مَجْفَاءٍ (٢) ، وزمانٍ أَعْجَفَ ، وشجرٍ أَعْمَمَ ، في قُفٍّ غَلِيظٍ ، فبينما نحن
كذلك ، إذ أنشأ الله تعالى من السماء غَيْثًا مُسْتَكْرَمًا (٣) نَشُوهُ ، مُسْبَلَةً عَزَّيْلِيهِ ،
صِنْخًا مَاقَطْرُهُ ، جَوْدًا صَوَّبُهُ زَاكِيًا ، أنزله الله تعالى رزقًا لنا ، فَعَمِشَ بِهِ أَمْوَالَنَا ،
وَوَصَلَ بِهِ طَرْقَنَا ، وَأَصَابَنَا وَإِنَّا لَبِنَوْطَةٌ (٤) بَعِيدَةُ الْأَرْجَاءِ ، فَاهْرَمَعَ مَطْرُهَا ،
حَتَّى رَأَيْتُنَا وَمَا نَرَى غَيْرَ السَّمَاءِ وَالْمَاءِ ، وَضَهَوَاتِ الطَّلْحِ (٥) ، وَضَرَبَ السَّيْلُ
النَّجَافَ ، وَمَلَأَ الْأَوْدِيَةَ فَزَعَبَهَا ، فَمَا لَبَدْنَا إِلَّا عَشْرًا ، حَتَّى رَأَيْتُهَا رَوْضَةً تَنْدَى .
(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٩)

[١] هو من مرى الناقة كرمى : مسح ضرعها لتدر ، مزلمين : ماضين مرتحلين إليه ، وأساف المال :
أهلكه ، والسواف كجبان وشجاع : الموت في الناس والمال ، ساف سوفاً أى هلك ، وأسافه الله ، ويقال
أيضاً أساف الرجل : وقع في ماله السواف أى الموت ، وأضف من الضف كسبب وهو الضيق والشدة ،
أصابهم من العيش ضفف أى شدة .

[٢] ليس بها نبات ، وأصله من العجف بالتحريك وهو الهزال ، وأعمم : يابس ، وأصله من العمم
بالتحريك وهو يبس في مفصل الرسغ تعرج منه اليد والقدم ، والقف : ما غلظ من الأرض وارتفع ، لم
يبلغ أن يكون جبلاً ، وأنشأ الله السحاب : رفعه . [٣] مستكراً : مستديراً كالكفة ، (والكفة
بالكسر ويضم كل مستدير) ، وصوبه : مطره . [٤] النوطة : الأرض يكثر بها الطلح (والطلح :
شجر عظام) والمرضع المرتفع عن الماء ، أو ليس بواد ولا تلة بل بين ذلك ، واهرمع : كثر وأسرع .
[٥] الضهوة : بركة الماء ، والنجاف جمع نجف بالتحريك وبهاء : مكان لا يعلوه الماء ، أو هى أرض
مستدرة مشرفة على ما حولها ، وزعها : ملأها .

٧٤ - أعرابي يصف مطرا

ودخل أعرابي على سليمان بن عبد الملك فقال :

« أصابتك سماء في وجهك يا أعرابي » ؟ قال : « نعم يا أمير المؤمنين ، غير أنها سحابة طحناء وطفاء ^(١) ، كأن هوائها الدلاء ، مُرَجِحَةٌ النواحي ، موصولة بالآكام ، تكاد تمس هام الرجال ، كثير زجلها ^(٢) ، قاصف رعدُها ، خاطف ^(٣) برقها ، حديد ودقها ، بطيء سيرها ، مُشَعْنَجِرٌ قَطْرُها ، مظلم نوؤها ، قد لجئت الوحش إلى أوطانها ، تبحث عن أصولها بأظلافها ، متجمعة بعد شتاتها ، فلولا اعتصامنا يا أمير المؤمنين ببعض الشجر ، وتعلقنا بقتن الجبال ، لكنا جفأ ^(٤) في بعض الأودية ، ولقم الطريق ، فأطال الله للأمة بقاءك ، ونسألها في أجلك ببركتك ، وعاد الله بك على رعيتك ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد .
فقال سليمان : « لعمري أياك لمن كانت بديهة لقد أحسنت ، وإن كانت مَجْبَرَةً لقد أجدت » ، قال : بل مجبرة مهذورة يا أمير المؤمنين ، قال : « يا غلام أعطه ، فوالله لصدقه أعجب إلينا من صفته » . (العقد الفريد ٢ : ٩٦)

٧٥ - أعرابية تصف مطرا

عن الأصمعي قال : « كان شيخ من الأعراب في خبائه ، وابنة له بالفناء ^(٥) ، إذ سمع رعداً فقال : ما ترين يا بُدَيَّةُ ؟ قالت : أراها حواء قرحاء ^(٦) ، كأنها أقرب

[١] سحابة وطفاء : مسترخية لكثرة ماؤها ، أو هي الدائمة السح الحثيثة ، هوائها : أوائلها ومقادها ، مرجنة : ثقيلة مهترية . [٢] ازجل : الجلبة ورفع الصوت ، مشعجر : سائل منصب ، ولجأ إليه كنع وفرح ، وأظلاف جمع ظلف بالكسر وهو للبقرة والشاة والطي وشبهها كالقدم لنا ، والفن جمع قنة ، وهي قنة الجبل . [٣] زد هذه الكلمة كي يستقيم بها الكلام والظاهر أنها سقطت من الأصل في الطبع . [٤] الجماء : الزبد ، ولقم الطريق : معطاه أو وسطه ، وفي الأصل : « نعم » وهو محريف .

[٥] الفناء : ما اتسع أمم الدار . [٦] حواء : وصف من الحوة بالضم وهي حمرة الى السواد ،

أَتَانِ قَرَاءَ ، ثم سمع راعدة أخرى فقال : كيف ترينها ؟ قالت : أراها جَمَّةَ
التَّرَجَافِ^(١) ، متساقطة الأكناف ، تتألق بالبرق الولَافِ ، قال : هُمَّى المِغْرَفَةِ ،
إِنْتِي^(٢) نُؤْيَا . (بلوغ الأرب ٣ : ٢٥١)

٧٦ - أعرابية تصف مطراً

عن الأصمعي قال : كَانَ أعرابي ضريير تقوده ابنته ، وهي ترعى غَنِيَمَاتِ لها ،
فَرَأَتْ سحَابًا فَقَالَتْ : يَا أَبْتَ جَاءَتْكَ السَّمَاءُ ، فَقَالَ : كَيْفَ تَرِينَهَا ، قَالَتْ :
كَأَنَّهَا فَرَسٌ دَهْمَاءٌ^(٣) تَجَرَّجَلَاهَا ، قَالَ : ارْعَى غَنِيَمَاتِكَ ، فَرَعَتْ مَلِيًّا ، ثُمَّ قَالَتْ :
يَا أَبْتَ جَاءَتْكَ السَّمَاءُ ، قَالَ : كَيْفَ تَرِينَهَا ؟ قَالَتْ : كَأَنَّهَا عَيْنُ جَمَلٍ طَرِيفٍ^(٤) ،
قَالَ : ارْعَى غَنِيَمَاتِكَ ، فَرَعَتْ مَلِيًّا ، ثُمَّ قَالَتْ : يَا أَبْتَ جَاءَتْكَ السَّمَاءُ ، قَالَ : كَيْفَ
تَرِينَهَا ؟ قَالَتْ : سَطِحَتْ وَابْيَضَّتْ ، قَالَ : أَدْخِلِي غَنِيَمَاتِكَ ، قَالَ : فِجَاءَتِ السَّمَاءُ
بِشَيْءٍ شَطَّأً^(٥) لَهُ الزَّرْعُ وَأَيْع ، وَخَضِرَ وَنَضِرُ . (بلوغ الأرب ٣ : ٢٦٠)

٧٧ - أعرابي يصف أرضاً

ووصف أعرابي أرضاً أحمدها فقال :

« خَلَعَ شَيْحُهَا ، وَأَبْقَلَ رَمْثُهَا ، وَخَضَبَ عَرَفَجُهَا^(٦) ، وَأَنْسَقَ نَبْثُهَا ،
وَاخْضَرَّتْ قُرُيَانُهَا ، وَأَخْوَصَّتْ بَطْنَانُهَا^(٧) ، وَأَحْلَسَتْ أَكْمَامُهَا ، وَاعْتَمَّ

والقرحة بالضم : في وجه الفرس دون النقرة ، والوصف منه أقرح وقرحاء ، والأقرب جمع قرب كقفل
وعنق : وهو الحاصرة ، والقمرة بالضم : بياض فيه كدرة ، حمار أقر ، وأتان قراء .

[١] كثيرة الاضطراب ، الولاف : المتتابع ، من ولف البرق كوعد ولفاً وولافاً بالكسر : تتابع .

[٢] النوى : الحفير حول الحباء يمنع السيل ، وانتأيته حملته .

[٣] سوداء ، والجلال جمع جل بالضم والفتح : ما تلبسه الدابة لنصان به .

[٤] الجمل ينتقل من مرعى إلى مرعى . [٥] شطأ الزرع : أخرج شطأه ، أى فراخه .

[٦] خلع الشيح : أورق (والخالغ من العضاء : الذى لا يسقط ورقة أبداً ، والعضاء كتاب : كل شجر

له شوك) والرمت : مرعى للإبل ، وشجر يشبه العضاء ، والعرفج : شجر سهلي ، وخضب الشجر كضرب
وسمع وعى : اخضر . [٧] القربان : مجارى الماء من الربو إلى الرياض جمع قرى كقنى ، وأخوص

نَبْتُ جَرَائِمِهَا^(١) ، وَأَجْرَتْ بَقْلَتِهَا وَذَرَقَتِهَا وَخُبَازَتِهَا^(٢) ، وَأَحْوَرَّتْ خَوَاصِرُهَا ، وَشَكَرَتْ حَلْوَبَتِهَا ، وَسَمِنَتْ قَتُوبَتِهَا^(٣) ، وَعَمِدَتِهَا ، وَعَقَدَتْ تَنَاهِيَهَا ، وَأَمَاهَتْ ثَمَارَهَا ، وَوَثِقَ النَّاسُ بِصَافِرَتِهَا^(٤) . (البيان والتبيين ٢ : ٧٧)

٧٨ - رائد يصف أرضاً جذبة

قال أبو المجيب : وصف رائدُ أرضاً جذبة فقال :

« أَغْبَرَّتْ جَادَتِهَا^(٥) ، وَذَرَعَ مَرْتَعَهَا ، وَقَضِمَ شَجْرُهَا ، وَرَقَّتْ كَرِشِهَا ، وَخَوَّرَ عَظْمَهَا ، وَالتقى سَرْحَاهَا^(٦) ، وَتَمَيَّزَ^(٧) أَهْلُهَا ، وَدَخَلَ قُلُوبَهُمُ الْوَهْلُ ، وَأَمَوَالَهُمُ الْمَهْزَلُ » . (البيان والتبيين ٢ : ٧٧)

العرفج : نطر بورق ، وأخوصت النخلة : أخرجت الحوص ، والبطنان جمع باطن وهو الماض من الأرض أى المعائن منها . [١] أحلس النبت : غطى الأرض بكثرة ، وأحلس الأرض ذهبى محلسة : صار النبات عليها كالحلس كثرة - الحلس كحل كساء على ظهر البعير - والجرائيم جمع حرثومة بالضم ، وجرثومة الشيء : أصله ، واعتم : أى كأنه لبس عمامة . [٢] أجرت البقلة : صارت لها جراء - وجراء ككتاب جمع جرو بالثبيل وهو صغير كل شئ - والذرة واحدة الذرق وهو نبات مثل الكراث الجبلى الدقاق فى رأسه حب حلو يؤكل رطباً نجبه الرطاة يأتون به أهلهم ، والخبارة والخبازى : النبت المعروف .

[٣] احورَّت : ابيضت وذلك من الشد على خواصرها لئلا تحببط (والحبط بالتحريك : انفاخ بطنها من مرعى ترعاه) والحلوبة : الحلوبة ، وشكرت الناقة : امتلأ ضرعها ، والداية : سميت ، والقنوبة : الابل التى تقتها (وأقنب الناقة : شد عليها القتب (بالتحريك) وهو إكاف صغير على قدر سنام البعير) .

[٤] عمد الثرى : بله المطر حتى إذا قبضت عليه تقدم لدوته ، والتناهى جمع تهنية : وهى مستقر السيل حيث ينتهى الماء من الوادى ، وعقدت تناهيها : أن يمر السيل مقبلاً حتى إذا انتهى منتهاه دار بالأبطح حتى يلتقى طرفا السيل ، وأمَاهت ثمارها : أى كثر ماؤها ، والصائرة : المطر والكلاء .

[٥] الجادة : الطريق إلى الماء ، وذرع المربع : بعد عن الماء ، وقضم شجرها : تكسر ، يقال : سيف قضم كفرح : أى طال عليه الدهر فتكسر حده ، وقضم السن : انصدع وتلم ، وإذا لم يكن للجمال مرمعه إلا الشجر وحده رقت أكراشه . [٦] يعنى أنه إذا أكل كل سارح مايليه ، التقيا عند الماء . [٧] نفرّوا فى طلب الكلاء ، والرهل : الفرع ، والهزل : موت مواشى الرجل .

٧٩ - رائد يصف أرضاً

عن محمد بن كُناسة قال : أخبرني بعض فصحاء أعراب طيء قال :
 « بعث قوم رائداً ، فقالوا : ما وراءك ؟ قال : عُشْبٌ وَتَعَاشِبُ ^(١) ، وَكَمَاةٌ
 متفرقة شيبٌ ، تَقْلَعُهَا بِأَخْفَافِهَا النَّيْبُ ^(٢) » ، قالوا : لم تصنع شيئاً ، هذا
 كذب ! فأرسلوا آخر ، فقالوا : ما وراءك ؟ قال : « عُشْبٌ ثَادٌ مَادٌ ، مَوْلِيٌّ ^(٣)
 وَعَهْدٌ ، متدارك جَعْدٌ ^(٤) ، كأخفاذ نساء بني سعد ، تشبَع منه النَّيْبُ وهي تُعَدُّ ^(٥) .
 (البيان والتبيين ٢ : ٧٩)

٨٠ - رائد يصف أرضاً

وبعث رجل أولاده يرتادون في خِصْبٍ ، فقال أحدهم : « رأيتُ بَقْلًا ،
 وماءً غَيْلاً ^(٦) ، يسيل سَيْلًا ، وخُوصه تَمِيل مَيْلًا ، يحسبها الرائد لَيْلًا » ، وقال
 الثاني : « رأيت دَيْمَةً على دَيْمَةٍ ، في عهدها غير قديمة ، وَكَلَّا تشبَع منه النَّاب
 قبل الفطيمة » . (البيان والتبيين ٢ : ٧٩)



وروى هذا الوصف عن ابن الكلبي بصورة أخرى قال :
 « خطب هند بنته الخُسَّ الإيادية ثلاثة نَفَرٍ من قومها ، وارتضت أنسابهم

[١] العشب : الكلالُ الرطب ، والتعاشيب : القطع المتفرقة منه . [٢] النيب جمع ناب : وهو
 الناقة المسنة . [٣] جاء في اللسان : « قال الأصمعي : قيل لبعض العرب : أصب لنا موضعاً أى اطلب
 فقال رائدكم : وجدت مكاناً ثاداً مثداً (بفتح فكسر) وقال زيد بن كثوة : بعثوا رائداً فجاء : عشب
 ثاد ماد (بفتح فسكون) كأنه أسوق بني سعد » وثمد النبات كفرح : ندى فهو ثمد ، وماد كنع اهتز
 وتروى وجرى فيه الماء وتعم ولان ، والماد : الناعم من كل شيء ، والمولى : الذى أصابه الولي
 (والمولى : المطر الذى يأتي بعد المطر) ، والمهد : أول مطر الرسمى (والرسمى : أول مطر الربيع) .

[٤] من قولهم : زبد جعد : أى متراكب مجتمع قر صار بعضه فوق بعض .

[٥] أى أن العشب قر طال وتم ، والذيب تشبَع منه وهي تعد ، لأنها تتناولوه وهي قائمة لانهرج مكانها
 ولا تطأ رأسها . [٦] الغيل : الماء الذى يجرى بين الشجر .

وجاهلهم ، وأرادت أن تسبر عقولهم ، فقالت لهم : « إني أريد أن ترتادوا لى مرعى ، فلما أتوها قالت لأحدهم : ما رأيت ؟ قال : رأيت بقلاً وبقيلاً ، وماء غدقاً^(١) سيلاً ، يحسبه الجاهل ليلاً ، قالت : أمرعت^(٢) ، قال الآخر : رأيت ديمة بعد ديمة ، على عهد غير قديمة ، فالناب تشبع قبل الفطيمة ، قال الثالث : رأيت غيثاً ثمناً معداً معداً^(٣) ، مترا كما جمعاً ، كأخفاذ نساء بنى سعد ، تشبع منه النيب وهي تعدّ . (بلوغ الأرب ٢ : ٢٥٦)

٨١ أعرابي يصف أرضه وماله

عن أبي عمرو بن العلاء قال : لقيت أعرابياً بمكة فقلت له ، ممن أنت ؟ قال : أسدي ، قلت : ومن أيهم ؟ قال : نهدي ، قلت : من أى البلاد ؟ قال : من عمان ، قلت : فأنتى لك هذه الفصاحة ؟ قال : « إنا سكننا قطراً لا نسمع فيه نأججة التيار^(٤) » ، قلت : صف لى أرضك ، قال : « سيف أفيح ، وفضاء صحصح ، وجبل صردح ، ورمل أصبح^(٥) » ، قلت : فما مالك ؟ قال : النخل ، قلت : فأين أنت من الإبل ؟ قال : « إن النخل حملها غداء ، وسعقها^(٦) ضياء ، وجذعها بناء ، وكرهها صلاء ، وإيفها رشاء ، وخوصها وعا ، وقرؤها إناء . (ذيل الأملى ص ١٧)

[١] الغدق : الماء الكثير . [٢] أمرعه : أصابه مريعاً كخصيب وزنا ومعنى .

[٣] الغيث : المطر والكلأ ، رقيق : الأصل المطر ثم سمى ما ينبت به غيثاً ، والراد هنا الثانى ، وبقل

تعد معد : غض رطب رخص .

[٤] النأججة : الصوت ، والتيار : الموج . [٥] السيف : ساحل البحر ، وساحل الوادى ، أو لكل ساحل سيف ، أو إنما يقال ذلك لسيف عمان ، وأفيح : واسع ، والصحص : ما استوى من الأرض ، والصدح : الصلب ، والأصبح : الذى يعلو بياضه حمرة . [٦] السعف : جريد النخل أو ورقه ، والسكرب : أصول السعف الغلاظ العراض ، والرشاء : الحبل ، والفرو : أسفل النخلة ينقر فيقتبذ فيه - أى يتخذ فيه النبذ -

٨٢ - أعرابي يصف بلدا

وذكر أعرابي بلداً فقال: « بلد كالأرس، ماتمشى فيه الرياح إلا عابرات سبيل، ولا يمرّ فيه السفر إلا بأدلّ دليل » . (العقد الفريد ٢ : ٨٠)

وقال أعرابي: « مررت ببلد ألقى به الصيِّف^(١) بقاعه، فأظهر غديراً يقصُر الطرفُ عن أرجائه، وقد تفتّ الريحُ القُدّي عن مأهه، فكانه سلاسل دِرْج ذاتِ فُضُول^(٢) » . (العقد الفريد ٢ : ٩٦)

وسئل أعرابي عن مسافة ما بين بلدين فقال: « عُمر ليلة، وأديم^(٣) يوم » .
وقال آخر: « سواد ليلة، أو بياض يوم » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥١ والعقد الفريد ٢ : ٩٧)

وقال آخر: « إن المسافر ومتاعه لعلّ قلّت^(٤) إلا ما وقي الله » .

(العقد الفريد ٢ : ٥٢)

٨٣ - أعرابي يصف أشد البرد

سئل أعرابي فقيل له: ما أشدُّ البرد؟ قال: « ريح جرّيباء، في طلّ عماء،

غِبّ سماء^(٥) » . (البيان والتبيين ١ : ١٦٣)

٨٤ - أعرابي يصف إبلا

وقال: سمعت أعرابياً يصف إبلاً فقال:

« إنها لعظامُ الحنّاجِرِ، سِباطُ المشافرِ، كُومٌ بهازِر^(٦)، تُكدّه حنّاجِر^(٧)،

[١] السيف كسيد ويخفف: المطر يجي. في الصيف أو بعد الربيع كالصيف.

[٢] جمع فضل: وهو الزيادة. [٣] أديم الزهار: طامته أو بياضه. [٤] القلت: الهلاك.

[٥] الجريباء: ريح الشمال الباردة، أو الریح بين الجنوب والصباء، والعماء: السحاب المرتفع، أو

الكثيف، أو المطر، في غيبّ سماء: أي عقب مطر. [٦] الحنجرية والحنجور كصفور: الحلقوم،

وجمه حناجر، والمشافر جمع مشفر كبير: وهو البعير كالشفة للإنسان، والكوم: العظام الأسنمة جمع أكوام

وكوماء، والهازر جمع بهزر: كبنذقة، وهي العظيمة من البوق.

[٧] التكد: الغزيرات اللبن من الإبل (والتي لا ابن لها أيضاً ضد)، والحناجر: الغزيران اللبن

أجوافها رِغَابٌ^(١) ، وأعطائها رِحَابٌ ، تُنَمَّعُ مِنَ الْبُهَمِ^(٢) ، وَتُبَدَّلُ لِلجَمَمِ .
(الأمل ١ : ٥٢)

٨٥ - أعرابي يصف ناقة

ووصف أعرابي ناقة فقال : « إذا اِحْكَاثَتْ عَيْنُهَا ، وَأَلَّتْ^(٣) أُذُنُهَا ،
وَسَجَّحَ^(٤) خَدُّهَا ، وَهَدَلَ^(٥) مِشْفَرَهَا ، وَاسْتَدَارَتْ جُمُجُمَتَهَا ، فَهِيَ الْكَرِيمَةُ .
(الأمل ١ : ٢١٧)

٨٦ - أعرابي يصف خيلا

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : « خرجت علينا خيلٌ مستطيرةٌ
التَّقَعُ^(٦) ، كَأَنَّ هَوَادِيَهَا^(٧) أَعْلَامٌ ، وَأَذَانُهَا أَطْرَافُ أَقْلَامٍ ، وَفُرْسَانُهَا أُسُودٌ
أَجَامٌ » .

٨٧ - أعرابي يصف خيلا

وذَكَرَ أعرابي خيلا فقال : « وَاللَّهِ مَا أُنْحَدَرْتُ فِي وَادٍ إِلَّا مَلَأَتْ بَطْنَهُ ،
وَلَا رَكِبْتُ بَطْنَ جَبَلٍ إِلَّا أَسْهَلَتْ حَزَنَهُ » . (العقد الفريد ٢ : ٩٥)

٨٨ - أعرابي يصف خيلا

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يصف خيلا فقال : « سِبَاطُ
الْخَصَائِلِ^(٨) ، ظَمَاءُ الْمَفَاصِلِ ، شِدَادُ الْأَبْجَلِ^(٩) ، قُبُّ الْأَيَاطِلِ ، كِرَامُ
النَّوَابِلِ^(١٠) » . (الأمل ١ : ٥٢)

جمع خنجر كجعفر وبهاء وخنجورة بالضم . [١] رغاب : واسعة ، وأعطائها : مباركها عند الماء جمع
عطن كسبب . [٢] البهم جمع بهمة كفرصة : وهو الشجاع الذي لا يدرى من أين يؤتى ، من شدة
بأسه ، والجم جمع جمة كقبّة ، وهم القوم يسألون في الدّيات .

[٣] ألّ البعير : نصب أذنيه وحددهما . [٤] سجج : سهل وحسن . [٥] هدل : استرخى .
[٦] التغار . [٧] أرائلها . [٨] الخصائل جمع خصيلة : وهي كل قطعة من اللحم مستطيلة أو
مجمعة ، وقيل : هي ما تمازج من لحم المخذ بعضه من بعض ، وسباط جمع سبط ككتف وشمس ، رجل
سبط الجسم إذا كان حسن القصد والاستواء ، وظماء : ضمير . [٩] الأبجل جمع أبجل : وهو عرق
غليظ في الرجل أو في اليد ، يريد أنها شداد القوائم . [١٠] الأباطل جمع أبطل : وهو الخاصرة ،

٨٩ - أعرابي يصف فرسا

ووصف بعض الأعراب فرساً فقال: «قد انتهى ضُمُورُه ، وَذَبَلُ قَرِيرُهُ»^(١) ،
 وظهر حَصِيرُه^(٢) ، وتفلقت غُرُورُه^(٣) ، واسترخت شاكِلمته^(٤) ، يُقبل بزور
 الأسد ، وَيُدْبِر بِمَجْزِ الذئبِ » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٣٣ ، والأمل ٢ : ٢٥٦)

٩٠ - أعرابي يصف خاتماً

وقال أعرابي يصف خاتماً: « شَفَّ^(٥) تقديرُ حَلَقَتِه ، وَدُورُ كَرَسِي فِضْتِه ،
 وَأَحْكَمُ تَرْكِيبِه ، وَأَتَقَنُ تَدْبِيرِه ، فَبِه يَتِمُّ الْمُلْكُ ، وَيَنْفُذُ الْأَمْرُ ، وَيَكْرُمُ الْكِتَابُ ،
 وَيَشْرُفُ الْمَكْتُوبُ إِلَيْهِ » . (العقد الفريد ٢ : ٩٧)

٩١ - أعرابي يصف أطيب الطعام

وقال عبد الملك لأعرابي: « ما أطيبُ الطعام ؟ » ، فقال: « بَكْرَةٌ
 سَنِمَةٌ^(٦) ، مُعْتَبَلَةٌ غير ضَمِنَةٍ ، فِي قُدُورٍ رَذِمَةٌ^(٧) ، بِشِفَارٍ خَدِمَةٌ^(٨) ، فِي غَدَاةٍ
 شَبِيمَةٌ^(٩) » ، فقال عبد الملك: وَأَبِيكَ لَقَدْ أَطِيتَ^(١٠) .
 (البيان والتبيين ١ : ١٦٣)

قَبَّ جمع أقب ، وصف من القب كسبب وهو دقة الخصر وضُمور البطن ، والواجل جمع ناجلة ، من
 نجلته : أى ولدته . [١] الفريز : موضع الحجسة من معرفة الفرس .
 [٢] الحصير : عرق يمتد معترضاً على جنب الدابة إلى ناحية بطنها ، أو لحة كذلك .
 [٣] الغرور : الفضون التي في جلده ، واحدها غرٌّ بالفتح . [٤] الشاكلة من الفرس : الجلد بين
 عرض الخاصرة والثفنة - والثفنة كفرحة : الركبة - . [٥] رقٌّ .
 [٦] البكرة : الفتية من الإبل ، والسمنة : العظيمة السام ، وعله كفرح ، عبط الذبيحة كفرح
 واعتبطها : نحرها من غير تلة وهي سمنة فنية ، والضمنة : الزمنة والمبتلاة في جسدها من الحنة كفرصة
 وهي الرض . [٧] رذمت الفصعة كفرح فهي رذمة ورذوم كصبور : امتلأت وتصببت جوانبها .
 [٨] شفار جمع شفرة « بالفتح » : وهي السكين العظيم ، وخذمه كفربه : قطعه ، وسيف خذم
 ككثف وصبور ومعظم : قاطع . [٩] الغداة : البكرة « بالضم » أو ما بين صلاة الفجر وطلوع
 الشمس ، وشبمة : باردة ، وفعلها كفرح . [١٠] أطاب الشيء وأطيبه : وجده طيباً .

٩٢ - أعرابي يصف السويق

وعاب رجل السَّوَيْقِ^(١) بِحَضْرَةِ أَعْرَابِيٍّ ، فَقَالَ : « لَا تَعْبِهِ ، فَإِنَّهُ عُدَّةُ الْمَسَافِرِ ،
وِطْعَامُ الْعَجْلَانِ ، وَغِذَاءُ الْمُبَكَّرِ ، وَبُلْغَةُ^(٢) الْمَرِيضِ ، وَيَسْرُو^(٣) فَوَادِ الْحَزِينِ ،
وَيَرُدُّ مِنْ نَفْسِ الْمَحْدُودِ^(٤) ، وَجَيِّدٌ فِي التَّسْمِينِ ، وَمَنْعُوتٌ فِي الطَّبِّ ، وَفَقَّارُهُ^(٥)
يَجْلُو الْبَانِعَمَ ، وَمَلْتَوْتُهُ يُصَنِّقِي الدَّمَ ، وَإِنْ شَتَّتَ كَانَ شَرَابًا ، وَإِنْ شَتَّتَ كَانَ طَعَامًا ،
وَإِنْ شَتَّتَ فَتَرِيدًا ، وَإِنْ شَتَّتَ نَخْبِيصًا^(٦) » . (الأمل : ٢ : ١٩٧)

٩٣ - أعرابي يصف الجمال

وقيل لأعرابي ما الجمال؟ قال: «طول القامة، وضخم^(٧) الهامة، ورُحْب^(٨)
الشَّدْقِ ، وَبُعْدُ الصَّوْتِ » ، وَسئِلُ آخَرَ : مَا الْجَمَالُ ؟ قَالَ : « غُثُورُ الْعَيْنَيْنِ ،
وَإِشْرَافُ الْحَاجِبَيْنِ ، وَرُحْبُ الشَّدْقَيْنِ » . (البيان والتبيين : ١ : ٦٧)

٩٤ - أبو المخش يصف ابنه

وسأل جعفر بن سليمان أبا المخش^(٩) عن ابنه المخش^(٩) - وكان جزع عليه
جزعاً شديداً - قال : صف لي المخش ، فقال : « كَانَ أَشَدَّ خُرْطُمَانِيًّا^(١٠) ،
سَائِلًا لَهَا بَهُ ، كَأَنَّمَا يَنْظُرُ مِنْ قَدْتَيْنِ^(١١) ، كَأَنَّ تَرْقُوتَهُ بُوَانٌ ، أَوْ خَالِفَةٌ ،

[١] السويق : ما يعمل من الخنطة والسمير . [٢] ما يتبلغ به . [٣] يسرو : يكشف ماعليه .
[٤] الحدود : الذي قد حد أي قد ضرب الحد . [٥] الفقار : الذي لم يكت بشيء من آدم ،
لازيت ولا سمن ولا لبن . يقال طام قمار . [٦] الحبيص : بقى الدقيق يخلط بالمثل .
[٧] ضخم ككرم ضخماً وضخامة فهو ضخم . [٨] رحب ككرم وسمع رحبا بالضم ورحابة فهو
رحب بالفتح . [٩] المخش في الأصل : الجريء على العمل في الليل .
[١٠] أشدق : واسع الشدقين ، خرطمانياً : طويلاً . [١١] الفت : النقرة في الجبل .

كَأَنَّ مَنكِبَهُ كَرِيكَرَةً جَلِيَّةٌ تَقَالُ ^(١) ، فَقَالَ اللَّهُ عَيْنِي إِنْ كُنْتُ رَأَيْتُ قَبْلَهُ أَوْ
بَعْدَهُ مِثْلَهُ . (البيان والتبيين ١ : ٦٧)

٩٥ - أعرابي يصف بنيه

عن عبد الرحمن عن عمه قال : قلت لأعرابي بِحِمِّي الرَّبْدَةَ : أَلَكِ بَنُونَ ؟
قال : نعم ، وخالفهم لم تقم عن مثلهم مُنْجِبَةً ، فقلت : صِفْهُمْ لِي ، فقال :
« جَهْمٌ ! وما جَهْمٌ ؟ يُنْضِي الوَهْمُ ، وَيَصُدُّ الدَّهْمُ ^(٢) ، وَيَفْرِي الصَّفُوفُ ،
وَيَعْلُ السُّيُوفُ ^(٣) » ، قلت : ثم من ؟ قال : « غَشْمَشَمٌ ! وما غَشْمَشَمٌ ؟ مَالُهُ
مُقَسَّمٌ ، وَقِرْنُهُ مُجْرَجَمٌ ^(٤) ، جَذَلٌ حِكَاكٌ ^(٥) ، وَمِذْرَةٌ لِكَاكٌ ^(٦) » ، قلت : ثم
من ؟ قال : « عَشْرَبٌ ! وما عَشْرَبٌ ؟ لَيْثٌ مُحْرَبٌ ، وَسِمَامٌ مُقَشَّبٌ ^(٧) ، ذِكْرُهُ
بَاهِرٌ ، وَخَصْمُهُ عَاثِرٌ ، وَفِنَاؤُهُ رَحَابٌ ^(٨) ، وَدَاعِيُهُ مُجَابٌ » ، قلت : صف لي
نفسك ، فقال : « لَيْثٌ أَبُو زَيْبَلٍ ^(٩) ، رَكَابٌ مُعَاضِلٌ ، عَسَّافٌ ^(١٠) مُجَاهِلٌ ،
حَمَالٌ أَعْبَاءٌ ، نَهَاضٌ بِزَلَاءٍ ^(١١) » . (الأمل ١ : ٥٣)

- [١] البوان : عمود للخباء ، والحالفة : عمود من أعمدة البيت في مؤخره ، والكركرة : رحي زور
البعير ، وبغير تقال : بطيء .
- [٢] ينضى : يهزل ، والوهم : الضخم العظيم من الإبل ، والدم : العدد الكثير .
- [٣] يفري : يشق ، ويعل : أى يوردها الدماء ثانية ، مأخوذ من العلل في الشرب .
- [٤] المجرم : المصروع . [٥] الجذل : أصل الشجرة ، وذلك أن الإبل الجرب تحتك به فتجد
له لذة ، والمعنى أنه ممن يستشفى به في الأمور بمنزلة ذلك الجذل الذى تستشفى به الإبل .
- [٦] المدره : لسان اقوم ، والمتكلم عنهم ، والدافع عنهم ، يقال : درهته عنى ودراته : أى دفعته ،
واللايك : الزحام . [٧] المحرب : الغضب الذى قد اشتد غضبه واحته ، وحربت السكين : إذا
أحدده ، ومقشَبٌ : مخلوط . [٨] باهر : غالب ، ورحاب : متسع .
- [٩] زيبال جمع زيبال بالكسر يهزم ولا يهزم : وهو الأسد ، والمعاضل : الدواى .
- [١٠] المساف : الذى يركب الطريق على غير هداية ، والأعباء : الأثقال .
- [١١] الزلاء : الرأى الجيد الذى يهزل (بضم الزاى) عن الصواب : أى يشق عنه .

٩٦ - أعرابي يصف أخويه

عن العُتْبِيِّ قال : أَخْبَرَنِي أَعْرَابِي عَنْ إِخْوَةِ ثَلَاثَةِ ، قَالَ : قُلْتُ لِأَحَدِهِمْ :
أَخْبِرْنِي عَنْ أَخِيكَ زَيْدٍ فَقَالَ : « أَزِيدٌ إِنِّيهِ ^(١) ؟ وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْكَنَ
قَوْرًا ، وَلَا أَبْعَدَ غَوْرًا ، وَلَا أَخَذَ لِدَنْبٍ حُجَّةً قَدْ تَقَدَّمَ رَأْسُهَا مِنْ زَيْدٍ » ،
فَقُلْتُ : أَخْبِرْنِي عَنْ أَخِيكَ زَائِدٍ ، قَالَ : « كَانَ وَاللَّهِ شَدِيدَ الْعُقْدَةِ ، لَيْتَنَ الْعَطْفَةَ ،
مَا يُرْضِيهِ أَقْلٌ مِمَّا يُسْخِطُهُ ، فَتَمَلَّتْ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ نَفْسِكَ ، فَقَالَ : « وَاللَّهِ إِنْ
أَفْضَلَ مَا فِيَّ لَمَعَرَفْتِي بِفَضْلِهِمَا ، وَإِنِّي مَعَ ذَلِكَ كَعَبْرٍ مَنْتَشِرٍ ^(٢) الرَّأْيِ ، وَلَا
تَخْذُولُ الْعَزْمَ » . (الأمل ٢ : ١٤)

قولهم في الدعاء

٩٧ - دعاء أعرابي .

قال أبو حاتم : أَمَلِي عَلَيْنَا أَعْرَابِيٌّ يَقَالُ لَهُ مَرَّةً :
« اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ، وَأَجْلِدْ بَارِدًا ، وَالنَّفْسُ رَطْبَةٌ ، وَاللِّسَانُ مَنْطِقٌ ، وَالصَّحْفُ
مَنْشُورَةٌ ، وَالْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ ، وَالتَّوْبَةُ مَقْبُولَةٌ ، وَالْأَنْفُسُ مَرِيحَةٌ ^(٣) ، وَالتَّضَرُّعُ
مَرْجُوٌّ ، قَبْلَ أَنْ يَفْرُقَ ، وَحَشَاكَ النَّفْسُ ^(٤) ، وَعَلَزَ الصَّدْرُ ^(٥) ، وَتَزَيَّلَ
الْأَوْصَالُ ^(٦) ، وَنُصُولُ الشَّعْرِ ، وَاحْتِيَاثُ ^(٧) التَّرَابِ ، وَقَبْلَ أَنْ لَا أَقْدِرَ عَلَى
اسْتِغْفَارِكَ حِينَ يَفْنَى الْعَمَلُ ، وَيَحْضُرُ الْأَجَلَ ، وَيَنْقَطِعُ الْأَمَلُ .

[١] قال أبو علي الفاي : « هذه الزيادة تلتحق في الاستفهام في آخر الكلمة إذا أنكرت أن يكون
رأى المتكلم على ما ذكر ، أو يكون على خلاف ما ذكر » انظر هذا البحث في الأمل ٢ : ١٥ .
[٢] أي مفرقة . [٣] مرح كفرح : أشرب و بطر ونشط واختال وتبخر فهو مرح ومرحج .
[٤] الحشك : شدة النزح . [٥] العلز : قلق وخفة وهلع يصيب المريض والمحتضر .
[٦] تزييل وتزاييل : تفرقت ، والأوصال : الفاصل . [٧] الاحتياث : انتعال من الحيف وهو
الجور ، والمراد أكل تراب القبر الجثة ، والذي في كتب اللغة « التحيف » تحيفت الشيء : إذا نقصته
من حافته .

أَعْنَى عَلَى الْمَوْتِ وَكُرْبَتِهِ ، وَعَلَى الْقَبْرِ وَغَمَّتِهِ ^(١) ، وَعَلَى الْمِيزَانِ وَخَفِيفَتِهِ ، وَعَلَى الصَّرَاطِ وَزَلَّتِهِ ، وَعَلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَرَوْعَتِهِ ، اغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً عَزْمًا ، لَا تَعَادِرْ ذَنْبًا ، وَلَا تَدَعِ كَرْبًا ، اغْفِرْ لِي جَمِيعَ مَا اقْتَرَضْتَ عَلَيَّ وَلَمْ أُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ، اغْفِرْ لِي جَمِيعَ مَا تُبْتُ إِلَيْكَ مِنْهُ ثُمَّ عُدْتَ فِيهِ .

يَارَبِّ تَظَاهَرْتُ ^(٢) عَلَيَّ مِنْكَ النِّعَمُ ، وَتَدَارَكْتُ عِنْدَكَ مِنْهُ الذُّنُوبُ ، فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى النِّعَمِ الَّتِي تَظَاهَرْتُ ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِلذُّنُوبِ الَّتِي تَدَارَكْتُ ، وَأَمْسَيْتَ عَنْ عَذَابِي غَنِيًّا ، وَأَصْبَحْتُ إِلَى رَحْمَتِكَ فَقِيرًا .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ نَجَاحَ الْأَمَلِ ، عِنْدَ انْقِطَاعِ الْأَجَلِ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ خَيْرَ عَمَلِي مَا وُلِيَ أَجَلِي ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ الَّذِينَ إِذَا أُعْطِيَتْهُمْ شَكَرُوا ، وَإِذَا ابْتَلِيَتْهُمْ صَبَرُوا ، وَإِذَا أَذْكَرْتَهُمْ ذَكَرُوا ، وَاجْعَلْ لِي قَلْبًا تَوَّابًا أَوْ أَبًا ، لَا فَاجِرًا وَلَا مُرْتَابًا ، اجْعَلْنِي مِنَ الَّذِينَ إِذَا أَحْسَنُوا زَادُوا ، وَإِذَا أَسَاءُوا اسْتَغْفَرُوا .

اللَّهُمَّ لَا تَحْقُقْ عَلَيَّ الْعَذَابَ ^(٣) ، وَلَا تَقْطَعْ بِي الْأَسْبَابَ ، وَاحْفَظْنِي فِي كُلِّ مَا تَحِيطُ بِهِ شَفَقَتِي ، وَتَأْتِي مِنْ وَرَائِهِ سَبْحَتِي ^(٤) ، وَتَعَجِزُ عَنْهُ قُوَّتِي ، أَدْعُوكَ دَعَاءَ ضَعِيفٍ عَمَلُهُ ، مَتَظَاهِرَةٍ ذُنُوبُهُ ، ضَنِينٍ عَلَى نَفْسِهِ ، دَعَاءَ مَنْ بَدَأَهُ ضَعِيفٌ ، وَمُنْتَهُ ^(٥) عَاجِزَةٌ ، قَدْ انْتَهَتْ عُدَّتُهُ ، وَخَلَقْتَ ^(٦) جِدَّتَهُ ، وَتَمَّ ظِمُّوهُ ، اللَّهُمَّ

[١] فعلة من غم الشيء : أى غناه فانغم ، أو همى «غمته» بالضم : أى بلائه وكرب عذابه .

[٢] من تظاهروا إذا تعارنوا : أى تناهت . [٣] يشير إلى قوله تعالى : « أَفَنُ حَقَّ عَلَيْكَ

كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ » . [٤] فعلة من السبح : وهو القلب والانتشار

في الأرض ، والإبعاد في السير ، والتصرف في المعاش . [٥] المنة : اقوة .

[٦] خلق الثوب كنصر وكرم وسمع : بلى ، والظم : ما بين الشربتين والوردين .

لا تَحْيِينِي وَأَنَا أَرْجُوكَ ، وَلَا تَعْذِّبْنِي وَأَنَا أَدْعُوكَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى طَوْلِ النَّسِيئَةِ ^(١) ،
 وَحَسَنِ التَّبَاعَةِ ^(٢) ، وَتَشَنُّجِ العُرُوقِ ، وَإِسَاغَةِ الرِّيقِ ، وَتَأْخِرِ الشَّدَائِدِ ، وَالْحَمْدُ
 لِلَّهِ عَلَى حِمْلِهِ بَعْدَ عَمَلِهِ ، وَعَلَى عَفْوِهِ بَعْدَ قَدْرَتِهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يُودِي ^(٣)
 قَتِيلَهُ ، وَلَا يَخَيِّبُ سُؤْلَهُ ، وَلَا يُرَدُّ رِسْوَلُهُ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ
 الْفَقْرِ إِلَّا إِلَيْكَ ، وَمِنَ الذُّلِّ إِلَّا لَكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَقُولَ زُورًا ، أَوْ أَغْتَبِي
 مُجُورًا ، أَوْ أَكُونَ بِكَ مَغْرُورًا ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شِمَاتَةِ الأَعْدَاءِ ، وَعُضَالِ الدَّاءِ ،
 وَخَيْبَةِ الرَّجَاءِ ، وَزَوَالِ النُّعْمَةِ » . (المقد الفريد ٢: ٧٧ ، واليان والتبيين ٣: ٢٢٤-١٣٧-١٣٨)

٩٨ — دعاء أعرابي

ودعا أعرابي وهو يطوف بالكعبة فقال :

«إِلَهِي مَنْ أَوْلَى بِالتَّقْصِيرِ وَالزَّلَلِ مِنِّي وَأَنْتَ خَلَقْتَنِي ؟ وَمَنْ أَوْلَى بِالعَفْوِ مِنكَ
 عَنِّي وَعَمَلِكَ بِي مَاضٍ ، وَقَضَاؤِكَ بِي مُحِيطٌ ؟ أَطْعَمْتِكَ بِقُوَّتِكَ وَالْمِنَّةَ لَكَ ، وَعَصَيْتَكَ
 بِعَمَلِكَ ، فَاسْأَلْكَ يَا إِلَهِي - بِوَجُوبِ رَحْمَتِكَ وَانْقِطَاعِ حُجَّتِي ، وَافْتِقَارِي إِلَيْكَ
 وَغِنَاكَ عَنِّي - أَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي .

إِلَهِي لَمْ أَحْسِنْ حَتَّى أُعْطَيْتَنِي ، فَتَجَاوَزْ عَنِ الذُّنُوبِ الَّتِي كَتَبْتَ عَلَيَّ ، اللَّهُمَّ
 إِنَّا أَطْعَمْنَاكَ فِي أَحَبِّ الأَشْيَاءِ إِلَيْكَ : شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، وَحَدَّكَ لِشَرِيكَ
 لَكَ ، وَلَمْ نَعْصِكَ فِي أَنْبُضِ الأَشْيَاءِ إِلَيْكَ : الشَّرْكَ بِكَ ، فَاغْفِرْ لِي مَا بَيْنَ ذَلِكَ .

[١] الإمهال والتأخير . [٢] التباعة مثل التبعة بفتح فكسر . قال الشاعر :

أكلت حنيفة ربهما زمن النقمم والجماعه

لم يحدروا من ربهم سوء العواقب والتباعة

« لأنهم كانوا قد اتخذوا إلهًا من حيس فعبدوه زمانًا ، ثم أصابهم مجاعة فأكلوه » - والحيس كشمس :

تمر يخالط بالسمن واللبن المحيض فيعجن شديدًا ، ثم يندر منه نواه .

[٣] ودى القليل كوعى : أعطى دينه ، والسؤل مخفف عن سؤل : وهو ماسأته .

اللهم إنك آنسُ المؤمنِينَ لأوليائك ، وأحضرهم للمتوكلين عليك ، إلهي أنت شاهدُهم وغائبُهم ، والمطلع على ضمائرهم ، وسِرِّي لك مكشوف ، وأنا إليك ملهوف ، إذا أوحشتني الغربةُ آسنِي ذِكْرُكَ ، وإذا أكبَّتْ عَلَيَّ الغُومُ ، لجأتُ إلى الاستجارة بك ، علماً بأن أزمة الأمور كلها بيدك ، ومصدرها عن قضائك ، فأقلِّبني ^(١) إليك مغفوراً لي ، معصوماً بطاعتك بقية عمري ، يا أرحم الراحمين .

٩٩ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي : حَجَّجْتَ فرأيت أعرابياً يطوف بالكعبة ويقول :

ياخير موفودٍ سعى إليه الوُفْدُ ^(٢) ، قد ضَعُفَتْ قوتي ، وذهبت مُنِّي ، وأتيت إليك بذنوب لا تغسلها الأنهار ، ولا تحملها البحار ، أستجير برضاك من سُخْطِكَ ، وبعفوك من عقوبتك ، ثم التفت فقال : « أيها المشفقون ، ارحموا من شملته الخطايا ، وَغَمَّرْتَهُ البلايا ، ارحموا من قطع البلاد ، وخلف ما مَلَكَ من التلاد ، ارحموا من وَبَّخْتَهُ الذنوب ، وظَهَرَتْ منه العيوب ، ارحموا أسيرَ ضُرِّ ، وطريدِ فقر ، أسألكم بالذي أعمَلْتُم الرغبة إليه ، إلا ما سألتُم الله أن يَهَبَ لي عظيم جُرْمِي » ، ثم وضع في حلقة بالباب خدَّه وقال : ضَرَعَ خدي لك ، وَذَكَرَ مقامي بين يديك ، ثم أنشأ يقول :

عظيمُ الذنبِ مكروبٍ من الخيراتِ مسلوبٍ

وقد أصبحتُ ذا فقرٍ وما عندك مطلوبٍ

[١] أذله : حمله . [٢] وفد إليه وعليه : قدم ، وهم وفود ووفد كشمس وركم وأوفاد .

١٠٠ - دعاء أعرابي

وسمع أعرابي بعرفات عشيّة عرفة وهو يقول :

« اللهم إن هذه عشيّة من عشايا محبّتك ، وأحد أيام زلّفتك ^(١) ، يأمل فيها من لجأ إليك من خلقك أن لا يُشرك بك شيئاً ، بكل لسان فيها يُدعى ، ولكل خير فيها يُرجى ، أتتك المصاة من البلد السحيق ^(٢) ، ودعتك العناة ^(٣) من شعب المضيق ، رجاء ما لا خلف له من وعدك ، ولا انقطاع له من جزييل عطائك ، أبدت لك وجوهها المصونة ، صابرة على وهج السائم ^(٤) ، وبرّد الليالي ، ترجو بذلك رضوانك ، يا غفار ، يا مُستزاداً من نعمه ، ومُستعاذاً من نقمه ، ارحم صوت حزين دعاك بزفير وشهيق » .

ثم بسط كلتا يديه إلى السماء وقال : « اللهم إن كنت بسطت يدي إليك داعياً ، فطالما كفيتني ساهياً ، بنعمتك التي تظاهرت على عند الغفلة ، فلا أياس بهاعدن التوبة ، لا تقطع رجائي منك لما قدّمت من اقرار ^(٥) آثامك ، وإن كنت لأصل إليك إلا بك ، فهب لي ياربّ الصلاح في الولد ، والأمن في البلد ، والعافية في الجسد ، وعافني من شرّ الحسد ، ومن شرّ الدهر النكد ^(٦) » .

(المقد الفريد ٢ : ٧٧ ، والأمالى ٢ : ٣٢٣)

[١] الزلفة : القرية . [٢] البعيد . [٣] العناة جمع عان من عنا : أى ذلّ وخضع ، وفي رواية الأمالى : « أتتك الضواصر من الفج العميق ، وجاءت إليك المهارق من شعب المضيق » والضواصر الإيل المهزولة ، والمهارق جمع مهرق (بضم الميم وفتح الراء) : الصحراء اللساء .

[٤] السائم جمع سموم كصبور : وهى الريح الحارة تكون غالباً بالنهار ، وفي رواية الأمالى : « على لفتح السائم ، وبرد ليل التمام » - وليل التمام (ككتاب) وليل تمامي : أطول ليالى الشتاء - وفي رواية الأمالى : « نعمتك تظاهرها على عند الغفلة ، فكيف أياس منها عند الرجعة » - وأصل الغفل (بالتحريك) : الرجوع من السفر ، ويطلق على الابتداء في السفر كما هنا تفاؤلاً بالرجوع -

[٥] اقرار الذنب : أتاه وفعله .

[٦] يقال : رجل نكد ككف وسبب وشمس وأنكد : شؤم عسر .

١٠١ - دعاء أعرابي

ودعا أعرابي فقال : « يَا عِمَادَ مَنْ لَا عِمَادَ لَهُ ، وَيَا رُكْنَ مِنْ لَا رُكْنَ لَهُ ،
وَيَا مُجِيرَ الضَّعْفَى ^(١) ، وَيَا مُنْقِذَ الْمَلَكِي ، وَيَاعَظِيمَ الرَّجَاءِ ، أَنْتَ الَّذِي سَبَّحَ لَكَ
سَوَادُ اللَّيْلِ ، وَبَيَاضُ النَّهَارِ ، وَضَوْءُ الْقَمَرِ ، وَشُعَاعُ الشَّمْسِ ، وَحَفِيفُ الشَّجَرِ ،
وَدَوَى الْمَاءِ ^(٢) ، يَا مُحْسِنَ ، يَا مُجْمِلَ ، يَا مُفْضِلَ ، لَا أَسْأَلُكَ الْخَيْرَ بِخَيْرِهِمْ عِنْدَكَ ،
وَلَكِنِّي أَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ ، فَاجْعَلِ الْعَافِيَةَ لِي شِعَارًا وَدِثَارًا ^(٣) ، وَجِنَّةَ دُونَ كُلِّ بَلَاءٍ »

١٠٢ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً في فلاة من الأرض ، وهو يقول في دعائه :
« اللَّهُمَّ إِنْ اسْتَفَارَى إِيَّاكَ مَعَ كَثْرَةِ ذُنُوبِي لِلْوَيْمِ ، وَإِنْ تَرَكِيَ الْاسْتِغْفَارَ مَعَ
مَعْرِفَتِي بِسَعَةِ رَحْمَتِكَ لَمْ يَجْزِ ، إِلَهِي كَمْ تَحَبَّبْتَ إِلَيَّ بِنِعْمَتِكَ ، وَأَنْتَ غَنِيٌّ عَنِّي ، وَكَمْ
أَتَبَخَّضُ إِلَيْكَ بِذُنُوبِي ، وَأَنَا فَقِيرٌ إِلَيْكَ ، سَبَّحَانَ مَنْ إِذَا تَوَعَّدَ عَفَا ، وَإِذَا وَعَدَ وَفَى »

١٠٣ - دعاء أعرابي

قال : وسمعت أعرابياً يقول في دعائه : « اللَّهُمَّ إِنْ ذُنُوبِي إِلَيْكَ لَا تَضُرُّكَ ،
وَإِنْ رَحْمَتُكَ إِيَّاي لَا تَنْقُصُكَ ، فَاعْفِرْ لِي مَا لَا يَضُرُّكَ ، وَهَبْ لِي مَا لَا يَنْقُصُكَ » .

١٠٤ - دعاء أعرابي

وقال : سمعت أعرابياً وهو يقول في دعائه : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عَمَلِ
الْخَائِفِينَ ، وَخَوْفِ الْعَامِلِينَ ، حَتَّى أَتَنَعَّمَ بِتَرِكِ النِّعَمِ ^(٤) طَمَعًا فِيمَا وَعَدْتَ ،
وَخَوْفًا مِمَّا أَوْعَدْتَ ، اللَّهُمَّ أَعِزَّنِي مِنْ سَطَوَاتِكَ ، وَأَجِرْنِي مِنْ نِقَمَاتِكَ ، سَبَقْتُ
لِي ذُنُوبٌ ، وَأَنْتَ تَغْفِرُ لِمَنْ يَحُوبُ ^(٥) ، إِلَيْكَ بِكَ أُوَسِّلُ ، وَمَنْكَ إِلَيْكَ أَفِرُّ » .

[١] الضعفى جمع ضعيف . [٢] المعنى : أن هذه الكائنات تدعو المتأمل فيها إلى تسبيحه جل شأنه

[٣] الشعار : ما يلبس على شعر الجسد ، والدثار : ما يلبس فوق الشمار ، والجنة : الواقعة .

[٤] أى فى الدنيا . [٥] حب يوجب : أتم .

١٠٥ - دعاء أعرابي

وقال : سمعت أعرابياً يقول : « اللهم إن قوما آمنوا بك بالسننهم ، ليَحْقِنُوا دماءهم ، فأدرَكُوا ما أمَلُوا ، وقد آمنَّا بك بقلوبنا ، لتُجِيرنا من عذابك ، فأدرِك منا ما أمَلنا . » .

١٠٦ - دعاء أعرابي

قال : ورأيت أعرابياً متعلقاً بأستار الكعبة ، رافعاً يديه إلى السماء ، وهو يقول : « ربِّ أترك معدِّبنا ، وتوحيدك في قلوبنا ؟ وما إخالك تفعل ! ولئن فعلت لتَجْمَعنا مع قوم طالما أبغضناهم لك » .

١٠٧ - دعاء أعرابي

وقال : سمعت أعرابياً يقول في صلاته : « الحمد لله حمداً لا يَبْلَى جديده ، ولا يُحْصَى عَدِيدَه ^(١) ، ولا يُبْلَغُ حدودُه ، اللهم اجعل الموت خيراً ننتظره ، واجعل القبر خيراً يَبْتَئَمُرُه ، واجعل ما بعده خيراً لنا منه ، اللهم إن عيني قد أغرَّورقتا دموعاً من خشيتك ، فاغفر الزَّلَّة ، وُعُدَّ بحمامك ، على جهلٍ من لم يَرْجُ غيرك » .

١٠٨ - دعاء أعرابي

وقال : رأيت أعرابياً أخذ بحلقتي باب الكعبة وهو يقول : « ساوئك عند بابك ، ذهبَت أيامُه ، وبَقِيَت آثامُه ، وانقطعت شهوته ، وبَقِيَت تباَعثُه ، فارضَ عنه ، وإن لم ترضَ عنه فاعفُ عنه غير راضٍ » .

١٠٩ - دعاء أعرابي

قال : ودعا أعرابي عند الكعبة فقال : « اللهم إنه لا شرف إلا بفِعال ، ولا فِعال إلا بِنِمال ، فأعطني ما أستعينُ به على شرف الدنيا والآخرة »

١١٠ - دعاء أعرابي

عن طاووس قال : « بينا أنا بمكة إذ دفعت إلى الحجاج بن يوسف ، فغنى لي وساداً جلست ، فيينا نحن نتحدث إذ سمعتُ صوت أعرابي في الوادي رافعاً صوته بالتلبية ، فقال الحجاج : عليّ بالمَلَبّي ، فأُتِيَ به فقال : مَنْ الرَّجُل ؟ قال : من أفناء الناس ^(١) ، قال : ليس عن هذا سألتك ، قال : نعم سألتني ، قال : من أي البلدان أنت ؟ قال : من أهل اليمن ، قال له الحجاج : فكيف خلفت محمد ابن يوسف - يعني أخاه ، وكان عامله على اليمن - قال : خلفته عظيمًا جسيمًا ، خَرَّاجًا وَلَاجًا ، قال : ليس عن هذا سألتك ، قال : نعم سألتني ، قال : كيف خلفت سيرته في الناس ؟ قال : خلفته ظلوماً غشوماً ^(٢) ، عاصياً للخالق ، مُطِيعاً له مخلوق ، فازور ^(٣) من ذلك الحجاج ، وقال : ما أقدمك لهذا ، وقد تعلم مكانته مني ! فقال له الأعرابي : أفتراه بمكانةٍ منك أعزُّ مني بمكانتي من الله تبارك وتعالى ، وأنا وَاْفِدُ بيته ، وقاضي دِينه ، ومصدِّق نبيه صلى الله عليه وسلم ؟ فَوَجَمَ ^(٤) لها الحجاج ، ولم يُجِرْ له جواباً ^(٥) ، حتى خرج الرجل بلا إذن .

قال طاووس : فتبعته حتى أتى المُلتزم فتعلَّق بأستار الكعبة ، فقال : بك أعوذ ، وإليك ألوذُ ، فاجعل لي في اللَهْفِ إلى جوارك ، والرِّضَا بِضِمَانِكَ ، مندوحةً ^(٦) ، عن منع الباخلين ، وَغَنَى عما في أيدي المستأثرين ، اللهم عُدْ بِفِرَجِكَ القريب ، ومعروفك القديم ، وعادتكَ الحَسَنَةَ .

قال طاووس : ثم اختفى في الناس ، فألفيته بعِرَفَاتٍ قائماً على قدميه وهو

[١] يقال « هو من أفناء الناس » إذا لم يعلم من هو ، واحده فنو كحل أو فنا كمصا .

[٢] ظلوماً . [٣] ازورّ : انصرف ومال ، أي غضب منه . [٤] وجم : سكت على غيظ .

[٥] أي لم يردده . [٦] أي متسعا .

يقول : « اللهم إن كنتَ لم تقبل حَجَّتِي وَنَصَبِي ^(١) وَتَعَبِي ، فلا تَحْرِمْنِي أَجْرَ الْمُصَابِ عَلَى مَصِيبَتِهِ ، فلا أَعْلَمُ مَصِيبَةً أَعْظَمَ مِمَّنْ وَرَدَ حَوْضَكَ ، وانصرف محروماً من وجه رغبتك » .

١١١ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي : رأيت أعرابياً يطوف بالكعبة وهو يقول :

« إلهي عَجَّبْتُ ^(٢) إِيَّاكَ الْأَصْوَاتُ ، بِضُرُوبٍ مِنَ اللُّغَاتِ ، يَسْأَلُونَكَ الْحَاجَاتِ ، وَحَاجَتِي إِيَّاكَ إلهي أَنْ تَذَكِّرَنِي عَلَى طَوْلِ الْبِكَاءِ ، إِذَا نَسِيتُنِي أَهْلُ الدُّنْيَا ، اللَّهُمَّ هَبْ لِي حَقَّكَ ، وَأَرْضِ عَنِّي خَلْقَكَ ، اللَّهُمَّ لَا تُعَيِّنِي فِي طَلَبِ مَا لَمْ تَقْدِرْهُ لِي ، وَمَا قَدَّرْتَهُ لِي فَيَسِّرْهُ لِي » .

١١٢ - دعاء أعرابي

قال : ودعت أعرابية لابن لها وجهته إلى حاجة فقالت : « كَانَ اللهُ صَاحِبَةً لِي فِي أَمْرِكَ ، وَخَلِيفَتَكَ فِي أَهْلِكَ ، وَوَلِيَّ نَجْحِ طَلَبَتِكَ ^(٣) ، امْضِ مُصَاحِبًا مَكْلُومًا ^(٤) ، لَا أَشْمِتُ اللهُ بِكَ عَدُوًّا ، وَلَا أَرَى مُجِيبًا فِيكَ سِوَايَ » .

(المقدم الفريد ٢ : ٧٦ - ٧٩)

١١٣ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي : خرجت أعرابية إلى مَنِّي فَفَقَّطَعُ بِهَا الطَّرِيقَ فَقَالَتْ : « يَا رَبِّ : أَعْطَيْتَ وَأَخَذْتَ ، وَأَنْعَمْتَ وَسَلَبْتَ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْكَ عَدْلٌ وَفَضْلٌ ، وَالَّذِي عَظَّمْتُ عَلَى الْخَلَائِقِ أَمْرَكَ ، لَا بَسَطْتُ لِسَانِي بِمَسْأَلَةِ أَحَدٍ غَيْرِكَ ، وَلَا بَدَّلْتُ رَغْبَتِي إِلَّا إِلَيْكَ ، يَا قُرَّةَ أَعْيُنِ السَّائِلِينَ : أَعْنِنِي بِجُودِكَ مِنْكَ أَنْ تَبْجِجَ ^(٥) فِي »

[١] في الأصل « ونسي » وأراه محرفاً عن « نسي » ، ويؤيده قوله بعد « وتعبي » .

[٢] عَجَّ يَعْجُ بِكسر العين وفتحها : صاح ورفع صوته .

[٣] النجح : النجاح ، والطلبة : ما طلبته . [٤] من كلاة كمنه : حرسه .

[٥] تبجج : تمكن في المقام والحلول ، وتبجج الدار : توسطها ، والفراديس جمع فردوس :

فَرَادِيسِ نِعْمَتِهِ ، وَأَتَقَلَّبَ فِي رُوقِ نَضْرَتِهِ ^(١) ، اِحْمَلْنِي مِنَ الرَّجُلَةِ ^(٢) ، وَأَغْنِنِي
مِنَ الْعَيْلَةِ ، وَاسْدُدْ عَلَيَّ سِتْرَكَ الَّذِي لَا تَخْرِقُهُ الرِّيحُ ، وَلَا تُزِيلُهُ الرِّيحُ ، إِنَّكَ
سَمِيعُ الدُّعَاءِ » . (البيان والتبيين ٢ : ٧٨ ، والعقد الفريد ٣ : ١٣٨)

١١٤ — أدعية شتى

ومات ابن لأعرابي فقال : « اللهم إني وهبتُ له ما قَصَّرَ فيه من برِّي ،
فَهَبْ لِي ما قَصَّرَ فيه من طاعتك ، فَإِنَّكَ أَجود وأكرم » .
(العقد الفريد ٢ : ٧٩ ، والبيان والتبيين ٣ : ١٣٨)



ووقف أعرابي في بعض المواسم فقال : « اللهم إن لك عَلَيَّ حَقوقاً فَتَصَدَّقْ
بِهَا عَلَيَّ ، وَلِلنَّاسِ تَبِعَاتٍ قَبْلِي فَتَحْمَلْهَا عَنِّي ، وَقَدْ أوجِبْتَ لِكُلِّ ضَيْفٍ قَرِيًّا ^(٣) ،
وَأَنَا ضَيْفُكَ اللَّيْلَةَ ، فَاجْعَلْ قَرَايَ فِيهَا الْجَنَّةَ » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٨)



وقال سُفْيَانُ بن عُيَيْنَةَ : سمعت أعرابياً يقول عَشِيَّةَ عَرَفَةَ :
« اللهم لَا تَحْرِمْنِي خَيْرَ ما عِنْدَكَ لِشَرِّ ما عِنْدِي ، وَإِنْ لَمْ تَتَقَبَّلْ تَعْبِي وَنَصَبِي ،
فَلَا تَحْرِمْنِي أَجْرَ الْمُصَابِ عَلَيَّ مَصِيبَتِهِ » . (زهر الآداب ٣ : ١٦٣)



وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول لرجل : « أطعمك الله الذي أطعمتني
له ، فقد أَحْيَيْتَنِي بِقَتْلِ جوعِي ، وَدَفَعْتَ عَنِّي سَوْءَ ظَنِّي ، فَحَفِظَكَ اللهُ عَلَيَّ كُلِّ
جَنْبٍ ، وَفَرَّجَ عَنكَ كُلَّ كَرْبٍ ، وَغَفَرَ لِكَُلِّ ذَنْبٍ » (العقد الفريد ٢ : ٨٤)

[١] في الأصل « راووق » وهو المصفاة ، وأراه محرراً عن « رواق » وهو الفسطاط ، والنفرة :
النعمة والغنى . [٢] رجل كدح فهو راجل ورجلان : إذا لم يكن له ظهر يركبه ، والرجلة بالفتح
ويكسر : شدة المشي ، والعيلة : الفقر .

[٣] قرى الضيف كرمي ، قرى : أحسن إليه ، والقرى أيضا : ما قرى به الضيف .

عن الأصمعي قال : رأيت أعرابيا يصلي وهو يقول : « أسألك الغفيرة ^(١) ،
والناقة الغزيرة ، والشرف في العشيرة ، فإنها عليك يسيرة » . (الأملی ٢ : ٢٣)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابيا يدعو لرجل فقال : « جَنَّبَكَ
الله الأمرين ^(٢) ، وكفأك شرَّ الأجوفين ^(٣) ، وأذأك البردین ^(٤) » .
(الأملی ٢ : ٧٢ ، والبيان والتبيين ٣ : ١٣٧)

ودعا أعرابي فقال : « اللهم إني أسألك البقاء ، والنماء ، وطيب الإتياء ^(٥) ،
وَحَطَّ الأعداء ، ورفع الأولياء » . (البيان والتبيين ١ : ١٦٣)

وقال أعرابي : « اللهم لا تُنزلني ماء سوء ، فأكون امرأً سوءً » وقال
أعرابي : « اللهم قيني عثرات الكرام » . (البيان والتبيين ١ : ٢١٥)

وهب رجل لأعرابي شيئاً فقال : « جعل الله للمعروف إليك سبيلاً ،
وللخير عليك دليلاً ، وجعل عندك رفداً ^(٦) جزيلاً ، وأبقاك بقاء طويلاً ،
وأبلاك ^(٧) بلاء جميلاً » .

وقال الأصمعي : سمعت أعرابيا يدعو وهو يقول : « اللهم ارزقني مالا
أَكْبِت ^(٨) به الأعداء ، وَبَنِينَ أَصُولَ بِهِمْ عَلَى الأَقْوِيَاء » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٤)

[١] الغفيرة : المغفرة . [٢] الأسران : الفقر والمهرم ، أو الجوع والعري . [٣] الأوفان :
البطن والفرج . [٤] البردان : برد العين وبرد العافية . [٥] الإتياء : الرزق ، من أنت الشجرة
أثوا وإتياء : طلع ثمرها ، أو بدا صلاحها ، أو أكثر حملها . [٦] الرفد : العطاء والصلة .
[٧] الإيبلاء : الإينعام والإحسان ، أبليت عنده بلاء حسنا ، وأبلاه الله بلاء حسنا .
[٨] أكبت : صرعه وأدله ، وردّ العدو بفيظه .



ودعت أعرابية على رجل فقالت : « أمكن الله منك عدواً حسوداً ،
وَجَعَّ بكَ صَدِيقًا وَدُودًا ، وَسَلَّطَ عَلَيْكَ هُمًّا يُضْنِيكَ ، وَجَارًا يُؤْذِيكَ » .

(العقد الفريد ٢ : ٩١)



ودعا أعرابي فقال : « أعوذ بك من الفَوَاقِرِ ^(١) والبواقر ، ومن جارِ السوء ،
فِي دَارِ الْمُقَامَةِ وَالظَّمَنِ ، وَمِمَّا يَنْكُسُ رَأْسَ الْمَرْءِ ، وَيُعْرِى بِهِ لثَامَ النَّاسِ » .



وقال أعرابي : « أعوذ بك من سَقَمٍ ، وعداوة ذى رَحِمٍ ودَعَوَاهِ ، ومن
فَاجِرٍ وَجَدَّوَاهِ ^(٢) ، وعمل لا ترضاه » .

(البيان والتبيين ٣ : ١٣٦)



ودعت أعرابية لرجل فقالت : « كَبَتَ اللَّهُ كُلَّ عَدُوِّكَ إِلَّا نَفْسَكَ » .

ودعا أعرابي فقال : « اللهم هب لي حَقَّكَ ، وأرض عني خلقك » .

وقال أعرابي : « اللهم إنك أمرتنا أن نَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمْنَا ، وقد ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا

(البيان والتبيين ٣ : ١٣٧)

فاعف عنا » .



وقال أعرابي : « منحكم الله مَنِحَةً لَيْسَتْ بِجِدَاءٍ ، وَلَا نَكَدَاءٍ ، وَلَا

ذَاتِ دَاءٍ » .

وقال أعرابي : « اللهم إنك حَبَسْتَ عَنَا قَطْرَ السَّمَاءِ ، فَذَابَ الشَّحْمُ ،

وَذَهَبَ اللَّحْمُ ، وَرَقَّ الْعِظْمُ ، فَارْحَمِ أَيْنَ الْآئِنَةِ ، وَحَنِينِ الْحَائِنَةِ ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ

تَحِيرَهَا فِي مَرَاتِعِهَا ، وَأَيْدِيهَا فِي مَرَابِضِهَا » .

[١] الفواقير جمع فاقرة : وهي الداهية ، والبواقر جمع بقرة : وهي الفتنة الصاعدة للألفة الشاقة للمصا .

[٢] الجدوى : العطية .

❖❖❖
وحجج أعرابي فقال : « اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزله ، وإن كان في الأرض فأخرجه ، وإن كان نائياً فقرّب به ، وإن كان قريباً فبسرّه » .

(البيان والتبيين ٣ : ١٣٨)

❖❖❖
ومات ولد لرجل من الأعراب فصلى عليه ، فقال : « اللهم إن كنت تعلم أنه كريم الجدين ، سهل الخدين ، فاغفر له وإلا فلا » . (الأمل ١ : ٢٠٢)

❖❖❖
وقالت أعرابية لرجل : « رماك الله بليلة لأخت لها » أي لا تعيش بعدها . (الأمل ١ : ٢١٧)

❖❖❖
ودعا أعرابي فقال : « اللهم إني أعوذ بك أن أفترق في غناك ، أو أضلّ في هداك ، أو أذلّ في عزك ، أو أضامّ في سلطانك ، أو أضطهد والأمر إليك » . (زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

❖❖❖
وقال الأصمعي : سمعت أعرابية تقول : « اللهم ارزقني عمّل الخائفين ، وخوف العاملين ، حتى أنعم بترك التنعم ، رجاء لما وعدت ، وخوفاً مما أوعدت » .
وقال آخر : « اللهم من أراد بنا سوءاً فأحطه به كإحاطة القلائد ، بأعناق الولائد^(١) ، وأرسخه على هامته كرسوخ السجيل^(٢) ، على هام أصحاب الفيل » .
(زهر الآداب ٣ : ٣٤٦)

[١] الولائد جمع وليدة : وهي الصبية . [٢] السجيل : طين مطبوخ ، يشير إلى قوله تعالى : « وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ » وأبابل أي جماعات .

١١٥ - نوادر وملح لبعض الأعراب

غزا أعرابي مع النبي صلى الله عليه وسلم فقبل له : ما رأيت مع رسول الله في غزاتك هذه ؟ قال : وضع عنا نصف الصلاة^(١) ، وأرجو في الغزاة الأخرى أن يضع النصف الباقي .



ودخل أعرابي المسجد ، والنبي صلى الله عليه وسلم جالس ، فقام يصلي ، فلما فرغ ، قال : اللهم ارحمني ومحمداً ، ولا ترحم معنا أحداً ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : لقد تحجرت^(٢) وأسعماً يا أعرابي .



وخرج الحجاج متصيداً بالمدينة ، فوقف على أعرابي يرعى إبلاً له ، فقال له : يا أعرابي ، كيف رأيت سيرة أميركم الحجاج ؟ قال له الأعرابي : غشوم ظلوم ، لا حياة الله ، فقال : فإلم لا شكوتوه إلى أمير المؤمنين عبد الملك ؟ قال : فأظلم وأغشم ! فبينما هو كذلك إذ أحاطت به الخيل ، فأوماً الحجاج إلى الأعرابي ، فأخذ ومجمل ، فلما صار معه ، قال : من هذا ؟ قالوا له : الحجاج ، فحرك دابته حتى صار بالقرب منه ، ثم ناداه يا حجاج ، قال : ما تشاء يا أعرابي ؟ قال : السر الذي بيني وبينك أحب أن يكون مكتوماً ، فضحك الحجاج ، وأمر بتخلية سبيله .



وخرج أبو العباس السفاح متنزهاً بالأنبار ، فأمعن في نزهته ، وانتبذ من

[١] يعى صلاة الفجر . [٢] أى ضيقت ما وسمه الله وخصت به نفسك دون غيرك .

أصحابه ، فوافى خبياءً لأعرابي ، فقال له الأعرابي : ممن الرجل ؟ قال : من كنانة ، قال : من أى كنانة ؟ قال : من أبنض كنانة إلى كنانة ، قال : فأنت إذن من قريش ؟ قال : نعم ، قال : فمن أى قريش ؟ قال : من أبنض قريش إلى قريش ، قال : فأنت إذن من ولد عبد المطلب ؟ قال : نعم ، قال : فمن أى ولد عبد المطلب ؟ قال : من أبنض ولد عبد المطلب إلى ولد عبد المطلب ، قال : فأنت إذن أمير المؤمنين ، السلام عليك يا أمير المؤمنين ، ووثب إليه ، فاستحسن ما رأى منه ، وأمر له بجائزة .



وولى يوسف بن عمر الثقفى صاحب العراق أعرابياً على عمل له ، فأصاب عليه خيانة فعزله ، فلما قدّم عليه ، قال له : يا عدوّ الله ، أكلت مال الله ، قال الأعرابي : فقال مَنْ آكلُ إذا لم آكلُ مالَ الله ؟ لقد راودتُ إبليس أن يُعطيني فلساً واحداً فما فعل ، فضحك منه وخلق سبيله .



وأخذ الحجاج أعرابياً لصاً بالمدينة فأمر بضربه ، فلما قرعه بسوط قال : يارب شكراً ، حتى ضربه سبعمائة سوط ، فلقية أشعب ، فقال له : تدري لمّ ضربك الحجاج سبعمائة سوط ؟ قال : لماذا ؟ قال : لكثرة شكرك ، إن الله تعالى يقول : « إِنَّ شُكْرَكُمْ لَازِيدٌ نَكُمْ » ، قال : وهذا فى القرآن ؟ قال : نعم ، فقال الأعرابي :

يارب لا شكراً فلا تزدني أسأت في شكرى فاعف عني
باعد ثواب الشاكرين مني



ونزل عبد الله بن جعفر إلى خيمة أعرابية ولها دجاجة ، وقد دجنت (١)
عندها ، فذبحتها وجاءت بها إليه ، فقالت يا أبا جعفر : هذه دجاجة لي كنت
أذجنها وأعلفها من قوتي ، وألّسها في آناء الليل ، فكأنما ألمس بنتي زلت عن
كبدى ، فنذرتُ لله أن أدفنها في أكرم بقعة تكون ، فلم أجد تلك البقعة
المباركة إلا بطنك ، فأردت أن أدفنها فيه ، فضحك عبد الله بن جعفر ، وأمر لها
بخمسة درهم .



وسمِعَ أعرابي وهو يقول في الطواف : « اللهم اغفر لأمي » ، فقيل له :
مالك لا تذكر أباك ؟ قال : أبي رجل يحتال لنفسه ، وأما أمي فبائسة ضعيفة .



وقال أبو زيد : رأيت أعرابياً كأن أنفه كوز ، من عظمه ، فرآنا نضحك
منه . فقال : ما يضحككم ؟ فوالله لقد كنت في قوم ، ما كنت فيهم
إلا أفتسأ ! .



وجيء بأعرابي إلى السلطان ومعه كتاب قد كتب فيه قصته ، وهو يقول :
« هاؤم أقرءوا كتابي » ، فقيل له يقال هذا يوم القيامة ، قال : « هذا والله
شر من يوم القيامة ، إن يوم القيامة يؤتى بحسنات وسيئاتي ، وأنتم جئتم بسيئاتي
وتركتم حسناتي » .



واشترى أعرابي غلاماً فقيل للبائع : هل فيه من عيب ؟ قال : لا ، إلا أنه

[١] دجن الحمام والشاة وغيرهما كنصر : ألفت البيوت

يبول في الفراش ، قال : هذا ليس بعيب ، إن وجد فراشاً فَلْيَبِلْ فيه » .



ومرّ أعرابي بقوم وهو ينشد ابناً له ، فقالوا له : صفه ، قال : كأنه دُنَيْنِيرٌ ، قالوا : لم نره ، ثم لم يلبث القوم أن أقبل الأعرابي ، وعلى عنقه جُمَلٌ (١) ، فقالوا : هذا الذي قلت فيه دُنَيْنِيرٌ؟ قال : « الْقَرَئِنِي (٢) في عين أمّها حَسَناء » .



وقيل لأعرابي : ما يمنعك أن تغزو؟ قال : والله إني لأبغض الموت على فراشي ، فكيف أن أمضى إليه رَكُضًا؟ » .



وخرج أعرابي إلى الحج مع أصحاب له ، فلما كان ببعض الطريق راجعاً يريد أهله ، لقيه ابن عمّ له ، فسأله عن أهله ومنزله ، فقال : أعلم أنك لما خرجت ، وكانت لك ثلاثة أيام ، وقع في بيتك الحريق ، فرفع الأعرابي يديه إلى السماء ، وقال : ما أحسنَ هذا يارب ! تأمّرنا بعمارة بيتك أنت ، وتحرب بيوتنا ! » .



وخرجت أعرابية إلى الحج ، فلما كانت في بعض الطريق عطبت راحتها ، فرفعت يديها إلى السماء ، وقالت : « ياربّ أخرجتني من بيتي إلى بيتك ، فلا بيتي ولا بيتك ! » .



وعرّضت السجون بعد هلاك الحجاج ، فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً ، لم يجب على واحد منهم قتل ولا صلب ، وفيهم أعرابي ، أخذ يبول في أصل مدينة واسط ، فكان فيمن أطلق ، فأنشأ يقول :

[١] الجمل : الحباء .

[٢] القرني : دوية من خشاش الأرض فوق الحنفاء إذا مسها أحد تقبضت فصارت مثل الكرة .

إذا ما خرجنا من مدينة واسطٍ خَرِينَا وَبُلْنَا لَانْحَافِ عِقَابَا



ونظر أعرابي إلى قوم يلتمسون هلال شهر رمضان فقال : « وَاللَّهِ لئن آثرتموه لَتُمْسِكُنَّ مِنْهُ بِذُنَابِي ^(١) عِشْ أَغْبِر » .



ونظر أعرابي إلى رجل سمين فقال : « أرى عليك قَطِيفَةً مِنْ نَسِيجِ أَضْرَاسِكَ » .



وقال أعرابي : « اللهم إني أسألك مِيتَةً كَمِيتَةِ أَبِي خَارِجَةَ ، أَكَلْتُ بِذَجَا ^(٢) ، وَشَرَبْتُ مِشْعَلًا ^(٣) ، وَنَامْتُ فِي الشَّمْسِ ، فَمَاتَ دَفَّانَ شَبْعَانَ رِيَّانَ » .



وقيل لأبي المِخْشِ الأعرابي : أَيَسْرُكَ أَنْكَ خَلِيفَةٌ ، وَأَنْ أُمَّتَكَ حُرَّةٌ ؟ قال : لا والله ما يسرني ، قيل له : ولم ؟ قال : « لِأَنَّهَا كَانَتْ تَذْهَبُ الْأُمَّةَ ، وَتَضِيعُ الْأُمَّةَ » .



وحضر أعرابي سُفْرَةَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَجَعَلَ يَمْرُؤًا إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ الْحَاجِبُ : مِمَّا يَلِيكَ فَكُلْ يَا أَعْرَابِي ، فَقَالَ : مَنْ أَجْدَبُ انْتَجِعْ ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى سُلَيْمَانَ ، وَقَالَ لِلْحَاجِبِ : إِذَا خَرَجْنَا عَنْهَا فَلَا يَعْذُرُنَا .



وشهد بعد هذا سُفْرَتَهُ أَعْرَابِي آخَرَ ، فَمَرَّ إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ أَيْضًا ، فَقَالَ لَهُ الْحَاجِبُ : مِمَّا يَلِيكَ فَكُلْ يَا أَعْرَابِي ، قَالَ : مَنْ أَحْصَبُ تَخَيَّرْ ، فَأَعْجَبَ ذَلِكَ سُلَيْمَانَ ، فَقَرَّبَهُ وَأَكْرَمَهُ وَقَضَى حَوَائِجَهُ .

[١] الذنابي : الذنب . [٢] البنج : ولد الضأن .

[٣] المشعل : شيء من جلود له أربع قوائم ينبذ فيه ، وشرب مشعلا أي شرب ما فيه .

وحضر أعرابي سفرة سليمان بن عبد الملك ، فلما أتى بالفألوذج ، جعل يُسرع فيه ، فقال سليمان : أتدرى ما تأكل يا أعرابي ؟ فقال : بلى يا أمير المؤمنين إني لأجد ريقاً هنيئاً ، وَمُزْدَرْدًا^(١) لَيْثًا ، وأظنه الصراط المستقيم الذي ذكره الله في كتابه ، فضحك سليمان وقال : أزيدك منه يا أعرابي ؟ فإنهم يذكرون أنه يزيد في الدِّماغ ، قال : كذَّبوك يا أمير المؤمنين ، لو كان كذلك لكان رأسك مثل رأس البغل ! » .



وحضر سفرة سليمان أعرابي ، فنظر إلى شعرة في لقمة الأعرابي ، فقال : أرى شعرة في لقمتهك يا أعرابي ، قال : وإنك لتراعيني مُرَاعاةً من يُبصر الشعرة في لقمته ! وَاللَّهِ لاَ وَاكَلْتِكَ أَبَدًا ، فقال : استرها يا أعرابي ، فإنها زلة ، ولا أعود لثلها .



وقال الأصمعي : قلت لأعرابي : أَتَهْمِرُ^(٢) إسرائيل ؟ قال : إني إذن لَرَجُلٍ سوء ، قلت له : أَفتَجِرُ فِلَسْطِينَ ؟ قال : إني إِذَا لَقَوِيَّ .



وسمع أعرابي إماماً يقرأ : « وَلَا تُنْكِحُوا^(٣) الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا » - قرأها بفتح التاء - فقال : ولا إن آمنوا أيضاً لم نُنْكِحْهُمْ ، فقليل له إنه يلحن وليس هكذا يُقرأ ، فقال : « أَخْرُوهُ قَبْحَهُ اللَّهُ ! لا تجعلوه إماماً ، فإنه يُحِلِّ ما حَرَّمَ اللَّهُ » . (العقد الفريد ٢ : ١٠٠ - ١٠٥)

[١] ازدرده : ابتلعه . [٢] من معاني الهمز : الغمز . [٣] أي تزوجوا .



وخطب أعرابي فلما أعجبه بعضُ الأمر عن التصدير بالتمجيد ، والاستفتاح بالتمجيد ، قال : « أما بعد ، بغير ملالٍ لذكر الله ، ولا إثارةٍ غيره عليه ، فإننا نقول كذا ، ونسأل كذا » فراراً من أن تكون خطبته بترأء وشَوْهَاء (١)

(البيان والتبيين ٢ : ٢ ، ١ : ٢١٥)



ودفعوا إلى أعرابيةٍ عِدْكَا (٢) لتمضُّهُ ، فلم تفعل ، فقيل لها في ذلك ، فقالت : « ما فيه إلا تعبُ الأضراس وخَيْبَةُ الحَنْجَرَةِ » . (البيان والتبيين ٢ : ٤٧)



وقيل لأعرابي : عند مَنْ تحب أن يكون طعامك ؟ قال : « عند أم صبي راضع ، أو ابن سبيلٍ شاسع ، أو كبيرٍ جائع ، أو ذى رحمٍ قاطع » .

(البيان والتبيين ٢ : ٤٩)



وقال أعرابي :

« لولا ثلاث هُنَّ عيشُ الدهرِ ، الماء ، والنوم ، وأم عمرو ، لما خَشِيتُ من مَضِيقِ القبرِ » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٠١)



وسمع أعرابي رجلاً يقرأ سورة براءة فقال : « ينبغي أن يكون هذا آخر القرآن » ، قيل له : ولم ؟ قال : « رأيت عهداً تُذْبَدُ » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٦٩)

[١] وكانوا يسمون الخطبة التي لم يبتدئ صاحبها بالتمجيد ، ويستفتح كلامه بالتمجيد « البترء » ويسمون التي لم توشح بالقرآن وترين بالصلاة دلي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « الشوهاء » .

[٢] الملك : اللبان (بالضم)



وسمع أعرابي رجلا يقرأ : « وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ، تَجْرِى
بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا^(١) » ، قالها بفتح الكاف ، فقال الأعرابي :
« لا يكون » ، فقرأها عليه بضم الكاف وكسر الفاء ، فقال الأعرابي : « يكون » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٧٤)



[١] ذات الألواح والدر : هى السفينة ، والدر ما تشدد به الألواح من المسامير وغيرها جمع دسار
ككتاب ، بأعيننا : برأى منا أى محفوظة ، وقد قرئ كفر بالبناء للفاعل ، أى للكافرين ، أغرقوا
عقاباً لهم .

الباب الرابع

في

خطب النكاح

١. - خطبة قريش في الجاهلية

روى الجاحظ قال :

كانت خطبة قريش في الجاهلية - يعنى خطبة النساء :

« باسمك اللهم ، ذُكِرْتِ ^(١) فلانة ، وفلانٌ بها مشغوفٌ ، باسمك اللهم ،

لك ما سألتَ ولنا ما أعطيتَ » .

٢ - خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في زواج السيدة فاطمة

« الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المرهوب من عذابه ، المرغوب

فيما عنده ، النافذ أمره في سماءه وأرضه ، الذى خلق الخلق بقدرته ، وميزهم

بأحكامه ، وأعزهم بدينه ، وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه ، ثم إن الله تعالى

[١] ذكر فلان فلانة ذكرا (بفتح فسكون) : خطبها أو تعرض لخطبتها

جعل المصاهرة نَسَبًا لَاحِقًا ، وأمرًا مُفْتَرَضًا ، وَوَشَّجَ ^(١) به الأرحامَ ، وألزمه الأنامَ ، قال تبارك اسمه ، وتعالى ذكره : « وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا كَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا » ، فأمرُ الله يجرى إلى قضائه ، ولكل قضاءٍ قَدَرٌ ، ولكل قَدَرٍ أَجَلٌ « يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » . ثم إن ربِّي أمرني أن أزوجَ فاطمة من عليّ بن أبي طالب ، وقد زوجتها إياه على أربعمائة مثقال فضّة ، إن رضى بذلك عليّ .

٣ - خطبة الإمام عليّ كرم الله وجهه

وخطب الإمام عليّ كرم الله وجهه حين تزوج بالسيدة فاطمة رضى الله عنها فقال :

« الحمد لله الذي قرّب من حامديه ، ودنا من سائئيه ، ووعد بالجنة من يتّقيه ، وقطع بالنار عدد من يعصيه ، أحمدّه بجميع محامده وأياديه ، وأشكره شكرَ مَنْ يعلم أنه خالقُه وباريه ، ومصوّرُه ومُنشِئُه ، ومميتُه ومُحييُه ، ومقرّبُه ومنجيُه ، ومُثبِتُه ومجازيه ، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تبلغه وترضيه ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله صلاة تُزلفه وتُدنيه ، وتعزّه وتُعليه ، وتشرّفه وتُجتيبه .

أما بعد : فإن اجتماعنا مما قدره الله تعالى ورضيه ، والنكاح ما أمر الله به وأذن فيه ، وهذا محمد صلى الله عليه وسلم قد زوجني فاطمة ابنته على صداق أربعمائة درهم وثمانين درهماً ، ورضيت به فأسألوه ، وكفى بالله شهيداً »

[١] وشجت المروق والأفصان كوعد : اشتبكت والفت وتداخلت ، ورحم واشجة ووشيجة : مشبكة متصلة ، وقد وشجها الله توشيجاً ، وفي الأصل : « وشج به الأرحام » وأراه محرّفاً .

٤ - خطبة عتبة بن أبي سفيان

خطب عثمان بن عَنبَسَةَ بن أبي سفيان إلى عُثْبَةَ بن أبي سفيان ابنته ،
أقعده على نَحْذِهِ ، وكان حَدَثًا فقال :

« أَقْرَبُ قَرِيبٍ ، خَطَبَ أَحَبَّ حَيْبٍ ، لا أَسْتَطِيعُ لَهُ رَدًّا ، ولا أجد من
سَعَا فِيهِ بُدًّا ، قد زَوَّجْتُكها وأنت أَعزُّ عَلَيَّ مِنْهَا ، وهى الصَّقُّ بقلبي منك ،
أَكْرَمُهَا يَعْدُبُ عَلَيَّ لسانى ذِكْرُكَ ، ولا تُهِنُّهَا فَيَصْغُرُ عِنْدِي قَدْرُكَ ، وقد
بَتَّكَ مَعَ قُرْبِكَ ، فلا تُبْعِدْ قَلْبِي مِنْ قَلْبِكَ » .

٥ - خطبة شبيب بن شيبه

وقال العُتْبِيُّ : زَوَّجَ شَبِيبُ بن شَيْبَةَ ابنته بنتَ سِوَارٍ^(١) القاضى ، فقلنا :
يوم يَعْبُ عِبَابُهُ^(٢) ، فلما اجتمعوا تكلم فقال :

« الحمد لله ، وصلى الله على رسول الله ، أما بعد : فإن المعرفة منا ومنكم ، بنا
بكم^(٣) ، تمنعنا من الإكثار ، وإن فلانًا ذَكَرَ فلانة » .

٦ - خطبة الحسن البصرى

وكان الحسن البصرى يقول فى خطبة النكاح ، بعد الحمد لله والشناء عليه :
« أما بعد ، فإن الله جمع بهذا النكاح الأرحامَ المنقطعة ، والأنسابَ المتفرقة ،
جعل ذلك فى سنة من دينه ، ومنهاج واضح من أمره ، وقد خَطَبَ إليكم فلان ،
عليه من الله نِعْمَةٌ ، وهو يبذل من الصَّدَاقِ كذا ، فاستخيروا الله ، وَرُدُّوا خَيْرًا ،
حِكْمَ اللهِ » .

[١] هو سوار بن عبد الله من قضاة البصرة وخطبائها - انظر البيان والتبيين ١ : ١٦١ - وقرأ فى
الى السيد المرتضى ٤ : ٢٢ حديثا غريبا للجاحظ عنه فى وقاره وضبطه من نفسه ومدسه من حركته -
[٢] لأن والذى المروسين خطيبان . [٣] أى المعرفة منا بكم ، والمعرفة منكم بنا .

٧ - خطبة ابن الفقير

وقال العتبي : حضرت ابن الفقير خطب على نفسه امرأة من باهلة فقال :
« وما حسنٌ أن يمدح المرء نفسه : ولكن أخلاقاً تُذمُّ وتمدح .
وإن فلانة ذكرت لي » .

٨ - خطبة عمر بن عبد العزيز

وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز :
« قد زوّجك أمير المؤمنين ابنته فاطمة » ، قال : « جزاك الله يا أمير المؤمنين
خيراً ، فقد أجزلت العطية ، وكفيت المسألة » .

٩ - خطبة أخرى له

وحدث محمد بن عبيد الله القرشي عن أبي المقدم قال :

كانت قريش تستحسن من الخاطب الإطالة ، ومن المخطوب إليه التقصير^(١) ،
فشهدت محمد بن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان خطب إلى عمر بن عبد العزيز
أخته أم عمر بنت عبد العزيز ، فتكلم محمد بن الوليد بكلام جاز الحفظ ، فقال عمر :
« الحمد لله ذي الكبرياء ، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء ، أما بعد : فإن
الرغبة منك دعتك إلينا ، والرغبة فيك أجابتك منا ، وقد أحسن بك ظناً من
أودعك كريمته ، واختارك ولم يختَر عليك ، وقد زوجتكها على كتاب الله :
إمساكٌ بمعروفٍ أو تَمْرٍ مِجٍ بِإِحْسَانٍ » .

[١] وكذلك روى الجاحظ في البيان والتبيين (١ : ٦٤) قال : « والسنة في خطبة النكاح أن يطيل
الخطاب ، ويقصر المحبب » والحصرى في زهر الآداب (٢ : ٣١) قال الأصمعي : « كانوا يستحبون من
الخطاب إلى الرجل حرمة الإطالة ، لتدل على الرغبة ، ومن المخطوب إليه الإيجاز ليدل على الإجابة » .

١٠ - خطبة بلال

وخطب بلال إلى قوم من خثعم لنفسه ولأخيه ، فحمد الله وأثنى عليه ،
ثم قال :

« أنا بلال وهذا أخي ، كنا ضالين فهدانا الله ، عبدین فاعتقنا الله ،
فقيرین فأغنانا الله ، فإن تزوجونا فالحمد لله ، وإن تردونا فالمستعانُ الله » .

١١ - خطبة خالد بن صفوان

وزوج خالد بن صفوان مولاة من أمته ، فقال له العبد : لو دعوت الناس
وخطبت ! قال : أذعهم أنت ، فدعاهم العبد ، فلما اجتمعوا ، تكلم خالد بن
صفوان ، فقال :

« أما بعد : فإن الله أعظم وأجل من أن يُذكر في نكاح هذين الكليين ،
وأنا أشهدكم أني زوجت هذه الزانية من هذا ابن الزانية » .

١٢ - خطبة أعرابي

وخطب الفضل الرقاشي إلى قوم من بني تميم فخطب لنفسه ، فلما فرغ قام
أعرابي منهم فقال :

« توَسَّلْتَ بِجِرْمَةٍ ، وأوليتَ بِحَقٍّ ، واستندت إلى خير ، ودعوتَ إلى سُنَّةٍ ،
فقرَّضَكَ مقبول ، وما سألتَ مبدول ، وحاجتك مقضية إن شاء الله تعالى » .

قال الفضل : لو كان الأعرابي حمد الله في أوَّل كلامه ، وصلى على النبي صلى الله

عليه وسلم لفضحنى يومئذ .

١٣ - خطبة المأمون

وقال يحيى بن أكرم: أراد المأمون أن يزوجه ابنته من علي بن موسى الرضا ،
فقال : يا يحيى تكلم ، فأجلبته أن أقول : « أنكحت » ، فقلت : يا أمير المؤمنين ،
أنت الحاكم الأكبر ، والإمام الأعظم ، وأنت أولى بالكلام ، فقال :
« الحمد لله الذي تصاغرَت الأمور بمشيئته ، ولا إله إلا هو إقراراً بربوبيته ،
وصلى الله على محمد عند ذكره ، أما بعد : فإن الله قد جعل النكاح ديناً ، ورضيه
حُكماً ، وأنزله وحياً ، ليكون سبب المناسبة ، ألا وإنى قد زوجت ابنة المأمون
من علي بن موسى ، وأهرتها أربعمائة درهم ، اقتداءً بسنة رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، وانتهاءً إلى ما درج إليه السلف ، والحمد لله رب العالمين » .



وخطب رجل إلى قوم ، فأتى بمن يخطب له ، فاستفتح بحمد الله ، وأطال ،
وصلى على النبي عليه الصلاة والسلام ، وأطال ، ثم ذكر البدءَ وخلق السموات
والأرض ، واقتصَّ ذِكْرَ القرون ، حتى ضجِرَ من حَضْرٍ ، والتفت إلى الخاطب ،
فقال : ما أسمعك أعزك الله ؟ فقال : والله قد أنسيتُ أسمى من طول خطبتك ،
وهي طالقٌ إن تزوجتها بهذه الخطبة ، فضحك القوم ، وعقدوا في مجلس آخر .

(مفتاح الأفكار ص ٦٢ ، ومواسم الأدب ٢ : ١٢٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٦٣ ،

وسيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي ص ٢٨ ، والبيان والتبيين ١ : ٢١٥ ، ٢١٧ -

٢ : ٥٠ : ١٣٠ - ٣ : ٢٢١ ، وزهر الآداب ٢ : ٣٠ ، ٣١)

البابُ الخَمِيسُ

في

خطب من أرتج عليهم

ونوادِر طريفة لبعض الخطباء

روى الجاحظ قال: صعدَ عثمان بن عفَّان رضى الله تعالى عنه المنبرَ، فأرتج

عليه، فقال :

«إن أبا بكر وعمر كانا يُعدَّان لهذا المقام مقالا، وأنتم إلى إمام عادل، أحوجُّ

منكم إلى إمام خطيب» .

وروى ابن عبد ربه قال : أول خطبة خطبها عثمان بن عفَّان أرتج عليه، فقال :

«أيها الناس : إن أوَّل كل مرَّكبٍ صعِب ، وإن أعِشْ تأتكم الخطبُ على

وجهها ، وسيجعل الله بعد عُمرٍ يُسرّاً إن شاء الله » .

ولما قدِم يزيد بن أبى سُفيان الشام واليا عليها لأبى بكر، خطب الناس فأرتج

عليه ، فعاد إلى الحمد لله ، ثم أرتج عليه ، فعاد إلى الحمد لله ، ثم أرتج عليه ، فقال :

« يا هاهل الشام ، عسى الله أن يجعل من بعد عُسرٍ يُسرًا ، ومن بعدِ عيٍّ بيانًا ، وأتم إلى إمامٍ فاعل^(١) ، أحوَجُ منكم إلى إمامٍ قائل^(٢) » ، ثم نزل ، فبلغ ذلك عمرو بن العاص فاستحسنه .



وكان يزيد بن المهلب ولى ثابتَ قُطنة^(٣) بعض قرى خُرَاسان^(٤) ، فلما صعدَ المنبر يوم الجمعة ، قال : الحمد لله ، ثم أرتج عليه ، فنزل وهو يقول :

فإلَّا أكنُ فيكم خطيبًا فإني بسيفي إذا جدَّ الوغى لخطيبُ
فقليل له : « لو قلتها فوق المنبر ، لكنتَ أخطبَ الناس » .



وخطب معاوية بن أبي سفيان لما ولى ، فخصر فقال :

« أيها الناس : إني كنت أعددتُ مقالًا أقوم به فيكم ، فحُجبتُ عنه ، فإن الله يحول بين المرء وقلبه ، كما قال في كتابه^(٥) ، وأتم إلى إمام عدل ، أحوَجُ منكم إلى إمام خطيب ، وإني أمرُكم بما أمر الله به ورسوله ، وأنها كم عما نهاكم الله عنه ورسوله ، وأستغفر الله لى وإلكم » .

[١] في عيون الأخبار : « إمام عادل » . [٢] وفي أمالي السد المرتضى أن هذا القول يروى لعثمان بن عفان ، وفي روايتها : « إمام فمّال » و « إمام قوآل » بصيغة المبالغة ، وفي الأغاني أنه يروى لثابت قطنة ، وفيه : « أمير نعال » و « أمير قوآل » .

[٣] هو ثابت بن كعب ، ولقب قطنة لأن سهماً أصابه في إحدى عينيه ، فذهب بها في بعض حروب الترك ، فكان يحمل عليها قطنة ، وهو شاعر فارس شجاع من شعراء الدولة الأموية ، وكان في صحابة يزيد بن المهلب ، وكان يوليه أعمالاً من أعمال الثغور ، فيحمد فيها مكانه لكفايته وشجاعته ، وقد مال إلى قول المرجئة ، وله قصيدة في الإرجاء ، انظر ترجمته في الأغاني ج ١٣ ص ٤٧ .

[٤] وفي رواية : أنه خطب على منبر سجستان ، وفي رواية الطبرى : « فخطب الناس فخصر فقال : « من يطع الله ورسوله فقد ضل » وأرتج عليه فلم ينطق بكلمة ، فلما نزل عن المنبر قال البيت المذكور .

[٥] الآية الكريمة : « وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ »

وصعد خالد بن عبد الله القسري يوماً المنبر بالبصرة ليخطب فأرتج عليه ، فقال : «أيها الناس : أما بعد ، فإن هذا الكلام يحيى أحياناً ، ويعزب أحياناً ، فيسيح عند مجيئه سببه^(١) ، ويعز عند عزو به طلبه ، ولربما كوبر فأبى^(٢) ، وعولج فنأى ، فالتأى^(٣) لمجيئه ، خير من التعاطى لأبيئه ، وتركه عند تنكره ، أفضل من طلبه عند تعذره ، وقد يختلج^(٤) من الجريء جنائهُ ، وينقطع من الذرب^(٥) لسانه ، فلا يُبطره ذلك ولا يكسره ، وسأعود فأقول إن شاء الله » ، ثم نزل ، فارتضى حصرً أبلغ منه .

وصعد أبو العنابس منبراً من منابر الطائف ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فأرتج عليه ، فقال : أتدرون ما أريد أن أقول لكم ؟ قالوا : لا ، قال : فما ينفعني ما أريد أن أقول لكم ، ثم نزل ؛ فلما كان في الجمعة الثانية ، وصعد المنبر وقال : أما بعد ، أرتج عليه ، فقال : أتدرون ما أريد أن أقول لكم ؟ قالوا : نعم ، قال : فما حاجتكم إلي أن أقول لكم ما علمتُم ؟ ثم نزل ؛ فلما كانت الجمعة الثالثة ، قال : أمّا بعد : فأرتج عليه ، قال : أتدرون ما أريد أن أقول لكم ؟ قالوا : بعضنا يدرى ، وبعضنا لا يدرى ، قال : فليخبر الذي يدرى منكم الذي لا يدرى ، ثم نزل .

[١] السبب : العطاء ، وفي رواية : « فيتسبب عند مجيئه سببه » .

[٢] وفي رواية : « فعسا » أى اشتدّ وصعب . [٣] تأتي له : ترفق ، وفي رواية :

« فالتأى » بالنون . [٤] يضطرب .

[٥] الحاد اللسان ، وفي رواية : « ويرتج على البليغ لسانه » ، وفي أخرى : « وقد يرتج على اللسان لسانه ، ولا ينظره القول إذا اتسع ، ولا يتيسر إذا امتنع ، ومن لم تمكن له الخطوة ، تغلق أن تمنّ له النبوة » وفي أخرى : « وقد يتعاصى على الذرب لسانه ، ثم لا يكابر القول إذا امتنع ، ولا يردّ إذا اتسع ، وأولى الناس من عذر على النبوة ، ولم يؤاخذ على الكبوة ، من عرف ميدانه ، اشتهر إحسانه وسأعود وأقول » .



وولى اليمامة رجل من بنى هاشم يعرف بالدندان ، فلما صعد المنبر ارتج عليه ، فقال :

« حياءَ الله هذه الوجوه ، وجعلنى فداءها ، إني قد أمرت طائفي بالليل أن لا يرى أحداً إلا أتانى به ، وإن كنت أنا هو » ، ثم نزل .



وخطب عبد الله بن عامر ^(١) بالبصرة فى يوم أضحى ، فأرتج عليه ، فكث ساعة ، ثم قال :

« والله لأجمع عليكم عيأ ولؤمأ ، من أخذ شاة من الشوق فهى له ، وئثمها على » .



قال الجاحظ : ولما حصّر عبد الله بن عامر على منبر البصرة ، شقّ ذلك عليه ، فقال له زياد : « أيها الأمير ، إنك إن أقت عامّة من ترى ، أصابه أكثر مما أصابك » .



وكان سعيد بن بحدل الكلابي على قنسرين ^(٢) ، فوثب عليه زفر بن الحارث ، فأخرجه منها ، وبايع لابن الزبير ^(٣) ، فلما قعد زفر على المنبر قال : « الحمد لله الذى أقعدنى مقعد الغادر الفاجر » ، وحصّر ، فضحك الناس من قوله .

[١] انظر هامش الجزء الأول ص ١٨٠ . [٢] كورة بالشأم . [٣] انظر هامش الجزء الثانى ص ١٣١ .



وصعد عَدِيّ بن أَرْطَاة^(١) المنبر، فلما رأى جماعة الناس حَصِرَ فقال: « الحمد لله الذى يُطعم هؤلاء وَيُسقيهم » .



وصعد رَوْح بن حاتم المنبر، فلما رآهم شَفَنُوا^(٢) أبصارهم، وفتحوا أسماعهم نحوه، حَصِرَ فقال: « نَكَّسُوا رءوسكم، وَغَضُّوا أبصاركم، فَإِنَّ الْمِنْبَرَ مَرَّةٌ كَبُ صعب، وَإِذَا لَمَسَّ اللَّهُ فَتَحَ قُفْلٌ تَيْسَّرُ » .



وكان عبد ربه اليَشْكُرِيَّ عاملاً لعيسى بن موسى^(٣) على المدائن، فصعد المنبر، فحمد الله وأرتج عليه، فسكت ثم قال: « والله إنى لأكون فى بيتى فتجىء على لسانى ألف كلمة، فإذا قتت على أعوادكم هذه جاء الشيطان فَمَحَّها من صدرى، ولقد كنتُ وما فى الأيام يوم أحبَّ إلىَّ من يوم الجمعة، فصرتُ وما فى الأيام يوم أبغضُ إلىَّ من يوم الجمعة، وما ذلك إلا لخطبتكم هذه » .



وأرتج على معن بن زائدة، فضرب المنبر برجله، ثم قال: « فَتَى حُرُوب، لا فَتَى مَنابر » .



وحدث عيسى بن عمر قال :

خطب أميرٌ مرةً فانتقطع نفجبل، فبعث إلى قوم من القبائل عابوا ذلك وَفَهَّم^(٤)، وفيهم يَرَبُوعِيٌّ جَلَدٌ، فقال: اخطبوا، فقام واحد فمرَّ فى الخطبة،

[١] كان حامل يزيد بن عبد الملك على البصرة .

[٢] شفته كثر به وعلمه شقونا : نظر إليه بمؤخر عينيه، أو رفع طرفه ناظرا إليه كالنهب أو كالكاره .

[٣] هو عيسى بن موسى ابن أخى المنصور وكان أمير الكوفة . [٤] لفهم : جمعهم

حتى إذا بلغ « أما بعدُ » قال : أما بعد ، أما بعد ، ولم يدِرِ ما يقول ، ثم قال : فإن امرأتى طالقٌ ثلاثاً ، لم أُرِدْ أن أُجَمِّع ^(١) اليوم فننعتى ، وخطب آخر ، فلما بلغ « أما بعد » بقي ونظر ، فإذا إنسان ينظر إليه ، فقال : لعنك الله ! ترى ما أنا فيه ، وتلهجنى ببصرك أيضاً ! وقال أحدهم : رأيت القَرَاقِرَ ^(٢) من السفن تجرى بينى وبين الناس ، وصعد اليربوعي نخطب فقال : « أما بعد » فوالله ما أدرى ما أقول ، ولا فيم أقتمونى ، أقول ماذا ؟ « فقال بعضهم : قل فى الزيت ، فقال : « الزيت مبارك ^(٣) ، فكلوا منه وادّهنوا » .

قال : فهو قول الشُّطَّارِ ^(٤) اليوم ، إذا قيل : لم فعلت ذا ؟ فقل فى شأن الزيت ، وفى حال الزيت .



وروى الجاحظ أنه قيل لرجل من الوجوه : قم فاصعد المنبر وتكلم ، فلما صعد حصروا وقال : « الحمد لله الذى يرزق هؤلاء » وبقي ساكتاً فأنزلوه ، وصعد آخر ، فلما استوى قائماً ، وقابل بوجهه وجوه الناس ، وقعت عينه على صلعة ^(٥) رجل فقال : « اللهم العن هذه الصلعة » .

[١] جمع الناس بالتشديد : أى شهدوا الجمعة ، كما يقال : عيّدوا : أى شهدوا العيد .

[٢] القَرَاقِر جمع فرقور كعصفور : وهى السفينة أو الطويلة أو العظيمة .

[٣] يشير إلى الآية الكريمة : « الله نورُ السموات والأرض ، مثلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ، وَبِتُونَةٍ لَأَشْرَقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ، وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ » .

[٤] الشُّطَّار جمع شاطر : وهو من أعيانهم خبثاً ، والمراد به هنا أهل الدعارة وأصحاب النوادر والتلكيت والفكاهات . [٥] الصلعة : موضع الصلح .



وقيل لوازع اليَشْكُرِيِّ : قم فاصعد المنبر وتكلم ، فلما رأى جمع الناس قال : « لولا أن امرأتى لعنها الله حملتني على إتيان الجمعة اليوم ما جمعت ، وأنا أشهدكم أنها منى طالت ثلاثا » .



وَدُعِيَ أَيُوبُ بْنُ الْقُرَيْبَةِ لِكَلَامِ ، فَاحْتَبَسَ الْقَوْلُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : « قَدْ طَالَ السَّمَرُ ، وَسَقَطَ الْقَمَرُ ، وَاشْتَدَّ الْمَطَرُ ، فإِذَا يُدْتَضَّرُ ؟ » فَأَجَابَهُ فَتَى مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ فَقَالَ : « قَدْ طَالَ الْأَرْقُ ، وَسَقَطَ الشَّقَقُ ، وَكَثُرَ اللَّشَقُ ^(١) ، فَلْيَنْطِقْ مِنْ نَطَقِ »



وجاء في أمالي السيد المرتضى :

روى أن بعض خلفاء بني العباس - وأظنه الرشيد - صعد المنبر ليخطب ، فسقطت على وجهه ذبابة ، فطردها ، فرجمت ، فخصر وأرتج عليه ، فقال : أعوذ بالله السميع العليم « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مِثْلُ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ ^(٢) مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » ثم نزل ، فاستحسن ذلك منه .



وروى أن رجلا صعد المنبر أيام يزيد بن معاوية ، وكان والياً على قوم فقال لهم : « أيها الناس : إني إن لم أكن فارساً طبياً ^(٣) بهذا القرآن ، فإن معي من أشعار العرب ما أرجو أن يكون خلفاً منه ، وما أساء القائل أخو أبراجم حيث قال :

[١] لئن يومنا كفرح : ركعت ريمه وكثرنداه . [٢] وكانوا يطلون أصنامهم بالطيب والزعفران ، ويغفون عليها الأبواب ، فيدخل الذباب من الكوى فيأكله . [٣] ما هرا حاذقا .

وما عاجلاتُ الطير يُدنين للفتى رشاداً ، ولا من ريشهن يخيبُ ^(١)
 ورُبَّ أُمُورٍ لَا تَصِيرُكَ ضَيْرَةً ولِلْقَلْبِ مِنْ مَخَشَاتِهِنَّ وَجِيبُ ^(٢)
 ولا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يُوطِنُ نَفْسَهُ على نَائِبَاتِ الدَّهْرِ حِينَ تَنْوِبُ
 وفي الشكِّ تَقْرِيطٌ وَفِي الْحَزْمِ قُوَّةٌ وَيُخْطِي الْفَتَى فِي حَدْسِهِ وَيُصِيبُ ^(٣)

فقال رجل من كلب : إن هذا المنبر لم يُنصَّب للشعر ، بل ليُحَمِّدَ اللهُ تعالى ،
 وَيُصَلِّيَ على النبي وآله عليهم الصلاة والسلام ، وللقُرآن ، فقال : أما لو أنشدتكم
 شعر رجل من كلب لسرَّركم ، فكتَّيبَ إلى يزيد بذلك فعزله ، وقال : قد كنت
 أراك جاهلاً أحمق ، ولم أحسب أن الحق يبلغ بك إلى هذا المبلغ ، فقال له :
 أحمقُ مني مَنْ وَلَا أَنِي !



وخطب عتَّاب بن ورَّقاء ^(٤) فحث على الجهاد فقال : هذا كما قال الله تعالى

في كتابه :

كُتِبَ الْقِتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وعلى الغايات جرُّ الدُّيُولِ ^(٥)

[١] كانت العرب تتمين بالطير السائح ، وهو ما ولاك ميامنه ، بأن يمرّ من ميامرك إلى ميامنك ،
 وتنشام بالبارح ، وهو ما ولاك مياسره ، بأن يمرّ من ميامنك إلى ميامرك ، وذلك لأنه لا يمكنك رمه إلا
 بأن تنحرف له ، وربما كان أحدهم يهيج الطير ليطير ، فيعتمدها ، وعاجلات الطير هي أن يخرج الإنسان من
 منزله إذا أراد أن يزجر الطير ، فاسرّ به أوّل ما يبصر فهو حاجلات الطير ، وإن أبطأت عنه وانتظرها
 فقد رانت أي أبطأت ، والأول عندهم محمود ، والثاني مذموم .

[٢] خشية خشية ومخشاة : خافه ، ووجب القلب وجيباً : خفق واضطرب . [٣] الحدس : الظنّ
 والتخمين ، والأبيات لضابي بن الحارث البرجمي (انظر زهر الآداب ٢ : ٨٨) .

[٤] انظر الجزء الثاني ص ٤٣٣ و ٤٤٥ [٥] البيت لعمر بن أبي ربيعة ، وذلك أن مصعب بن الزبير
 بعد أن قتل المختار بن أبي عبيد الثقفي دما امرأته - وهي بنت النعمان بن بشير - إلى البراءة من المختار ،
 فأبى فقتلها ، فقال في ذلك ابن أبي ربيعة :

إن من أعظم الكبائر عندي قتل حسناء غادة عطبول
 قتل باطلا على غير ذنب إن لله درّها من قتيل



وخطب يوماً فقال : هذا كما قال الله تبارك وتعالى : « إنما يتفاضل الناس بأعمالهم ، وكل ما هواتٍ قريبٌ » قالوا له : « إن هذا ليس من كتاب الله » قال : « ما ظننتُ إلا أنه من كتاب الله » .



وخطب وكيع بن أبي سُودٍ^(١) بخراسان فقال : « إن الله خلق السموات والأرض في ستة أشهر » ف قيل له : « إنها ستة أيام » فقال : « وأبيك لقد قلتها وإني لأستقلها ! » .



وصعد المنبر فقال : « إن ربيعة لم تزل غَضَابًا على الله مذ بعث نبيّه من مُضَرَ ، ألا وإن ربيعة قومٌ كُشِفَ^(٢) ، فإذا رأيتموهم فاطعنوا الخيل في مناخرها ، فإن فرسًا لم يُطعن في منخره إلا كان أشدَّ على فارسه من عدوه^(٣) » .



وضربت بنو مازن الحُتَاتِ بن يزيد المُجَاشِعِيِّ ، فجاءت جماعة منهم ، فيهم غالبُ أبو الفَرزدق فقال : « يا قوم كونوا كما قال الله : لا يعجزِ القوم إذا تعاونوا » .



وخطب عدى بن زياد الإياديّ ، فقال : « أقول لكم كما قال العبد الصالح لقومه : « مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ، وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ^(٤) » ، قالوا

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغنائم جراً الذبول

« والعطبول كصفور : المرأة الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق » . [١] انظر الجزء الثاني ص ٢٩٧
[٢] كشف جمع أكشف : وهو من ينهزم في الحرب ، ومن لا ترس معه في الحرب ، ومن لا بيضة على رأسه . [٣] وروى الطبري أن عبد الله بن خازم قال ذلك القول لأصحابه بخراسان ، قال لهم : « إذا لقيتم الخيل فاطعنوها في مناخرها ، فإنه لن يطعن فرس في نخرته إلا أدبر أو رمى بصاحبه » . (الطبري ٧ : ٤٦) . [٤] الآية الكريمة : « قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى » .

له : « ليس هذا من قول عبد صالح ، إنما هو من قول فرعون » ، قال : « من قاله فقد أحسن »



وروى الطبري أن عبد الله بن الزبير كان ولي أخاه عبيدة على المدينة، ثم نزع عنها ، وكان سبب عزله إياه أنه خطب الناس ، فقال لهم : قد رأيتم ما صنع^(١) بقوم في ناقة قيمتها خمسمائة درهم ، فسمى مقوم الناقة ، وبلغ ذلك ابن الزبير فقال : إن هذا هو التكلف .

وروى الجاحظ وابن عبد ربه هذا الخبر فقالا : خطب والى اليمامة^(٢) ، فقال : « إن الله لا يُقَارُ^(٣) عباده على المعاصي ، وقد أهلك الله أمة عظيمة في ناقة ما كانت تساوي مائتي درهم » ، فسمى مقوم ناقة الله .



وخطب قببصة ، وهو خليفة أبيه^(٤) على خراسان ، وأتاه كتابه ، فقال : « هذا كتاب الأمير ، وهو والله أهل لأن أطيعه ، وهو أبي وأكبر مني » .



ودعى مُصعب بن حيان ليخطب في نكاح فحصر فقال : ائقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله ، فقالت أم الجارية : عجل الله موتك ، ألهذا دعوناك ؟ .



وخطب أمير المؤمنين المولى - وهكذا لقبه - خطبة نكاح فحصر ، فقال : « اللهم إنا نحمدك ونستعينك ولا نُشْرِكُ بك » .

[١] يشير إلى محمود قوم صالح عليه السلام - انظر هامش الجزء الثاني ص ٢٢٢ .

[٢] لعلها المدينة . [٣] أى لا يقارم .

[٤] هو المهلب بن أبي صفرة ، وكان والياً على خراسان - انظر الجزء الثاني ص ٢٧٢



وخطب قُتَيْبَةُ بن مُسْلِمٍ على منبر خُرَّاسَانَ ، فسقط القضيب من يده .
فتفاءل له عدوه بالشرِّ ، واغتمَّ صديقه ، فعرف ذلك قتيبة ، فأخذه وقال :
« ليس الأمر على ما ظن العدو ، وخاف الصديق ^(١) ، ولكنه كما قال الشاعر » :
فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقْرَبَهَا النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمُسَافِرُ ^(٢)



وتكلم صَعَصَعَةٌ عند معاوية فَعَرِقَ ، فقال معاوية : بَهْرَكَ ^(٣) القول ! فقال
صعصعة : إن الجياد نَضَّاحَةٌ بالماء .



وشخص يزيد بن عمر بن هُبَيْرَةَ إلى هِشَامِ بن عبد الملك ، فتكلم فقال هشام :
ما مات من خلف مثل هذا ! فقال الأبرش الكلابي : ليس هناك ، أمتراه يرشح
جبينه لضيق صدره ! قال يزيد : مال ذلك رشح ، ولكن لجلوسك في هذا الموضع .



وقال عبيد الله بن زياد : « نِعْمَ الشَّيْءُ الإِمَارَةُ ، لولا قَعَقَةُ البريد ،
والتشرُّفُ للخطَبِ » .



وقيل لعبد الملك بن مروان : عَجَلِ عليك المشيبُ يا أمير المؤمنين ، فقال :
كيف لا يعجلُ عليَّ ، وأنا أعرضُ عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين ؟
« أو قال : شيبني صعود المنابر والخوف من اللحن » .

(الفقد الفريد ٢ : ١٦٢ - ١٦٣ و ٢٥٦ : ٣ ، و عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ و ٢٥٦ و
٢٥٩ ، وأمالى السيد المرتضى ٤ : ١٩٠ - ٢٢ ، والأغانى ١٣ : ٤٧ ، ١٧ : ١١١ ، وتاريخ الطبرى
ج ٧ : ص ٩٠ ، ج ٨ : ١٨٨ ، والبيان والتبيين ١ : ٧٤ ، ١٦٣ ، ١٨٦ - ٢ : ١٢٢ ، ١٢٦ ،
١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، والأمالى ١ : ١١١ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٧ ، وشرح العيون
ص ١٢٥ ، ٢٠٥ ، والصناعتين ص ٢١)

[١] وفي رواية : « كما ساء الصديق ، وسرَّ العدو » . [٢] النوى : الغربة البعيدة .
[٣] أى غلبك .

بدء الخطب وختامها

قال ابن قُتَيْبَةَ في عيون الأخبار :

تتبع خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدت أوائل أكثرها :
« الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ونتوب إليه ،
ونسوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ
له ، ومن يضلِّ فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » ،
ووجدت في بعضها : « أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحكم على طاعته » ،
ووجدت كلَّ خطبة مفتاحها الحمد ، إلا خطبة العيد ، فإن مفتاحها التكبير .
(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣١)

وروى ابن عبد ربه في العقد قال :

وكان آخر كلام أبي بكر الذي إذا تكلم به عُرِف أنه قد فرغ من خطبته :
« اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم ألقاك »
وكان آخر كلام عمر الذي إذا تكلم به عرف أنه فرغ من خطبته : « اللهم
لا تدعنى فى غمرة ، ولا تأخذنى على غررة ، ولا تجعلنى من الغافلين » .
وكان عبد الملك بن مروان يقول فى آخر خطبته : « اللهم إن ذنوبى قد
عظمت وجلت أن تحصى ، وهى صغيرة فى جنب عفوك فاعف عنى » .
(العقد الفريد ٢ : ١٣٣ ، ١٤٢)

تمَّ بحمد الله

جدول الخطأ والضواب

الصواب	الخطأ	سطر	صفحة
ولى	ولى	١١	١٦٧
يقولون	يقولون	٤	١٧٩
البر	البر	١٥	١٩١
الموصل إلى المرغوب	الموصل المرغوب	٥	١٩٣
ولى	ولى	١٣	١٩٣
تتلى	تتلى	١١	٢٠١
الازدراء	الازدراء	١٨	٢٠٥
بضائعها	بضائعها	١٣	٢٠٨
شديد	شديد	١١	٢١١
يضيف	يضيف	١٥	٢٢٢
يدا	يدا	١٣	٢٣٥
غفلنا	غفلنا	٢٠	٢٦٤
أذابت	أذبت	١	٢٧٨
الردي	الردي	١٠	٢٨٧
شربك	شربك	١٤	٣١٣
وتسل	وتسل	١٠	٣١٨
صاب	أصاب	٧	٣٢٠
كالترس	كالترس	١	٣٣٤
التي	لتي	٦	٣٤٠

الصواب	الخطأ	سطر	صفحة
وتشئج	وتشئج	٢	٣٤١
الذل	الذل	٥	٣٤١

تم الكتاب بحسن توفيقه وعونه تعالى

وسيتبعه إن شاء الله كتاب

جمهرة رسائل العرب

في عصور العربية الزاهرة

فهرس ذيل الجمهرة

الباب الأول

في خطب الأندلسيين والمغاربة

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة
خطبة عبد الرحمن الداخل يوم حربه مع يوسف الفهري	١٦٦
عبد الرحمن الداخل ورجل من جند قنسرين	١٦٧
عبد الرحمن الداخل ورجل من جنده يهنته بفتح سرقسطة	١٦٨
تأديب عبد الرحمن الأوسط لابنه المنذر	١٦٨
عبد الرحمن الأوسط وابنه المنذر أيضاً	١٧٠
يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط وأحد خدامه	١٧١
وفاء الوزير ابن غانم لصديقه الوزير هاشم بن عبد العزيز	١٧٢
خطبة منذر بن سعيد البلوطي في الاحتفال بقدم رسل ملك الروم	١٧٣
خطبة أخرى له	١٧٧
أحد حساد الرمادي الشاعر والمنصور بن أبي عامر	١٧٨
ابن اللبانة الشاعر وعز الدولة بن المعتصم بن صمادح	١٨١
دفاع ابن الفخار عن القاضي الوحيدى بمحضرة ابن تاشفين	١٨٣
موعظة ابن أبي رندقة الطرطوشي للأفضل بن أمير الجيوش	١٨٤
خطبة ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين	١٨٥
مقال لسان الدين بن الخطيب في الحض على الجهاد	١٨٨
ما خاطب به لسان الدين تربة السلطان الكبير أبي الحسن المريني	١٩٠
وصية لسان الدين لأولاده	١٩٢
خطبة وعظية له	٢٠٨

- ٢١٦ وصية موسى بن سعيد العنسى لابنه
٢٢٦ خطبة ابن الزيات المنزوعة الآف
٢٢٩ » القاضى عياض التى ضمنها سور القرآن
٢٣١ » سعيد بن أحمد المقرئ التى ضمنها سور القرآن
٢٣٤ » الكفعمى التى ضمنها سور القرآن أيضاً

الباب الثانى

فى خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها

- ٢٣٦ خطبة أبى بكر بن عبد الله بالمدينة
٢٤١ وصية أعمى من الأزدي لشاب يقوده
٢٤١ » رجل لآخر وقد أراد سفراً
٢٤٢ » » لابنه وقد أراد التزوج
٢٤٢ » بعض العلماء لابنه
٢٤٢ » لبعض الحكماء
٢٤٣ » أخرى
٢٤٣ » »
٢٤٤ عظة لبعض الحكماء
٢٤٤ نصيحة » »
٢٤٤ كلمات شتى لبعض الحكماء
٢٤٦ رجل من العرب والحجاج
٢٤٦ أحد الوافدين على عمر بن عبد العزيز
٢٤٧٠ كاتب وأمير

وصف الملبأة	٢٤٧
بعض البلأاء يصف رجلا	٢٤٩
أمس آوار من العرب يصفن آيل آبائهن	٢٤٩
رجل من العرب يصف مطراً	٢٥٢

الباب الثالث

في نثر الأعراب

٢٥٣ قولهم في الوعظ والتوصية

٢٥٣ مقام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك

٢٥٤ أعرابي يعظ هشام بن عبد الملك

٢٥٤ خطبة أعرابي

٢٥٥ » أخرى

٢٥٦ » »

٢٥٦ أعرابية توصي ابنها وقد أراد السفر

٢٥٧ أعرابية توصي ابنها

٢٥٧ أعرابي يوصي ابنه

٢٥٧ » ينصح لابنه

٢٥٨ » » »

٢٥٨ » » لأخيه

٢٥٨ » يعظ أخاه

٢٥٩ » » صاحبه

٢٥٩ » » أخاه

٢٥٩ » » رجلا

أعرابي يعظ رجلا	٢٦٠
أعرابي يعظ رجلا	٢٦٠
كلام أعرابي لابن عمه	٢٦٠
كلمات حكيم للأعراب	٢٦١
أجوبة الأعراب	٢٦١
مجاوبة أعرابي للحجاج	٢٦٧
مساءلة الحجاج أعرابياً فصيحاً	٢٦٨
مجاوبة أعرابي لعبد الملك بن مروان	٢٦٨
مجاوبة أعرابي لخالد بن عبد الله القسرى	٢٦٩
أجوبة شتى	٢٦٩
قولهم في الاستمناح والاستجداء	٢٧٢
أعرابي يجتدى عتبة بن أبي سفیان	٢٧٢
أعرابي يجتدى عمر بن عبد العزيز	٢٧٣
خطبة أعرابي بين يدي هشام بن عبد الملك	٢٧٣
مقام أعرابي بين يدي هشام	٢٧٣
أعرابي يستجدي عبيد الله بن زياد	٢٧٤
أعرابية تستجدي عبد الله بن أبي بكر	٢٧٥
أعرابي يستجدي خالد بن عبد الله القسرى	٢٧٦
» » معن بن زائدة	٢٧٧
خطبة الأعرابي السائل في المسجد الحرام	٢٧٨
» » » » الجامع بالبصرة	٢٧٨
صورة أخرى	٢٧٩

صورة أخرى	٢٧٩
أعرابي يستجدي	٢٨٠
» »	٢٨٠
» »	٢٨١
» »	٢٨١
أعرابية تستجدي	٢٨٢
أعرابي يستجدي	٢٨٢
» »	٢٨٣
» »	٢٨٣
» »	٢٨٣
أعرابية تستجدي	٢٨٤
أعرابي يستجدي	٢٨٤
» »	٢٨٥
» »	٢٨٥
» »	٢٨٥
» »	٢٨٥
» »	٢٨٦
» »	٢٨٦
» »	٢٨٦
» يسأل رجلا حاجة له	٢٨٦
قولهم في بكاء الموتي	٢٨٦
أعرابية تبكي ابنها	٢٨٧

٢٨٨	حديث امرأة سكنت البادية قريباً من قبور أهلها
٢٩٠	حديث امرأة مات ابنها بين يديها
٢٩٠	قولههم في الشكوى
٢٩٠	أعرابي يشكو حاله
٢٩١	كلمات شتى في الشكوى
٢٩٦	قولههم في العتاب والاعتذار
٢٩٧	قولههم في المدح
٣٠٧	قولههم في الذم
٣١٤	قولههم في الغزل
٣١٩	قولههم في الوصف
٣١٩	أعرابي يصف مطراً
٣٢٠	» » مطراً
٣٢١	» » مطراً
٣٢٢	ثلاثة غلطة من الأعراب يصفون مطراً
٣٢٤	أعرابي يصف مطراً
٣٢٥	» » »
٣٢٦	» » »
٣٢٧	» » »
٣٢٨	» » »
٣٢٩	» » »

أعرابي يصف مطراً	٣٢٩
» » »	٣٣٠
» » أرضاً	٣٣٠
رائد يصف أرضاً جذبة	٣٣١
» » »	٣٣٢
» » »	٣٣٢
أعرابي يصف أرضه وماله	٣٣٣
» » بلداً	٣٣٤
» » أشد البرد	٣٣٤
» » إبلاً	٣٣٤
» » ناقة	٣٣٥
» » خيلاً	٣٣٥
» » »	٣٣٥
» » »	٣٣٥
» » »	٣٣٥
» » فرساً	٣٣٦
» » خاتماً	٣٣٦
» » أطيب الطعام	٣٣٦
» » السوق	٣٣٧
» » الجمال	٣٣٧
أبو الخش يصف ابنه	٣٣٧
أعرابي يصف بنيه	٣٣٨
أعرابي يصف أخويه	٣٣٩

٣٣٩ قولهم في الدعاء

٣٣٩ دعاء أعرابي

٣٤١ » »

٣٤٢ » »

٣٤٣ » »

٣٤٤ » »

٣٤٤ » »

٣٤٤ » »

٣٤٤ » »

٣٤٥ » »

٣٤٥ » »

٣٤٥ » »

٣٤٥ » »

٣٤٥ » »

٣٤٦ » »

٣٤٧ » »

٣٤٧ » »

٣٤٧ » »

٣٤٨ أدعية شتى

٣٥٢ نواذر وملح لبعض الأعراب

الباب الرابع في خطب النكاح

خطبة قریش فی الجاهلیة	٣٦٠
» النبی صلی الله علیه وسلم فی زواج السیدة فاطمة	٣٦٠
» الامام علیّ کرم الله وجهه	٣٦١
» عتبة بن ابي سفیان	٣٦٢
» شبيب بن شيبه	٣٦٢
» الحسن البصری	٣٦٢
» ابن الفقیر	٣٦٣
» عمر بن عبد العزیز	٣٦٣
» أخرى له	٣٦٣
» بلال	٣٦٤
» خالد بن صفوان	٣٦٤
» أعرابی	٣٦٤
» المأمون	٣٦٥

الباب الخامس

فی خطب من أرتج علیهم ونوادر طریفة لبعض الخطباء	٣٦٦
بدء الخطب وختامها	٣٧٧

